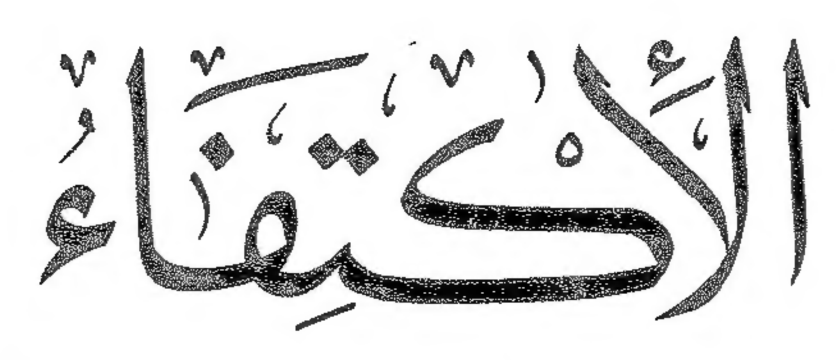


الاكتفاء

بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء

تأليف

أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي

(٥٦٥ - ٦٣٤هـ)

المجلد الثاني - الجزء الأول

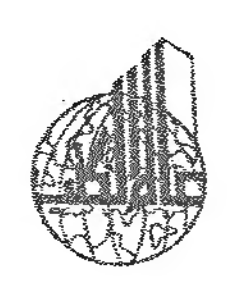
[مغازي الثلاثة الخلفاء]

تحقيق

دكتور محمد كمال الدين عز الدين علي

عالم الكتب

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م



عالم الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

ص.ب: ٨٧٢٣ - ١١، برقياً: نابعلبكي
هاتف: ٨١٩٦٨٤ - ٣١٥١٤٢ - ٦٠٣٢٠٣ (٠١)
خليوي: ٣٨١٨٣١ (٠٣)
فاكس: ٦٠٣٢٠٣ - ١ (٩٦١)

WORLD OF BOOKS
FOR PRINTING, PUBLISHING & DISTRIBUTION
BEIRUT - LEBANON

P.O.BOX : 11- 8723, CABLE : NABAALBAKI
TEL.: 01- 819684/ 315142/ 603203
CELL. 03 - 381831 FAX : 961 - 1 603203


بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وما حفظ عن رسول الله - ﷺ - من الإيماء إليها، والإشارات الدالة عليها، مع ما كان من تقدمه - ﷺ - إلى الإنذار بالفتن الكائنة بعده، وما صدر عنه من الأقاويل المنذرة بالردة

في الصحيح من الآثار، أن رسول الله - ﷺ - لما سمع صوت عمر في صلاته بالناس عندما أمر عليه السلام في مرضه أبا بكر أن يصلي، فلم يوجد حاضراً، قال: يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون.

وفي رواية: يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر.

وعن حذيفة قال: قال رسول الله - ﷺ - اقتدوا باللذين من بعدي، أبي بكر وعمر.

وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه: استخلف أبو بكر، فأقام واستقام.

وقال صعصعة: استخلف الله أبا بكر، فأقام المصحف.

وذكر يعقوب بن محمد الزهري عن شيوخه، قالوا: وذكروا استخلاف أبي بكر بعد رسول الله - ﷺ - ومن قبل ما وصف لهم صفة من يلي بعده، حتى كاد يقول: خليفتي أبو بكر[1].

وحدث جبير بن مطعم أن امرأة أتت النبي - ﷺ - تكلمه في شيء، فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: يا رسول الله، إن جئت فلم أجدك - تعني الموت - قال: فأتي أبا بكر.

وعن جابر بن عبد الله[2] أن رسول الله - ﷺ - قال: رأى الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيط برسول الله - ﷺ - ونيط عمر بأبي بكر، ونيط عثمان بعمر،

(١) ابن حبيش. كتاب الغزوات ج ١ ص ٢٠.

(٢) نفسه.

قال جابر: فلما قمنا من عند رسول الله - ﷺ - قلنا: أما الرجل الصالح فرسول الله، وأما ما ذكر من نوط بعضهم ببعض، فهم ولاة هذا الأمر الذي بعث الله به نبيه.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ: بينا أنا نائم، رأيتني على قليب عليها دلو، فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوبا أو ذنوبين، وفي نزعه - والله يغفر له - ضعف، ثم استحالت غربا، فأخذها ابن الخطاب، فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر بن الخطاب، حتى ضرب الناس بعطن[1].

وفي رواية: فأروى الظمئة، وضرب الناس بعطن.

وقد أخبر رسول الله - ﷺ - بردة المرتدين من بعده، فحدث أبو سعيد الخدري، قال: قال رسول الله - ﷺ: بينا أنا نائم، رأيت في يدي سوارين من ذهب، فكرهتها، فنفختها فطارا، فأولتها: كذابين يخرجان، مسيلمة والعنسي[2].

وعن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله - ﷺ - بين يدي الساعة كذابون، منهم صاحب اليمامة - يعني مسيلمة - وصاحب خيبر - يعني طليحة - ومنهم العنسي - يعني الأسود - ومنهم الدجال، وهو أعظمهم فتنة[3].

وعن عبدالله بن حوالة قال: قال رسول الله - ﷺ: ثلاث من نجا منهن فقد نجا: من موتي، ومن قتل خليفة مصطبر بالحق يعطيه، ومن الدجال[4].

وقال رسول الله - ﷺ - لعبدة بن مسهر الحارثي فيما يعظه به لما قدم عليه: وإن أدركتك الردة فلا تتبعن كندة[5].

ودعا أيضاً لجرير بن عبدالله لما وفد عليه، فقال: اللهم اشرح صدره للإسلام، ولا تجعله من أهل الردة[6].

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٠ - ٢١.

(٢) نفسه ج ١ ص ١٩.

(٣) نفسه ج ١ ص ١٩ - ٢٠.

(٤) نفسه ج ١ ص ١٥.

(٥) نفسه.

(٦) نفسه ج ١ ص ١٦.

ولما أسر المسلمون يوم بدر سهيل بن عَمرو العامري، سأل عمر بن الخطاب رسول الله ـ ﷺ ـ أن ينزع ثنيتيه السفلاوين، وكان أعلم الشفة السفلى، قال: فإنه خطيب ليقوم عليك خطيباً بمكة، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لعمر: عسى أن يقوم مقاماً يسرك، فلما توفي رسول الله ـ ﷺ ـ وانتهى خبر وفاته إلى مكة، تكلم بها قوم كلاماً قبيحاً، ووعى ذلك عليهم، فقام سهيل بن عمرو بخطبة أبي بكر، كأنه كان يسمعها، فقال:

أيها الناس، من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لم يمت، وقد نعى الله ـ عز وجل ـ نبيه ـ ﷺ ـ إليكم وهو بين أظهركم، ونعاكم إلى أنفسكم، فهو الموت حتى لا يبقى أحد، ألم تعلموا أن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ (٣٠: الزمر) وقال: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أَفَإِنْ مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾. الآية (١٤٤: آل عمران)، وقال تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ (١٨٥: آل عمران)، وقال: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ (٨٨: القصص). فاتقوا الله، واعتصموا بدينكم، وتوكلوا على ربكم، فإن دين الله قائم، وكلمته تامة، وإن الله ناصر من نصره، ومعز دينه، ـ جمعكم الله على // خيركم. ١٢١ أ

وفي كلام أكثر من هذا وعظهم به، وذكرهم. وقد كان الناس نفروا وهموا، فنفعهم الله بكلامه، فلم يرتد بمكة أحد، فلما بلغ عمر بن الخطاب مقام سهيل، قال: أشهد أن ما قال رسول الله ـ ﷺ ـ حق، فهو والله هذا المقام[1].

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٦، ٢٦ ـ ٢٧.

ذكر بدء الردة بعد وفاة رسول الله ـ ﷺ ـ وما كان من تأييد الله لخليفة رسوله عليه السلام فيها

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لما توفى رسول الله ـ ﷺ ـ نجم النفاق وارتدت العرب، واشرأبت اليهودية والنصرانية، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية، لفقد نبيهم، حتى جمعهم الله على أبي بكر، فلقد نزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضهـا، فوالله ما اختلفوا فيه من أمر إلا طار أبي بعلائه وغنائه، وكان من رأى ابن الخطاب علم أنه خلق عوناً للإسلام، كان والله أحوذياً [1]، نسيج وحده، قد أعد للأمور أقرانها [2].

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة، قال: لما توفى رسول الله ـ ﷺ ـ واستخلف أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ـ ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه، وحسابه على الله؟ فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ لقاتلتهم على منعه. فقال عمر بن الخطاب: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق [3].

قال عمر بن الخطاب: والله لرجح إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة جميعاً في قتال أهل الردة.

---

(١) أي الحاذق المشمر للأمور الصامد لها والسريع في كل ما أخذته.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٨.

(٣) البخاري. الصحيح ج ٢ ص ٣١ (باب وجوب الزكاة)، مسلم. الجامع الصحيح ج ١ ص ٢٩ ـ ٣٠ (باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله)، ابن حبيش. كتاب الغزوات ج ١ ص ١٧.

وذكر يعقوب بن محمد الزهري عن جماعة من شيوخه، قالوا: فكان أبو بكر أمير الشاكرين الذين ثبتوا على دينهم، وأمير الصابرين الذين صبروا على جهاد عدوهم، أهل الردة بعد وفاة رسول الله ـ ﷺ[1].

وبرأي أبي بكر أجمعوا على قتالهم، وذلك أن العرب افترقت في ردتها، فقالت فرقة: لو كان نبياً ما مات، وقال بعضهم: انقضت النبوة بموته، فلا نطيع أحداً بعده، وفي ذلك يقول قائلهم[2]:

أطعنا رسول الله ما عاش بيننا ... فيالعباد الله ما لأبي بكر

أيورثها بكراً إذا مات بعده ... فتلك وبيت الله قاصمة الظهر

(الطويل)

وقال بعضهم: نؤمن بالله[3]، ونشهد أن محمداً رسول الله، ونصلي، ولكن لا نعطيكم أموالنا.

فأبى أبو بكر إلا قتالهم على حسب ما تقدم ذكره[4].

وجادل أبو بكر الصحابة في جهادهم، وكان من أشدهم عليه عمر وأبو عبيدة بن الجراح، وسالم مولى أبي حذيفة. وقالوا له: احبس جيش أسامة بن زيد، فيكون عمارة وأمانة بالمدينة، وارفق بالعرب حتى ينفرج هذا الأمر، فإن هذا الأمر شديد غوره وتهتكه من غير وجهه، فلو أن طائفة من العرب ارتدت قلنا: قاتل بمن معك ممن ثبت من ارتد، وقد أتفقت[5] العرب على الارتداد، فهم بين مرتد، ومانع صدقة، فهو مثل المرتد، وبين واقف ينظر ما تصنع أنت وعدوك، قد قدم رجلاً وأخر رجلا[6].

---

(١) ابن حبيش. كتاب الغزوات ج ١ ص ٢١.

(٢) هو الخطيل بن أوس أخو الحطيئة الشاعر المشهور.

(٣) في الأصل: «وقال بعضهم نؤمن بالله، وقال بعضهم نؤمن بالله».

(٤) ابن حبيش. كتاب الغزوات ج ١ ص ٢١ ـ ٢٢.

(٥) في الأصل: أصفقت.

(٦) ابن حبيش. كتاب الغزوات ج ١ ص ٢٢.

وفي كتاب الواقدي من قول عمر لأبي بكر: وإنما شحت العرب على أموالها، وأنت لا تصنع بتفريق العرب عنك شيئاً، فلو تركت للناس صدقة هذه السنة.

وقدم على أبي بكر عُيينة بن حصن [الفزارى]، والأقرع بن حابس، في رجال من أشراف العرب، فدخلوا على رجال من المهاجرين، فقالوا: إنه قد ارتد عامة من وراءنا عن الإسلام، وليس في أنفسهم أن يؤدوا إليكم من أموالهم ما كانوا يؤدون إلى رسول الله - ﷺ - فإن تجعلوا لنا جعلاً نرجع فنكفيكم من وراءنا؛ فدخل المهاجرون والأنصار على أبي بكر، فعرضوا عليه الذي عرضوا عليهم، وقالوا: نرى أن تطعم الأقرع وعيينة طعمة يرضيان بها ويكفيانك من وراءهما، حتى يرجع إليك أسامة وجيشه، ويشتد أمرك، فإنا اليوم قليل في كثير، ولا طاقة لنا بقتال العرب. قال أبو بكر: هل ترون غير ذلك؟ قالوا: لا؛ قال أبو بكر: إنكم قد علمتم أنه كان من عهد رسول الله - ﷺ - إليكم المشورة فيما لم يمض فيه أمر من نبيكم ولا نزل به الكتاب عليكم، وأن الله لن يجمعكم على ضلالة، وإني سأشير عليكم، فإنما أنا رجل منكم، تنظرون فيما أشير به عليكم وفيما أشرتم به، فتجتمعون على أرشد ذلك، فإن الله يوفقكم، وأما أنا فأرى أن ننبذ إلى عدونا، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وأن لا نرشو على الإسلام أحداً، وأن نتأسى برسول الله - ﷺ - فنجاهد عدوه كما جاهدهم، والله لو منعوني عقالاً لرأيت أن أجاهدهم عليه حتى آخذه، فأتمروا يرشدكم الله، فهذا رأيي؛ وأما قدوم عيينة وأصحابه إليكم، فهذا أمر لم يغب عنه عيينة، هو راضه ثم جاء له ولو رأوا ذباب السيف لعادوا إلى ما خرجوا منه أو أفناهم السيف فإلى النار، قتلناهم على حق منعوه وكفر. فبان للناس وجه أمرهم، وقالوا لأبي بكر لما سمعوا رأيه: أنت أفضلنا رأيا، ورأينا لرأيك تبع(١).

فأمر أبو بكر الناس بالتجهز، وأجمع على المسير بنفسه لقتال أهل الردة.

وكانت أسد وغطفان من أهل الضاحية قد ارتدت، ولم ترتد عبس ولا

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٣ - ٢٥.

بعض أشجع، وارتدت عامة بني تميم وطوائف من بني سليم: عصيّة وعميرة وخفاف، وبنو عوف بن امرىء القيس، وذكوان، وبنو جارية، وارتد أهل اليمامة كلهم وأهل البحرين، وبكر بن وائل، وأهل دبي من أزد عمان، والنمر بن قاسط، وكلب، ومن قاربهم من قضاعة، وعامة بن عامر بن صعصعة، وفيهم علقمة بن علاثة، وقيل: إنها تربصت مع قادتها وسادتها ينظرون لمن تكون الدبرة، وقدموا رجلاً وأخروا أخرى، // وارتدت فزارة، وجمعها عيينة بن حصن، وتمسك بالإسلام من بين المسجدين، وأسلم وغفار وجهينة ومزينة وكعب وثقيف، قام فيهم عثمان بن أبي العاص في بني مالك، وقام في الأحلاف رجل منهم، فقال: يا معشر ثقيف، نشدتكم الله أن تكونوا أول العرب ارتداداً وآخرهم إسلاماً؛ وأقامت طيء كلها على الإسلام، وهذيل، وأهل السراة وبجيلة وخثعم ومن قارب تهامة من هوازن نصر وجُشم وسعد بن بكر وعبد القيس، قام فيهم الجارود فثبتوا على الإسلام، وارتدت كندة وحضرموت وعنس.

١٢١ ب

وقال أبو هريرة: لم يرجع رجل واحد من دوس ولا من أهل السراة كلها.

وقال أبو مرزوق التجيبي: لم يرجع رجل واحد من تجيب ولا من همدان، ولا من الأبناء بصنعاء، ولقد جاء الأبناء وفاة رسول الله - ﷺ - فشق نساؤهم الجيوب وضربن الخدود، وفيهم[1] المرزبانة، فشقت درعها من بين يديها ومن خلفها[2].

وقد كان رسول الله - ﷺ - لما صدر من الحج سنة عشر، وقدم المدينة فأقام حتى رأى هلال المحرم سنة إحدى عشرة، وبعث المصدقين في العرب، فبعث على عجز هوازن عكرمة بن أبي جهل، وبعث حامية بن سبيع الأسدي على صدقات قومه، وعلى بني كلاب الضحاك ابن سفيان، وعلى أسد وطيء عدي بن حاتم، وعلي بني يربوع مالك بن نويرة، وعلي بني دارم وقبائل بني

(١) في الأصل: فيهم.
(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٥ - ٢٦، ٢٧.

حنظلة الأقرع بن حابس، وبعث الزبرقان بن بدر على صدقات قومه، وقيس ابن عاصم المنقري على صدقات قومه.

فلما بلغتهم وفاة رسول الله - ﷺ - اختلفوا، فمنهم من رجع، ومنهم من أدى إلى أبي بكر، وكان الذين حبسوا صدقات قومهم وفرقوها بين قومهم مالك بن نويرة، وقيس بن عاصم، والأقرع بن حابس التميمي، وأما بنو كلاب فتربصوا، ولم يمنعوا منعا بينا، ولم يعطوا، كانوا بين ذلك[1].

وبعث رسول الله - ﷺ - على فزارة نوفل بن معاوية الديلي، فلقيه خارجة ابن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري بالشربة، فقال: أما ترضى أن تغنم نفسك؟ فرجع نوفل بن معاوية هارباً حتى قدم على أبي بكر الصديق بسوطه، وقد كان جمع فرائض فأخذها منه خارجة، فردها على أربابها. وكذلك فعلت سليم بعرباض بن سارية، وقد كان رسول الله - ﷺ - بعثه على صدقاتهم، فلما بلغتهم وفاة النبي - ﷺ - أبوا أن يعطوه شيئاً، وأخذوا منه ما كان جمع، فانصرف من عندهم بسوطه، وأما أسلم وغفار ومزينة وجهينة، وكان رسول الله - ﷺ - بعث إليهم كعب بن مالك الأنصاري، فسلموا إليه صدقاتهم، لما بلغتهم وفاته، وتأدت إلى أبي بكر، فاستعان بها في قتال أهل الردة، وكذلك فعل بنو كعب مع أمير صدقاتهم بشر بن سفيان الكعبي، وأشجع مع مسعود بن رحيلة الأشجعي، فقدم بذلك كله على أبي بكر.

وكان عدي بن حاتم قد حبس إبل الصدقة، يريد أن يبعث بها إلى أبي بكر إذا وجد فرجة، والزبرقان بن بدر مثل ذلك، فجعل قومها يكلمونها فيأبيان، وكانا أحزم رأيا وأفضل في الإسلام رغبة ممن كان فرق الصدقة في قومه، فقالا لقومها: لا تعجلوا، فإنه إن قام بهذا الأمر قائم ألفاكم لم تفرقوا الصدقة، وإن كان الذي تظنون، فلعمري إن أموالكم لبأيديكم، فلا يغلبنكم عليها أحد، فسكتوهم حتى أتاهم يقين خبر القوم، فلما اجتمع الناس على أبي بكر جاءهم

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ٣٣ - ٣٤.

أنه قد قطع البعوث، وسار بعث أسامة بن زيد إلى الشام، وأبو بكر يخرج إليهم، فكان عدي بن حاتم يأمر ابنه أن يسرح مع نعم الصدقة، فإذا كان المساء روحها، وإنه جاء بها ليلة عشاء، فضربه، وقال: ألا عجلت بها؟ ثم راح بها الليلة الثانية فوق ذلك قليلاً، فجعل يضربه، وجعلوا يكلمونه فيه، فلما كان اليوم الثالث قال: يا بني إذا سرحتها فصح في أدبارها وأم بها المدينة، فإن لقيك لاق من قومك أو من غيرهم فقل أريد الكلأ، تعذر علينا ما حولنا، فلما أن جاء الوقت الذي كان يروح فيه، لم يأت الغلام، فجعل أبوه يتوقعه ويقول لأصحابه: العجب لحبس ابني، فيقول بعضهم: نخرج يا أبا طريف فنتبعه، فيقول: لا والله؛ فلما أصبح تهيأ ليغدو، فقال قومه: نغدو معك، فقال: لا يغدو معي منكم أحد، إنكم إن رأيتموه حلتم بيني وبين ضربه، وقد عصى أمري كما ترون؛ فخرج على بعير له سريعاً حتى لحق ابنه، ثم حدر النعم إلى المدينة، فلما كان ببطن قناة لقيته خيل لأبي بكر، عليها ابن مسعود، ويقال محمد بن مسلمة وهو أثبت عندنا، فلما نظروا إليه ابتدروه، وما كان معه، وقالوا له: أين الفوارس الذين كانوا معك؟ قال: ما معي أحد. قالوا: بلى، لقد كان معك فوارس، فلما رأونا تغيبوا. فقال ابن مسعود: خلوا عنه فما كذب ولا كذبتم، جنود الله معه، ولم يرهم. فقدم علي أبي بكر بثلاثمائة بعير، وكانت أول صدقة قدم بها على أبي بكر[1].

وذكر بعض من ألف في الردة: أن الزبرقان بن بدر هو الذي فعل هذا الفعل المنسوب في هذا الحديث إلى عدي بن حاتم، فإما أن يكونا فعلاه معاً توفيقاً من الله لهما، وإما أن يكون هذا مما يعرض في النقل من الاختلاف، والذي ينسب ذلك إلى الزبرقان يقول: إنه قال في ذلك:

لقد علمت قيس وخندف أنني	وفيت إذا ما فارس الغدر ألجما
أتيت التي قد يعلم الله أنها	إذا ذكرت كانت أعف وأكرما

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٣٤ ـ ٣٥.

أنفت لعوف أن يسب أبوهم | إذا اقتسم الناس السوام المقسما
وروحتها من أهل جوفاء صبحت | تدوس بأيديها الحصاد المحرّما
حبوت بها قبر النبي وقد أبى | فلم يجبه ساع من الناس مقسما

(الطويل)

وقال أيضاً:

وفيت بأذواد النبي ابن هاشم | على موطن ضامَ الكريمَ المسوّدا
فأديتها ألفا، ولو شئت ضمّها | رعاءٌ يكون الوشيج المقصدا

(الطويل)

وذكر ابن إسحاق[1] أن عدي بن حاتم كانت عنده إبل عظيمة اجتمعت له من صدقات قومه عندما توفى رسول الله ـ صلى الله // عليه وسلم ـ فلما ارتد من الناس وارتجعوا صدقاتهم، وارتدت بنو أسد وهم جيرانهم، اجتمعت طيء إلى عدي بن حاتم، فقالوا: إن هذا الرجل قد مات، وقد انتقض الناس بعده، وقبض كل قوم ما كان فيهم من صدقاتهم، فنحن أحق بأموالنا من شذاذ[2] الناس، فقال: ألم تعطوا من أنفسكم العهد والميثاق على الوفاء طائعين غير مكرهين؟، قالوا: بلى، ولكن قد حدث ما ترى، وقد تري ما صنع الناس. قال: والذي نفس عدي بيده، لا أخيس بها أبداً، ولو كنت جعلتها لرجل من الزنج، لوفيت له بها، فإن أبيتم لأقاتلنكم ـ يعني على ما في يده وما في أيديهم ـ فليكونن أول قتيل يقتل على وفاء ذمته عدي بن حاتم، أو يسلمها، فلا تطمعوا أن يسب حاتماً في قبره عدي ابنه من بعده، فلا يدعونكم عذر عاذر إلى أن تعذروا، فإن للشيطان قادة عند موت كل نبي، يستخف لها أهل الجهل حتى يحملهم على قلائص الفتنة، وإنما هي عجاجة لا ثبات لها، ولا ثبات فيها، إن لرسول الله ـ ﷺ ـ خليفة من بعده يلي هذا الأمر، وإن لدين الله أقواماً سينهضون ويقومون به بعد رسول الله ـ ﷺ ـ كما قاموا بعهده وذو[3] بيُته في السماء، لئن فعلتم ليقارعنكم على أموالكم ونسائكم بعد قتل عدي وغدركم، فأي قوم أنتم عند ذلك، فلما رأوا منه الجد، كفوا عنه، وسلموا له.

١٢٢ أ

(١) المصدر السابق ج١ ص٣٦ ـ ٣٨.
(٢) في الأصل: شذان.
(٣) (ذو) عند الطائيين بمعنى (الذي) وهو مقسم به والواو للقسم.

ويروى أن مما قال له قومه: أمسك ما في يدك، فإنك إن تفعل تسد الحليفين ـ يعنون طيئاً وأسداً.

فقال: ما كنت لأفعل حتى أدفعها إلى أبي بكر، فجاء بها حتى دفعها إليه، فلما كان زمن عمر بن الخطاب، رأى من عمر ـ رحمه الله ـ جفوة، فقال له عدي: ما أراك تعرفني؟ قال عمر: بلى، والله، والله يعرفك من السماء، أعرفك والله: أسلمت إذ كفروا، ووفيت إذ غدروا، وأقبلت إذ أدبروا، بلى، وأيم[1] الله أعرفك.

وقدم أيضاً الزبرقان بن بدر بصدقات قومه على أبي بكر، فلم يزل لعدي والزبرقان بذلك شرف وفضل على من سواهما.

وأعطى أبو بكر عدياً ثلاثين بعيراً من إبل الصدقة، وذلك أن عدياً لما قدم على رسول الله ـ ﷺ ـ نصرانياً فأسلم وأراد الرجوع إلى بلاده أرسل إليه رسول الله ـ ﷺ ـ يعتذر من الزاد، ويقول: والله، ما أصبح عند آل محمد شقة من الطعام، ولكن ترجع ويكون خير، فلذلك أعطاه أبو بكر تلك الفرائض.

ولما كان من العرب ما كان من التوائهم عن الدين ومنع من منع منهم الصدقة جد بأبي بكر الجد في قتالهم، وأراه الله رشده فيهم، وعزم على الخروج بنفسه إليهم، وأمر الناس بالجهاز، وخرج هو في مائة من المهاجرين، وقيل: في مائة من المهاجرين والأنصار، وخالد بن الوليد يحمل اللواء، حتى نزل بقعاء، وهو ذو القصة، يريد أبو بكر أن يتلاحق الناس من خلفه، ويكون أسرع لخروجهم، ووكل بالناس محمد بن مسلمة يستحثهم، فانتهى إلى بقعاء عند غروب الشمس، فصلى بها المغرب، وأمر بنار عظيمة فأوقدت، وأقبل خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر ـ وكان ممن ارتد ـ في خيل من قومه إلى المدينة يريد أن يخذل الناس عن الخروج، أو يصيب غرة فيغير، فأغار على أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ومن معه، وهم غافلون، فاقتتلوا شيئاً من قتال، وتحيز المسلمون، ولاذ أبو بكر

---

(١) في الأصل: هايم الله بمعنى وأيم الله.

بشجرة، وكره أن يعرف، فأوفى طلحة بن عبيد الله على شرف فصاح بأعلى صوته لا بأس، هذه الخيل قد جاءتكم، فتراجع الناس، وجاءت الأمداد، وتلاحق المسلمون، فانكشف خارجة بن حصن وأصحابه، وتبعه طلحة بن عبيد الله فيمن خف معه، فلحقوه في أسفل ثنايا عوسجة، وهو هارب لا يألو فيدرك أخريات أصحابه، فحمل طلحة على رجل بالرمح فدق ظهره، ووقع ميتاً، وهرب من بقي، ورجع طلحة إلى أبي بكر، فأخبره أن قد ولوا منهزمين هاربين، وأقام أبو بكر ببقعاء أياماً ينتظر الناس، وبعث إلى من كان حوله من أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وكعب يأمرهم بجهاد أهل الردة، والخفوف إليهم، فتحلب الناس إليهم من هذه النواحي، حتى شحنت منهم المدينة[1].

قال سبرة الجهني: قدمنا معشر جهينة أربعمائة معنا الظهر والخيل، وساق عمرو بن مسرة الجهني مائة بعير عوناً للمسلمين، فوزعها أبو بكر في الناس، وجعل عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب يكلمان أبا بكر في الرجوع إلى المدينة لما رأيا عزمه على المسير بنفسه، وقد توافى المسلمون وحشدوا، فلم يبق أحد من أصحاب النبي - ﷺ - من المهاجرين والأنصار من أهل بدر إلا خرج، وقال عمر: ارجع يا خليفة رسول الله ﷺ - تكن للمسلمين فئة ورداً، فإنك إن تقتل يرتد الناس ويعل الباطل الحق، وأبو بكر مظهر المسير بنفسه، وسألهم بمن نبدأ من أهل الردة، فاختلفوا عليه، فقال أبو بكر: نصمد لهذا الكذاب على الله وعلى كتابه، طليحة.

ولما ألحوا على أبي بكر في الرجوع، وعزم هو عليه، أراد أن يستخلف على الناس، فدعا زيد بن الخطاب لذلك، فقال: يا خليفة رسول الله، قد كنت أرجو أن أرزق الشهادة مع رسول الله - ﷺ - فلم أرزقها، وأنا أرجو أن أرزقها في هذا الوجه، وإن أمير الجيش لا ينبغي أن يباشر القتال بنفسه، فدعا أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة، فعرض عليه ذلك، فقال مثل ما قال زيد، فدعا سالماً

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٩ - ٣١.

مولى أبي حذيفة ليستعمله، فأبى عليه، فدعا أبو بكر خالد بن الوليد فأمره على الناس، وقال لهم وقد توافى المسلمون قبله، وبعث مقدمته أمام الجيش:

أيها الناس، سيروا على اسم الله ـ تعالى ـ وبركته، فأميركم خالد بن الوليد، إلى أن ألقاكم، فإني خارج فيمن معي إلى ناحية خيبر حتى ألاقيكم.

ويروى أنه قال للجيش:

سيروا، فإن لقيتكم بعد غد فالأمر إلي، وأنا أميركم، وإلا فخالد بن الوليد عليكم، فاسمعوا له وأطيعوا.

وإنما قال ذلك أبو بكر لأن تذهب كلمته في الناس، وتهاب العرب خروجه، ثم خلا بخالد بن الوليد، فقال:

يا خالد، عليك بتقوى الله، وإيثاره على من سواه، والجهاد في سبيله، فقد وليتك على من ترى من أهل بدر من المهاجرين والأنصار.

فسار خالد، ورجع أبو بكر وعمر وعلي // وطلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف وسعد بن أبي وقاص في نفر من المهاجرين والأنصار من أهل بدر ـ رضي الله عن جميعهم ـ إلى المدينة.

١٢٢ ب

وصية أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ خالد بن الوليد حين بعثه في هذا الوجه

قال حنظلة بن علي الأسلمي: بعث أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ خالد بن الوليد إلى أهل الردة، وأمره أن يقاتلهم على خمس خصال، فمن ترك واحدة من الخمس قاتله: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام شهر رمضان. زاد زيد بن أسلم: وحج البيت، وقال: كن ستا.

وعن نافع بن جبران أن أبا بكر حين بعث خالد بن الوليد عهد إليه، وكتب معه هذا الكتاب[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد به أبو بكر، خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ إلى خالد بن الوليد، حين بعثه فيمن بعثه من المهاجرين والأنصار، ومن معهم من غيرهم لقتال من رجع عن الإسلام بعد رسول الله ـ ﷺ ـ عهد إليه وأمره أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله، علانيته وسره، وأمره بالجد في أمر الله والمجاهدة لمن تولى عنه إلى غيره ورجع عن الإسلام إلى ضلالة الجاهلية وأماني الشيطان، وعهد إليه وأمره أن لا يقاتل قوماً حتى يعذر إليهم ويدعوهم إلى الإسلام، ويبين لهم الذي لهم في الإسلام والذي عليهم فيه، ويحرص على هداهم، فمن أجابه إلى ما دعاه إليه من الناس كلهم ـ أحمرهم وأسودهم ـ قبل منه، وليعذر إلى من دعاه بالمعروف وبالسيف، فإنما يقاتل من كفر بالله على الإيمان بالله، فإذا أجاب المدعو إلى الإيمان، وصدق إيمانه، لم يكن عليه سبيل، وكان الله حسيبه بعد في عمله، ومن لم يجبه إلى ما دعا إليه من دعائه الإسلام، ممن رجع عن الإسلام بعد وفاة رسول الله ـ ﷺ ـ أن يقاتل أولئك بمن معه من

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٤١ ـ ٤٤.

المهاجرين والأنصار، حيث كانوا، وحيث بلغ مراغمه، ثم يقتل من قدر عليه من أولئك، ولا يقبل من أحد شيئاً دعاه إليه ولا أعطاه إياه إلا الإسلام والدخول فيه والصبر به وعليه وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأمره أن يمضي بمن معه من المسلمين حتى يقدم اليمامة فيبدأ ببني حنيفة ومسيلمتهم الكذاب، فيدعوهم ويدعوه إلى الإسلام، وينصح لهم في الدين، ويحرص على هداهم، فإن أجابوا إلى ما دعاهم إليه من دعاية الإسلام قبل منهم، وكتب بذلك إلي، وأقام بين أظهرهم حتى يأتيه أمري، وإن هم لم يجيبوا ولم يرجعوا عن كفرهم واتباع كذابهم على كذبه على الله ـ عز وجل ـ قاتلهم أشد القتال بنفسه وبمن معه، فإن الله ناصر دينه ومظهره على الدين كله، كما قضى في كتابه ولو كره الكافرون، فإن أظهره الله عليهم إن شاء الله وأمكنه منهم فليقتلهم بالسلاح، وليحرقهم بالنار، ولا يستبق منهم أحداً قدر على أن يستبقيه، وليقسم أموالهم وما أفاء الله عليه وعلى المسلمين إلا خمسه، فليرسل به إلى أضعه حيث أمر الله به أن يوضع إن شاء الله، وعهد إليه أن لا يكون في أصحابه فشل من رأيهم ولا عجلة عن الحق إلى غيره، ولا يدخل فيهم حشو من الناس حتى يعرفهم ويعرف بمن هم، وعلام اتبعوه وقاتلوا معه، فإني أخشى أن يدخل معكم ناس يتعوذون بكم ليسوا منكم ولا على دينكم، فيكونون عيوناً عليكم، ويتحفظون من الناس بمكانهم معكم، وأنا أخشى أن يكون ذلك في الأعراب وجفاتهم، فلا يكونن من أولئك في أصحابك أحد إن شاء الله تعالى، وارفق بالمسلمين في سيرهم ومنازلهم، وتفقدهم، ولا تعجل بعض الناس عن بعض في المسير ولا في الارتحال من مكان، واستوص بمن معك من الأنصار خيراً في حسن صحبتهم، ولين القول لهم، فإن فيهم ضيقا ومرارة وزعارة، ولهم حق وفضيلة وسابقة ووصية من رسول الله ـ ﷺ ـ فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

ويروى أن أبا بكر ـ رحمه الله ـ كتب مع هدا الكتاب كتاباً آخر إلى عامة الناس، وأمر خالداً أن يقرأه عليهم في كل مجمع، وهو:

بسم الله الرحمن الرحيم. من أبي بكر خليفة رسول الله إلى من بلغه كتابي هذا من عامة أو خاصة، تاماً على إسلامه أو راجعاً عنه، سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، الهادي غير المضل، أرسله بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً، لينذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين، فهدى الله بالحق من أجاب إليه، وضرب بالحق من أدبر عنه حتى صاروا إلى الإسلام طوعاً وكرهاً، ثم أدرك رسول الله - ﷺ - عند ذلك أجله الذي قضى الله عليه وعلى المؤمنين، فتوفاه الله، وقد كان بين له ذلك ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزل عليه، فقال له: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ (٣٠: الزمر)، وقال: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد، أفإن مت فهم الخالدون، كل نفس ذائقة الموت، ونبلوكم بالشر والخير فتنة، وإلينا ترجعون﴾ (٣٤ - ٣٥: الأنبياء)، وقال للمؤمنين: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين﴾ (١٤٤ : آل عمران)، فمن كان إنما يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، صلوات الله عليه، ومن كان إنما يعبد الله وحده لا شريك له، فإن الله بالمرصاد، حي قيوم لا يموت، ولا تأخذه سنة ولا نوم، حافظ لأمره، منتقم من عدوه، وإني أوصيكم أيها الناس بتقوى الله، وأحضكم على حظكم ونصيبكم من الله وما جاءكم به نبيكم محمد - ﷺ - وأن تهتدوا بهدى الله، وتعتصموا بدين الله، فإن كل من لم يحفظه الله ضائع، وكل من لم يصدقه الله كاذب، وكل من لم يسعده الله شقي، وكل من لم يرزقه الله محروم، وكل من لم ينصره الله مخذول، فاهتدوا بهدى الله ربكم وما جاءكم به نبيكم محمد - ﷺ - فإنه ﴿من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل / فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ (١٧ : الكهف)، وإنه قد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به، اغتراراً بالله وجهالة بأمر الله، وطاعة للشيطان، و﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ (٦ :

١٢٣ أ

فاطر)، وإني قد بعثت خالد بن الوليد في جيش من المهاجرين الأولين من قريش والأنصار وغيرهم، وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن دخل في دين الله وتاب إلى الله ورجع عن معصية الله إلى ما كان يقر به من دين الله وعمل صالحاً قبل ذلك منه، وأعانه عليه، ومن أبى أن يرجع إلى الإسلام بعد أن يدعوه بداعية الله ويعذر إليه بعاذرة الله، أن يقاتل من قاتله على ذلك أشد القتال بنفسه ومن معه من أنصار دين الله وأعوانه، ثم لا يبقى على أحد بعد أن يعذر إليه، وأن يحرقهم بالنار، ويسبى الذراري والنساء، وأمرته أن لا يقبل من أحد شيئاً إلا الرجوع إلى دين الله، وشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله ـ ﷺ ـ وقد أمرته أن يقرأ على الناس كتابي إليهم في كل مجمع وجماعة، فمن اتبعه فهو خير له، ومن تركه فهو شر له.

وعن عروة بن الزبير، قال: جعل أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يوصي خالد بن الوليد ويقول:

يا خالد، عليك بتقوى الله، والرفق بمن معك من رعيتك، فإن معك أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ أهل السابقة من المهاجرين والأنصار، فشاورهم فيما نزل بك، ثم لا تخالفهم، وقدم أمامك الطلائع ترتاد لك المنازل، وسر في أصحابك على تعبئة جيدة، فإذا لقيت أسداً وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك، وبعضهم لا عليك ولا لك، متربص دائرة السوء، ينظر لمن تكون الدبرة، فيميل مع من تكون له الغلبة، ولكن الخوف عندي من أهل اليمامة، فاستعن بالله على قتالهم، فإنه بلغني أنهم رجعوا بأسرهم، وإن كفاك الله الضاحية فامض إلى أهل اليمامة، فإنك تلقى عدواً كلهم عليك، لهم بلاد منكرة، فلا تؤتي إلا من مفازة، فارفق بجيشك في تلك المفازة، فإن في جيشك قوماً أهل ضعف، أرجو أن تنصر بهم حتى تدخل بلادهم هم إن شاء الله تعالى. فإذا دخلت بلادهم فالحذر الحذر إذا لقيت القوم فقاتلهم بالسلاح الذي يقاتلونك به، السهم للسهم، والرمح للرمح، والسيف للسيف، فإن أعطاك الله الظفر عليهم، فأقل

البقيا عليهم إن شاء الله تعالى، وإياك أن تلقاني غدا بما يضيق صدري به منك، اسمع عهدي ووصيتي، لا تغيرن على دار سمعت فيها أذانا حتى تعلم ما هم عليه، وإياك وقتل من صلى، واعلم يا خالد أن الله يعلم من سريرتك ما يعلم من علانيتك، واعلم أن رعيتك إنما تعمل بما تراك تعمل، كف عليك أطرافك، وتعاهد جيشك، وانههم عما لا يصلح لهم، فإنما تقاتلون من تقاتلون بأعمالكم، وبهذا نرجو لكم النصر على أعدائكم، سر على بركة الله تعالى[1].

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٤٤ - ٤٦.

ذكر مسير خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ إلى بزاخة وغيرها

قالوا[1]: وسار خالد بن الوليد ومعه عدي بن حاتم، وقد انضم إليه من طيء ألف رجل، فنزل بزاخة، وكانت جديلة معرضة عن الإسلام، وهي بطن من طيء، وكان عدي بن حاتم من الغوث، وقد همت جديلة أن ترتد، فجاءهم مكنف بن زيد الخيل الطائي، فقال: أتريدون أن تكونوا سبة على قومكم، لم يرجع رجل واحد من طيء، وهذا أبو طريف ـ عدي بن حاتم ـ معه ألف رجل من طيء، فكسرهم، فلما نزل خالد بزاخة، قال لعدي: يا أبا طريف، ألا نسير إلى جديلة؟ فقال: يا أبا سليمان، لا تفعل، أقاتل معك بيدين أحب إليك، أم بيد واحدة؟ فقال خالد: بل بيدين، قال عدي: فإن جديلة إحدى يدي، فكف خالد عنهم، فجاءهم عدي فدعاهم إلى الإسلام، فأسلموا، فحمد الله وسار بهم إلى خالد، فلما رآهم خالد فزع منهم، وظن أنهم أتوا للقتال، فصاح في أصحابه بالسلاح، فقيل له: إنما هي جديلة أتت تقاتل معك، فلما جاءوا حلوا ناحية، وجاءهم خالد، فرحب بهم، وفرح بهم، واعتذروا إليه من اعتزالهم، وقالوا: نحن لك حيث أحببت، فجزاهم خيراً، فلم يرتد من طيء رجل واحد، فسار خالد على تعبئته، وطلب إليه عدي أن يجعل قومه مقدمة أصحابه، فقال: يا أبا طريف، إن الأمر قد اقترب، وأنا أخاف أن أقدم قومك، فإذا ألحمهم القتال انكشفوا، فانكشف من معنا، ولكن دعني أقدم قوماً صبرا، لهم سوابق ونيات، وهم من قومك. قال عدي: الرأي ما رأيت، فقدم المهاجرين والأنصار، ولم يزل خالد يقدم طليعته منذ خرج من بقعاء حتى قدم اليمامة، وأمر عيونه أن يختبروا كل من مروا به عند مواقيت الصلاة بالأذان لها، فيكون ذلك أمانا لهم، ودليلاً على إسلامهم، وانتهى خالد والمسلمون إلى عسكر طليحة، وقد ضربت لطليحة قبة من أدم، وأصحابه حوله معسكرون، فانتهى خالد نمسيا، فضرب عسكره

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٤٦ ـ ٤٩.

على ميل أو نحوه من عسكر طليحة، وخرج يسير على فرس معه نفر من أصحاب النبي - ﷺ - فوقف من عسكر طليحة غير بعيد، ثم قال: يخرج إلى طليحة، فقال أصحابه: لا تصغر اسم نبينا، وهو طلحة. فخرج طليحة فوقف، فقال له خالد: إن من عهد خليفتنا إلينا أن ندعوك إلى الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن تعود إلى ما خرجت منه، فنقبل منك، ونغمد سيوفنا عنك، فقال: يا خالد، أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأني نبي مرسل يأتيني ذو النون، كما كان جبريل يأتي محمداً، وقد كان ادعى هذا في عهد النبي - ﷺ - فقال النبي - ﷺ: لقد ذكر ملكاً عظيماً في السماء يقال له: ذو النون، وكان عيينة بن حصن قد قال له: لا أبا لك، هل أنت مرينا بعض نبوتك، فقد رأيت ورأينا ما كان يأتي محمداً، قال: نعم، فبعث ١٢٣ ب // عيوناً له حيث سار خالد بن الوليد من المدينة مقبلاً إليهم قبل أن يسمع بذكر خالد، وقال: إن بعثتم فارسين على فرسين أغرين محجلين من بني نصر بن قعين أتوكم من القوم بعين، فهيؤا فارسين، فبعثوهما، فخرجا يركضان، فلقيا عيناً لخالد بن الوليد، فقالا: ما وراءك؟ فقال: هذا خالد بن الوليد في المسلمين، قد أقبلوا، فأتوا به إليه، فزادهم فتنة، وقال: ألم أقل لكم؟

فلما أبى طليحة على خالد أن يقر بما دعاه إليه انصرف خالد إلى معسكره، فاستعمل تلك الليلة على حرسه مكنف بن زيد الخيل، وعدي بن حاتم، وكان لهما صدق نية ودين، فباتا يحرسان في جماعة من المسلمين، فلما كان في السحر، نهض خالد فعبأ أصحابه، ووضع ألويته مواضعها، ودفع اللواء الأعظم إلى زيد ابن الخطاب، فتقدم به، وتقدم ثابت بن قيس بن شماس بلواء الأنصار، وطلبت طيء لواء يعقد لها، فعقد خالد لواء ودفعه إلى عدي بن حاتم، فلما سمع طليحة حركة القوم عبأ أصحابه، وجعل خالد يسوي الصفوف على رجليه، وطليحة يسوي أصحابه على راحلته، حتى إذا استوت الصفوف زحف بهم خالد حتى دنا من طليحة، فلما انتهى إليه، خرج إليه طليحة بأربعين غلاماً جلداء من جنوده، مرداً، فأقامهم في الميمنة، فقال: اضربوا حتى تأتوا الميسرة، فتضعضع

الناس ولم يقتل أحد، ثم أقامهم في الميسرة ففعلوا مثل ذلك، وانهزم المسلمون، فقال رجل من هوازن ـ حضرهم يومئذ: أن خالداً لما كان ذلك قال: يا معشر الأنصار، الله الله، واقتحم وسط القوم، وكر عليه أصحابه، فاختلطت الصفوف، واختلفت السيوف بينهم، وضرس خالد في القتال، فجعل يقحم فرسه ويقولون له: الله الله، فإنك أمير القوم، ولا ينبغي لك أن تقدم، فيقول: والله إني لأعرف ما تقولون، ولكني والله ما رأيتني أصبر، وأخاف هزيمة المسلمين[1].

وفيما ذكر الكلبي عن بعض الطائيين: أنه نادى مناد من طيء ـ يعني عندما حمل أولئك الأربعون غلاماً على المسلمين: يا خالد، عليك سلمى وأجأ فقال: بل إلى الله الملجأ، قال: ثم حمل، فوالله ما رجع حتى لم يبق من أولئك الأربعين رجل واحد، وقاتل خالد يومئذ بسيفين، حتى قطعهما، وتراد الناس بعد الهزيمة، واشتد القتال، وأسر حبال بن أبي حبال، فأرادوا أن يبعثوا به إلى أبي بكر، فقال: اضربوا عنقي ولا تروني محمديكم هذا، فضربوا عنقه[2].

وذكر الواقدي عن ابن عمر قال: نظرت إلى راية طليحة يومئذ، حمراء يحملها رجل منهم لا يزول بها فتراً، فنظرت إلى خالد أتاه فحمل عليه فقتله، فكانت هزيمتهم، فنظرت إلى الراية تطؤها الإبل والخيل والرجال حتى تقطعت[3].

وعنه، قال: يرحم الله خالد بن الوليد، لقد كان له غناء وجرأة، ولقد رأيته يوم طليحة يباشر الحرب بنفسه حتى ليم في ذلك، ولقد رأيته يوم اليمامة يقاتل أشد القتال، إن كان مكانه ليتقي حتى يطلع إلينا منبهراً[4].

ولما تراجع المسلمون، وضرس القتال، تزمل طليحة بكساء له ينتظر، زعم أن ينزل عليه الوحي، فلما طال ذلك على أصحابه وهدتهم الحرب، جعل عيينة بن حصن يقاتل ويذمر الناس[5].

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٥٠ ـ ٥١.
(٢) نفسه ج ١ ص ٥٢.
(٣) نفسه.
(٤) نفسه.
(٥) نفسه ج ١ ص ٥٤.

قال ابن إسحاق: قاتل يومئذ في سبعمائة من فزارة قتالا شديداً، حتى إذا لج المسلمون عليهم بالسيف وقد صبروا لهم، أتى طليحة وهو متلثم في كسائه، فقال[1]: لا أبا لك، هل أتاك جبريل بعد؟ قال: يقول طليحة وهو تحت الكساء: لا والله ما جاء بعد، فقال عيينة: تباً لك سائر اليوم، ثم رجع عيينة فقاتل، وجعل يحض أصحابه وقد ضجوا من وقع السيوف، فلما طال ذلك على عيينة جاء طليحة وهو مستلق متسج بكسائه فجبذه جبذة جلس منها، وقال له: قبح الله هذه من نبوة، ما قيل لك بعد شيء؟ فقال طليحة: قد قيل لي: إن لك رحال كرحاه، وأمراً لن تنساه، فقال عيينة: أظن قد علم الله أن سيكون لك أمر لن تنساه، يا فزارة، هكذا ـ وأشار لها تحت الشمس ـ هذا والله كذاب، ما بورك له ولا لنا فيما يطالب، فانصرفت فزارة، وذهب عيينة وأخوه في آثارها، فيدرك عيينة فأسر، وأفلت أخوه، ويقال: أسر عيينة عروة بن مضرس بن أوس بن حارثة بن لام الطائي، فأراد خالد قتله حتى كلمه فيه رجل من بني مخزوم، فترك قتله[2].

ولما رأى طليحة أن الناس يقتلون ويؤسرون، خرج منهزماً، وأسلمه الشيطان، فأعجزهم هو وأخوه، فجعل أصحابه يقولون له: ماذا ترى؟ وقد كان أعد فرسه وهيأ امرأته النوار فوثب على فرسه، وحمل امرأته وراءه فنجا بها، وقال: من استطاع منكم أن يفعل كما فعلت فليفعل، ولينج بأهله، ثم هرب حتى قدم الشام، فأقام عند بني جفنة الغسانيين[3].

---

(١) في الفتوح لابن أعثم الكوفي ج ١ ص ١٥ «قال طليحة: نعم قال جبريل عليه السلام: إن رجاء لا تقوم لرجاه وإن لك وله حديثاً لا تنساه الناس أبداً. قال: ثم أقبل عيينة على أهله وبني عمه له فزارة فقال: ويحكم يا بني عمر هذا والله رجل كذاب والله صح عندي كذبه لتخليفه في كلامه. قال: ثم ولى عيينة بن حصن منهزماً مع بني عمر من فزارة وانهزمت بنو أسد وغطفان وسيوف المسلمين في أقفيتهم كأنها الصواعق فقال طليحة بن خويلد: ويحكم ما بالكم منهزمين؟ فقال رجل منهم: أنا أخبرك يا أبا عامر لسم ننهزم نحن قوم نقاتل ونريد البقاء وهؤلاء قوم يقاتلون ويحبون الفناء. قال فقالت نوار امرأة طليحة: أما إنه لو كانت لكم نية صادقة لما انهزمتم عن نبيكم، فقال لها رجل منهم: يا نوار لو كان زوجك هذا نبياً حقاً لما خذله ربه. قال: فلما سمع طليحة ذلك صاح بامرأته: ويلك يا نوار اقتربي مني فقد اتضح الحق وزاغ الباطل. قال: ثم استوى طليحة على فرسه وأردف امرأته وراءه ومر منهزماً مع من انهزم به.

(٢) ابن حبيش. كتاب الغزوات ج ١ ص ٥٢.

(٣) نفسه ج ١ ص ٥٣، ٥٤.

وفي كتاب يعقوب الزهري: أن طليحة قال لأصحابه لما رأى انهزامهم: ويلكم ما يهزمكم؟ فقال له رجل منهم: أنا أخبرك أنه ليس منا رجل إلا وهو يحب أن صاحبه يموت قبله، وأنا نلقى قوماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه[1].

وذكر ابن إسحاق أن طليحة لما ولى هارباً تبعه عكاشة بن محصن، وثابت ابن أقرم، وقد كان طليحة أعطى الله عهداً أن لا يسأله أحد النزول إلا فعل، فلما أدبر ناداه عكاشة: يا طليحة، فعطف عليه، فقتل عكاشة، ثم أدركه ثابت، فقتله - أيضاً - طليحة، ثم لحق بالشام[2]. وقال طليحة يذكر قتله إياهما:

زعمتم بأن القوم لن يقتلوكم	أليسوا وإن لم يسلموا برجال
عدلت لهم صدر الحمالة إنها	معودة قيل الكماة نزال
فيوما تفي بالمشرفية خدها	ويوما تراها في ظلال عوال
ويوما تراها في الجلال مصونة	ويوما تراها غير ذات جلال
عشية غادرت ابن أقرم ثاويا	وعكاشة الغنمي عند مجال
فإن يك أذْوَادٌ أصبن ونسوة	فلن يذهبوا فَرْغاً بقتل حبال[1]

(الطويل)

وقد قيل في قتلها غير هذا، وهو ما ذكره الواقدي عن عميلة الفزاري، وكان عالماً بردتهم: أن خالد بن الوليد كان لما دنا من القوم بعث عكاشة وثابتاً طليعة أمامه، وكانا فارسين، فلقيهما طليحة وأخاه مسيلمة ابني خويلد، طليعة لمن // وراءهما من الناس، وخلفوا عسكرهم من ورائهم، فلما التقوا، انفرد طليحة بعكاشة، ومسلمة بثابت، فلم يلبث مسلمة أن قتل ثابتاً، وصرخ طليحة بمسلمة: أعني على الرجل فإنه قاتلي، فكر معه على عكاشة، فقتلاه - رحمه الله - ثم كرا راجعين إلى من وراءهما، وأقبل خالد معه المسلمون، فلم يرعهم إلا ثابت ابن أقرم قتيلاً تطوه المطي، فعظم ذلك على المسلمين، ثم لم يسيروا إلا يسيراً حتى وطئوا عكاشة قتيلاً، فثقل القوم على المطي - كما وصف واصفهم - حتى ما تكاد المطي ترفع أخفافها.

١٢٤ أ

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٥٥.

(٢) نفسه.

وفي كتاب الزهري[1]: ثم لحقوا أصحاب طليحة، فقتلوا وأسروا، وصاح خالد: لا يطبخن رجل قدراً ولا يسخنن ماء إلا على أثفية رأس رجل، وتظلف رجل من بني أسد، فوثب على عجز راحلة خالد وهو يقول:

لن يجزي الله قوماً أنت قائدهم ... يا ابن الوليد ولن تشقى بك الدبر

كفاك كف عقاب عند سطوتها ... على العدو وكف برة عقر

(البسيط)

أنشدك الله أن يكون هلاك مضر اليوم على يديك، قال: من أنت ويحك؟ قال: أنا الأباء بن قيس يا خالد، حكمك في بني أسد، قال: حكمي فيهم أن يقيموا الصلاة، ثم يؤتوا الزكاة، ثم يرجعوا إلى بلادهم، فمن كان له بها مال فليعمده، وليسلم عليه، فهو له. فأقروا بذلك، فنادى خالد: من قام فهو آمن، فقام الناس كلهم، فآمن من قام[2].

وسمعت بذلك بنو عامر، فأعلنوا بالإسلام، وأمر خالد بالحظائر أن تبني، ثم أوقد فيها النار، ثم أمر بالأسري، فألقيت فيها، وألقى يومئذ حامية بن سبيع ابن الحسحاس الأسدي، وهو الذي كان رسول الله ـ ﷺ ـ استعلمه على صدقات قومه فارتد عن الإسلام.

وأخذت أم طليحة ـ إحدى نساء بني أسد ـ فعرض عليها الإسلام، فأبت، ووثبت فاقتحمت النار وهي تقول:

يا موت عم صباحا ... كافحته كفاحاً

إذ لم أجد براحاً[3]

(رجز)

---

(1) المصدر السابق ج ١ ص ٥٧.

(2) نفسه ج ١ ص ٥٧ ـ ٥٨.

(3) نفسه ج ١ ص ٥٨.

وذكر الواقدي عن يعقوب بن يزيد بن طلحة: أن خالداً جمع الأساري في الحظائر، ثم أضرمها عليهم، فاحترقوا وهم أحياء، ولم يحرق أحد من بني فزارة، فقلت لبعض أهل العلم: لم حرق هؤلاء من بين أهل الردة؟ فقال: بلغت عنهم مقالة سيئة، شتموا النبي - ﷺ - وثبتوا على ردتهم[1].

وذكر عن غير يعقوب: أن خالداً أمر بالأخدود يحفر، فقيل له: ما تريد بهذا الأخدود؟ قال: أحرقهم بالنار، فكلم في ذلك، فقال: هذا عهد الصديق أبي بكر إلى، اقرؤه في كل مجمع: إن أظفرك الله بهم فاحرقهم بالنار.

وعن عبدالله بن عمر قال: شهدت بزاخة فظفرنا الله على طليحة، فكنا كلما أغرنا على القوم سبينا الذراري واقتسمنا أموالهم[2].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نفسه ج١ ص ٥٩..

ذكر رجوع بني عامر وغيرهم إلى الإسلام

ولما أوقع الله ببني أسد وفزارة ما أوقع ببزاخة بعث خالد بن الوليد السرايا ليصيبوا ما قدروا عليه ممن هو على ردته، وجعلت العرب تسير إلى خالد راغبة في الإسلام أو خائفة من السيف، فمنهم من أصابته السرية، فيقول: جئت راغباً في الإسلام، وقد رجعت إلى ما خرجت منه، ومنهم من يقول: ما رجعنا ولكنا منعنا أموالنا وشححنا عليها، فقد سلمناها فليأخذ منها حقه، ومنهم من لم تظفر به السرايا، فانتهى إلى خالد مقراً بالإسلام، ومنهم من مضى إلى أبي بكر الصديق ولم يقرب خالداً[1].

قال الواقدي: فاختلفوا علينا في قرة بن هبيرة القشيري، فقال قائل: هرب إلى أبي بكر وأسلم عنده، وقال قائل: أخذته خيل خالد، فأتت به إليه، ومنهم من قال: جاء إلى خالد بن الوليد شارداً حين جاءت بنو عامر إلى خالد، وهو أثبت عندنا[2].

قال بعضهم: وكانت بنو عامر تربص لمن الدبرة، وصاحب أمرهم قرة بن هبيرة، فقام فيهم أبو حرب ربيعة بن خويلد العقيلي، وهو - يومئذ - فارس عامر ورجلها، فقال: مهلاً يا بني عامر، قد قتلتم رسل رسول الله - ﷺ - إلى بئر معونة، وأخفرتم ذمة أبي براء، وأرداكم عامر بن الطفيل، وقد أظلكم خالد في المهاجرين والأنصار، فكسرهم قوله، وقد رضوه، وكان عرض لعمرو بن العاص مقدمه من عمان بعد وفاة رسول الله - ﷺ - مع قرة بن هبيرة ما نذكره، وذلك أن عمراً كان عاملاً للنبي - ﷺ - على عمان، فجاءه يوماً يهودي من يهود عمان، فقال: أرأيتك أن سألتك عن شيء أأخشى علي منك؟

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٦٠.

(٢) نفسه.

قال: لا ، قال اليهودي: أنشدك الله، من أرسلك إلينا؟ قال: اللهم، رسول الله - ﷺ - فقال اليهودي: الله إنك لتعلم أنه رسول الله؟ قال عمرو: اللهم نعم، فقال اليهودي: لئن كان حقاً ما تقول لقد مات اليوم، فلما رأى عمرو ذلك جمع أصحابه وحواشيه، وكتب ذلك اليوم الذي قال له اليهودي فيه ما قال، ثم خرج بخفراء من الأزد وعبد القيس، يأمن بهم، فجاءته وفاة رسول الله - ﷺ - بهجر، ووجد ذكر ذلك عند المنذر بن ساوي، فسار حتى قدم أرض بني حنيفة، فأخذ منهم خفيراً حتى جاء أرض بني عامر، فنزل على قرة بن هبيرة القشيري، فقال له حين أراد عمرو أن يركب: إن لك عندي نصيحة، وأنا أحب أن تسمعها، إن صاحبك قد توفى، قال عمرو: وصاحبنا هو لا أم لك يعني دونك، قال له قرة: وإنكم يا معشر قريش كنتم في حرمكم تأمنون فيه ويأمنكم الناس، ثم خرج منكم رجل يقول ما سمعت، فلما بلغنا ذلك لم نكرهه، وقلنا، رجل من مضر يريد يسوق الناس، وقد توفى، والناس إليكم سراع، وإنهم غير معطيكم شيئاً، فالحقوا بحرمكم تأمنون فيه، وإن كنت غير فاعل، فعدني حيث شئت آتك، فوقع به عمرو وقال: إني أرد عليك نصيحتك وموعدك حفش أمك، قال قرة: إني لم أرد هذا، وندم على مقالته، ويقال: خرج مع عمرو في مائة من قومه خفراء له[1].

وأقبل عمرو بن العاص يلقي الناس مرتدين، حتى أتى على ذي القصة، فلقى عيينة بن حصن خارجاً من المدينة، وذلك حين قدم على أبي بكر يقول: إن جعلت لنا شيئاً كفيناك ما وراءنا، فقال له عمرو بن العاص: ما وراءك يا عيينة؟ من ولي الناس أمورهم؟ قال: أبو بكر. فقال عمرو: الله أكبر،// قال عيينة: يا عمرو، استوينا نحن وأنتم، فقال عمرو: كذبت يا ابن الأخابث من مضر، وسار عتيبة فجعل يقول لكل من لقى من الناس: احبسوا عليكم أموالكم. قالوا: فأنت ما تصنع؟ قال: لا يدفع إليه رجل من فزارة عناقاً واحدة، ولحق عند ذلك بطليحة الأسدي، فكان معه[2].

١٢٤ ب

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٦٠ - ٦٢.

(٢) نفسه ج ١ ص ٦٤ - ٦٥، ٦٧.

وقدم عمرو المدينة، فأخبر أبا بكر بما كان في وجهه، وبمقالة قرة بن هبيرة، وبمقالة عيينة بن حصن، وأتى عمرو خالداً حين بعثه أبو بكر إلى أهل الردة، فجعل يقول: يا أبا سليمان، لا يفلت منك قرة بن هبيرة، فلما صنع الله بأهل بزاخة ما صنع، عمد خالد إلى جبلي طيء فأتته عامر وغطفان يدخلون في الإسلام، ويسألونه الأمان على مياههم وبلادهم، وأظهروا له التوبة، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، فأمنهم خالد، وأخذ عليهم العهود والمواثيق ليبايعن على ذلك أبناءكم ونساءكم آناء الليل وآناء النهار، فقالوا: نعم نعم، ولما اجتمعوا إليه، قال خالد: أين قرة بن هبيرة القشيري؟ قال: ها أنا ذا، قال: قدمه فاضرب عنقه، وقال: أنت المتكلم لعمرو بن العاص بما تكلمت به وأنت المتربص بالمسلمين الدوائر، ولم تنصر وقلت إن كانت الدائرة على المسلمين فمالي بيدي، وجمعت قومك على ذلك، ورأسك قومك، ولم تكن بأهل أن ترأس ولا تطاع. قال: يا بن المغيرة، إن لي عند عمرو بن العاص شهادة، فقال خالد: عمرو الذي نقل عنك إلى الخليفة ما تكلمت به.

ويروى أنه قال له هذا ما قال لك عمرو: سيأتيك في حفش أمك. فقال له قرة: يا أبا سليمان، إني قد أجرته فأحسنت جواره، وأنا مسلم لم أرتد، فقال: لولا ما تذكر لضربت عنقك، ولكن لا بد أن أبعث بك في وثاق إلى أبي بكر فيرى فيك رأيه، فلما فرغ من بيعة بني عامر أوثق عيينة بن حصن، وقرة بن هبيرة، وبعث بهما إلى أبي بكر الصديق[1].

قال ابن عباس: فقدم بهما المدينة في وثاق، فنظرت إلى عيينة مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ينخسه غلمان المدينة بالجريد، ويضربونه، ويقولون: أي عدو الله، أكفرت بالله بعد إيمانك؟ فيقول: والله ما كنت آمنت بالله[2].

قالوا: ووقف عليه عبدالله بن مسعود، فقال: خبت وخسرت، إنك لموضع في الباطل قديماً فقال له عيينة: اقصر أيها الرجل، فلولا ما أنا فيه لم تكلمني بما

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٦٨ - ٦٩.
(٢) نفسه ج ١ ص ٦٥.

تكلمني به، فانصرف ابن مسعود، وأتى بقرة بن هبيرة، فقال: يا خليفة رسول الله، والله ما كفرت، وسل عمرو بن العاصَ، فإن لي عنده شهادة، لما أقبل من عمان خرجت في مائة من قومي خفراء له، وقبل ذلك ما أكرمت منزله، ونحرت له، فسأل أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ عمرا، فقال: نزلت به، فلم أر للضيف خيراً منه، لم يترك، وخرج معي في مائة من قومه؛ ثم ذكر عمرو ما قال له قرة، فقال قرة: انزع يا عمرو، فقال عمرو: لو نزعت نزعت، فلم يعاقبه أبو بكر، وعفا عنه، وكتب له أماناً، وقبل منه[1].

وكان فيمن ارتد من بني عامر ولم يرجع معهم علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر، فبعث أبو بكر إلى ابنته وامرأته ليأخذهما، فقالت امرأته: مالي ولأبي بكر، إن كان علقمة قد كفر فإني لم أكفر، فتركها، ثم راجع علقمة الإسلام زمن عمر ـ رضي الله عنه ـ فرد عليه زوجته[2].

واخذ خالد بن الوليد من بني عامر وغيرهم من أهل الردة ممن جامعهم وبايعه على الإسلام كل ما ظهر من سلاحهم، واستحلفهم على ما غيبوا عنه، فإن حلفوا تركهم، وإن أبوا شدهم أسراً حتى أتوا بما عندهم من السلاح، فأخذ منهم سلاحاً كثيراً، فأعطاه أقواماً يحتاجون إليه في قتال عدوهم، وكتبه عليهم، فلقوا به العدو ثم ردوه بعد، فقدم به على أبي بكر ـ رضي الله عنه[3].

وحدث يزيد بن شريك الفزاري عن أبيه، قال: قدمت مع أسد وغطفان على أبي بكر وافداً حين فرغ خالد من بزاخة، وجعلت أسد وغطفان تسلل، فاجتمعوا عند أبي بكر، فمنهم من بايع خالداً، ومنهم من لم يبايعه، فجاءوا إلى أبي بكر، فقال أبو بكر: اختاروا بين خصلتين: حرب مجلية أو سلم مخزية، قال خارجة بن حصن: هذه الحرب المجلية قد عرفتها، فما السلم المخزية؟ قال: تقرون أن قتلانا في الجنة، وأن قتلاكم في النار، وأن تردوا علينا ما أخذتم منا،

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٦٦.
(٢) نفسه ج ١ ص ٦٩.
(٣) نفسه ج ١ ص ٧٠.

ولا نرد عليكم مما أخذنا منكم شيئاً، وأن تـدوا قتلانا دية كل قتيل مائة بعير، منها أربعون في بطونها أولادها، ولا ندى قتلاكم، ونأخذ منكم الحلقة والكراع، وتلحقون بأذناب الإبل حتى يرى الله خليفة نبيه والمؤمنين ما شاء فيكم أو يرى منكم إقبالاً إلى ما خرجتم منه. فقال خارجة بن حصن: نعم يا خليفة رسول الله، قال أبو بكر: عليكم عقد الله وميثاقة أن تقوموا بالقرآن آناء الليل وآناء النهار، وتعلموه أولادكم ونساءكم، ولا تمنعوا فرائض الله في أموالكم، قالوا: نعم، فقال عمر: يا خليفة رسول الله، كلما قلت كما قلت إلا أن يدوا من قتلوا منا، فإنهم قوم قتلوا في سبيل الله، واستشهدوا[1].

وفي رواية: فتتابع الناس على قول عمر، وقبض أبو بكر - رضي الله عنه - كلما قدر عليه من الحلقة والكراع، فلما توفى، رأى عمر - رضي الله عنه - أن الإسلام قد ضرب بجرانه، فدفعه إلى أهله، أو إلى عصبة من مات منهم[2].

ولما فرغ خالد من بزاخة وبني عامر ومن يليهم، أظهر أن أبا بكر عهد إليه أن يسير إلى أرض بني تميم وإلى اليمامة، فقال ثابت بن قيس بن شماس - وهو على الأنصار، وخالد على جماعة المسلمين: ما عهد إلينا ذلك، وما نحن بسائرين، وليست بنا قوة، وقد كل المسلمون، وعجف كراعهم. فقال خالد: أما أنا فلست بمستكره أحداً منكم، فإن شئتم فسيروا، وإن شئتم فأقيموا، فسار خالد ومن تبعه من المهاجرين وأبناء العرب، عامداً لأرض بني تميم، واليمامة، وأقامت الأنصار يوماً أو يومين، ثم تلاومت فيما بينها، وقالوا: والله ما صنعنا شيئاً، والله لئن أصيب القوم ليقولن: أخذلتموهم وأسلمتموهم. وإنها لسبة باق عارها آخر الدهر، ولئن أصابوا خيراً وفتح الله فتحاً، إنه لخير منعتموه، فابعثوا إلى خالد يقيم لكم حتى تلحقوه، فبعثوا إليه مسعود بن سنان، ويقال: ثعلبة بن عنمة، فلما جاءه الخبر أقام حتى لحقوه، فاستقبلهم // في كثرة من معه من المسلمين، لما أطلوا على العسكر حتى نزلوا، وساروا جميعاً حتى انتهى خالد بهم إلى البطاح من أرض بني ١٢٥ أ

(١) المصدر السابق ج١ ص ٧٠ - ٧١.

(٢) نفسه ج١ ص ٧١ - ٧٥.

تميم، فلم يجد بها جمعاً، ففرق السرايا في نواحيها، وكان في سرية منها أبو قتادة الأنصاري .قال: فلقينا رجل، فقلنا: ممن أنت؟ قال: من بني حنظلة، فقلنا: أين من يمنع الصدقة منا الآن؟ قال: هم بمكان كذا وكذا، فقلت: كم بيننا وبينهم؟ قال: مائة، فانطلقنا سراعاً حتى أتيناهم حين طلعت الشمس، ففزعوا حين رأونا، وأخذوا السلاح، وقالوا: من أنتم؟ قلنا: نحن عباد الله المسلمون، قالوا: ونحن عباد الله المسلمون، وكانوا اثني عشر رجلاً، فيهم مالك بن نويرة، قلنا: فضعوا السلاح واستسلموا، ففعلوا، فأخذناهم، فجئنا بهم خالداً.

وذكر من خبرهم ما يأتي بعد إن شاء الله تعالى.

وكان مالك بن نويرة قد بعثه النبي - ﷺ - مصدقاً إلى قومه بني حنظلة، وكان سيدهم، فجمع صدقاتهم، فلما بلغته وفاة النبي - ﷺ - جفل إبل الصدقة - أي ردها من حيث جاءت - فلذلك سمى الجفول، وجمع قومه، فقال: إن هذا الرجل قد هلك، فإن قام قائم من قريش بعده نجتمع عليه جميعاً، إن رضي منكم أن تدخلوا في أمره، ولم يطلب ما مضى من هذه الصدقة أبداً، ولم تكونوا أعطيتم الناس أموالكم، فأنتم أولى بها وأحق، فتسارع إليه جمهور قومه وفرحوا بذلك، فقام ابن قعنب - وكان سيد بني يربوع - فقال: يا بني تميم، بئس ما ظننتم، أن ترجعوا في صدقاتكم ولا يرجع الله في نعمه عليكم، وأن تجردوا للبلاء ويلبسكم الله العافية، وأن تستشعروا خوف الكفر، وأن تسكنوا في أمن الإسلام، إنكم أعطيتم قليلاً من كثير، والله مذهب الكثير بالقليل ومسلط على أموالكم غداً من لا يأخذها على الرضى ولا يخيركم في الصدقة، وإن منعتموها قتلتم، فأطيعوا الله واعصوا مالكاً. فقام مالك، فقال: يا معشر بني تميم، إنما رددت عليكم أموالكم إكراماً لكم،وبقيا عليكم، وإنه لا يزال يقوم قائم منكم يخطئني في ردها عليكم ويخطئكم في أخذها، فما أغناني عما يضرني ولا ينفعكم، فوالله ما أنا بأحرصكم على المال، ولا بأجزعكم من الموت، ولا بأخفاكم شخصاً إن أقمت، ولا بأخفكم رحلة إن هربت، فترضاه عند ذلك بنو حنظلة، وأسندوا إليه أمرهم، وقالوا: حربنا حربك وسلمنا سلمك، فأخذوا أموالهم، وأبى الله إلا أن يتم أمره فيهم، وقال في ذلك مالك:

وقال رجال سدد اليوم مالك — وقال رجال مالك لم يسدد

فقلت: دعوني لا أبا لأبيكم — فلم أخط رأيا في المعاد ولا البد

وقلت خذوا أموالكم غير خائف — ولا ناظر فيما يجيء به غدِ

فدونكموها إنها صدقاتكم — مصررة أخلافها لم تحرد

سأجعل نفسي دون ما تحذرونه — وأرهنكم يوماً بما قلته يدي

فإن قام بالأمر المخوف قائم — أطعنا وقلنا الدين دين محمد[1]

(الطويل)

ولما بلغ ذلك أبا بكر والمسلمين حنقوا على مالك، وعاهد الله خالد بن الوليد لئن أخذه ليقتلنه، ثم ليجعلن هامته أثفية للقدر، فلما أتى به أسيراً في نفر من قومه، أخذوا معه كما تقدم.

اختلف فيه الذين أخذوهم، فقال بعضهم: قد والله أسلموا، فما لنا عليهم من سبيل وفيمن شهد بذلك أبو قتادة الأنصاري، وكان معهم في تلك السرية، وقالوا: إنا قد أذنا فأذنوا، ثم أقمنا فأقاموا، ثم صلينا فصلوا.

وكان من عهد أبي بكر إلى خالد أن: أيما دار غشيتموها فسمعتم الأذان فيها بالصلاة فأمسكوا عن أهلها حتى تسألوهم ماذا نقموا وماذا يبغون، وأيما دار غشيتموها فلم تسمعوا فيها الأذان، فشنوا عليها الغارة، فاقتلوا وحرقوا.

وشهد بعض من كان في تلك السرية أنهم لم يسلموا، وأنهم لم يسمعوهم كبروا ولا أذنوا، وأن قتلهم وسبيهم حلال، وكان ذلك رأى خالد فيهم.

---

(١) المصدر السابق ص ٧٧.

(١) في الفتوح ج ١ ص ٢٢: «وكان أبو قتادة قد عاهد الله أنه لا يشهد مع خالد بن الوليد شهداً أبداً بعد ذلك اليوم».

(٢) نفسه: «ثم قدم خالد بن مالك بن نويرة ليضرب عنقه فقال مالك: اتقتلني وأنا مسلم أصلي إلى القبلة!؟ فقال له خالد: لو كنت مسلماً لما منعت الزكاة ولا أمرت قومك عنها والله ما نلت مانع مثابتك حتى أقتلك. قال: فالتفت مالك بن نويرة إلى امرأته فنظر إليها ثم قال: يا خالد بهذه قتلتني؟ فقال خالد. بل الله قتلك برجوعك عن دين الإسلام وجعلك لإبل الصدقة وأمرك لقومك بحبس ما يجب عليهم من زكاة أموالهم».

قال أبو قتادة: فجئته فقلت: أقاتل أنتِ هؤلاء القوم؟ قال: نعم، قلت: والله ما يحل لك قتلهم، ولقد اتقونا بالإسلام، فما عليهم من سبيل، ولا أتابعك على قتلهم، فأمر بهم خالد فقتلوا.

قال أبو قتادة: فتسرعت حتى قدمت على أبي بكر، فأخبرته الخبر، وعظمت عليه الشأن، فاشتد في ذلك عمر، وقال: ارجم خالداً، فإنه قد استحل ذلك، فقال أبو بكر: والله لا أفعل، إن كان خالد تأول أمراً فأخطأه.

وذكر يعقوب بن محمد الزهري والواقدي في مقتل مالك بن نويرة روايات غير ما تقدم، أستغنى عن إيرادها بما ذكر هنا. وفي بعض ذلك أن خالداً أمر برأسه فجعل أثفية لقدر حسب ما تقدم من نذره ذلك، وكان من أكثر الناس شعراً، فكانت القدر على رأسه، فراحوا وإن شعره ليدخن وما خلصت النار إلى شواة رأسه.

وعاتب أبو بكر خالداً لما قدم عليه في قتل مالك بن نويرة مع ما شهد له به أبو قتادة وغيره، فاعتذر إليه خالد، وزعم أنه سمع منه كلاماً استحل به قتله، فعذره أبو بكر وقبل منه.

ورثا متمم بن نويرة أخاه مالكاً بقصائد كثيرة منها قصيدته المشهورة المتخيرة في مراثي العرب التي يقول فيها [1]:

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن نتصدعا

فلما تفرقنا كأني ومالكا ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

(الطويل)

ويروى أن عمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ قال لمتمم بن نويرة: لوددت أني رثيت أخي زيداً بمثل ما رثيت به مالكاً أخاك، وكان زيد أصيب يوم اليمامة، فقال له متمم: يا أبا حفص، والله لو علمت أن أخي صار حيث صار أخوك ما رثيته، فقال عمر: ما عزاني أحد عن أخي بمثل تعزيته.

---

(١) من قصائد المفضليات وهي مشهورة في كتب الأدب وفي ديوانه ص ١١.

قصة مسيلمة الكذاب وردة أهل اليمامة

عن رافع بن خديج قال: قدمت على النبي - ﷺ - وفود العرب، فلم يقدم علينا وفد أقسى قلوباً ولا أحرى أن يكون الإسلام لم يقر في قلوبهم من بني حنيفة.

وقد تقدم ذكر قدوم مسيلمة في قومه، وأنه ذكر لرسول الله - ﷺ - فقال: أما أنه ليس بشركم مكانا، لما كانوا أخبروه به من أنهم تركوه في رحالهم حافظاً لها.

١٢٥ ب ويروى من حديث ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - / ذكر له مسيلمة، قال عندما قدم في قومه: لو جعل لي محمد الخلافة من بعده لاتبعته، فجاءه رسول الله - ﷺ - معه ثابت بن قيس بن شماس، وفي يد رسول الله - ﷺ - ميتخة من نخل فوقف عليه، ثم قال: لئن أقبلت ليفعلن الله بك، ولئن أدبرت ليقطعن الله دابرك، وما أراك إلا الذي رأيت فيه ما رأيت، ولئن سألتني هذه الشظية - لشظية من الميتخة التي في يده - ما أعطيتكها، وهذا ثابت يجيبك[١].

قال ابن عباس: فسألت أبا هريرة عن قول النبي - ﷺ - ما أراك إلا الذي رأيت فيه ما رأيت، قال: كان رسول الله - ﷺ - قال: بينا أنا نائم، رأيت في يدي سوارين من ذهب، فنفختهما فطارا، فوقع أحدهما باليمامة، والآخر باليمن، قيل: ما أولتهما يا رسول الله؟ قال: أولتهما كذابين يخرجان من بعدي[٢].

ولما انصرف في قومه إلى اليمامة، ارتد عدو الله، وادعى الشركة في النبوة مع النبي - ﷺ - وقال للوفد الذين كانوا معه: ألم يقل لكم حين ذكرتموني له: أما أنه ليس بشركم مكاناً، ما ذاك إلا لما علم أني اشركت في الأمر معه، وكتب إلى رسول الله - ﷺ -:

---

(١) ابن حبيش. كتاب الغزوات ج ١ ص ٧٨.

(٢) نفسه: ج ١ ص ٧٩.

من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد، فإني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشاً قوم يعتدون.

وقدم على رسول الله - ﷺ - بهذا الكتاب رسولان لمسيلمة، فقال لهما رسول الله - ﷺ حين قرأ كتابه: فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال، فقال: أما والله لولا أن الرسل ما تقتل لضربت أعناقكما، ثم كتب إلى مسيلمة:

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب. أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

قال ابن إسحاق: وكان ذلك في آخر سنة عشر. وذكر غيره أن ذلك كان بعد انصراف النبي - ﷺ - من حجة الوداع، ووقوعه في المرض الذي توفاه الله فيه، فالله تعالى أعلم.

وجد بعدو الله ضلاله بعد وفاة رسول الله - ﷺ - وأصفقت معه حنيفة على ذلك، إلا أفدادا من ذوي عقولهم، ومن أراد الله به الخير منهم، وكان من أعظم ما فتن به قومه شهادة الرجال بن عنفوة له بإشراك النبي - ﷺ - إياه في الأمر، وكان من قصة الرجال أنه قدم مع قومه وافداً على النبي - ﷺ - فقرأ القرآن وتعلم السنن[1].

قال ابن عمر: وكان من أفضل الوفد عندنا، قرأ البقرة وآل عمران، وكان يأتي أبياً يقرئه فقدم اليمامة، وشهد لمسيلمة على رسول الله - ﷺ - أنه أشركه في الأمر من بعده، فكان أعظم على أهل اليمامة فتنة من غيره، لما كان يعرف به[2].

وقال رافع بن خديج: كان بالرجال من الخشوع ولزوم قراءة القرآن والخير فيما نرى شيء عجيب، خرج علينا رسول الله - ﷺ - يوماً وهو معنا جالس مع نفر، فقال: أحد هؤلاء النفر في النار. قال رافع: فنظرت في القوم، فإذا بأبي

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٨٠.

(٢) نفسه.

هريرة وأبي أروى الدوسي وطفيل بن عمرو الدوسي والرجال بن عنفوة، فجعلت أنظر وأعجب، وأقول: من هذا الشقي؟ فلما توفى رسول الله ـ ﷺ ـ رجعت بنو حنيفة، فسألت: ما فعل الرجال؟ قالوا: افتتن، هو الذي شهد لمسيلمة على رسول الله ـ ﷺ ـ أنه أشركه في الأمر من بعده، فقلت: ما قال رسول الله ـ ﷺ فهو حق[1].

قالوا: وسمع الرجال يقول: كبشان انتطحا، فأحبهما إلينا كبشنا[2].

وكان ابن عمير اليشكري من سراة أهل اليمامة وأشرافهم، وكان مسلماً يكتم إسلامه، وكان صديقاً للرجال، فقال شعراً فشاً في اليمامة حتى كانت المرأة والوليدة والصبي ينشدونه، فقال[3]:

يا سعاد الفؤاد بنت اثال	طال ليلي بفتنة الرجال
إنها يا سعاد من حدث الدهـ	ـر عليكم كفتنة الرجال
فتن القوم بالشهادة واللّـ	ـه عزيز ذو قوة ومحال
لا يساوي الذي يقول من الأمـ	ـر قبالاً وما احتذى من قبال
إن ديني دين النبي وفي القو	م رجال على الهدى أمثالي
أهلك القوم محكم بن طفيل	ورجال ليسوا لنا برجال
بزهم أمرهم مسيلمة اليو	م فلن يرجعوه أخرى الليالي
قلت للنفس إذ تعاظمها الصبـ	ـر وساءت مقالة الأقوال
ربما تجزع النفوس من الأمـ	ـر له فرجة كحل العقال
إن تكن ميتتي على فطرة اللـ	ـه حنيفاً فإنني لا أبالي

(الخفيف)

فبلغ ذلك مسيلمة، ومحكماً، وأشراف أهل اليمامة، فطلبوه، ففاتهم، ولحق بخالد بن الوليد، فأخبره بحال أهل اليمامة، ودله على عوراتهم، وقالوا: إن رجلاً من بني حنيفة كان أسلم، وأقام عند رسول الله ـ ﷺ ـ فحسن إسلامه، فأرسله

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ٨٠ ـ ٨١.

(٢) نفسه ج ١ ص ٨١.

(٣) نفسه ج١ ص ٨١ ـ ٨٣.

رسوله الله - ﷺ - إلى مسيلمة ليقدم به عليه، وقال الحنفي: إن أجاب أحداً من الناس أجابني، وعسى أن يجيبه الله، فخرج حتى أتاه، فقال: إن محمداً قد أحب أن تقدم عليه، فإنك لو جئته لم يفارقك إلا عن رضى، ورفق به، وجعل يأتيه خالياً، فيلقى هذا القول إليه، فلما أكثر عليه قال: انظر في ذلك، فشاور الرجال بن عنفوة وأصحابه، فقالوا: لا تفعل، إن قدمت عليه قتلك، ألم تسمع كلامه وما قال. فأبى مسيلمة أن يقدم معه على رسول الله - ﷺ - وبعث معه رجلين ممن يصدق به ليكلماه ويخبراه بما قال الحنفي، فخرج الرسولان حتى قدما على رسول الله - ﷺ - مع رسوله، فتشهد أحدهما برسول الله وحده، ثم كلمه بما بدا له، فلما قضي كلامه تشهد الآخر، فذكر رسول الله وذكر مسيلمة، فقال رسول الله - ﷺ: كذبت، خذوا هذا فاقتلوه، فثار المسلمون إليه يلببونه، وأخذ صاحبه بحجزه وجعل يقول: يا رسول الله، اعف عنه، بأبي أنت وأمي، فيجاذبه إياه المسلمون، فلما // أرسلوه تشهد بذكر رسول الله - ﷺ - وحده، ١٢٦ أ وأسلم هو وصاحبه، فلما توفي رسول الله - ﷺ - خرجا فقدما على أهليهما باليمامة، وقد فتن الذي أمسك بحجزة صاحبه ذلك، فقتل مع مسيلمة، وثبت الممسك بحجزته، وكان بعد يخبر خالد بن الوليد بعورة بني حنيفة، وأخبر رسول الله - ﷺ - رسوله إلى مسيلمة كيف رفق به حتى أراد أن يقدم لولا أن الرجال نهاه، فقال رسول الله - ﷺ: يقتله الله، ويقتل الرجال معه، ففعل الله ذلك بهما، وأنجز وعده فيهما[1]، واستضاف مسيلمة إلى ضلاله في دين الله وتكذبه على الله ضلالة سجاح، وكانت امرأة من بني تميم، أجمع قومها أنها نبية، فادعت الوحي، واتخذت مؤذناً وحاجباً ومنبراً، فكانت العشيرة إذا اجتمعت تقول: الملك في أقربنا من سجاح، وفيها يقول عطارد بن حاجب بن زرارة:

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها   وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا
(البسيط)

ثم إن سجاح رحلت تريد حرب مسيلمة، وأخرجت معها من قومها من

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٨٥ - ٨٦.

تابعها على قولها وهم يرون أن سجاح أولى بالنبوة من مسيلمة، فلما قدمت عليه خلا بها، وقال لها: تعالى نتدارس النبوة، أينا أحق؟ فقالت سجاح: قد أنصفت، وفي الخبر بعد هذا من قوله ما يحق الإعراض عن ذكره[1].

وقد قيل إن سجاح إنما توجهت إلى مسيلمة مستجيرة به لما وطيء خالد العرب ورأت أنه لا أحد أعز لها منه، وقد كانت أمرت مؤذنها شبت بن ربعي أن يؤذن بنبوة مسيلمة، فكان يفعل، فلما قدمت على مسيلمة قالت: اخترتك على من سواك ونوهت باسمك، حتى إن مؤذني ليؤذن بنبوتك، فخلا بها ليتدارسا النبوة[2].

ولما قتل مسيلمة، أخذ خالد بن الوليد سجاح، فأسلمت ورجعت إلى ما كانت عليه، ولحقت بقومها.

وعظمت فتنة بني حنيفة بكذابهم هذا حتى كان يدعو لمريضهم ويبرك على مولودهم، ولا ينهاهم عن اغترارهم به ما يشاهدون من قلة غنائه عنهم. جاءه قوم بمولود، فمسح رأسه فقرع وقرع كل مولود له، وجاءه آخر، فقال: يا أبا ثمامة، إني ذو مال، وليس لي مولود يبلغ سنتين حتى يموت غير هذا المولود، وهو ابن عشر سنين، ولي مولود ولد أمس، فأحب أن تبارك فيه وتدعو أن يطيل الله عمره، فقال: سأطلب لك الذي طلبت، فجعل عمر المولود أربعين سنة، فرجع الرجل إلى منزله مسروراً، فوجد الأكبر قد تردى في بئر، ووجد الصغير ينزع في الموت، فلم يمس من ذلك اليوم حتى ماتا جميعاً، تقول أمهما: فلا والله ما لأبي ثمامة عند إلهه مثل منزلة محمد ـ ﷺ[3].

قالوا: وحفرت بنو حنيفة بئراً، فأعذبوها نتاحاً، فجاءوا إلى مسيلمة، فطلبوا إليه أن يأتيها، وأن يبارك فيها، فأتاها، فبصق فيها، فعادت أجاجاً[4].

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ٨٨.
(٢) نفسه ج ١ ص ٨٩ ـ ٩٠.
(٣) نفسه ج١ ص ٨٧.
(٤) نفسه.

وكان أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قد عاهد خالداً إذا فرغ من أسد وغطفان والضاحية أن يقصد اليمامة، وأكد عليه في ذلك، فلما أظفر الله خالداً بأولئك تسلل بعضهم إلى المدينة يسألون أبا بكر أن يبايعهم على الإسلام ويؤمنهم، فقال لهم: بيعتي إياكم وأماني لكم أن تلحقوا بخالد بن الوليد ومن معه من المسلمين، فمن كتب إلى خالد بأنه حضر معه اليمامة فهو آمن، فليبلغ شاهدكم غائبكم، ولا تقدموا عليّ، اجعلوا وجوهكم إلى خالد.

قال أبو بكر بن أبي الجهم: أولئك الذين لحقوا خالد بن الوليد من الضاحية هم الذين كانوا انهزموا بالمسلمين يوم اليمامة ثلاث مرات، وكانوا على المسلمين بلاء.

وقال شريك الفزاري: كنت ممن حضر بزاخة مع عيينة بن حصن، فرزق الله الإنابة، فجئت أبا بكر، فأمرني بالمسير إلى خالد، وكتب معي إليه:

أما بعد، فقد جاءني كتابك مع رسولك تذكر ما أظفرك الله بأهل بزاخة، وما فعلت بأسد وغطفان، وإنك سائر إلى اليمامة، وذلك عهدي إليك، فاتق الله وحده لا شريك له، وعليك بالرفق بمن معك من المسلمين، كن لهم كالوالد، وإياك يا خالد بن الوليد ونخوة بني المغيرة، فإني قد عصيت فيك من لم أعصه في شيء قط، فانظر بني حنيفة إذا لقيتهم إن شاء الله، فإنك لم تلق قوماً يشبهون بني حنيفة كلهم عليك، ولهم بلاد واسعة، فإذا قدمت فباشر الأمر بنفسك، واجعل على ميمنتك رجلاً وعلى ميسرتك رجلاً، واجعل على خيلك رجلاً، واستشر من معك من الأكابر من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ من المهاجرين والأنصار، واعرف لهم فضلهم، فإذا لقيت القوم وهم على صفوفهم، فالقهم إن شاء الله وقد أعددت للأمور أقرانها، فالسهم للسهم، والرمح للرمح، والسيف للسيف، فإذا صرت إلى السيف فهو الثكل، فإن أظفرك الله بهم فإياك والإبقاء عليهم، اجهز على جريحهم، واطلب مدبرهم، واحمل أسيرهم على السيف، وهول فيهم القتل، واحرقهم بالنار، وإياك أن تخالف امري، والسلام عليك.

فلما انتهى الكتاب إلى خالد اقترأه، وقال: سمع وطاعة[1].

ولما اتصل بأهل اليمامة مسير خالد إليهم بعد الذي صنع الله له في أمثالهم حيرهم ذلك وجزع له محكم بن الطفيل سيدهم، وهم أن يرجع إلى الإسلام، فبات يتلوى على فراشه، وهو يقول:

أرى الركبان تخبر ما كرهنا	أكل الركب يكذب ما يقول
ألا لا ليس كلهم كذوبا	وقد كذبوا وكذبهم قليل
وقد صدقوا لهم منا ومنهم	لنا إن حاربوا يوم طويل
فقل لابن الوليد وللمنايا	على السراء والضراء دليل
أيقطع بيننا حبلا وصال	فليس إليهما أبداً سبيل
وما في الحرب أعظم من جريح	وعان خر بينهما قتيل

(الوافر)

فلما سمع القوم كلامه، عرفوا أنه ثابت على ضلالته معهم، وفرح بذلك منه مسيلمة، وكان محكم سيد أهل اليمامة، وكان صديقاً لزياد بن لبيد بن بياضة من الأنصار، فقال له خالد في بعض الطريق: لو ألقيت إلى محكم شيئاً تكسره به، فإنه // سيد أهل اليمامة، وطاعة القوم له، فبعث إليه مع راكب، ويقال: بل بعث بها إليه حسان بن ثابت من المدينة:

١٢٦ ب

يا محكم بن طفيل قد اتيح لكم	لله در أبيكم حية الوادي
يا محكم بن طفيل إنكم نفر	كالشاء أسلمها الراعي لآساد
ما في مسيلمة الكذاب من عوض	من دار قوم وإخوان وأولاد
فاكفف حنيفة عنه قبل نائحة	تنعي فوارس شاخ شجوها بادي
لا تأمنوا خالداً بالبرد معتجراً	تحت العجاجة مثل الأغضف العاد
ويل اليمامة ويلا لا فراق له	إن جالت الخيل فيها بالقنا الصاد
والله لا تنثني عنكم أعنتها	حتى تكونوا كأهل الحجر أو عاد

(البسيط)

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٩٢ - ٩٣.

ووردت على محكم، وقيل له: هذا خالد بن الوليد في المسلمين، فقال: رضي خالد أمراً ورضينا غيره، وما ينكر خالد أن يكون في بني حنيفة من قد أشرك في الأمر، فسيرى خالد إن قدم علينا يلق قوماً ليسوا كمن لقى، ثم خطب أهل اليمامة فقال: يا معشر أهل اليمامة إنكم تلقون قوماً يبذلون أنفسهم دون صاحبهم، فابذلوا أنفسكم دون صاحبكم، فإن أسداً وغطفان إنما أشار إليهم خالد بذباب السيف، فكانوا كالنعام الشارد، وقد أظهر خالد بن الوليد بأوا [1] حيث أوقع ببزاخة ما أوقع، وقال: هل حنيفة إلا كمن لقينا.

وكان عمير بن ضابيء اليشكري في أصحاب خالد، وكان من سادات اليمامة، ولم يكن من أهل حجر، كان من أهل ملمم، وهي لبني يشكر، فقال له خالد: تقدم إلى قومك، فاكسرهم، فأتاهم، ولم يكونوا علموا بإسلامه، وكان مجهداً فارساً سيداً، فقال: يا معشر أهل اليمامة، أظلكم خالد في المهاجرين والأنصار، تركت القوم يتتابعون إلى فتح اليمامة، قد قضوا وطراً من أسد وغطفان وعلياً وهوازن، وأنتم في أكفهم، وقولهم: لا قوة إلا بالله، إني رأيت أقواماً إن غلبتموهم بالصبر غلبوكم بالنصر، وإن غلبتموهم على الحياة غلبوكم على الموت، وإن غلبتموهم بالعدد غلبوكم بالمدد، لستم والقوم سواء، الإسلام مقبل، والشرك مدبر، وصاحبهم نبي، وصاحبكم كذاب، ومعهم السرور، ومعكم الغرور، فالآن والسيف في غمده والنبل في جفيره قبل أن يسل السيف ويرمي بالسهم سرت إليكم مع القوم عشراً.

فكذبوه واتهموه، فرجع عنهم، وقام ثمامة بن إثال الحنفي في بني حنيفة، فقال:

اسمعوا مني وأطيعوا أمري ترشدوا، إنه لا يجتمع نبيان بأمر واحد، وإن محمداً - ﷺ - لا نبي بعده، ولا نبي مرسل معه، ثم قرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم، غافر الذنب وقابل التوب شديد

---

(١) في هامش «ط»، و«ح»: البأو: الكبر والفخر.

العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير﴾ (١ : ٣ ـ غافر)، هذا كلام الله عز وجل، أين هذا من: «يا ضفدع نقي كم تنقين، لا الشرب تمنعين، ولا الماء تكدرين»، والله إنكم لترون أن هذا الكلام ما يخرج من إل، وقد استحق محمد ـ ﷺ ـ أمراً أذكره به، مر بي رسول الله ـ ﷺ ـ وأنا على دين قومي، فأردت قتله، فحال بيني وبينه عمير، وكان موفقاً، فأهدر رسول الله ـ ﷺ ـ دمي، ثم خرجت معتمراً، فبينا أنا أسير قد أظللت علي المدينة أخذتني رسله في غير عهد ولا ذمة، فعفا عن دمي وأسلمت، فأذن لي في الخروج إلى بيت الله، وقلت: يا رسول الله، إن بني قشير قتلوا أثالاً في الجاهلية، فأذن لي أغزهم، فغزوتهم، وبعثت إليه بالخمس، فتوفى رسول الله ـ ﷺ ـ وقام بهذا الأمر من بعده رجل هو أفقههم في أنفسهم، لا تأخذه في الله لومة لائم، ثم بعث إليكم رجلاً لا يسمى باسمه ولا اسم أبيه، يقال له: سيف الله، معه سيوف لله كثيرة، فانظروا في أمركم.

فآذاه القوم جميعاً، أو من آذاه منهم، فقال ثمامة:

مسيلمة ارجع ولا تمحك … فإنك في الأمر لم تشرك
كذبت على الله في وحيه … فكان هواك هوى الأنوك
ومناك قومك أن يمنعوك … وإن يأتهم خالد تترك
فما لك من مصعد في السماء … ولا لك في الأرض من مسلك

(المتقارب)

ذكر تقدم خالد بن الوليد الطلائع أمامه من البطاح

قالوا: ولما سار خالد بن الوليد من البطاح، ووقع في أرض بني تميم، قدم أمامه مائتي فارس عليهم معن بن عدي العجلاني، وبعث معه فرات بن حيان العجلي دليلاً، وقدم عينين له أمامه، مكنف بن زيد الخيل الطائي وأخاه[1].

وذكر الواقدي: أن خالداً لما نزل العرض، قدم مائتي فارس، وقال: من أصبتم من الناس فخذوه، فانطلقوا حتى أخذوا مجاعة بن مرارة الحنفي في ثلاثة وعشرين رجلاً من قومه قد خرجوا في طلب رجل من بني نمير أصاب فيهم دماً، فخرجوا وهم لا يشعرون بمقبل خالد، فسألوهم: ممن أنتم؟ قالوا: من بني حنيفة، فظن المسلمون أنهم رسل من مسيلمة إلى خالد، فلما أصبحوا وتلاحق الناس، جاءوا بهم إلى خالد، فلما رآهم ظن ـ أيضاً ـ أنهم رسل من مسيلمة، فقال: ما تقولون يا بني حنيفة في صاحبكم؟ فشهدوا أنه رسول الله، فقال لمجاعة: ما تقول أنت؟ فقال: والله ما خرجت إلا في طلب رجل من بني نمير أصاب فينا دماً، وما كنت أقرب مسيلمة، ولقد قدمت على رسول الله ـ ﷺ ـ فأسلمت، وما غيرت ولا بدلت، فقدم القوم، فضرب أعناقهم على دم واحد، حتى إذا بقي سارية بن مسيلمة بن عامر قال: يا خالد، إن كنت تريد بأهل اليمامة خيراً أو شرافا فاستبق هذا ـ يعني مجاعة، فإنه لك عون على حربك وسلمك[2].

وكان مجاعة شريفاً، فلم يقتله، وأعجب بسارية وكلامه، فتركه ـ أيضاً ـ وأمر بهما فأوثقا في جوامع حديد، وكان يدعو مجاعة وهو كذلك فيتحدث معه، ومجاعة يظن أن خالداً يقتله، فبينما هما يتحدثان، قال له: يا ابن المغيرة، إن لي إسلاماً، والله ما كفرت، ولقد قدمت على رسول الله ـ ﷺ ـ فخرجت

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٩٤.

(٢) نفسه ج ١ ص ٩٤ ـ ٩٥.

من عنده مسلماً، وما خرجت لقتال، وأعاد ذكر خروجه في طلب النميري، فقال خالد: إن بين القتل والترك منزلة، وهي الحبس حتى يقضي الله في حربنا

١٢٧ أ ما هو قاض، ودفعه إلى أم متمم// امرأته التي تزوجها لما قتل زوجها مالك بن نويرة وأمرها أن تحسن إساره، فظن مجاعة أن خالداً يريد حبسه لأن يشير عليه ويخبره عن عدوه، فقال: يا خالد، إنه من خاف يومك خاف غدك، ومن رجاك رجاهما، ولقد خفتك ورجوتك، ولقد علمت أني قدمت على رسول الله ـ ﷺ ـ وبايعته على الإسلام، ثم رجعت إلى قومي، وإنا اليوم على ما كنت عليه أمس، فإن يكن كذاب خرج فينا، فإن الله يقول: ﴿لا تزر وازرة وزر أخرى﴾(١٨: فاطر)، وقد عجلت في قتل أصحابي قبل التأني بهم، والخطأ مع العجلة، فقال خالد: يا مجاعة، تركت اليوم ما كنت عليه أمس، وكان رضاك بأمر هذا الكذاب، وسكوتك عنه وأنت أعز أهل اليمامة، وقد بلغك مسيري، إقراراً له، ورضي بما جاء به، فهلا أبليت عذراً، فتكلمت فيمن تكلم، فقد تكلم ثمامة بن إثال فرد وأنكر، وقد تكلم اليشكري، فإن قلت أخاف قومي، فهلا عمدت إلى تريد لقائي، أو كتبت إلى كتابا أو بعثت إلى رسولاً، وأنت تعلم أني قد أوقعت بأهل بزاخة، وزحفت بالجيوش إليك. فقال مجاعة: إن رأيت يا ابن المغيرة أن تعفو عن هذا كله فعلت. فقال خالد: قد عفوت عن دمك، ولكن في نفسي من تركك حوجاً بعد، فقال مجاعة: أما إذا عفوت عن دمي فلا أبالي[1].

وكان خالد كلما نزل منزلاً واستقر به دعا مجاعة فأكل معه وحدثه، فقال له ذات يوم: أخبرني عن صاحبك ـ يعني مسيلمة ـ ما الذي يقرأ عليكم؟ هل تحفظ منه شيئاً؟ قال: نعم، فذكر له شيئاً من رجزه، قال خالد وضرب بإحدى يديه على الأخرى: يا معشر المسلمين، اسمعوا إلى عدو الله كيف يعارض القرآن، ثم قال: ويحك يا مجاعة، أراك رجلاً سيداً عاقلاً، اسمع إلى كتاب الله عز وجل، ثم انظر كيف عارضه عدو الله، فقرأ عليه خالد: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾، فقال مجاعة: أما أن رجلاً من أهل البحرين كان يكتب، أدناه مسيلمة وقربه حتى لم يكن يعد له في القرب عنده أحد، فكان يخرج إلينا فيقول: يا أهل اليمامة، صاحبكم والله كذاب، وما أظنكم تتهموني عليه، إنكم لترون منزلتي عنده، وحالي، هو والله يكذبكم

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٩٥ ـ ٩٧.

ويأتيكم بالباطل. قال خالد: فما فعل ذلك البحراني؟ قال: هرب منه، كان لا يزال يقول هذا القول حتى بلغه، فخافه على نفسه، فهرب، فلحق بالبحرين، قال خالد: فما كان في هذا ناه ولا زاجر، ثم قال: هات زدنا من كذب الخبيث، فقال مجاعة: أخرج لكم حنطة وزؤاناً، ورطبا وتمرانا، في رجز له، فقال خالد: وهذا كان عندكم حقاً؟ وكنتم تصدقونه؟ قال مجاعة: لو لم يكن عندنا حقاً لما لقيتك غداً أكثر من عشرة آلاف سيف يضاربونك فيه حتى يموت الأعجل، قال خالد: إذا يكفيناهم الله ويعز دينه، فإياه تقاتلون ودينه تريدون[1].

وفي كتاب الأموي: ثم مضى خالد حتى نزل منزله من اليمامة، ببعض أوديتها، وخرج الناس مع مسيلمة[2].

وقال عبيد الله بن عبدالله بن عتبة: لما أشرف خالد بن الوليد وأجمع أن ينزل عقرباء، دفع الطلائع أمامه، فرجعوا إليه، فخبروه أن مسيلمة ومن معه قد خرجوا فنزلوا عقرباء، فشاور خالد أصحابه أن يمضي إلى اليمامة، أو ينتهي إلى عقرباء، فأجمعوا له أن ينتهي إلى عقرباء، فزحف خالد بالمسلمين حتى نزلوا عقرباء، وضرب عسكره[3].

وقد قيل: إن خالداً هو الذي سبق إلى عقرباء، فضرب عسكره ثم جاء مسيلمة فضرب عسكره[4].

ويقال: توافيا إليها جميعاً.

قالوا: وكان المسلمون يسألون عن الرجال بن عنفوة، فإذا الرجال على مقدمة مسيلمة، فلعنوه وشتموه، فلما فرغ خالد من ضرب عسكره، وحنيفة تسوى صفوفها، نهض خالد إلى صفوفه فصفها، وقدم رايته مع زيد بن الخطاب، ودفع راية الأنصار إلى ثابت بن قيس بن شماس، فتقدم بها، وجعل

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٩٨ - ١٠٠.

(٢) نفسه ج ١ ص ١٠٠.

(٣) نفسه ج ١ ص ١٠١.

(٤) في الفتوح ج ١ ص ٣١: «وسار خالد بن الوليد بالمسلمين حتى نزل بموضع يقال له عقرباء من أرض اليمامة، فضرب عسكره هناك وسار مسيلمة في جميع بني حنيفة حتى نزل حذاء خالد.

على ميمنته أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وعلى ميسرته شجاع بـن وهب، واستعمل على الخيل البراء بن مالك، ثم عزله واستعمل عليها أسامة بن زيد، وأمر بسرير فوضع في فسطاطه، واضطجع عليه يتحدث مع مجاعة، ومعه أم متمم وأشراف أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يتحدث معهم، وأقبلت بنو حنيفة قد سلت السيوف، فلم تزل مسللة وهم يسيرون نهاراً طويلاً، فقال خالد: يا معشر المسلمين، أبشروا، فقد كفاكم الله عدوكم، ما سلوا السيوف من بعيد إلا ليرهبونا، وإن هذا منهم لجبن وفشل، فقال مجاعة ونظر إليهم: كلا والله يا أبا سليان، ولكنها الهندوانية، خشوا من تحطمها، وهي غداة باردة، فأبرزوها للشمس لأن تسخن متونها [1].

فلما دنوا من المسلمين نادوا: إنا نعتذر من سلنا سيوفنا حين سللناها، والله ما سللناها ترهيباً لكم ولا جبناً عنكم، ولكنها كانت الهندوانية، وكانت غداة باردة، فخشينا تحطمها، فأردنا أن تسخن متونها إلى أن نلقاكم، فسترون [2].

قال: فاقتتلوا قتالاً شديداً، وصبر الفريقان جميعاً صبرا طويلاً، حتى كثرت القتلى والجراح في الفريقين، وكان أول قتيل من المسلمين مالك بن أوس من بني زعوراء، قتله محكم بن الطفيل، واستلحم من المسلمين حملة القرآن حتى فنوا إلا قليلاً، وهزم كلا الفريقين حتى دخل المسلمون عسكر المشركين، والمشركون عسكر المسلمين مراراً، وإذا أجلى المسلمون عن عسكرهم فدخل المشركون أرادوا حمل مجاعة، فلا يستطيعون لما هو فيه من الحديد، ولأنه لا تزال تناوشهم خيل المسلمين، فإذا رجع المسلمون وثبوا على مجاعة ليقتلوه، وقالوا: اقتلوا عدو الله، فإنه رأسهم، وأنهم إن دخلوا عليه أخرجوه، فإذا أشهروا عليه سيوفهم ليقتلوه، حنت عليه أم متمم امرأة خالد وردتهم عنه، وقالت: إني له جار، حتى أجارته منهم، وكان مجاعة ـ أيضاً ـ قد أجارها من المشركين مراراً أن يقتلوها على هذا الوجه [3].

---

(١) ابن حبيش. كتاب الغزوات ج ١ ص ١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) نفسه ج ١ ص ١٠٢.

(٣) نفسه ج ١ ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

وقد // كان مجاعة قال لها لما دفعه إليها خالد لتحسن إساره: يا أم متمم، ١٢٧ ب
هل لك أن أحالفك، إن غلب أصحابي كنت لك جاراً، وأنت كذلك؟
فقالت: نعم، فتحالفا على ذلك.

وقال عكرمة: حملت حنيفة أول مرة كانت لها الحملة، وخالد على سريره
حتى خلص إليه، فجرد سيفه وجعل يسوق حنيفة سوقاً، حتى ردهم، وقتل
منهم قتلى كثيرة، ثم كرت حنيفة حتى انتهوا إلى فسطاط خالد، فجعلوا
يضربون الفسطاط بالسيوف[1].

قال الواقدي: وبلغنا أن رجلاً منهم لما دخلوا الفسطاط، أراد قتل أم متمم،
ورفع السيف عليها، فاستجارت بمجاعة، فألقى عليها رداءه، وقال: إني جار لها
فنعمت الحرة كانت، وعيرهم وسبهم، وقال: تركتم الرجال وجئتم إلى امرأة
تقتلونها، عليكم بالرجال، فانصرفوا[2]، وجعل ثابت بن قيس يومئذ يقول،
وكانت معه راية الأنصار: بئس ما عودتم أنفسكم الفرار يا معشر المسلمين.

وقد انكشف المسلمون حتى غلبت حنيفة على الرحال، فجعل زيد بن
الخطاب ينادي، وكانت عنده راية خالد: أما الرحال فلا رحال، وأما الرجال
فلا رجال، اللهم إني اعتذر إليك من فرار أصحابي، وأبرأ إليك مما جاء به
مسيلمة ومحكم بن طفيل، وجعل يشتد بالراية، يتقدم بها في نحر العدو، ثم
ضارب بسيفه حتى قتل ـ رحمه الله ـ فلما قتل وقعت الراية، فأخذها سالم مولى
أبي حذيفة، فقال المسلمون: يا سالم، إنا نخاف أن نؤتي من قبلك، فقال: بئس
حامل القرآن أنا إذاً إن أتيتم من قبلي[3].

قالوا: ونادت الأنصار ثابت بن قيس وهو يحمل رايتهم: الزمها، فإنما ملاك
القوم الراية.

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٠٣.
(٢) نفسه ج ١ ص ١١٠.
(٣) نفسه ج ١ ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

فتقدم سالم مولى أبي حذيفة، فحفر لرجليه حتى بلغ أنصاف ساقيه، ومعه راية المهاجرين، وحفر ثابت لنفسه مثل ذلك، ثم لزما رايتيهما، ولقد كان الناس يتفرقون في كل وجه، وإن سالماً وثابتاً لقائمان برايتيهما، حتى قتل سالم وقتل، أبو حذيفة مولاه - رحمهما الله تعالى - فوجد رأس أبي حذيفة عند رجلي سالم، ورأس سالم عند رجلي أبي حذيفة، لقرب مصرع كل واحد منهما من صاحبه، فلما قتل سالم، مكثت الراية ساعة لا يرفعها أحد، فأقبل يزيد بن قيس، وكان بدرياً، فحملها حتى قتل - رحمه الله - ثم حملها الحكم بن سعيد بن العاص، فقاتل دونها نهاراً طويلاً، ثم قتل - رحمه الله[1].

قال وحشي: اقتتلنا قتالاً شديداً، فهزموا المسلمين ثلاث مرات، وكر المسلمون في الرابعة، وتاب الله عليهم، وثبت أقدامهم، وصبروا لوقع السيوف، واختلفت بينهم وبين بني حنيفة السيوف، حتى رأيت شهب النار تخرج من خلالها، حتى سمعت لها أصواتاً كالأجراس، وأنزل الله - تعالى - علينا نصره، وهزم الله بني حنيفة، وقتل الله مسيلمة.

قال: ولقد ضربت بسيفي يومئذ حتى غرى قائمه في كفي من دمائهم[2].

وقال ابن عمر: لقد رأيت عماراً على صخرة قد أشرف، يصيح: يا معشر المسلمين، أمن الجنة تفرون، أنا عمار بن ياسر، هلموا إلي، وأنا أنظر إلى أذنه تذبذب وقد قطعت[3].

وقال سعد القرظ: لقد رأيته يومئذ يقاتل قتال عشرة[4].

وقال شريك الفزاري: لما التقينا والقوم، صبر الفريقان صبرا لم أر مثله - قط - ما تزول الأقدام فترى، واختلفت السيوف بينهم، وجعل يقبل أهل السوابق والنيات فيتقدمون، فيقتلون، حتى فنوا، وذلقت فينا سيوفهم طويلاً، فانهزمنا،

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٠٦ - ١٠٧.
(٢) نفسه ج ١ ص ١٠٤.
(٣) نفسه ج ١ ص ١٠٥.
(٤) نفسه.

فلقد أحصيت لنا ثلاث انهزامات، وما أحصيت لحنيفة إلا انهزامة واحدة، التي ألجأناهم فيها إلى الحديقة ـ يعني حديقة الموت[١].

وقال رافع بن خديج: شهدنا اليمامة، فكنا تسعين من النبيت، فلاقينا عدواً صبرا لوقع السلاح، وجماعة الناس أربعة آلاف، وحنيفة مثل ذلك أو نحوه، فلما التقينا أذن الله للسيوف فينا وفيهم، فجعلت السيوف تختلي هام الرجال وأكفهم، وجراحاً لم أر جراحاً قط أبعد غوراً منها، فينا وفيهم، إني لأنظر إلى عباد بن بشر قد ضرب بسيفه حتى انحنى كأنه منجل، فيقيمه على ركبته، فيعرض له رجل من بني حنيفة، فلما اختلفا ضربات ضربه عباد بن بشر على العاتق مستمكناً، فوالله لرأيت سحره بادياً، ومضى عنه عباد، ومررت بالحنفى وبه رمق، فأجهزت عليه، وأنظر بعد إلى عباد وقد اختلفت السيوف عليه وهو يبضع بها ويبعج بطنه، فوقع وما أعلم به مصحاً، وكانوا حنقوا عليه لأنه أكثر القتل فيهم. قال: وحرضت على قتلته، فناديت أصحابنا من النبيت، فقمنا عليه، وقتلنا قتلته، فرأيتهم حوله مقتلين، فقلت: بعداً لكم[٢].

وقال ضمرة بن سعيد المازني، وذكر ردة بني حنيفة: لم يلق المسلمون عدواً أشد لهم نكاية منهم، لقوهم بالموت الناقع، وبالسيوف قد أصلتوها قبل النبل، وقبل الرماح، وقد صبر المسلمون لهم، فكان المعول يومئذ على أهل السوابق، ونادى عباد بن بشر يومئذ وهو يضرب بالسيف ـ قد قطع من الجراح ـ وما هو إلا كالنمر الجرف، فيلقى رجلاً من بني حنيفة كأنه جمل صئول، فقال: هلم يا أخا الخزرج، أتحسب قتالنا مثل من لاقيت، فيعمد له عباد، ويبدره الحنفي، ويضربه ضربة بالسيف، فانكسر سيفه ولم يصنع شيئاً، وضربه عباد فقطع رجليه وجاوزه وتركه ينؤ على ركبتيه، فناداه: يا ابن الأكارم اجهز علي، فكر عليه عباد، فضرب عنقه، ثم قام آخر في ذلك المقام، فاختلفا ضربات وتجاولا،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نفسه ج١ ص ١١٢ ـ ١١٣.

وعباد على ذلك كثير الجراح، فضربه عباد ضربة أبدى سحره، وقال: خذها وأنا ابن وقش، ثم جاوزه يفري في بني حنيفة ضرباً فريا، فكان يقال: قتل عباد يومئذ من بني حنيفة بالسيف أكثر من عشرين رجلاً، وأكثر فيهم الجراح[١].

قال ضمرة: فحدثني رجل من بني حنيفة قديم قال: إن حنيفة لتذكر عباد ابن بشر، فإذا رأت الجراح بالرجل منهم تقول: هذا ضرب مجرب القوم، عباد ابن بشر[٢].

١٢٨ أ وفي بعض الروايات عن /حديث رافع بن خديج قال: خرجنا من المدينة ونحن أربعة آلاف، وأصحابنا من الأنصار ما بين خمسمائة إلى أربعمائة، وعلى الأنصار ثابت بن قيس، ويحمل رايتنا أبو لبابة، فانتهينا إلى اليمامة، فننتهي إلى قوم هم الذين قال الله تعالى: ﴿ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد، تقاتلونهم أو يسلمون﴾ (١٦ : الفتح)، فلما صففنا صفوفنا ووضعنا الرايات مواضعها، لم يلبثوا أن حملوا علينا، فهزمونا مراراً، فنعود إلى مصافنا وفيها خلل، وذلك أن صفوفنا كانت مختلطة، فيها حشو كثير من الأعراب في خلال صفوفنا، فينهزم أولئك الناس فيستخفون أهل البصائر والنيات، حتى كثر ذلك منهم، ثم إن الله بمنه وفضله رزقنا عليهم الظفر، وذلك أن ثابت بن قيس نادى خالد بن الوليد: أخلصنا، فقال: ذلك إليك، فناد في أصحابك، قال: فأخذ الراية ونادى: يا للأنصار، فتسللت إليه رجلاً رجلاً، فنادى خالد للمهاجرين، فأحدقوا به، ونادى عدي بن حاتم، ومكنف بن زيد الخيل الطائي بطيىء، فثابت إليهما طيىء، وكانوا أهل بلاء حسن، وعزلت الأعراب عنا ناحية، فقاموا من ورائنا غلوة أو أكثر، وإنما كنا نؤتي من الأعراب[٣].

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ١١٦.
(٢) نفسه ج ١ ص ١١٧.
(٣) نفسه ج١ ص١١٣ - ١١٤، وفي ابن أعثم الكوفي. الفتوح ج١ ص ٣٥ - ٣٦: «... قال رافع بن خديج الأنصاري: والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى: ﴿ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون﴾ فلم نعلم من هم حتى دعانا أبو بكر رضي الله عنه إلى قتال بني حنيفة، فلما قاتلناهم علمنا أنهم أولو بأس شديد، وذلك أنهم هزمونا نيفاً على عشرين هزيمة، وقتلوا منا مقتلة عظيمة وكادوا أن يفضحونا مراراً غير أن الله عز وجل أحب أن يعز دينه».

قال رافع: فانتهينا إلى جمعهم فصبروا وصبرنا صبراً لم ير مثله قط، لم تزل الأقدام، فذكرت بيتي قيس بن الحطيم:

إذا ما فررنا كان أسوا فرارنا صدود الخدود وازورار المناكب

صدود الخدود والقنا متشاجر ولا تبرح الأقدام عند التضارب[1]

(الطويل)

قال: واجهضهم أهل السوابق والبصائر، فهم في نحورهم ما يجد أحد مدخلاً إلا أن يقتل رجل منهم، أو يخرج فيقع، فيخلف مقامه آخر، حتى أوجعنا فيهم وبان خلل صفوفهم، وضجوا من السيف، ثم اقتحمنا الحديقة، فضاربوا فيها، وعلقنا الحديقة، وأقمنا على بابها رجالاً لئلا يهرب منهم أحد، فلما رأوا ذلك عرفوا أنه الموت، فجدوا في القتال، ودكت السيوف بيننا وبينهم، ما فيها رمي بسهم ولا حجر ولا طعن برمح حتى قتلنا عدو الله مسيلمة، فقيل لرافع: يا أبا عبدالله، أي القتلى كان أكثر، قتلاكم أو قتلاهم؟ قال: قتلاهم أكثر من قتلانا وأخبث، أحسبنا قتلنا منهم ضعف ما قتلوا منا مرتين، فقد قتل من الأنصار يومئذ زيادة على التسعين، وجرح منهم مائتان، ولقد لقينا بني سليم بالجواء، وأنهم لمجروحون، فأبلوا بلاء حسناً[2].

وكان أبو خيثمة النجاري يقول: لما انكشف المسلمون يوم اليمامة تنحيت ناحية، وكأني أنظر إلى أبي دجانة يومئذ ما يولي ظهره منهزماً، وما هو إلا في نحور القوم، حتى قتل ـ رحمه الله ـ وكان يختال في مشيته عند الحرب سجية، ما يستطيع غير ذلك. قال: وكرت عليه طائفة من بني حنيفة، فما زال يضرب بالسيف أمامه وعن يمينه وعن شماله، فحمل على رجل فصرعه، وما ينبس بكلمة، حتى انفرجوا عنه ونكصوا على أعقابهم، والمسلمون مولون، وقد ابيض

---

(١) الأبيات في ديوانه ص ٤١، والخزانة للبغدادي ج٣ ص ١٦٥، والأشباه والنظائر للخالديين ص ٢٧ ـ ٢٨.

وراجع: ابن جبيش. كتاب الغزوات ج ١ ص ١١٤ ـ ١١٥.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١١٥.

ما بينهم وبينه، فما ترى إلا المهاجرين والأنصار، لا والله ما أرى أحداً يخالطهم، فقاموا ناحية، وتلاحق الناس، فدفعوا حنيفة دفعة واحدة، فانتهينا بهم إلى الحديقة، فأقحمناهم إياها.

قال أبو دجانة: ألقوني على الترسة حتى أشغلهم، فكانوا قد أغلقوا الحديقة، فأخذوه فألقوه على الترسة، حتى وقع في الحديقة، وهو يقول: لا ينجيكم منا الفرار، فضاربهم حتى فتحها، ودخلنا عليه مقتولاً ـ رحمه الله[١].

وقد روى أن البـراء بن مالك هو المرمي به في الحديقة، والأول أثبت.

وقال ثابت بن قيس ـ يومئذ: يا معشر الأنصار، الله الله ودينكم، علمنا هؤلاء أمراً ما كنا نحسنه، ثم أقبل على المسلمين، فقال: أف لكم ولم تعملون، ثم قال: خلوا بيننا وبينهم، أخلصونا، فأخلصت الأنصار، فلم يكن لهم ناهية حتى انتهوا إلى محكم بن الطفيل، فقتلوه، ثم انتهوا إلى الحديقة فدخلوها، فقاتلوا أشد القتال، حتى اختلطوا فيها، فما يعرف بعضهم بعضاً إلا بالشعار، وشعارهم: أمت أمت، ثم صاح ثابت صيحة يستجلب بها المسلمين: يا أصحاب سورة البقرة، يقول رجل من طيء: والله ما معي منها آية، وإنما يريد ثابت: يا أهل القرآن[٢].

وقال واقد بن عمرو بن سعد بن معاذ: لما زحف المسلمون، انكشفوا أقبح الانكشاف، حتى ظن ظانهم أن لا تكون لهم فئة في ذلك اليوم، والناس أوزاع قد هدأ حسهم. وأشرت حنيفة وأظهروا البغي، وأوفى عباد بن بشر على نشز من الأرض، ثم صاح بأعلى صوته: أنا عباد بن بشر، يا للأنصار، يا للأنصار، ألا إلى، ألا إلى، فأقبلوا إليه جميعاً، وأجابوه: لبيك لبيك، حتى توافوا عنده، فقال: فداكم أبي وأمي، حطموا جفون السيوف، ثم حطم جفن سيفه، فألقاه، وحطمت الأنصار جفون سيوفهم، ثم قال: حملة صادقة، اتبعوني، فخرج أمامهم

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ١١٧ ـ ١١٨.
(٢) نفسه ج١ ص ١١٨ ـ ١١٩.

حتى ساقوا حنيفة منهزمين، حتى انتهوا بهم إلى الحديقة، فأغلق عليهم، فأوفى عباد بن بشر يشرف على الحديقة وهم فيها، فقال للرماة: ارموا، فرموا أهل الحديقة بالنبل حتى ألجئوهم أن اجتمعوا في ناحية منها لا يطلع النبل عليهم، ثم إن الله فتح الحديقة، فاقتحم عليهم المسلمون، فضاربوهم ساعة، ثم أغلق عباد باب الحديقة لما كل أصحابه، وكره أن تفر حنيفة، وجعل يقول: اللهم إني أبرأ إليك مما جاءت به حنيفة[1].

قال واقد بن عمرو: فحدثني من رأى عباد بن بشر ألقى درعه على باب الحديقة، ثم دخل بالسيف صلتا يجالدهم حتى قتل - رحمه الله[2].

وقال أبو سعيد الخدري: سمعت عباد بن بشر يقول حين فرغنا من بزاخة: يا أبا سعيد، رأيت الليلة كأن السماء فرجت، ثم أطبقت علي، فهي إن شاء الله الشهادة، قال: قلت: خيراً والله، قال أبو سعيد: فأنظر إليه يوم اليمامة وإنه ليصيح بالأنصار ويقول: أخلصونا، فأخلصوا أربعمائة رجل، لا يخلطهم أحد، يقدمهم البراء بن مالك وأبو دجانة سماك بن خرشة وعباد بن بشر، حتى انتهوا إلى باب الحديقة.

قال أبو سعيد: فرأيت بوجه عباد - يعني بعد قتله - ضرباً كثيراً، وما عرفته إلا بعلامة كانت في جسده[3].

وكان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - لما انصرف إليه أسامة بن زيد من بعثه إلى الشام، بعثه في أربعمائة مددا لخالد بن الوليد، فأدرك خالداً قبل أن يدخل اليمامة بثلاث، فاستعمله خالد على // الخيل مكان البراء بن مالك، وأمر البراء أن يقاتل راجلا، فاقتحم عن فرسه، وكان راجلاً لا رجلة به، فلما انكشف الناس يوم اليمامة، وانكشف أسامة بأصحاب الخيل، صاح المسلمون: يا

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ١٢١ - ١٢٢.
(٢) نفسه ج ١ ص ١٢٢.
(٣) نفسه ج١ ص ١٣٠ - ١٣١.

خالد، ول البراء بن مالك، فعزل أسامة، ورد الخيل إلى البراء، فقال له: اركب في الخيل، فقال البراء: وهل لنا من خيل؟ قد عزلتني وفرقت الناس عني، فقال له خالد: ليس حين عتاب، اركب أيها الرجل في خيلك، أما ترى ما لحم من الأمر، فركب البراء فرسه، وإن الخيل لأوزاع في كل ناحية، وما هي إلا الهزيمة، فجعل يليح بسيفه وينادي: يا صحابة، يا للأنصار، يا للأنصار، يا خيلاه، يا خيلاه، أنا البراء بن مالك، فثابت إليه الخيل من كل ناحية، وثابت إليه الأنصار، فارسها وراجلها[1].

قال أبو سعيد الخدري: فقال لنا: احملوا عليهم فداكم أبي وأمي - حملة صادقة، تريدون فيها الموت، ثم أظهر التكبير، وكبرنا معه، فما كانت لنا ناهية إلا باب الحديقة، وقد غلقت دوننا، وازدحمنا عليهم، فلم نزل حتى فتح الله، وظفرنا، فله الحمد[2].

وقال عبدالله بن أبي بكر بن حزم: كان البراء فارساً، وكان إذا حضرته الحرب أخذته رعدة، وانتفض حتى يضبطه الرجال مليا، ثم يفيق فيبول بولاً أحمر كأنه نقاعة الحناء، فلما رأى ما يصنع بالناس يومئذ من الهزيمة أخذه ما كان يأخذه، فانتفض وضبطه أصحابه، وجعل يقول: طروني إلى الأرض، فلما أفاق سري عنه، وهو مثل الأسد، وهو يقول:

أسعدني ربي على الأنصار	كانوا يدا طرا على الكفار
في كل يوم ساطع الغبار	فاستبدلوا النجاة بالفرار[3]

(الرجز)

قال: وضرب بسيفه قدما، حتى أفرجوا له، وخاض غمرتهم، وثابت إليه الأنصار كأنها النحل تأوي إلى يعسوبها، وتلاومت الأنصار فيما صنعت.

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ١٢٨ - ١٢٩.
(٢) نفسه ج ١ ص ١٢١.
(٣) نفسه ج١ ص ١٢٩.

وحدث عن خالد بن الوليد من سمعه يقول: شهدت عشرين زحفاً، فلم أر قوماً أصبر لوقع السيوف ولا أضرب بها ولا أثبت أقداماً من بني حنيفة يوم اليمامة، أنا لما فرغنا من طليحة الكذاب، ولم تكن له شوكة، قلت كلمة والبلاء موكل بالقول: وما حنيفة، ما هي إلا كمن لقينا فلقينا قوماً ليسوا يشبهون أحداً، لما انتهينا إلى عسكرهم نظرت إلى قوم قد قدموا أمام عسكرهم بشراً كثيراً، فقلت: هذه مكيدة، وإذا القوم لم يحفلوا بنا، فعسكرنا منهم بمنظر العين، فلما أمسيت حزرت القوم بنفسي، فإذا القوم نحونا، فبتنا في عسكرنا، وباتوا في عسكرهم، فلما طلع الفجر قام القوم إلى التعبئة، وثرنا معهم في غدوة باردة، وصففت صفوفي، وصفوا صفوفهم، ثم أقبلوا إلينا يقطون قطوا، قد سلوا السيوف، فكبرت، ورأيت ذلك منهم فشلا، فلما دنوا منا نادوا: أن هذا ليس بفشل، ولكنها الهندوانية وخفنا التحطم عليها، فما هو إلا أن واجهونا، حملوا علينا حملة واحدة، وانهزمت الأعراب، ولاذوا بين أضعاف الصفوف، فانهزم معهم أهل النيات، وأوجعت حنيفة في أدبارهم بالقتل، وتقدمت أضرب بسيفي مرة يشتملون على، ومرة أنفذ منهم، وكر المسلمون كرة ثانية، فحملت بنو جنيفة - أيضاً - حتى هزموا المسلمين ثلاث مرات، وإنما ينهزم بالناس الأعراب، فناديت في المسلمين، فذكرتهم الله، وناديت في المهاجرين والأنصار: الله الله، الكرة على عدوكم، فنادى أهل السوابق: أخلصونا، فأخلصوا، لا يخلطهم رجل، فأخلص قوم قد ألح السيف عليهم، وقتل من قتل منهم، ومن بقي من أهل النيات منقطع من الجراح، ولكنا لم نجد المعول إلا عليهم ولا الصبر إلا عندهم، فصفوا جميعاً في نحر العدو، وجاءت الأعراب من خلفهم، وذهبت حنيفة تطلب أن تهزمهم كما كانت تفعل، فثبتوا على مصافهم لا تزول فترا، واختلفت السيوف بينهم، وصبر الفريقان جميعاً، وذهب الأعراب من ورائنا، فحملنا عليهم حملة، فما زادت حنيفة على أن رجعت القهقري ما تولى الأدبار، حتى وقفوا على باب الحديقة، واختلفت السيوف بيننا وبينهم حتى نظرت إلى شهب النار، وحتى صارت القتلى منا ومنهم ركاماً، وقد أغلقت الحديقة، فدخل

من رحمه الله فشغلهم عن الباب حتى دخلنا، فإذا أهل السوابق قد وطنوا أنفسهم على الموت، فما هو إلا أن عاينتهم حنيفة في الحديقة، فناديت أصحابي: عضواً على النواجذ، لا أسمع شيئاً إلا وقع الحديد بعضه على بعض، فما كان شيء حتى قتل عدو الله، فما ضرب أحد بعده من بني حنيفة بسيف، ولقد صبروا لنا من حين طلعت الشمس إلى صلاة العصر، ولقد رأيتني في الحديقة وعانقني رجل منهم وأنا فارس وهو فارس، فوقعنا عن فرسينا، ثم تعانقنا بالأرض، فأجؤه بخنجر في سيفي، وجعل يجؤني بمعول في سيفه، فجرحني سبع جراحات، وقد جرحته جرحاً أثبته، فاسترخى في يدي، وما بي حركة من الجراح، وقد نزفت من الدم إلا أنه سبقني بالأجل، فالحمد لله على ذلك[1].

وحدث ضمرة بن سعيد: أنه خلص يومئذ إلى معكم بن طفيل وهو يقول: يا بني حنيفة قاتلوا قبل أن تستحقب الكرائم غير رضيات، وينكحن غير حظيات، وما كان عندكم من حسب فأخرجوه، فقد لحم الأمر، واحتيج إلى ذلك منكم، وجعل يقول: يا بني حنيفة ادخلوا الحديقة، سأمنع دابركم، وجعل يرتجز:

لبئسما أوردنـــا مسيلمـــة أورثنـا مـــن بعـــده أغيلمـــة

(الرجز)

فدخلوا الحديقة وغلقوها عليهم، ورمى عبد الرحمن بن أبي بكر محكماً بسهم فقتله، فقام مكانه المعترض بن عمه، فقاتل ساعة حتى قتله الله[2].

وفي غير حديث ضمرة أن خالد بن الوليد هو الذي قتل محكماً.

حدث الحارث بن الفضل، قال: لما رأى محكم بن طفيل من قتل قومه ما رأى، جعل يصيح: ادن يا أبا سليمان، فقد جاءك الموت الناقع، قد جاءك قوم لا يحسنون الفرار، فبلغت خالداً كلمته وهو في مؤخر الناس، فأقبل يقول: هأنذا أبو سليمان، وكشف المغفر عن وجهه، ثم حمل على ناحية محكم يخوض بني

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) نفسه ج ١ ص ١١٩.

حنيفة، فاقتحم عليه خالد، فيضربه ضربة أرعش منها، ثم ثنى له بأخرى وهو يقول: خذها // وأنا أبو سليمان، فوقع ميتاً، وكان عبد الرحمن بن أبي بكر قد ١٢٩ أ رماه بسهم قبل ذلك، ومنهم من يقول: رماه عبد الرحمن بعد ضربة خالد، ومنهم من يقول: لم يكن من سهم عبد الرحمن شيء(١).

وقاتلت حنيفة بعد قتل محكم بن طفيل أشد القتال، وهم يقولون: لا بقاء بعد محكم، وقال قائل: يا أبا ثمامة، أين ما كنت وعدتنا؟ قال: أما الدين فلا دين، ولكن قاتلوا عن أحسابكم، فاستيقن القوم أنهم كانوا على غير شيء.

وقال وحشي: لما اختلط الناس في الحديقة، وأخذت السيوف بعضها بعضاً، نظرت إلى مسيلمة وما أعرفه، ورجل من الأنصار يريده، وأنا من ناحية أخرى أريده، فهززت من حربتي حتى رضيت منها، ثم دفعتها عليه، وضربه الأنصاري، فربك أعلم أينا قتله، إلا أني سمعت امرأة فوق الدير تقول: قتله العبد الحبشي(٢).

وقال أبو الحويرث: ما رأيت أحداً يشك أن عبدالله بن زيد الأنصاري ضرب مسيلمة وزرقه وحشي فقتلاه جميعاً(٣).

وذكر عمرو بن يحيي المازني عن عبدالله بن زيد أنه كان يقول: أنا قتلته.

وكان معاوية بن أبي سفيان يقول: أنا قتلته(٤).

وكانت أم عبدالله بن زيد، وهي أم عمارة، نسيبة بنت كعب تقول: إن ابنها عبدالله هو الذي قتله. وكانت ممن شهد ذلك اليوم، وقطعت فيه يدها، وذلك أن ابنها حبيب بن زيد كان مع عمرو بن العاص بعمان عندما توفي رسول الله - ﷺ - فلما بلغ ذلك عمرا، أقبل من عمان، فسمع به مسيلمة، فاعترض له،

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٣١.
(٢) نفسه ج ١ ص ١٣٩ - ١٤٠.
(٣) نفسه ج ١ ص ١٤٠.
(٤) نفسه.

فسبقه عمرو، وكان حبيب بن زيد وعبدالله بن وهب الأسلمي في الساقة، فأصابهما مسيلمة، فقال لهما: أتشهدان أني رسول الله، فقال الأسلمي: نعم، فأمر به فحبس في حديد، وقال لحبيب: أتشهد أني رسول الله، فقال: لا أسمع، فقال: أتشهد أن محمداً رسول الله، قال: نعم، فأمر به فقطع. وكلما قال له: أتشهد أني رسول الله، قال: لا أسمع، فإذا قال له: أتشهد أن محمداً رسول الله، قال: نعم، حتى قطعه عضواً عضواً، حتى قطع يديه من المنكبين ورجليه من الوركين، ثم حرقه بالنار، وهو في كل ذلك لا ينزع عن قوله، ولا يرجع عن ما بدأ به، حتى مات في النار ـ رحمه الله.

فلما تهيأ بعث خالد بن الوليد إلى اليمامة جاءت أم عمارة إلى أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فاستأذنته في الخروج، فقال لها أبو بكر: ما مثلك يحال بينه وبين الخروج، قد عرفناك وعرفنا جزاءك في الحرب، فاخرجي على اسم الله.

قالت فيما حدث به عنها ابن ابنها عباد بن تميم بن زيد: فلما انتهوا إلى اليمامة، واقتتلوا، تداعت الأنصار: أخلصونا، فأخلصوا، فلما انتهينا إلى الحديقة ازدحمنا على الباب، وأهل النجدة من عدونا في الحديقة، قد انحازوا، يكونون فئة لمسيلمة، فاقتحمنا فضاربناهم ساعة، والله يا بني ما رأيت أبذل لمهج أنفسهم منهم، وجعلت أقصد لعدو الله مسيلمة لأن أراه، وقد عاهدت الله لئن رأيته لا أكذب عنه أو أقتل دونه، وجعلت الرجال تختلط، والسيوف بينهم تختلف، وخرص القوم، فلا صوت إلا وقع السيوف، حتى بصرت بعدو الله، فأشد عليه، ويعرض لي منهم رجل، فضرب يدي فقطعها، فوالله ما عرجت عليها حتى أنتهى إلى الخبيث وهو صريع، وأجد ابني عبدالله قد قتله.

وفي رواية: وابني يمسح سيفه بثيابه، فقلت: أقتلته؟ قال: نعم يا أمه، فسجدت لله شكراً[٢]، وقطع الله دابرهم، فلما انقطعت الحرب، ورجعت إلى

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٣٥ ـ ١٣٨.
(٢) نفسه ج ١ ص ١٣٦.

منزلي، جائني خالد بن الوليد بطبيب من العرب، فداواني بالزيت المغلي، وكان والله أشد على من القطع، وكان خالد كثير التعاهد لي، حسن الصحبة لنا، يعرف لنا حقنا، ويحفظ فينا وصية نبينا - ﷺ - قال عباد: فقلت: يا جدة، كثرت الجراح في المسلمين؟ فقالت: يا بني، لقد تحاجز الناس، وقتل عدو الله، وإن المسلمين لجرحى كلهم، لقد رأيت بني أبي بجرحين، ما بهم حركة، ولقد رأيت بني مالك بن النجار بضعة عشر رجلاً، لهم أنين يكمدون ليلتهم بالنار، ولقد أقام الناس باليمامة خمس عشرة ليلة، وقد وضعت الحرب أوزارها، وما يصلي مع خالد بن الوليد من المهاجرين والأنصار إلا نفر يسير من الجراح، وذلك أنا أتينا من قبل العرب، انهزموا بالمسلمين، إلا أني أعلم أن طيئاً قد أبلت يومئذ بلاء حسنا، لقد رأيت عدي بن حاتم يومئذ يصيح بهم: صبرا، فداكم أبي وأمي لوقع الأسل، وإن ابني زيد الخيل يومئذ ليقاتلان قتالاً شديداً[1].

وعن محمد بن يحيي بن حبارة قال: جرحت أم عمارة - يعني يوم اليمامة - أحد عشر جرحاً بين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، وقطعت يدها سوى ذلك، فَرُئِيَ أبو بكر يأتيها يسأل عنها، وهو يومئذ خليفة[2].

وقاتل كعب بن عجرة يومئذ، وانهزم الناس الهزيمة الآخرة، وجاوزوا الرحال منهزمين، فجعل يصيح: يا للأنصار، يا للأنصار الله ورسوله، حتى انتهى إلى محكم بن الطفيل، فضربه محكم، فقطع شماله، فوالله ما عرج عليها كعب، وأنه ليضرب بيمينه، وإن شماله لتهراق الدماء، حتى انتهى إلى الحديقة، فدخل.

وأقبل حاجب بن زيد بن تميم الأشهلي يصيح بالأوس: يا للأشهل، فقال له ثابت بن هذال: ناد ياللأنصار، فإنه جماع لنا ولك، فنادى: ياللأنصار، يا للأنصار، حتى اشتملت عليه حنيفة، فانفرجت، وتحته منهم اثنان قد قتلهما، وقتل - رحمه الله - فخلفه في مقامه عمير بن أوس، فاشتملوا عليه حتى قتل - رحمه الله[3].

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٣٨.
(٢) نفسه ج ١ ص ١٣٦.
(٣) نفسه ج ١ ص ١٣٤ - ١٣٥.

وكان أبو عقيل الأزرقي ـ حليف الأنصار ـ بدري من أول من خرج يوم اليمامة، رمى بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده، فشطب في غير مقتل، فأخرج السهم، ووهن شقه الأيسر، وكانت فيه، وهذا أول النهار وجرروه إلى الرحل، فلما حمي القتال وانهزم المسلمون وجاوزوا رحالهم، وأبو عقيل واهن من جرحه، سمع معن بن عدي يصيح: يا للأنصار، الله الله والكرة على عدوكم، وأعنق معن بن عدي يقدم القوم، وذلك حين صاحت // الأنصار: أخلصونا، فأخلصو رجلاً رجلاً، يتميزون.

١٢٩ ب

قال أبو عمرو. ونهض أبو عقيل يريد قومه، فقلت: ما تريد يا أبا عقيل؟ ما فيك قتال، قال: قد نوه المنادى باسمي، فقلت: إنما يقول: يا للأنصار، لا يعني الجرحى، قال: فأنا رجل من الأنصار، وأنا أجيب ولو جبنوا، قال ابن عمر: فتحزم أبو عقيل، فأخذ السيف بيده اليمنى مجرداً، ثم جعل ينادي: يا للأنصار، كرة كيوم حنين، فاجتمعوا جميعاً يقدمون المسلمين دريئة دون عدوهم، حتى أقحموا عدوهم الحديقة، فاختلطوا واختلفت السيوف بيننا وبينهم، فنظرت إلى أبي عقيل وقد قطعت يده المجروحة من المنكب، فوقعت إلى الأرض، وبه أربعة عشر جرحاً، كلها قد خلصت إلى مقتل، وقتل عدو الله مسيلمة.

قال ابن عمر: فوقفت على أبي عقيل وهو صريع بآخر رمق، فقلت: يا أبا عقيل، فقال لبيك ـ بلسان ملتاث ـ ثم قال: لمن الدبرة، فقلت: أبشر ـ ورفعت صوتي ـ قد قتل عدو الله، فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله، ومات ـ رحمه الله.

قال ابن عمر: فأخبرت أبي بعد أن قدمت بخبره كله، فقال ـ رحمه الله ـ مازال يسأل الشهادة ويطلبها، وإن كان ما علمت لمن خيار أصحاب نبينا ـ ﷺ ـ وقديمي إسلامهم[1].

وذكر مجاعة بن مرارة ـ يوماً ـ معن بن عدي، وكان نازلاً به ليالي قدم على رسول الله ـ ﷺ ـ مع خلة كانت بينهما قبل ذلك قديمة، فلما قدم في وفد

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٢٦ ـ ١٢٨.

اليمامة على أبي بكر، توجه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يوماً إلى قبور الشهداء زائراً لهم في نفر من أصحابه يمشون، قال: فخرجت معهم حتى أتوا قبور الشهداء السبعين ـ يرحمهم الله ـ فقلت: يا خليفة رسول الله، لم أر قوماً ـ قط ـ أصبر لوقع السيوف، ولا أصدق كرة منهم، لقد رأيت رجلاً منهم ـ يرحمهم الله ـ وكانت بيني وبينه خلة، فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه: معن بن عدي؟ قلت: نعم، وكان عارفاً بما كان بيني وبينه، فقال: رحمه الله، ذكرت رجلاً صالحاً، حديثك، قلت: يا خليفة رسول الله، فأنظر إليه وأنا موثق في الحديد في فسطاط ابن الوليد، وانهزم المسلمون، انهزمت بهم الضاحية انهزامة ظننت أنهم لا يجتبرون لها، وساءني ذلك، قال أبو بكر: الله، لساءك ذلك؟ قلت: الله لساءني، قال أبو بكر: الحمد لله على ذلكَ، قال: فأنظر إلى معن بن عدي قد كر معلماً في رأسه بعصابة حمراء، واضعاً سيفه على عاتقه، وإنه ليقطر دماً، ينادي: يا للأنصار، كرة صادقة، قال: فكرت الأنصار عليه، فكانت الوقعة التي ثبتوا عليها حتى انتحوا وأباحوا عدوهم، فلقد رأيتني وأنا أطوف مع خالد بن الوليد أعرفه قتلى بني حنيفة، وإني لأنظر إلى الأنصار وهم صرعى، فبكى أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ حتى بل لحيته[1].

وعن أبي سعيد الخدري قال: دخلت الحديقة حين جاء وقت الظهر، واستحر القتال، فأمر خالد بن الوليد المؤذن، فأذن على جدار الحديقة بالظهر، والقوم يضطربون على القتل، حتى انقطعت الحرب بعد العصر، فصلى بنا خالد الظهر والعصر، ثم بعث السقاة يطوفون على القتلى، فطفت معهم، فمررت بأبي عقيل الأنصاري البدري، وبه خمسة عشر جرحاً، فاستسقاني، فسقيته، فخرج الماء من جراحاته كلها، ومات ـ رحمه الله ـ ومررت ببشر بن عبدالله وهو قاعد في حشوته، فاستسقاني، فسقيته، فمات، ومررت بعامر بن ثابت العجلاني وإلى جنبه رجل من بني حنيفة به جراح، فسقيت عامراً فشرب وقال الحنفي: اسقني

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

فدى لك أبي وأمي، قلت: لا كرامة، ولكني أجهز عليك، قال: قد أحسنت لي مسألة ولا شيء عليك فيها، أسألك عنها، قلت: وما هي؟ قال: أبو ثمامة، ما فعل؟ قلت: قتل والله، قال: نبي ضيعه قومه، قال أبو سعيد: فضربت عنقه[1].

وعن محمود بن لبيد قال: لما قتل خالد بن الوليد من أهل اليمامة من قتل، كانت لهم في المسلمين ـ أيضاً ـ مقتلة عظيمة، حتى أبيح أكثر أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وقيل: لا نغمد السيوف وبيننا وبينهم عين تطرف وكان فيمن بقي من المسلمين جراحات كثيرة، فلما أمسى مجاعة بن مرارة، أرسل إلى قومه ليلاً: أن ألبسوا السلاح النساء والذرية والعبيد، ثم إذا أصبحتم فقوموا مستقبلي الشمس على حصونكم حتى يأتيكم أمري، وبات خالد والمسلمون يدفنون قتلاهم، فلما فرغوا، رجعوا إلى منازلهم، فباتوا يتكمدون بالنار من الجراح، فلما أصبح خالد، أمر بمجاعة، فسيق معه في الحديد، فجعل يستبرىء القتلى، وهو يريد مسيلمة، فمر برجل وسيم، فقال: يا مجاعة، أهو هذا؟ قال: لا، هذا والله أكرم منه، هذا محكم بن الطفيل، ثم قال مجاعة: إن الذي تبتغون رجل ضخم أشعر البطن والظهر، أبجر، بجرته مثل القدح، مطرق إحدى العينين، ويقال: هو أريجل أصيفر أخينس، قال: وأمر خالد بالقتلى، فكشفوا حتى وجد الخبيث، فوقف عليه خالد، فحمد الله كثيراً، وأمر به فألقى في البئر التي كان يشرب منها[2].

قالوا: ولما أمسينا، أخذنا شعل السعف، ثم جعلنا نحفر لقتلانا حتى دفناهم جميعاً، بدمائهم وثيابهم، وما صلينا عليهم، وتركنا قتلى بني حنيفة، فلما صالحوا خالداً طرحوهم في الآبار[3].

وكان خالد يرى أنه لم يبق من بني حنيفة أحد إلا من لا ذكر له ولا قتال

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ١٣٣.
(٢) نفسه ج١ ص ١٤١ ١٤٢.
(٣) نفسه ج ١ ص ١٤١.

عنده، فقال خالد لما وقف على مسيلمة مقتولا: يا مجاعة، هذا صاحبكم الذي فعل بكم الأفاعيل، ما رأيت عقولاً أضعف من عقول أصحابك، مثل هذا فعل بكم ما فعل، فقال مجاعة: قد كان ذلك يا خالد، ولا تظن أن الحرب انقطعت بينك وبين بني حنيفة، وإن قتلت صاحبهم، إنه والله ما جاءك إلا سرعان الناس، وإن جماعة الناس وأهل البيوتات لفى الحصون، فانظر، فرفع خالد بن الوليد رأسه وهو يقول: قاتلك الله، ما تقول؟ قال: أقول والله الحق، فنظر خالد، فإذا السلاح، وإذا الخلق على الحصون، فرأى أمراً غمه، ثم تشدد ساعتئذ وأدركته الرجولية، فقال لأصحابه: يا خيل الله اركبي، وجعل يدعو بسلاحه، ويقول: يا صاحب الراية قدمها، قال: والمسلمون كارهون لقتالهم، وقد ملوا الحرب، وقتل من // قتل وعامة من بقي جريح، فقال مجاعة: أيها الرجل، إني لك ناصح، إن السيف قد أفناك وأفنى غيرك، فتعال أصالحك عن قومي، وقد أخل بخالد[1] مصاب أهل السابقة، ومن كان يعرف عنده الغناء، فقد رق وأحب الموادعة مع عجف الكراع، فاصطلحا على الصفراء والبيضاء، والحلقة والكراع، ونصف السبي، ثم قال مجاعة: آتي القوم فأعرض عليهم ما صنعت، قال: فانطلق، فذهب ثم رجع، فأخبره أنهم قد أجازوه، فلما بان لخالد أنه إنما هو السبي، قال: ويلك، يا مجاعة خدعتني في يوم مرتين[1]، قال مجاعة: قومي، فما أصنع، وما وجدت من ذلك بدا، قد حضني النساء، وأنشده قول امرأة من بني حنيفة:

١٣٠ أ

مسيلم لم يبـــق إلا النســـــاء	سبـــايـــا لـــذي الخف والحافـــر
وطفـــل تـــرشحـــه أمـــه	حفير متى يـــدع يستـــأخـــر
فـــأمـــا الرجـــال فـــأودى بهم	حـــوادث مـــن دهـــرنـــا العـــاثـــر
فليـــت أبـــاك مضى حيضـــه	وليتـــك لم تـــك في الغـــابـــر
سحبـــت علينـــا ذيـــول البلاء	وجئـــت بهن سمـــى قـــاشر

(١) المصدر السابق ج١ ص ١٤٣ ـ ١٤٤، و١٤٧ ـ ١٤٨، وعن صلح خالد ومجاعة راجع ابن أعثم الكوفي. الفتوح ج١ ص ٣٩ ـ ٤٢.

فمجـاعــة الخير فــانظــر لنــا فليس لنـا اليــوم مــن نــاظــر
ســواك فــإنــا على حــالــة تــروعنــا مــرة الطــائــر
(المتقارب)

فقال مجاعة: فكنت أجد من هذا بدا.

وذكر أن مجاعة لما ذهب إلى قومه ليعرض عليهم الصلح، انتهى إلى باب الحصن ليلاً، فإذا امرأة تنشد هذا الشعر، فدنا منها مجاعة، فقال: هتم الله فاك، اسكتي، أنا مجاعة، ثم دخل الحصن وليس فيه إلا النساء والصبيان، فأمرهم بلبس السلاح وإطالة الإشراف، والقيام في مصاف الرجال، فقال سلمة بن عمير لأصحابه: يا بني حنيفة قاتلوا ولا تصالحوا خالداً، فإن الحصن حصين، والطعام كثير، والقوم قد أفناهم السيف، ومن بقى منهم جريح، ولا تطيعوا مجاعة، فإنه إنما يريد أن ينفلت من إساره، فقال مجاعة: يا بني حنيفة، أطيعوني واعصوا سلمة، فإني أخاف أن يصيبكم ما قال شرحبيل بن سلمة، أن تستردف النساء سبيات، وينكحن غير حظيات، فأطاعوا مجاعة، وتم الصلح بينه وبين خالد.

وقال أسيد بن حضير وأبو نائلة لخالد لما صالح: يا خالد، اتق الله، ولا تقبل الصلح، قال خالد: إنه قد أفناكم السيف، قال أسيد: وإنه قد أفنى غيرنا أيضاً، قال: فمن بقي منكم جريح، قال: وكذلك من بقي من القوم جرحى، لا ندخل في الصلح أبداً، اغد بنا عليهم حتى يظفرنا الله بهم أو نبيد من آخرنا، احملنا على كتاب أبي بكر: إن أظفرك الله ببني حنيفة فلا تبق عليهم، فقد أظفرنا الله بهم وقتلنا رأسهم، فمن بقي أكل شوكة، فبينما هم على ذلك إذ جاء كتاب أبي بكر يقطر الدم، ويقال: إنهم لم يمسوا حتى قدم سلمة بن سلامة بن وقش من عند أبي بكر بكتابين، في أحدهما:

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإذا جاءك كتابي، فانظر، فإن أظفرك الله ببني حنيفة فلا تستبق منهم رجلاً جرت عليه الموسى.

فتكلمت الأنصار في ذلك، وقالوا: أمر أبي بكر فوق أمرك، فلا تستبق

منهم أحداً، فقال خالد: إني والله ما صالحت القوم إلا لما رأيت من رقتكم، ولما نهكت الحرب منكم، وقوم قد صالحتهم ومضى الصلح فيما بيننا وبينهم، والله لو لم يعطونا شيئاً ما قاتلتهم، وقد أسلموا[1].

قال أسيد بن حضير: قد قتلت مالك بن نويرة وهو مسلم، فسكت عنه خالد، فلم يجبه، قالوا: وقال سلمة بن سلامة بن وقش: لا تخالف كتاب إمامك يا خالد، فقال خالد: والله ما ابتغيت بذلك إلا الذي هو خير، رأيت أهل السابقة وأهل الفضل وأهل القرآن قد قتلوا، ولم يبق معي إلا قوم خشيت أن لا يكون لهم بقاء على السيف لو ألح عليهم، فقبلت الصلح، مع أنهم قد أظهروا الإسلام، واتقوا بالراح.

وكان خالد قد خطب إلى مجاعة ابنته، وكانت أجمل أهل اليمامة، فقال له مجاعة: مهلاً، إنك قاطع ظهري وظهرك عند صاحبك، إن القالة عليك كثيرة، وما أقول هذا رغبة عنك، فقال له خالد: زوجني أيها الرجل، فإنه إن كان أمري عند صاحبي على ما أحب فلن يفسده ما تخاف علي، وإن كان على ما أكره، فليس هذا بأعظم الأمور، فقال له مجاعة: قد نصحتك، ولعل هذا الأمر لا يكون عيبة إلا عليك، ثم زوجه، فلما بلغ ذلك أبا بكر - رضي الله عنه - غضب، وقال لعمر بن الخطاب: وأبي خالد أنه لحريص على النساء، حين يصاهر عدوه، وينسى مصيبته، فوقع عمر في خالد، وعظم الأمر ما استطاع، فكتب أبو بكر إلى خالد مع سلمة بن سلامة:

يا خالد بن أم خالد، إنك لفارغ، تنكح النساء، وتعرس بهن، وببابك دماء ألف ومائتين من المسلمين، لم تجف بعد، ثم خدعك مجاعة عن رأيك فصالحك على قومه، وقد أمكن الله منهم، في كلام غير هذا ذكره وثيمة في الردة[2].

---

(١) ابن حبيش. كتاب الغزوات ج ١ ص ١٤٤ - ١٤٦.

(٢) نفسه ج١ ص ١٤٦ - ١٤٧.

فلما نظر خالد في الكتاب قال: هذا عمل عمر، وكتب إلى أبي بكر جواب كتابه مع أبي برزة الأسلمي:

أما بعد، فلعمري ما تزوجت النساء حتى تم لي السرور، وقرت بي الدار، وما تزوجت إلا إلى امرىء لو أعملت إليه من المدينة خاطباً لم أبل، دع أني استشرت خطبتي إليه من تحت قدمي، فإن كنت كرهت لي ذلك لدين أو دنيا اعتبتك، وأما حسن عزائي على قتلى المسلمين، فوالله لو كان الحزن يبقى حياً أو يرد ميتاً لأبقى حزنى الحي ورد الميت، ولقد أقحمت في طلب الشهادة حتى يئست من الحياة، وأيقنت بالموت، وأما خدعة مجاعة إياي عن رأيي، فإني لم أخط رأي يومي، ولم يكن لي علم بالغيب، وقد صنع الله للمسلمين خيراً، أورثهم الأرض، وجعل لهم عاقبة المتقين.

فلما قدم الكتاب على أبي بكر - رضي الله عنه - رق بعض الرقة، وتم عمر على رأيه الأول في عيب خالد بما صنع، ووافقه على ذلك رهط من قريش، فقام أبو برزة الأسلمي فعذر خالداً، وقال: يا خليفة رسول الله، ما يؤبن خالد بجبن ولا خيانة، ولقد أقحم حتى أعذر، وصبر حتى ظفر، وما صالح القوم إلا على رضاه، وما أخطأ رأيه بصلح القوم، إذ هو لا يرى النساء في الحصون إلا رجالاً، فقال أبو بكر: صدقت لكلامك هذا أولى بعذر خالد من كتابه إلي.

١٣٠ ب وقد كان خالد لما وقع // الصلح، خاف من عمر أن يحمل أبا بكر - رضي الله عنهما - عليه، فكتب إلى أبي بكر كتاباً فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. لأبي بكر خليفة رسول الله من خالد بن الوليد، أما بعد، فإني أقسم بالله أني لم أصالحهم حتى قتل من كنت أقوى به، وحتى عجف الكراع، وهلك الخف، ونهك المسلمون بالقتل والجراح، حتى إني لأفعل أموراً أرى أني فيها معزر [1]، أباشر القتال بنفسي حتى ضعف المسلمون ونهكوا، حتى

---

(١) في «ح»: مغرور

إن كنت لا تنكر، ثم أدخل بسيفي فرقا على المسلمين حتى جاء الله بالظفر، فله الحمد.

فسر أبو بكر بذلك، فدخل عليه عمر وهو يقرأ الكتاب، فدفعه إليه، فقرأه، فقال: إنما راقب خئونتهم وخالف أمرك، ألا ترى إلى ذكره أنه يباشر القتال بنفسه، يمن عليك بذلك. فقال أبو بكر: لا تقل ذلك يا عمر، فإنه والى صدق ميمون النقيبة، ناكى العدو، وقد كان رسول الله - ﷺ - يقدمه ويقربه، وقد ولاه، فقال عمر: ولاه، وخالف أمره، وقبل بدخول الجاهلية حتى كان ما كان، فقال أبو بكر: دع هذا عنك، فقال عمر: سمعاً وطاعة[1].

ولما فرغ خالد من الصلح، أمر بالحصون فألزمها الرجال، وحلف مجاعة بالله لا يغيب عنه شيئاً مما صالحه عليه، ولا يعلم أحداً غيبة إلا رفعه إلى خالد، ثم فتحت الحصون، فأخرج سلاحاً كثيراً، فجمعه خالد على حدة، وأخرج ما وجد فيها من دنانير ودراهم، فجمعه على حدة، وجمع قراعهم، وترك الخف فلم يحركه ولا الرثة، ثم أخرج السبي، فقسمه قسمين، ثم أقرع على القسمين، فخرج سهمه على أحدهما، وفيه: مكتوب لله، ثم جزأ الذي صار له من السبي على خمسة أجزاء، ثم كتب على كل سهم منها: لله، وجزأ الكراع، والحلقة هكذا، ووزن الذهب والفضة، فعزل الخمس، وقسم على الناس أربعة الأخماس، وأسهم للفرس سهمين، ولصاحبه سهماً، وعزل الخمس من ذلك كله، حتى قدم به على أبي بكر الصديق - رضي الله عنه[2].

ولما انقطعت الحرب بين خالد وبين أهل اليمامة، تحول من منزله الذي كان فيه إلى منزل آخر، ينتظر كتاب أبي بكر يأمره أن ينصرف إليه بالمدينة، فبينا هو على ذلك، إذ أقبل سلمة بن عمير الحنفي، وكان من شياطينهم، فقال لمجاعة: استأذن لي على الأمير، فإن لي إليه حاجة، فأبى مجاعة عليه، وقال:

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٢) نفسه ج١ ص ١٤٨ - ١٤٩.

ويحك يا سلمة، ابق على نفسك، فقد آن لك أن تبصر ما أنت فيه، والله لكأني أنظر إلى خالد بن الوليد قد أمر بك فضربت عنقك، فقال سلمة: ما بيني وبين خالد من عتاب، قد قتل قومي، فلهى عنه مجاعة، فجعل يطلب غرة من خالد، فأقبل مع الناس الذين يدخلون عليه، فلما رآه خالد التفت إلى مجاعة، فقال: والله إني لأعرف في وجه هذا الشر، فقام إليه مجاعة وهو يخافه على الذي ظن به، فإذا هو مشتمل على السيف، فقال: يا عدو الله، لعنك الله، لقد أردت أن تستأصل حنيفة، والله لو قتلته ما بقي من حنيفة صغير ولا كبير إلا قتل، ثم لببه بثوبه، وجعل يتله حتى أدخله بيتاً، ثم أوثقه في الحديد، وأغلق عليه، فأفلت من الليل ومعه سيف، فوقع في حائط من حوائط اليمامة، وعلم شأنه وما أراد من ضرب خالد بالسيف، وكان خالد قد أمر به أن تضرب عنقه، فكلمه فيه مجاعة، وقال: هبه لي يا أبا سليمان، فوهبه له، وقال له: أحسن أدبه، فذلك حين حذره مجاعة، فخرج بالسيف واكتنفه أهل اليمامة، فلما رأى ذلك أمال السيف على حلقه، فقطع أوداجه، وسقط في بئر هناك، فانقطع ذكره[1].

وحدث زيد بن أسلم عن أبيه، قال: كان أبو بكر حين وجه خالداً إلى اليمامة، رأى في النوم كأنه أتى بتمر من تمر هجر، فأكل منها تمرة واحدة وجدها نواة على خلقة التمرة، فلاكها ساعة ثم رمى بها، فتأولها، فقال: ليلقين خالد من أهل اليمامة شدة، وليفتحن الله على يديه إن شاء الله، فكان أبو بكر يستروح الخبر من اليمامة بقدر ما يجيء رسول خالد، فخرج أبو بكر يوماً بالعشي إلى ظهر الحرة، يريد أن يبلغ صراراً، ومعه عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله، ونفر من المهاجرين والأنصار، فلقى أبا خيثمة النجاري قد أرسله خالد، فلما رآه أبو بكر قال له: ما وراءك يا أبا خيثمة؟ قال: خير يا خليفة رسول الله، قد فتح الله علينا اليمامة، قال: فسجد أبو بكر، قال أبو خيثمة: وهذا كتاب خالد إليك، فحمد الله أبو بكر وأصحابه، ثم قال: أخبرني عن الوقعة، كيف كانت؟ فجعل أبو خيثمة يخبره كيف صنع خالد، وكيف صف أصحابه،

(١) المصدر السابق ج١ ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

وكيف انهزم المسلمون، ومن قتل منهم، وجعل أبو بكر يسترجع ويترحم عليهم، وجعل أبو خيثمة يقول: يا خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ أتينا من قبل الأعراب، انهزموا بنا وعودونا ما لم نكن نحسن، حتى أظفرنا الله بعد، ثم قال أبو بكر: كرهت رؤيا رأيتها كراهية شديدة، ووقع في نفسي أن خالداً سيلقى منهم شدة، وليت خالداً لم يصالحهم، وأنه حملهم على السيف، فما بعد هؤلاء المقتولين يستبقي أهل اليمامة، ولن يزالوا من كذابهم في بلية إلى يوم القيامة، إلا أن يعصمهم الله[1]، ثم قدم بعد ذلك وفد اليمامة مع خالد على أبي بكر ـ رضي الله عنه.

قال الواقدي: أجمع أصحابنا أن خالد بن الوليد قدم المدينة من اليمامة، وقدم بوفد اليمامة سبعة عشر رجلاً من بني حنيفة، فيهم مجاعة بن مرارة، وإخوته، وأن أبا بكر حبسهم، فلم يدخلهم عليه، فدخلوا على عمر بن الخطاب يكلمونه في أن يكلم أبا بكر أن يأذن لهم فيدخلهم أو يأذن لهم في الرجوع إلى بلادهم، فوجدوه يحلب شاة على رغيف في صحفة، ومعه عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وابنه زيد بن الخطاب، فهما ينزوان على ظهره، قالوا، أو من قال منهم: فنسبنا، فانتسبنا، فقرب تلك الصحفة وما فيها، وقال: أصيبوا شيئاً، فتحرمنا فأصبنا شيئاً، فسألته: من هذان الغلامان؟ فقال: هذان ابنا زيد بن الخطاب ـ رحمه الله ـ فوجمنا لأنا قتلنا زيداً، فلما رأى وجومنا قال: ما لكم قد سكتم؟ هذا أمر قد ذهب، حاجتكم، قالوا: فبسطنا، فقلنا: احتبسنا ولا نقدر على الدخول على أبي بكر، ولا السراح إلى بلادنا، فقال عمر: عليكم عهد الله وكفالته أن تناصحوا الإسلام وأهله، قلنا: نعم، قال: ارجعوا حتى تأتوا في هذه الساعة من // غد ١٣١ أ فأوصلكم إلى أبي بكر، فلما كان ذلك الوقت من الغد، جاءوه، فخرج معهم حتى أوصلهم إلى أبي بكر[2].

وقال زيد بن أسلم عن أبيه: لما دخلوا على أبي بكر الصديق، قال: ويحكم، ما

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٣.
(٢) نفسه ج١ ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

هذا الذي استنزل منكم ما استنزل، وخدعكم، قالوا: يا خليفة رسول الله، قد كان الذي بلغك مما أصابنا(١).

وذكر وثيمة أن الذي كلم أبا بكر منهم رجل من بني سحيم، فقال: يا خليفة رسول الله، كان رجلاً مشئوماً أصابته فتنة من حديث النفس، وأماني الشيطان، دعا إليها أقواماً مثله فأجابوه فلم يبارك الله له ولا لقومه.

قال أسلم في حديثه: ثم أقبل ـ يعني أبا بكر ـ على مجاعة، فقال: يا مجاعة، أنت خرجت طليعة لمسيلمة حتى أخذك خالد أخذاً؟ فقال: يا خليفة رسول الله، والله ما فعلت، خرجت في طلب رجل من بني نمير قد أصاب فينا دماً، فهجمت علينا خيل خالد، ولقد كنت قدمت على رسول الله، فلما ذكر رسول الله، قال أبو بكر: قل ﷺ، فقال: ﷺ، ثم رجعت إلى قومي، فوالله ما زلت معتزلاً أمر مسيلمة حتى كان أوان قدمت عليك مقدمي هذا، ثم لم آل لخالد فيما استشارني إلى اليوم، وقد جئناك لترضى عمن أساء، وتقبل ممن تاب، فإن القوم قد رجعوا وتابوا، فقال أبو بكر: أما أني قد كتبت إلى خالد كتاباً في أثر كتاب آمره أن لا يستبقي من بني حنيفة أحداً مرت عليه الموسى قال مجاعة: الذي صنع الله لك ولخالد خير، يفيء الله بهم إلى الإسلام، قال أبو بكر: أرجو أن يكون ما صنع خالد خيراً، يا مجاعة أني خدعتم بمسيلمة؟ قال: يا خليفة رسول الله، لا تدخلني في القوم، فإن الله يقول: ﴿لا تزر وازرة وزر أخرى﴾ (١٨ : فاطر)، قال أبو بكر ـ رضي الله عنه: فما كان يقول لقومه؟ قال: فكره مجاعة أن يخبره فقال أبو بكر: عزمت عليك لتخبرني.

وفي غير هذا الحديث أن الرجل السحيمي الذي تقدم ذكره قبل أخبره بأنه كان يقول: يا ضفدع بنت ضفدعين، لحسن ما تنقنقين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين، امكثي في الأرض حتى يأتيك الخفاش بالخبر اليقين، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريش قوم لا يعدلون. فاسترجع أبو بكر، ثم

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

قال: سبحان الله، ويحكم، أي كلام هذا، إن هذا الكلام ما خرج من إل ولا بر، فأين ذهب بكم؟ الحمد لله الذي قتله، قالوا: يا خليفة رسول الله، قد أردنا الرجوع إلى بلادنا، قال: ارجعوا، وكتب لهم كتاباً آمنهم فيه(1).

وفي كتاب يعقوب الزهري: أن وفد بني حنيفة لما قدموا، نادى أبو بكر أن لا يؤويهم أحد، ولا يبايعهم، ولا ينزلهم، ولا يكلمهم، فداروا في المدينة لا يكلمون ولا يبايعون، فضاقت عليهم، فقيل لهم: ائتوا عمر، فجاءوه، فوجدوه معتقلاً عنزا يحلبها على رغيف، فلما رآهم، حلب، فاشتد حلبه حتى دار الرغيف في القدح من شدة حلبه، ثم وضعه، فدعاهم فأكلوا معه، ومعه صبية صغيرة، فقالوا: إنا نعوذ بالله أن يرد علينا من إسلامنا ما يقبل من غيرنا، وإنا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، الذي لا إله إلا هو، الذي يعلم من السر ما يعلم من العلانية، قال: الله، إن ما تقولون بألسنتكم لحق من قلوبكم، الذي لا إله إلا هو إن ما نقول بألسنتنا لحق من قلوبنا. قال: الحمد لله الذي جعل لنا من الإسلام ما يعزنا ويردنا إليه. قال: أفيكم قاتل زيد بن الخطاب؟ قلنا: ما تريد بذلك؟ قال: أفيكم قاتل زيد؟ فقام أبو مريم، فقال: أنا قاتل زيد، قال: وكيف قتلته؟ قال: اضطربت أنا وهو بالسيفين حتى انقطعا، ثم اطعنا بالرمحين حتى انكسرا، ثم اصطرعنا، فشحطته بالسكين شحطاً، قال: يا بنية، هذا قاتل أبيك، فوضعت يدها على رأسها، وصاحت: يا أبتاه، قال: ثم خرج حتى جاء أبا بكر، فاستأذن لنا عليه، فدخلنا فقلنا له كما قلنا لعمر، وناشدنا كما ناشدنا عمر، فحلفنا له، فقال: الحمد لله الذي جعل لنا من الإسلام ما يعزنا ويردنا إليه، قال: أفيكم من رهط عامر بن مسلمة أحد؟ قال خالد: وما تصنع بعامر وهذا مجاعة سيد أهل اليمامة، فكررها أبو بكر، فقال: هل فيكم من رهط ثمامة بن إثال أحد؟ قال خالد: وما تصنع بثمامة، وهذا مجاعة سيد أهل اليمامة، قال أبو بكر - رضي الله عنه - إنهم أهل بيت اصطنعهم النبي - ﷺ - فأحب أن

(1) المصدر السابق ج ١ ص ١٥٦ - ١٥٧.

أصطنعهم، فقام مطرف بن النعمان بن سلمة، فقال عامر بن سلمة عمى، وثمامة بن إثال عمى، فاستعمله أبو بكر على اليمامة(١).

وقال أبو بكر لخالد: سم لي أهل البلاء، فقال: يا خليفة رسول الله، كان البلاء للبراء بـن مالك، والناس له تبع.

ولما قدم خالد المدينة لم يبق بها دار إلا فيها باك لكثرة من قتل معه من الناس، فبكى أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ لما رأى ذلك، وقال ما أبعد ما رأى من الظفر، والله لثابت بن قيس بـن شماس أعز على الأنصار من أسماعها وأبصارها.

وكانت اليمامة في ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة، واختلف في عدد من استشهد فيها من المسلمين، فأكثر ما في ذلك ما وقع في كتاب أبي بكر إلى خالد: أن ببابك دماء ألف ومائتين من المسلمين(٢).

وقال سالم بن عبدالله بن عمر: قتل يوم اليمامة ستمائة من المهاجرين والأنصار، وغير ذلك(٣).

وقال زيد بن طلحة: قتل يوم اليمامة من قريش سبعون، ومن الأنصار ستون، ومن سائر الناس خمسمائة(٤).

وعن أبي سعيد الخدري قال: قتلت الأنصار في مواطن أربعة سبعين سبعين، يوم أحد سبعين، ويوم بئر معونة سبعين، ويوم اليمامة سبعين، ويوم جسر أبي عبيد سبعين(٥).

وقال سعيد بن المسيب: قتلت الأنصار في مواطن ثلاثة سبعين سبعين، فذكر ما تقدم إلا بئر معونة(٦).

وذكر عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يوماً وقعة اليمامة ومن قتل فيها من

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٥٧ ـ ١٥٩.
(٢) نفسه ج ١ ص ١٦٠.
(٣)، (٤)، (٥)، (٦) نفسه ج ١ ص ١٥٨.

المهاجرين والأنصار، فقال: ألحت السيوف على أهل السوابق من المهاجرين والأنصار، ولم نجد المعول يومئذ إلا عليهم، خافوا على الإسلام أن يكسر بابه، فيدخل منه أن ظهر مسيلمة، فمنع الله الإسلام بهم، حتى قتل عدوه وأظهر // ١٣١ ب كلمته، وقدموا يرحمهم الله ـ على ما يسرون به من ثواب جهادهم من كذب على الله وعلى رسوله، ورجع عن الإسلام بعد الإقرار به[١].

وفي رواية عنه: جعل منادي المسلمين ـ يعني يوم اليمامة ـ ينادي: يا أهل القرآن، فيجيبون المنادي، فرادى ومثنى، فاستحربهم القتل، فرحم الله تلك الوجوه، لولا ما استدرك خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ من جمع القرآن لخفت أن لا يلتقي المسلمون وعدوهم في موضع إلا استحر القتل بأهل القرآن[٢].

ولما قتل ثابت بن قيس بن شماس يوم اليمامة، ومعه كانت راية الأنصار يومئذ، وهو خطيبهم وسيد من سادتهم أرى رجل من المسلمين في منامه ثابت بن قيس يقول له: إني موصيك بوصية، فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه، إني لما قتلت بالأمس جاء رجل من ضاحية نجد وعليّ درع فأخذها، فأتى بها منزله فأكفأ عليها برمة، وجعل على البرمة رحلا، وخباؤه في أقصى العسكر، إلى جنب خبائه فرس يستن في طوله، فائت خالد بن الوليد فأخبره فليبعث إلى درعي فليأخذها، وإذا قدمت على خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبره أن على من الدين كذا ولي من الدين كذا، وسعد ومبارك غلاماي حران، وإياك أن تقول هذا حلم، فتضيعه.

فلما أصبح الرجل أتى خالد بن الوليد فأخبره، فبعث خالد إلى الدرع فوجدها كما قال، وأخبره بوصيته فأجازها، ولا نعلم أحداً من المسلمين أجيزت وصيته بعد موته إلا ثابت بن قيس[٣].

وقد روي أن بلال بن الحارث كان صاحب الرؤيا، رواه الواقدي، ثم قال

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٠٧.
(٢) نفسه ج ١ ص ١٠٨.
(٣) نفسه ج ١ ص ١٥٠ ـ ١٥١.

بعقبه: فذكرته ـ يعني الحديث ـ لعبدالله بن سعد، فقال: حدثني عبد الواحد بن أبي عون، قال: قال بلال: رأيت في منامي كأن سالماً مولى أبي حذيفة قال لي ونحن منحدرون من اليمامة إلى المدينة: إن درعي مع الرفقة الذين معهم الفرس الأبلق، تحت قدرهم، فإذا أصبحت فخذها من تحت قدرهم، فاذهب بها إلى أهلي، وإن على شيئاً من دين، فمرهم يقضونه، قال بلال: فأقبلت إلى تلك الرفقة، وقدرهم على النار، فألفيتها وأخذت الدرع، وجئت أبا بكر فحدثته الحديث، فقال: نصدق قولك، ونقضي دينه الذي قلت[1].

وقتل الله من بني حنيفة يوم اليمامة عدداً كثيراً، ففي كتاب يعقوب الزهري أنه قتل منهم أكثر من سبعة آلاف، وعن غيره أنه أصيب يومئذ من صليب بني حنيفة سبعمائة مقاتل، وكان داؤهم خبيثاً، والطارىء منهم على الإسلام عظيماً، فاستأصل الله ـ تعالى ـ شأفتهم، ورد ألفة الإسلام على ما كانت عليه على عهد رسول الله ـ ﷺ[2].

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٥١.
(٢) نفسه: ج ١ ص ١٦٣.

ذكر ردة بني سليم

ذكر الواقدي من حديث سفيان بن أبي العوجاء السلمى، قال وكان عالماً بردة قومه، مع أنه كان من وعاة العلم، وممن يوثق به في الدين، قال: أهدي ملك من ملوك غسان إلى النبي - ﷺ - لطيمة فيها مسك وعنبر، وخيل، فخرجت بها الرسل حتى إذا كانوا بأرض بني سليم، بلغتهم وفاة النبي - ﷺ - فتشجع بعض بني سليم على أخذها والردة. وأبى بعضهم من ذلك، وقالوا: إن كان محمد قد مات، فإن الله حي لا يموت، وكان الذين ارتدوا منهم عصية وبنو عميرة وبنو عوف، وبعض بني جارية، والذين انتهبوا اللطيمة فتمزقوها، بنو الحكم بن مالك بن خالد بن الشريد، فلما ولى أبو بكر كتب إلى معن بن حاجز فاستعمله على من أسلم من بني سليم، وكان قد قام في ذلك قياماً حسناً، ذكر وفاة النبي - ﷺ - وذكر الناس ما قال الله لنبيه - عليه السلام: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ (٣٠: الزمر)، وقال: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل - الآية﴾ (١٤٤: آل عمران) والتي قبلها، مع آي من كتاب الله، فاجتمع إليه بشر كثير من بني سليم، وانحاز أهل الردة منهم فجعلوا يغيرون على الناس، ويقطعون السبيل، فلما بدي لأبي بكر أن يوجه خالد بن الوليد إلى الضاحية، كتب إلى معن بن حاجز أن يلحق بخالد بن الوليد هو ومن معه من المسلمين، ويستعمل على عمله طريفة بن حاجز، ففعل، وأقام طريفة يكالب من ارتد بمن معه من المسلمين، يغير عليهم ويغيرون عليه، إذ قدم الفجاءة - وهو إياس بن عبدالله بن عبد يا ليل بن عمير بن خفاف - على أبي بكر الصديق، فقال: يا أبا بكر، إني مسلم، وقد أردت جهاد من ارتد من الكفار، فاحملني وأعني، فإنه لو كان عندي قوة لم أقدم عليك، ولكني مضعف من الظهر والسلاح، فسر أبو بكر بمقدمه، فحمله على ثلاثين بعيراً، وأعطاه سلاح ثلاثين رجلاً، فخرج يستعرض المسلم والكافر، فيأخذ أموالهم، ويصيب من امتنع منهم مع قوم من

أهل الردة قد تبعوه على ذلك، لقد أغار على قوم بالأرحضية مسلمين، جاءوا يريدون أبا بكر، فسلبهم وقتلهم، ومعه رجل من بني الشريد، يقال له: نجبة بن أبي المثنى، فلما بلغ أبا بكر خبره وما صنع، كتب إلى طريفة بن حاجز:

بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي بكر خليفة رسول الله إلى طريفة بن حاجز، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يصلي على محمد - ﷺ - أما بعد، فإن عدو الله الفجاءة أتاني، فزعم أنه مسلم، وسألني أن أقويه على قتال من ارتد عن الإسلام، فقويته، وقد انتهى إلى الخبر اليقين أنه قد استعرض المسلم والمرتد، يأخذ أموالهم، ويقتل من امتنع منهم، فسر إليه بمن معك من المسلمين حتى تقتله أو تأسره، فتأتيني به في وثاق إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله.

فقرأ طريفة كتاب أبي بكر على قومه المسلمين، فحشدوا، وساروا معه إلى الفجاءة، فقدم إليهم نجبة بن أبي المثنى، فناوش المسلمين، وقتل نجبة، وهرب من كان معه إلى الفجاءة، ثم زحف طريفة إلى الفجاءة، فتصادما، وجعل المسلمون يرمون بالنبل، ورمى أصحاب الفجاءة شيئاً وهم منكسرون // لما يرون من انكسار الفجاءة وندامته، فقال: يا طريفة والله ما كفرت، وإني لمسلم، وما أنت بأولى بأبي بكر مني، أنت أميره وأنا أميره، قال طريفة: فإن كنت صادقاً، فألق السلاح، ثم انطلق إلى أبي بكر فأخبره خبرك، فوضع الفجاءة السلاح، وأوثقه طريفة في جامعة، فقال طريفة: لا تفعل، فإنك إن أقدمتني في وثاق أشعرتني، فقال طريفة: هذا كتاب أبي بكر إلى: أن ابعثك إليه في وثاق، فقال الفجاءة: سمعاً وطاعة، فبعث به في جامعة مع عشرة من بني سليم، فأرسل به أبو بكر - رضي الله عنه - إلى بني جشم، فحرقه بالنار[1].

١٣٢ أ

وقدم على أبي بكر - رضي الله عنه - قبيصة - أحد بني الضربان، من بني خفاف - فذكر أنه مسلم، وأن قومه لم يرتدوا، فأمره أبو بكر أن يقاتل بمن معه

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٦٧ - ١٦٨، ١٧٠ - ١٧٢.

من سليم على الإسلام من ارتد عنه منهم، فرجع قبيصة إلى قومه، فاجتمع إليه ناس كثير ممن ثبت على الإسلام، فخرج يتبع بهم أهل الردة يقتلهم حيث وجدهم، حتى مر ببيت خميصة بن الحكم الشريدي، فوجده غائباً يجمع أهل الردة، ووجد جاراً له مرتداً، فقتله، واستاق ماله ومضى حتى نزل منزلاً، فذبح أصحابه شاة من غنم جار خميصة، ثم راحوا، ويقبل خميصة حتى أتى أهله، فيخبروه خبر جاره، فخرج في طلب القوم حتى مر بمنزلهم حيث ذبحوا الشاة، فيجد رأسها مملولا، قد تركه القوم، فأخذه، فجعل ينهش منه، وهو يطلبهم، فأدركهم وهو ينهشه والدم يسيل على لحيته، وكان رجلاً أيدا، فقال لقبيصة: قتلت جاري؟ قال: إن جارك ارتد عن الإسلام، قال: فاردد ماله، فرد قبيصة ماله، فقال: وفقد الشاة التي ذبحوا، فقال: أين الشاة التي ذبحت؟ فقال: لا سبيل إليها، قد أكلها القوم وهم مستحقون لذلك في طلب قوم كفروا بعد إسلامهم، فقال: يا قبيصة، أمن بين من كفر تعدو على جار لجأ إلي لأمنعه؟ فقال قبيصة: قد كان ذلك فاصنع ما أنت صانع، فطعن قبيصة بالرمح، فوقع في واسط الرحل، فدقه وانثنى سنان الرمح، وخر قبيصة عن بعيره، فقال لخميصة: إنك قد أشويتني، فاكفف، فعدل خميصة سنان رمحه بين حجرين ثم شد على قبيصة، وهو يقول: أكفف بعد قتل جاري، لا والله أبداً، فطعنه بالرمح فقتله وكان قبيصة قد فرق أصحابه، وبثهم قبل أن يلحقه خميصة[1].

وكتب أبو بكر ـ رحمه الله ـ إلى خالد بن الوليد:

أما بعد، فإن أظفرك الله ببني حنيفة، فأقل اللبث فيهم حتى تنحدر إلى بني سليم فتطأهم وطأة يعرفون بها ما منعوا، فإنه ليس بطن من العرب أنا أغيظ عليه مني عليهم، قدم قادمهم يذكر إسلاماً ويريد أن أعينه، فأعنته بالظهر والسلاح، ثم جعل يعترض الناس، فإن أظفرك الله بهم فلا ألومك فيهم، في أن تحرقهم بالنار، وتهول فيهم بالقتل، حتى يكون نكالاً لهم[2].

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٢) نفسه ج ١ ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

قالوا: فجعل خالد بن الوليد يبعث الطلائع أمامه، وسمعت بنو سليم بمقبل خالد، فاجتمع منهم بشر كثير يعرضون لهم، وجلهم بنو عصية، واستجلبوا من بقي من العرب مرتداً، وكان الذي جمعهم أبو شجرة بن عبد العزي، فانتهى خالد إلى جمعهم بالجواء مع الصبح، فصاح خالد في أصحابه، وأمرهم بلبس السلاح، ثم صفهم، وصفت بنو سليم، وقد كل المسلمون وعجف كراعهم، وخفهم، وجعل خالد يلي القتال بنفسه، حتى أثخن فيهم القتل، ثم حمل عليهم حملة واحدة، فهربوا، وأسر منهم بشر كثير، فجعل يضرب أحدهم على عاتقه فيجز له باثنين، ويبدو سحره، ويضرب الآخر من وسطه[1].

وفي حديث سفيان بن أبي العوجاء: أن خالداً خطر لهم الخطائر، فحرقهم فيها بالنار، وأصاب أبو شجرة ـ يومئذ ـ في المسلمين وجرحُ جراحات كثيرة[2].
وقال في ذلك أبياتاً، يقول في آخرها:

فرويت رمحي من كتيبة خالد وإني لأرجو بعدها أن أعمرا

(الطويل)

ولما قدم خالد على أبي بكر، كان أول ما سأل عنه خبر بني سليم، فأخبره خالد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قدم على أبي بكر معاوية بن الحكم، وأخوه خميصة مسلمين، فقال أبو بكر لخميصة: أنت قتلت قبيصة، ورجعت عن الإسلام؟ قال: إنه قتل جاري، قال: وإن قتل جارك على ردة، قتلته، لن تفلت مني حتى أقتلك، فقال أخوه: يا خليفة رسول الله، كان يومئذ مرتداً كافراً موتوراً، وقد تاب اليوم وراجع، ولكن نديه قال أبو بكر: فأخرج ديته، فقال: أفعل يا خليفة رسول الله، قال: فنعم الرجل كان قبيصة، ونعم السبيل مات عليه، ثم قال لمعاوية: وعمدتم يا بني الشريد إلى لطيمة بعث بها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فانتهبتموها، وقلتم إن يقم بهذا الأمر رجل من قريش، فلعمري

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٧٤.

(٢) نفسه ج ١ ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

ليرضى أن تدخلوا في الإسلام مع الناس، فكيف يأخذكم بأمن الطريق إلى رجل قد مات، فإن طلب ما أخذتم فإنما يطلبها أهل بيته، فما كانوا يطلبون ذلك منكم وأنتم أخوالهم. قال معاوية: نحن نضمنها حتى نؤديها إليك، فحمل أبو بكر ـ معاوية اللطيمة التي أصابوها، ووقت لهم شهرين أو ثلاثة[1].

قال: فأداها إلى أبي بكر، ثم إن أبا شجرة أسلم، ودخل فيما دخل فيه الناس، فجعل يعتذر ويجحد أن يكون قال البيت المتقدم، فلما كان زمن عمر بن الخطاب، قدم أبو شجرة وأناخ راحلته بصعيد بني قريظة، وجاء من حرة شوران، ثم أتى عمر وهو يقسم بين فقراء العرب، فقال: يا أمير المؤمنين، أعطني، فإني ذو حاجة، فقال: من أنت؟ قال: أنا أبو شجرة بن عبد العزي، فقال له: يا عدو الله، ألست الذي يقول:

فرويت رمحي من كتيبة خالد ... وإني لأرجو بعدها أن أعمرا

(الطويل)

عمر الله[2] سوء ما عشت لك يا خبيث، ثم جعل يعلوه بالدرة على رأسه، حتى سبقه عدواً، وعمر في طلبه، فرجع أبو شجرة مولياً إلى راحلته، فارتحلها، ثم شد بها في حرة شوران راجعاً إلى أرض بني سليم، فما استطاع أبو شجرة أن يقرب عمر حتى توفي، وإن كان إسلامه لا بأس به، وكان إذا ذكر عمر ترحم عليه، ويقول: ما رأيت أحداً أهيب من عمر بن الخطاب[3].

وقال أبو شجرة فيما كان من ذلك[4]:

ضن علينا أبو حفص بنائله ... وكل مختبط يوماً له ورق ١٣٢ ب

ما زال يرهقني حتى خذيت له ... وحال من دون بعض البغية الشفق

لما لقيت أبا حفص وشرطته ... والشيخ يقرع أحياناً فينحمق

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢) في الأصل: «غمر والله».

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٤) نفسه ج ١ ص ١٧٨.

ثم ارعويت إلى وجناء كاشرة ... مثل الطريرة لم يثبت لها الأفق
أقبلت[1] الخيل من شوران صادرة ... أني لأزري عليها وهي تنطلق
تطير مرواً خطاها عن مناسمها ... كما ينقسر عند الجهبذ الورق
إذا يعارضها خرق تعارضه ... ورهاء فيها إذا استعجلتها خرق
ينوء آخرها منها وأولها ... سرح اليدين معا نهاضة فتق
(البسيط)

وفي حديث هشام بن عروة عن أبيه: أن لقاء أبي شجرة عمر كان على غير ما تقدم، وأن أبا شجرة قدم المدينة، فأدخل راحلته بعض دورها، ودخل المسجد متنكراً، فاضطجع فيه، وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ قل شيء يظنه إلا كان حقاً، فبينا عمر جالساً في أصحابه، وأبو شجرة مضطجع، قال عمر: إني لأرى هذا أبا شجرة، فقام حتى وقف عليه، فقال: من أنت؟ قال: رجل من بني سليم، قال: انتسب، قال: فلان بن عبد العزي، قال: ما كنيتك؟ قال: أبو شجرة، فعلاه بالدرة.

ثم ذكر من تقريره على قوله: فرويت رمحي ـ البيت، نحوا مما تقدم[2].

(١) في الأصل: «أقبلتها».

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٧٧.

ردة البحرين [1]

حدث يعقوب الزهري عن إسحاق بن يحي عن عمه عيسى بن طلحة، قال: لما ارتدت العرب بعد وفاة رسول الله ـ ﷺ ـ قال صاحب المدائن: من يكفيني أمر العرب، فقد مات صاحبهم وهم الآن يختلفون بينهم، إلا أن يريد الله بقاء ملكهم فيجتمعوا على أفضلهم، فإنهم إن فعلوا صلح أمرهم، وبقي ملكهم، وأخرجوا العجم من أرضهم، قالوا: نحن بذلك على أكمل الرجال، قال: من قالوا: مخارق بن النعمان، ليس في الناس مثله، وهو من أهل بيت قد دوخوا العرب ودانت لهم، وهؤلاء جيرانك بكر بن وائل، فأرسل منهم ناساً مع مخارق، فأرسل معه ستمائة من بكر بن وائل، الأشرف فالأشرف، وارتد أهل هجر عن الإسلام[2].

وعن الحسن بن أبي الحسن: أن الجارود قام في قومه، فقال: يا قوم، ألستم تعلمون ما كنت عليه من النصرانية، وإني لم آتكم قط إلا بخير، وإن الله ـ تعالى ـ بعث نبيه فنعى له نفسه وأنفسكم؟ فقال: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ (٣٠: الزمر﴾، وقال: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً﴾ (١٤٤: آل عمران)[3].

وفي حديث آخر، أنه قام فيهم، فقال: ما شهادتكم أيها الناس على موسى؟ قالوا: نشهد أنه رسول الله، قال: فما شهادتكم على عيسى؟ قالوا: نشهد أنه رسول الله، قال: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، عاش كما

---

(١) راجع ابن أعثم الكوفي. الفتوح ج١ ص ٤٤ ـ ٥٥.
(٢) ابن حبيش. كتاب الغزوات ج ١ ص ١٧٩.
(٣) نفسه ج ١ ص ١٧٩ ـ ١٨٠.

عاشوا، ومات كما ماتوا، وأتحمل شهادة من أبي أن يشهد على ذلك، فلم يرتد من عبد القيس أحد.

وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ قال حين وفدوا عليه: عبد القيس خير أهل المشرق، اللهم اغفر لعبد القيس ـ ثلاثا ـ وبارك لهم في ثمارهم، فخرجوا مسرورين بدعوته وأهدوا له من طرائف ثمارهم، وثبتوا على الإسلام حين الردة[1].

وكان النبي ـ ﷺ ـ استعمل أبان بن سعيد بن العاص على البحرين، وعزل العلاء بن الحضرمي، فسأل أبان رسول الله ـ ﷺ ـ أن يحالف عبد القس، فأذن له، فحالفهم، فلما بلغ أبان بن سعيد مسير من سار إليه مرتدين، قال لعبد القيس: أبلغوني مأمني، فأشهد أمر أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فليس مثلي يغيب عنهم، فأحيا بحياتهم، وأموت بمماتهم، فقالوا: لا تفعل، فأنت أعز الناس علينا، وهذا علينا وعليك فيه مقالة، يقول قائل: فر من القتال، فأبى وانطلق معه ثلاثمائة رجل يبلغونه المدينة، فقال أبو بكر لأبان: ألا ثبت مع قوم لم يبدلوا ولم يرتدوا؟ فقال: ما كنت لأعمل لأحد بعد رسول الله ـ ﷺ[2].

وذكر أبان من عبد القيس خيراً، فدعا أبو بكر العلاء بن الحضرمي، فبعثه إلى البحرين، في ستة عشر راكباً، وقال: امض، فإن أمامك عبد القيس، فسار حتى بلغهم، ومر بثمامة بن إثال الحنفي، فأمده برجال من قومه بني سحيم، ولحق به ثمامة، فخرج العلاء بمن معه حتى نزل بحصن يقال له جواثي، وكان مخارق قد نزل بمن معه من بكر بن وائل المشقر، فسار إليهم العلاء فيمن اجتمع إليه من المسلمين، فقاتلهم قتالاً شديداً، حتى كثرت القتلى وأكثرها في أهل الردة، والجارود بالخط يبعث البعوث إلى العلاء، وبعث مخارق الخطم بن شريح ـ أحد بني قيس بن ثعلبة إلى مرزبان الخط يستمده، فأمده بالأساورة، فنزل الخطم ردم الفلاح، وكان حلف أن لا يشرب الخمر حتى يرى هجر، فقالوا له: هذه هجر، وأخذ المرزبان الجارود رهينة عنده، وقال عبد الرحمن بن أبي بكرة: أخذ

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٨٠.

(٢) نفسه ج ١ ص ١٨٠ ـ ١٨١.

الحطم الجارود، فشده في الحديد، وسار الحطم وأبجر بن جابر العجلي فيمن معهما حتى حصروا العلاء بن الحضرمي بجواثي. فقال عبدالله بن حذف أحد بني عامر ابن صعصعة:

ألا أبلـغ أبـا بكـر رسـولاً — وسكـان المدينـة أجمعينـا
فهـل لكـم إلى نفـر يسير — مقيم في جـواثـي محصرينـا
كـأن دمـاءهـم في كـل شمس — شعـاع الشمس يغشين العيـونـا
تـوكلنـا على الرحمن إنـا — وجـدنـا النصر للمتـوكلينـا

(الوافر)

فمكثوا على ذلك محصورين، فسمع العلاء وأصحابه ذات ليلة لغطا في عسكر المشركين، فقالوا: والله لوددنا أن لو علمنا أمرهم، فقال عبدالله بن حذف: أنا أعلم لكم علمهم، فدلوني بحبل، فدلوه، فأقبل حتىُ يدخل على أبجر ابن جابر العجلي، وأم عبدالله امرأة من بني عجل، فلما رآه أبجر، قال: ما جاء بك، لا أنعم الله بك عينا؟ قال: يا خالي، الضرر والجوع وشدة الحصار، وأردت اللحاق بأهلي، فزودني. قال أبجر: أفعل، على أني أظنك والله على غير ذلك، بئس ابن الأخت سائر الليلة، فزوده وأعطاه نعلين، وأخرجه من العسكر، وخرج معه حتى برزا، فقال له: انطلق، فإني والله لأراك بئس ابن الأخت أنت هذه الليلة، فمضى ابن حذف كأنه لا يريد الحصن، حتى أبعد، ثم عطف // فأخذ بالحبل، فصعد الحصن، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ورائي والله ١٣٣ أ أني تركتهم سكارى لا يعقلون، قد نزل بهم تجار من تجار الخمر، فاشتروا منهم ثم وقعوا فيها، فإن كانت لكم حاجة بهم فالليلة، فنزل إليهم المسلمون، فبيتوهم، ووضعوا فيهم سلاحهم حيث شاءوا.

وقال إسحاق بن يحيى بن طلحة في حديثه: كان العلاء في ثلاثمائة وستة وعشرين من المهاجرين، فطرقوهم، فوجدوهم قد ثملوا، فقتلوهم، فلم يفلت

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٨١ - ١٨٨٤.

منهم أحد، ووثب الحطم وهو سكران، فوضع رجله في ركاب فرسه، ثم جعل يقول: من يحملني، فسمعه عبدالله بن حذف، فأقبل نحوه وهو يقول: أبا ضبيعة؟ قال: نعم، قال: أنا أحملك، فلما دنا منه ابن حذف ضربه حتى قتله، وقطعت رجل أبجر بن جابر العجلي فمات منها وقد كان قال حين قطعت: قاتلك الله يا ابن حذف، ما أشأمك، وقد قيل إن عفيف بن المنذر ـ أحد بني عمرو بن تميم ـ هو الذي سمع كلام الحطم حين رام الركوب، فلم يستطع، فقال: ألا رجل من بني قيس بن ثعلبة يعقلني الليلة، فقال له عفيف وقد عرف صوته: أبا ضبيعة، أعطني رجلك، فأعطاه إياها، يظن أنه يعقله على فرسه، فأطنها من الفخذ وتركه، فقال: أجهز علي، فقال: إني أحب أن لا تموت حتى أمصك، وكان مع عفيف تلك الليلة عدة من بني أبيه أصيبوا[1].

وقتل ليلتئذ مسمع بن سنان، أبو المسامعة، وانهزم الباقون، حتى صاروا في ناحية من البحرين فعصموا بمفروق الشيباني.

قال إسحاق: وأصبح ما أفاء الله على المسلمين من خيولهم، وما سوى ذلك عند العلاء في حصن جواثي، ثم صار العلاء إلى المدينة فقاتلهم قتالاً شديداً، وهزمهم الله حتى لجئوا إلى باب المدينة، فضيق عليهم، فلما رأى ذلك مخارق ومن معه، قالوا: إن خلوا عنا رجعنا من حيث جئنا، فشاور العلاء أصحابه، فأشاروا عليه أن يخلي عنهم، فخرجوا فلحقوا ببلادهم، وبقي أهل المدينة، فطلبوا الصلح والأمان، فصالحهم العلاء على ثلث ما في أيديهم بالمدينة من أموالهم، وما كان من شيء خارج منها، فهو له، فبعث العلاء بمال كثير إلى المدينة.

وفي غير هذا الحديث أن عبد القيس لما أوقعوا تلك الليلة ببكر بن وائل، طفقت بكر تنادي: يا عبد القيس، إياكم مفروق بن عمرو في جماعة بكر بن وائل، فقال عبدالله بن حذف في ذلك:

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٨٤.

لا تـوعـدونـا بمفـروق وأسرتــه إن يـأتنـا يلـق منـا سنـــة الخطـــم
النخل ظـاهـرهـا خيـل وبـاطنهـا خيل تكردس بـالفـرسـان كـالنعـم
وإن ذا الحي مـن بكـر وإن كثروا لأمـــة داخلـــون النـــار في أمم[1]
(البسيط)

ثم سار العلاء بن الحضرمي إلى الخط حتى نزل على الساحل، فجاءه نصراني، فقال له: مالي إن دللتك على مخاضة تخوض منها الخيل إلى دارين، قال: وما تسألني؟ قال: أهل بيت بدارين، قال: هم لك، فخاض به وبالخيل إليهم، فظفر عليهم عنوة، وسبى أهلها، ثم رجع إلى عسكره.

وقال إبراهيم بن أبي حبيبة: حبس لهم البحر حتى خاضوه إليهم، وجازه العلاء وأصحابه مشياً على أرجلهم، وقد كانت تجري فيه السفن قبل، ثم جرت فيه بعد، فقاتلهم، فأظفره الله بهم، وسلموا له ما كانوا منعوا من الجزية التي صالحهم عليها رسول الله ـ ﷺ.

ويروى أنه كان للعلاء بن الحضرمي ومن كان معه جوار إلى الله ـ تعالى في خوض هذا البحر، فأجاب الله دعاءهم، وفي ذلك يقول عفيف بن المنذر، وكان شاهداً معهم:

ألم تـــــر أن الله ذلـــــــل بحره وأنـزل بـالكفـار إحـدى الجلائـل
دعونا الذي شـق البحـار فجـاءنـا بأعظـم مـن غلـق البحـار الأوائـل
(الطويل)

وفي حديث غيره، قال: لما رأى ذلك أهل الردة من أهل البحرين سألوه الصلح على ما صالح عليه أهل هجر[2].

ولما ظهر العلاء بن الحضرمي على أهل الردة والمجوس من أهل البحرين، أقام عليها أميراً، وبعث أربعة عشر رجلاً من رؤساء عبد القيس وفداً إلى أبي

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ١٨٥.
(٢) نفسه ج١ ص ١٨٦.

بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فنزلوا على طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، وأخبروهما بمسارعتهم إلى الإسلام وقيامهم في الردة، ثم دخل القوم على أبي بكر، وحضر الزبير وطلحة ـ رضي الله عنهم ـ فقالوا: يا خليفة رسول الله، إنا قوم أهل إسلام، وليس شيء أحب إلينا من رضاك، ونحن نحب أن تعطينا أرضاً من أرض البحرين وطواحين، فأبى أبو بكر، فكلمه في ذلك طلحة والزبير، فأذعن[1]، وقال: اشهدوا أني قد فعلت وأعطيتهم كل ما سألوني، وعرفت لهم قدر إسلامهم، فجزوه خيراً[2].

فلما خرجوا من عنده، قال لهم طلحة: إن هذا الأمر لا نراه يليه بعد أبي بكر إلا عمر، فكلموا أبا بكر يكتب لكم كتاباً، ويشهد فيه عمر، فلا يكون لعمر بعد هذا اليوم كلام، فعادوا إلى أبي بكر، فذكروا له ذلك، فدعا عبدالله ابن الأرقم، فقال: اكتب لهم بهذا الذي أعطيتهم، ففعل، وشهد في الكتاب عشرة من قريش والأنصار، ولم يكن عمر بن الخطاب حاضراً، فانطلقوا إليه، فأقرأوه الكتاب، فلما قرأه فض الخاتم ثم تفل فيه، ورده عليه، فأقبل الوفد على طلحة، فقالوا: هذا عملك أنت، أمرتنا أن نشهد عمر، واتهموه في أمرهم، فقال طلحة: والله ما أردت إلا الخير، فرجعوا إلى أبي بكر غضابا، فخبروه الخبر، ودخل طلحة والزبير، فقالا: والله ما ندري أنت الخليفة أم عمر، فقال أبو بكر: وما ذاك؟ فأخبروه، فقال: فما صنع عمر بالكتاب؟ قالوا: فض الخاتم وتفل في الكتاب ومحاه، فقال أبو بكر: لئن كان عمر كره من ذلك شيئاً، فإني لا أفعله، فبينما هم كذلك إذ جاء عمر، فقال له أبو بكر: ما كرهت من هذا الكتاب؟ فقال: كرهت أن تعطي الخاصة دون العامة، ولكن اجعل أمر الناس واحداً لا يكون عندك خاصة دون عامة، وإلا فأنت تقسم على الناس فيئهم، فتأبى أن تفضل أهل السابقة وأهل بدر وتعطى هؤلاء قيمة عشرين ألفا دون الناس، فقال أبو بكر: وفقك الله وجزاك خيراً، فهذا هو الحق[3].

---

(١) في الأصل: «فأسعن».

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

(٣) نفسه ج١ ص ١٨٨ ـ ١٨٩.

وذكر وثيمة بن موسى // : أن بكر بن وائل لما خفت عند ردة العرب بعد ١٣٣ ب وفاة النبي - ﷺ - قالوا : والله لنردن هذا الملك إلى آل النعمان بن المنذر ، فبلغ ذلك كسرى ، فبعث في وجوههم ، فقدموا عليه وعنده يومئذ المخارق بن النعمان وهو المنذر بن النعمان بن المنذر ، وكان يسمى الغرور ، فقال لهم : سيروا مع المنذر ابن النعمان ، فإني قد ملكته ، فخذوا البحرين ، فساروا ، وسارت معه الأساورة ، وهم يومئذ ستة آلاف راكب ، ثم إن كسرى ندم على تمليك المنذر وتوجيه من وجه معه ، وقال : غلام موبق ، قتلت أباه ، معه كتيبة النعمان من بكر بن وائل يأتون إخوتهم من عبد القيس ، وهو غلام فتى السن لم يختبر ، هذا خطأ من الرأي ، فصرفه إليه ، وانكسر المنذر للذي صنع به ، ثم عاود كسرى رأيه فيه لكلام بلغه عنه ، فأمضاه وسرح معه أبجر بن جابر العجلي ، ثم ذكر حديثاً طويلاً تتخلله أشعار كثيرة لم أر لذكر شيء منها وجهاً ، واستغنيت من حديثهم بما تقدم منه .

وذكر أن المنذر لما كان من ظهور الإسلام ما تقدم ذكره هرب إلى الشام ، فلحق ببني جفنة ، وندم على ما مضى منه ، ثم ألقى الله في قلبه الإسلام ، فأسلم ، فكان بعد إسلامه يقول : لست بالغرور ولكني المغرور ، هذا ما ذكره وثيمة في شأن الغرور .

وذكر سيف في فتوحه وحكاه الدارقطني عنه ، قال : الغرور بن سويد أسر يوم البحرين ، أسره عفيف بن المنذر وأجاره ، فأتى به العلاء بن الحضرمي ، فقال : إني قد أجرت هذا ، قال : ومن هو ؟ قال : الغرور ، قال : أنت غررت هؤلاء ؟ قال : إني لست بالغرور ولكني المغرور ، قال : أسلم ، فأسلم ، وبقي بهجر ، وكان اسمه الغرور وليس بلقب .

ذكر ردة أهل دبا وأزد عمان[1]

وكان وفد الأزد من أهل دبا قد قدموا على النبي - ﷺ - مقرين بالإسلام، فبعث عليهم مصدقاً منهم، يقال له حذيفة بن اليمان الأزدي، من أهل دبا، وكتب له فرائض صدقات أموالهم، ورسم له أخذها من أغنيائهم وردها على فقرائهم، ففعل حذيفة ذلك، وبعث إلى رسول الله - ﷺ - بفرائض فضلت من صدقاتهم لم يجد لها موضعاً، فلما توفى رسول الله - ﷺ - منعوا الصدقة وارتدوا، فدعاهم حذيفة إلى التوبة، فأبوا، وأسمعوه شتم النبي - ﷺ - فقال: يا قوم، أسمعوني الأذى في أبي وفي أمي، ولا تسمعوني الأذى في رسول الله - ﷺ - فأبوا إلا ذلك، وجعلوا يرتجزون:

لقد أتانا خير رديٌّ أمست قريش كلها نبيٌّ
ظلم لعمر الله عبقريٌّ

(رجز)

فكتب حذيفة إلى أبي بكر الصديق بما كان منهم، فاغتاظ أبو بكر عليهم غيظاً شديداً، وقال: من هؤلاء، ويل لهم، ثم بعث إليهم عكرمة بن أبي جهل، وكان النبي - ﷺ - استعمله على سفلى بن عامر بن صعصعة مصدقاً، فلما بلغته وفاة النبي - ﷺ - انحاز إلى تبالة في أناس من العرب ثبتوا على الإسلام، فكان مقيماً بتبالة من أرض كعب بن ربيعة، فجاءه كتاب أبي بكر الصديق، وكان أول بعث بعثه إلى أهل الردة، أن سر فيمن قبلك من المسلمين إلى أهل دبا، فسار عكرمة في نحو ألفين من المسلمين، ورأس أهل الردة لقيط بن مالك، فلما بلغه مسير عكرمة بعث ألف رجل من الأزد يلقونه، وبلغ عكرمة أنهم في جموع كثيرة، فبعث طليعة، وكان لأصحاب لقيط - أيضاً - طليعة، فالتقى الطليعتان فتناوشوا

---

(١) ابن حبيش. كتاب الغزوات ج١ ص ٧٣ وما بعدها.

ساعة، ثم انكشف أصحاب لقيط، وبعث أصحاب عكرمة فارساً نحو عكرمة، فلما أتاه الخبر أسرع بأصحابه ومن معه حتى لحق طليعته، ثم زحفوا جميعاً ميمنة وميسرة، وسار على تعبئته حتى إذا أدرك القوم والتقوا فاقتتلوا ساعة، ثم رزق الله عكرمة عليهم الظفر، فهزمهم وأكثر فيهم القتل، وخرجوا منهزمين راجعين إلى لقيط بن مالك، فأخبروه أن جمع عكرمة مقبل إليهم، وأنهم لا طاقة لهم بهم، وفقدوا من أصحابهم بشراً كثيراً، منهم من قتل ومنهم من أسره عكرمة أسراً، فلما انتهوا إلى لقيط مفلولين قوى حذيفة بن اليمان بمن معه من المسلمين، فناهضهم وناوشهم، وجاء عكرمة في أصحابه، فقاتل معهم، فأصابوا منهم مائة أو نحوها في المعركة، ثم انهزموا حتى دخلوا مدينة دبا، فتحصنوا فيها، وحصرهم المسلمون في حصنهم شهراً أو نحوه، وشق عليهم الحصار، إذ لم يكونوا أخذوا له أهبته، فأرسلوا إلى حذيفة رجلاً منهم يسألونه الصلح، فقال: لا إلا أن أخيرهم بين حرب مجلية أو سلم مخزية، قالوا: أما الحرب المجلية فقد عرفناها، فما السلم المخزية؟ قال: تشهدون أن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، وأن ما أخذنا منكم فهو لنا وأن ما أخذتموه منا فهو رد علينا، وأنا على حق وأنكم على باطل وكفر ونحكم فيكم بما رأينا، فأقروا بذلك، فقال: اخرجوا عن مدينكم عزلا لا سلاح معكم، ففعلوا، فدخل المسلمون حصنهم، فقال حذيفة: إني قد حكمت فيكم: أن أقتل أشرافكم، وأسبي ذراريكم. فقتل من أشرافهم مائة رجل، وسبى ذراريهم، وقدم حذيفة بسبيهم إلى المدينة وهم ثلاثمائة من المقاتلة، وأربعمائة من الذرية والنساء، وأقام عكرمة بدبا عاملاً عليها لأبي بكر، فلما قدم حذيفة بسبيهم المدينة، اختلف فيهم المسلمون، فكان زيد بن ثابت يحدث أن أبا بكر أنزلهم دار رملة بنت الحارث، وهو يريد أن يقتل من بقي من المقاتلة، فكان من كلام عمر له: يا خليفة رسول الله، قوم مؤمنون إنما شحوا على أموالهم، والقوم يقولون: والله ما رجعنا عن الإسلام، ولكن شححنا على أموالنا، فيأبي أبو بكر أن يدعهم بهذا القول، ولم يزالوا موقفين في دار رملة بنت الحارث، حتى توفى أبو بكر - رضي الله عنه - وولى عمر، فدعاهم، فقال: قد كان من رأيي يوم قدم بكم على أبي بكر أن يطلقكم، وقد أفضى إلى الأمر،

فانطلقوا إلى أي البلاد شئتم، فأنتم قوم أحرار لا فدية عليكم، فخرجوا حتى نزلوا البصرة، وكان فيهم أبو صفرة والد المهلب، وهو غلام يومئذ، فكان ممن نزل البصرة[1].

وروى عن ابن عباس: أن رأى المهاجرين فيهم إذا استأسرهم أبو بكر، كان قتلهم، أو فداءهم بأغلى الفداء، وكان عمر يرى أن لا قتل عليهم ولا فداء، لم يزالوا محتبسين // حتى ولى عمر، فأرسلهم بغير فداء[2]. ١٣٤ أ

ويروى عن عمر بن عبد العزيز: أن عمر بن الخطاب قضى فيهم بأربعمائة درهم فداء، ثم نظر في ذلك، فقال: لا سباء في الإسلام وهم أحرار، والأول أكثر[3].

وعن عروة قال: لما قدم أهل غزو دبا قافلين، أعطاهم أبو بكر خمسة دنانير خمسة دنانير[4].

---

(١) ابن حبيش. كتاب الغزوات ج ١ ص ١٩٠ - ١٩٣.
(٢) نفسه ج ١ ص ١٩٤.
(٣) نفسه.
(٤) نفسه.

ذكر ردة صنعاء

وكان الأسود بن كعب العنسي قد ادعى النبوة في عهد النبي - ﷺ - واتبع على ذلك، فتزوج المرزبانة - امرأة باذان الفارسي - وكانت من عظماء فارس، وقسرها على ذلك، فأبغضته أشد البغض، وسمعت به بنو الحارث بن كعب - من أهل نجران - وهم يومئذ مسلمون، فأرسلوا إليه يدعونه أن يأتيهم في بلادهم، فجاءهم، فاتبعوه وارتدوا عن الإسلام(1).

ويقال: دخلها يوم دخلها في آلاف من حمير، يدعى النبوة، ويشهدون له بها، فنزل غمدان، فلم يتبعه من النخع ولا من جعفي أحد، وتبعه ناس من زبيد ومزحج، وعبس وبني الحارث وأود ومسلية وحكم(2).

وأقام الأسود بنجران يسيرا، ثم رأى أن صنعاء خير له من نجران، فسار إليها في ستمائة راكب من بني الحارث، فنزل صنعاء، فأبت الأبناء أن يصدقوه، فغلب على صنعاء واستذل الأبناء بها، وقهرهم وأساء جوارهم لتكذيبهم إياه، فبعث رسول الله - ﷺ - رجلا من الأزد، وقيل من خزاعة، يقال له وبر بن يحنس إلى الأبناء في أمر الأسود، فدخل صنعاء مختفياً، فنزل على داذويه الأبناوي فخبأه عنده، وتآمرت الأبناء لقتل الأسود، فتحرك في قتله نفر منهم قيس بن عبد يغوث المكشوح، وفيروز الديلمي، وداذويه الأبناوي، وكانت المرزبانة كما تقدم قد أبغضت الأسود أشد البغض، فوعدتهم موعداً أتوا لميقاته، وقد سقته الخمر حتى سكر، فسقط نائماً كالميت، فدخل عليه فيروز وقيس ونفر معهما، فوجدوه على فراش عظيم من ريش، قد غاب فيه، فأشفق فيروز أن يتعادى عليه السيف إن ضربه به، فوضع ركبته على صدر الكذاب، ثم فتل عنقه

---

(1) المصدر السابق ج ١ ص ١٩٥.

(2) نفسه.

فحولها، حتى حولّ وجهه من قبل ظهره، وأمر فيروز قيساً، فاحتز رأسه، فرمى به إلى الناس، ففض الله الذين اتبعوه، وألقى عليهم الخزى والذلة، وخطب الناس قيس بن مكشوح، وأظهر أن الكذاب قتل بكذبه على الله، وأن محمداً رسول الله(١).

وبلغ الخبر بذلك إلى رسول الله - ﷺ - وهو في مرضه الذي توفى فيه، فقال - ﷺ - وذكر الأسود: قتله الرجل الصالح فيروز الديلمي، ورد فيروز وداذويه الأمر إلى قيس بن المكشوح، فكان أمير صنعاء، وبها يومئذ جماع من أصحاب الأسود الكذاب، فلما بلغتهم وفاة رسول الله - ﷺ - ثبت قيس والأبناء وأهل صنعاء على الإسلام، إلا اصحاب الأسود(٢).

ثم إن قيساً خاف فيروز وداذويه أن يغلباه على سلطان صنعاء، فأجمع أن يفتك بهما، فأرسل إليهما يدعوهما، فجاء داذويه فقتله، وأقبل فيروز يريده، فأخبر بقتل داذويه، فهرب منه إلى أبي بكر - رضي الله عنه - وارتد قيس بن المكشوح، وأخرج الأبناء من صنعاء، فلم يبق بها أحد إلا في جوار، فكان الشعبي يقول فيما ذكر عنه: باليمن رجلان لو انبغى لأحد أن يسجد لشيء دون الله لا نبغي لأهل اليمين أن يسجدوا لهما: سيف بن ذي يزن في الحبشة، وقيس بن مكشوح في الأبناء الذين بصنعاء - يعني إخراج سيف الحبشة وإخراج قيس الأبناء(٣).

ولما بلغ خالد بن سعيد بن العاص ردة صنعاء، سار يومها، وكان في ناحية أرض مراد، حتى دخلها، فاستعداه فيروز على قيس في قتل داذويه، فبعث إليه من يأتي به، فذهب الرسول فأخذه، ثم أقبل به حتى إذا كان قريباً من صنعاء اختدع قيس الرسول حتى انفلت منه فدخل على خالد فقال: من جاءكم مسلماً قد أصاب الجاهلية أشياء ماذا عليه؟ فقال له خالد: هدم الإسلام ما قبله، فأسلم قيس، ثم خرج مع خالد إلى الصلاة فيجد فيروز في المسجد، فقال له: يا فيروز، هل لك حاجة إلى الأمير؟ فانكسر فيروز ودخل على خالد فاستعداه على قيس،

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٩٥ - ١٩٦.
(٢) نفسه ج ١ ص ١٩٦ - ١٩٧.
(٣) نفسه ج ١ ص ١٩٧ - ١٩٨.

فبعث أبو بكر إلى عكرمة بن أبي جهل، وهو يومئذ بأرض عمان: أن سر في بلاد مهرة حتى تخرج على صنعاء، فخذ قيس بن مكشوح المرادي، فابعث به إلى في وثاق، فسار عكرمة حتى دخل أرض مهرة، فقتل فيهم وسبى، وسار كذلك لا يطأ قوماً إلا قاتلوه وقاتلهم، فقتل منهم وسبى، حتى رجعوا إلى الإسلام، وبعث بسبيهم إلى أبي بكر بالمدينة، ثم مضى على وجهه حتى خرج إلى صنعاء، فلقيه قيس وهو لا يدري بالذي أمر فيه، فأمر به عكرمة، فجعل في جامعة، وبعث به إلى أبي بكر، فلما دخل عليه عرفه أبو بكر بقتل داذويه، فحلف له ما يدرى من أمره شيئاً، ولا يدري من قتله، ورغب في الجهاد في سبيل الله، فخرج إلى قومه من مذحج، فاستجلبهم إلى الجهاد ورغبهم فيه، فخفوا في ذلك وخرجوا حتى توجهوا إلى من بعث أبو بكر إلى الشام، فذلك أول نزول مذحج الشام[1].

ثم إن الأصفر العكي خرج هو وجماعة من قومه ممن ثبت على الإسلام حتى دخل نجران، وهو يريد قتال بني الحارث بن كعب، فلما دخل عليهم الأصفر رجعوا إلى الإسلام من غير قتال، فأقام الأصفر في نجران، وضبطها، وغلب عليها، ثم أمر أبو بكر المهاجر بن أبي أمية أن يستنفر من مربه من مضر ويقويهم ويعطيهم من مال أعطاه إياه أبو بكر، فسار المهاجر يؤم صنعاء، معه سرية من المهاجرين والأنصار، فيجد المهاجر بنجران الأصفر العكي، ثم سار المهاجر إلى صنعاء ومعه بشر كثير، فلقى جماعة من أصحاب الأسود منفضين، فأخذ عليهم الطريق وألجأهم إلى غيضة، فقتِل منهم وأسر، ثم أقبل بالأسرى، ومضى حتى دخل صنعاء، وقد كانت طوائف من زبيد ارتدت منهم عمرو بن معدي كرب، فاجتمع إلى خالد بن سعيد من ثبت على الإسلام من مراد وسائر مذحج، فلقى بهم بني زبيد، فانهزموا وظفر بهم خالد، فسبى منهم نسوة، منهن امرأة عمرو ابن معدي كرب جلالة، وكانت أحسن النساء، وكان عمرو ـ فيما ذكروا ـ غائباً عن ذلك القتال، فلما ظفر خالد، سألت منه زبيد أن يقرهم على الإسلام // ١٣٤ ب ويكف عنهم، فكف عنهم، وأسلموا، وبلغ الخبر عمرا، فأقبل حتى نرل بجانب

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

عسكر خالد، ثم خرج ليلاً فتلطف حتى لقى جلالة، فقال لها: يا جلالة،ما صنع بك خالد؟ فقالت: لم يصنع بي إلا خيراً، ولم يعرض على من أمره إلا كرماً، قال: هل قربك؟ قالت: لا والله، وما يحل له ذلك في دينه، قال: فورب الكعبة إن ديناً منعه منك لدين صدق[1].

فلما أصبح عمرو غدا على خالد، فقال: ما تريد يا خالد بجلالة؟ قال: قد أسلمت، فإن تسلم أردها إليك، فأسلم عمرو، فردها إليه.

وقدم خالد المدينة، ثم قدم عمرو بن معدي كرب المدينة، فدخل على خالد داره، فقال له: إني والله ما وجدت شيئاً أكافئك به في جلالة إلا سيفي الصمصامة، ثم خلعه من عنقه فناوله إياه، وقال عمرو:

وهبت لخالد سيفي ثواباً على الصمصامة السيف السلام

خليل لم أخنه ولم يخني ولكن التواهب في الكرام[2]

(الوافر)

(١) المصدر السابق ج١ ص ٢٠١ - ٢٠٢.

(٢) نفسه ج١ ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

ذكر ردة كندة وحضرموت

وكان رسول الله - ﷺ - لما قدم عليه وفد كندة مسلمين استعمل عليهم زياد بن لبيد الأنصاري البياضي، وأمره بالمسير معهم، ففعل، وأقام معهم في ديارهم يأخذ صدقاتهم حياة رسول الله - ﷺ - وكان رجلاً مسلماً، فلما توفى رسول لله - ﷺ - وولى أبو بكر، بعث أبا هند - مولى بني بياضة - بكتاب فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. من أبي بكر خليفة رسول الله - ﷺ - إلى زياد بن لبيد، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد، فإن النبي - ﷺ - توفى، فإنا لله، وإنا إليه راجعون، فانظر ولا قوة إلا بالله أن تقوم قيام مثلك، ويبايع من عندك، فمن أبي وطئته بالسيف، وتستعين بمن أقبل على من أدبر، فإن الله مظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون[1].

فلما قدم أبو هند بكتاب أبي بكر - رحمه الله - على زياد بن لبيد، قدم من الليل، وأخبره باجتماع الناس على أبي بكر، وأنه لم يكن بين المسلمين اختلاف، فحمد الله زياد على ذلك، فلما أصبح زياد غدا يقرىء الناس كما كان يفعل قبل ذلك، ثم دخل بيته، فلما جاءت الظهر، خرج إلى الصلاة وعليه السيف، فقال بعض الناس: ما شأن أميركم والسيف، فصلى الظهر بالناس، ثم قال:

أيها الناس، إن رسول الله - ﷺ - توفى، فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد توفى، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقد اجتمع المسلمون على أفضلهم من أنفسهم ولم يكن بينهم اختلاف في أبي بكر بن أبي قحافة، وقد كان

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

النبي - ﷺ - يأمره في مرضه أن يصلي بالناس، فبايعوا أيها الناس، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً[1].

فقال الأشعث بن قيس: إذا اجتمع الناس، فما أنا إلا كأحدهم، ونكص عن التقدم إلى البيعة، فقال امرؤ القيس بن عابس الكندي: أنشدك الله يا أشعث، ووفادتك على النبي - ﷺ - وإسلامك أن تنقضه اليوم، والله ليقومن بهذا الأمر من بعده من يقتل من خالفه، فإياك إياك، أبق على نفسك فإنك إن تقدمت تقدم الناس معك، وإن تأخرت افترقوا واختلفوا، فأبى الأشعث، وقال: قد رجعت العرب إلى ما كانت الآباء تعبد، ونحن أقصى العرب دارا من أبي بكر، أيبعث أبو بكر إلينا الجيوش؟ قال: أي والله، وأحرى أن لا يدعك عامل رسول الله - ﷺ - ترجع إلى الكفر، قال الأشعث: من قال زياد بن لبيد، فتضاحك، ثم قال: أما يرضى زياد أن أجيره، فقال امرؤ القيس: سترى، ثم قام الأشعث، فخرج من المسجد إلى منزله، وقد أظهر ما أظهره من الكلام القبيح من غير أن يكون نطق بالردة، ووقف يتربص، وقال: نقف أموالنا بأيدينا ولا ندفعها، ونكون من آخر الناس، وبايع زياد بن لبيد لأبي بكر من بعد الظهر إلى أن قامت العصر، فصلى بالناس العصر، ثم انصرف إلى بيته، ثم غدا على الصدقة من الغد كما كان قبل، وهو أقوى ما كان نفساً، وأشده لساناً، فبينا هو يصدق إلى أن أخذ قلوصاً في الصدقة من فتى من كندة، فلما أمر بها زياد تعقل وتوسم بميسم السلطان، وكان الميسم لله، أتى الفتى، فصاح: يا حارثة بن سراقة، يا أبا معدى كرب، عقلت البكرة، فأتى حارثة إلى زياد، فقال: اطلق للفتى بكرته، فأبى زياد، فقال: قد عقلتها ووسمتها بميسم السلطان، فقال حارثة: اطلقها أيها الرجل طائعاً، خير من أن تطلقها وأنت كاره، قال زياد: لا والله لا أطلقها ولا نعمت عين. فقام حارثة فحل عقالها وضرب على جنبها، فخرجت القلوص تعدو إلى الأنهار، وجعل حارثة يقول:

أطعنا رسول الله ما كان وسطنا ... فيا قوم ما شأني وشأن أبي بكر

---

(1) المصدر السابق ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

أيـورثهـا بكـراً إذا مـات بعـده،   فتلـك إذا والله قـاصمـة الظهر[1]

(الطويل)

قالوا: فكان زياد يقاتلهم النهار إلى الليل، فلما كان يوم من تلك الأيام، ضاربهم كذلك حتى أمسى، ولم يكن فيما مضى يوم أشد منه، كانت بينهم فيه قتلى وجراح. قال أبو هند: برز منهم يومئذ رجل يدعو إلى البراز، فبرزت إليه، فتشاولنا بالرمحين نهاراً طويلاً، فلم يظفر واحد منا بصاحبه، ثم صرنا إلى السيفين، فما قدر واحد منا على صاحبه، ونحن فارسان إلى أن عثر فرسه، فاقتحم وصار راجلاً، ويدرك فرسي فيضرب عرقوبيه، فوقعت إلى الأرض، وأفضى أحدنا إلى صاحبه، فبدرته، فأضربه، فأقطع يده من المنكب، فوقع السيف من يده، وولى منهزماً، وألحقه، فأجهزت عليه، فما خرج أحد يدعو إلى البراز حتى صلح أمرهم[2].

قالوا: فلما أمسوا من ذلك اليوم، وتفرقوا، وزياد في بيته قد بعث العيون، إذ جاءه عين له بعد أن ذهب عامة الليل فدله على عورة من عدوه، وقال: هل لك في الظفر؟ فقال: ما هو؟ قال: ملوكهم الأربعة في محجرهم قد ثملوا من الشراب، فسار من ساعته في مائة رجل من أصحابه حتى انتهوا إلى المحجر، فتقدم العين فاستمع الصوت فإذا القوم قد هدوا وناموا، فأغار // عليهم، فقتل الملوك الأربعة، مخرس ومشرح وجمد وأبضعة، وأختهم العمردة ذبحهم ذبحاً، وكانوا ملوك كندة وأشرافهم[3].

ويقال: كانت الملوك سبعة: الأشعث بن قيس، ومخرس، وجمد، ووديعة، وأبضعة، ومشرح، ووليعة. فقتل منهم أربعة، ثم رجع زياد إلى أهله، فأصبح القوم قد انكسر حدهم وذلوا[4].

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٠٧ - ٢٠٩.

(٢) نفسه ج ١ ص ٢٠٩ - ٢١٠.

(٣) نفسه ج ١ ص ٢١٠.

(٤) نفسه.

وقالوا: إن العمردة لما توفي رسول الله - ﷺ - ضربت بغربال، فقطع زياد لذلك يدها، وصلبها، فهي كانت أول امرأة قتلت في الردة[1].

وبعث زياد أبا هند إلى أبي بكر وكتب معه:

بسم الله الرحمن الرحيم، لأبي بكر خليفة رسول الله، من زياد بن لبيد، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإن الناس قبلنا منعوا الصدقة، أو عامتهم وأبوا أن يسلموها، وقاتلوا دونها أشد القتال، وأظهروا الردة عن الإسلام، فبعثت عيونا في طلب غرتهم، فأتاني آت منهم يخبرني بغرة منهم، فزحفت إليهم ليلاً، فقتلتهم في محجرهم، وكانوا أربعة: مخرس ومشرح وحمد وأبضعة، وأختهم العمردة، فأصبحوا وقد ذلوا وانكسروا، وإني كتبت إليك والسيف على عاتقي، وبعثت إليك أبا هند بالكتاب، وأمرته أن يجد السير، وأن يخبرك بما رأى وشهد، وإن الكتاب موجز، وعنده علم ما كنا فيه، والسلام[2].

فيروى أن أبا هند قال: خرجت من عند زياد بعد أن صليت الغداة على راحلتي، ومعي رجل من بني قتيرة على راحلة خفير لي، فبلغ بي صنعاء، ثم انصرف، فسرت من حضرموت إلى المدينة تسع عشرة، فأرخفت[3] راحلتي، وما مسيت عنها أكثر مما ركبت، وانتهيت إلى أبي بكر، فأجده حين خرج إلى الصلاة، فلما رآني قال: أبا هند، ما وراءك؟ قلت: خير، والذي يسرك. قتل الملوك الأربعة وأختهم العمردة، قال: قد كنت كتبت إلى زياد أنهي أن يقتل الملوك من كندة، وبعثت بذلك المغيرة بن شعبة، أما لقيته؟ قلت: ما لقيته[4].

وقدم المغيرة خلافي، وذلك أنه أخطأ الطريق، فذلك الذي أبطأ به، وجعل أبو بكر يسألني، فأخبره عن كل ما يسره، ثم قال: ما فعل الأشعث بن قيس؟ قلت: يا خليفة رسول الله، هو أول من نقض، وهو رأس من بقي، وقد ضوى

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢١١.

(٢) نفسه.

(٣) رخف - بالكسر: تعب - ابن منظور. اللسان ص ١٦١٦.

(٤) المصدر السابق ج١ ص ٢١١ - ٢١٢.

إليه ناس كثير، وقد تحصن في النجير بمن معه ممن هو على رأيه، والله مخزيهم، وقد تركت زياد بن لبيد يريد محاصرتهم، فقال أبو بكر: قد كتبت إلى المهاجر ابن أبي أمية أن يمد زياداً ويكون أمرهما واحداً[١].

وكان النبي - ﷺ - لما قتل الأسود العنسي بعث المهاجر والياً على صنعاء، فتوفى - ﷺ - والمهاجر وال عليها، فانحاز إلى زياد بحضرموت، كما أمره أبو بكر[٢].

وكانت قتيرة من كندة قد ثبتت على الإسلام، لم يرجع منها رجل واحد، فلما قدم المهاجر على زياد اشتد أمرهما، وكانا يحاصران أهل النجير، وكان أهل النجير قد غلقوه، فلما قتل الملوك الأربعة دخلوا مع الأشعث بن قيس، وجثم زياد ومهاجر على النجير، فحاصروا أهله بالمسلمين، لا يفارقونه ليلاً ولا نهاراً، وقذف الله الرعب في أفئدتهم، فلما اشتد به الحصار، بعثوا إلى زياد بن لبيد: أن تنح عنا حتى نكون نخرج ونخليك والحصن، فقال: لا أبرح شبراً واحداً حتى نموت من آخرنا أو تنزلوا على حكمنا ورأينا، وجعل يكايدهم لما يرى من جزعهم. فكتب كتاباً، ثم بعث به في السر مع رجل من بني قتيرة ليلاً، مسيرة يوم أو بعض يوم، ثم يأتيه بكتابه الذي كتبه فيقرؤه على الناس:

من أبي بكر خليفة رسول الله - ﷺ إلى زياد بن لبيد، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فقد بلغني ردة من ارتد قبلك بعد المعرفة بالدين، غرة بالله، والله مخزيهم إن شاء الله، فاحصرهم ولا تقبل منهم إلا ما خرجوا منه أو السيف. فقد بعثت إليك عشرة آلاف رجل عليهم فلان بن فلان، وخمسة آلاف عليهم فلان بن فلان، وقد أمرتهم أن يسمعوا لك ويطيعوا، فإذا جاءك كتابي هذا فإن أظفرك الله بهم فإياك والبقيا في أهل النجير، حرق حصنهم بالنار، واقطع معايشهم، واقتل المقاتلة، واسب الذرية، وابعث بهم إن شاء الله[٣].

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢١٢.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه ج ١ ص ٢١٣ - ٢١٤.

وإنما هذا كتاب كتبه زياد بيده مكايدة لعدوه، فكانوا إذا قرىء عليهم هذا الكتاب أيقنوا بالهلكة، واشتد عليهم الحصار، وندموا على ما صنعوا، فبينا هم على ذلك الحصار قد جهدهم، قال الأشعث: إلى متى هذا الحصر قد غرثنا وغرث عيالنا، وهذه البعوث تقدم علينا بما لا قبل لنا به، وقد ضعفنا عمن معنا، فكيف بمن يأتينا من هذه الأمداد والله للموت بالسيف أحسن من الموت بالجوع، أو يؤخذ برقبة الرجل كما يصنع بالذرية. قالوا: وهل لنا قوة بالقوم؟ فما ترى لنا؟ فأنت سيدنا، قال: أنزل فآخذ لكم الأمان قبل أن تدخل هذه الأمداد، بما لا قبل لنا به، فجعل أهل الحصن يقولون للأشعث: افعل وخذ لنا أمانا، فإنه ليس أحد أجرأ على ما قبل زياد منك، قال: فأنا أنزل.

فأرسل إلى زياد: أنزل فأكلمك وأنا آمن؟ قال: نعم، فنزل الأشعث من النجير فخلا بزياد، فقال: يا ابن عم، قد كان هذا الأمر ولم يبارك لنا فيه، وإن لي قرابة ورحما، وإن أوصلتني إلى صاحبك قتلني - يعني المهاجر بن أمية - وأن أبا بكر يكره قتل مثلي، وقد جاءك كتابه ينهاك عن قتل الملوك من كندة، فأنا أحدهم، وأنا أطلب منك الأمان على أهلي ومالي، فقال زياد: لا أؤمنك أبداً على دمك وأنت كنت رأس الردة والذي نقض على كندة، فقال: أيها الرجل، دع ما مضى واستقبل الأمور إذا أقبلت، قال زياد: وماذا؟ قال: وأفتح لك النجير، فأمنه زياد على أهله وماله، على أن يقدم به على أبي بكر، فيرى فيه رأيه، وفتح له النجير[1].

وقد كان المهاجر لما نزل الأشعث من الحصن ليكلمهم، قال لزياد: رده إلى الحصن حتى ينزل على حكمنا // فنضرب عنقه، فنكون قد استأصلنا شأفة الردة، فأبى زياد إلا أن يؤمنه، وقال: أخشى أن يلومني أبو بكر في قتله وقد جاءني كتابه ينهاني عن قتل الملوك الأربعة، فأخاف مثل ذلك، مع أن أبا بكر إن أراد قتله فله ذلك، إنما جعل له الأمان على نفسه وما له إلى أن يبلغ أبا بكر، لا أدع من عين ماله شيئاً يخف حمله معه إلا سار به، وأحول بينه وبين ما ها هنا مما لا

١٣٥ ب

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢١٤ - ٢١٥.

يطيق حمله، حتى يأتي رأي أبي بكر فيه، فأمنه زياد على أن يبعث به وبأهله وبماله إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فيحكم فيه بما يرى[1].

وفتحوا له النجير، فأخرجوا المقاتلة، فعمد زياد إلى أشرافهم وهم سبعمائة فضرب أعناقهم على دم واحد، ولام القوم الأشعث، فقالوا لزياد: غدر بنا فأخذ الأمان لنفسه وأهله، ولم يأخذ لنا، وإنما نزل على أن يأخذ لنا جميعاً، فنزلنا ونحن آمنون، فقتلنا. فقال زياد: ما أمنتكم، فقالوا: صدقت، خدعنا الأشعث[2].

قال الواقدي: وقد ذكروا في فتح النجير وجهاً آخر عن أبي مغيث، قال: كنت فيمن حضر أهل النجير، فصالح الأشعث زياداً على أن يؤمن من أهل النجير سبعين رجلاً، ففعل، فنزل سبعون رجلاً ونزل معهم الأشعث، فكانوا أحداً وسبعين، فقال زياد: أقتلك، لم يكن لك أمان، فقال الأشعث: تؤمنني على أن أقدم على أبي بكر فيرى في رأيه، فآمنه على ذلك[3]، والقول الأول أثبت.

وبعث أبو بكر نهيك بن أوس بن حزمة إلى زياد بن لبيد يقول: إن ظفرت بأهل النجير فاستبقهم، فقدم عليه ليلاً وقد قتل منهم في أول النهار سبعمائة في صعيد واحد، قال نهيك: فما هو إلا أن رأيتهم فشبهت بهم قتلى بني قريظة يوم قتلهم النبي ـ ﷺ ـ وأبى زياد أن يواري جثثهم، وتركهم للسباع، فكان هذا أشد على من بقي من القتل، وهرب أهل الردة في كل وجه، وكان لا يؤخذ منهم إنسان إلا قتل.

ثم بعث زياد بالسبي مع نهيك، وبعث معه ثمانين رجلاً من قتيرة، وبعث بالأشعث معهم في وثاق[4].

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ٢١٥ ـ ٢١٦.
(٢) نفسه ج١ ص ٢١٦.
(٣) نفسه.
(٤) نفسه ج ١ ص ٢١٧.

قال عبد الرحمن بن الحويرث: رأيته يوم قدم به المدينة في حديد، مجموعة يداه إلى عنقه(1).

ونزل نهيك بالسبي في دار رملة بنت الحارث، ومعهم الأشعث بن قيس، ولما كلمه أبو بكر جعل يقول: يا خليفة رسول الله، والله ما كفرت بعد إسلامي، ولكني شححت على مالي، فقال أبو بكر: ألست الذي يقول: قد رجعت العرب إلى ما كانت الآباء تعبد، وأبو بكر يبعث إلينا الجيوش ونحن أقصى العرب داراً؟ فرد عليك من هو خير منك، فقال: لا يدعك عامله ترجع إلى الكفر، فقلت: من، قال: زياد بن لبيد، فتضاحكت، فكيف وجدت زياداً، أذكرت به أمه؟ قال الأشعث: نعم كل الأذكار، ثم قال في آخر قوله: أيها الرجل، اطلق إساري، واستبقني لحربك، وزوجني أختك أم فروة بنت أبي قحافة، فإني قد تبت مما صنعت، ورجعت إلى ما خرجت منه من منع الصدقة، فأسعفه أبو بكر فزوجه، فكان الأشعث مقيماً بالمدينة حتى كانت ولاية عمر بن الخطاب، وثاب الناس إلى فتح العراق، فخرج الأشعث مع سعد بن أبي وقاص(2).

قالوا: وقدم على أبي بكر - رضي الله عنه - أربعة عشر رجلاً من كندة يطلبون أن يفادوا بينهم، وقالوا: يا خليفة رسول الله - ﷺ - ما رجعنا عن الإسلام ولكن شححنا على أموالنا، وقد رجع من وراءنا إلى ما خرجوا منه وبايعوك راضين، فقال أبو بكر: بعد ماذا؟ بعد أن وطئكم السيف؟ فقالوا: يا خليفة رسول الله، إن الأشعث غدر بنا، كنا جميعاً في الحصن، فكان أجزعنا، وكان أول من نقض، وأبي أن يدفع الصدقة، وأمرنا بذلك، ورأسنا، فلم يبارك لنا في رياسته. فقال: أنزل وآخذ لكم الأمان جميعاً، فإن لم يكن رجعت إليكم فيصيبني ما يصيبكم، فنزل، فأخذ الأمان لنفسه وأهله ومواليه، وقتلنا صبرا بالسيف(3).

---

(1) المصدر السابق ج ١ ص ٢١٧ - ٢١٨.

(2) نفسه ج١ ص ٢١٨ - ٢١٩.

(3) نفسه ج ١ ص ٢١٩.

فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه : قد كنت كتبت إلى زياد بن مهاجر كتاباً مع نهيك بن أوس إن ظفرتما بأهل النجير فلا تقتلاهم وأنزلاهم على حكمي.

فقال المتكلم : قد والله قتل منا سبعمائة على دم واحد ، وقد رجوناك يا خليفة رسول الله[1].

ولما كلمه الوفد في أن يرد عليهم السبي ويقبل منهم الفداء أجاب إلى ذلك ، وخطب الناس على المنبر ، فقال:

أيها الناس ، ردوا على هؤلاء القوم نساءهم وذراريهم ، لا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر أن يغيب عنهم أحداً ، قد جعلنا الفداء على كل رأس منهم أربعمائة درهم[2].

وأمر أبو بكر زيد بن ثابت بقبض الفداء ، وأمره أيضاً بإخراج الخمس.

قال الواقدي : سألت معاذ بن محمد فقلت : أرأيت الأربعة الأخماس ، حيث أمر أبو بكر أن يفدوا بأربعمائة أربعمائة ، ما فعل بها ؟ قال : جمع أبو بكر ذلك كله فجعله سهمانا لأهل النجير مع ما استخرج زياد بن لبيد والمهاجر مما وجدوا في الحصن النجير من الرثة والسلاح ، ومما أصابوا من غير ذلك ، فجعلوه مغنماً[3].

وكان أبو بكر قد أمد زياداً والمهاجر بعكرمة بن أبي جهل وهو يومئذ بدبا ، فسار إليهم في سبعمائة فارس ، وقدم بعد فتح النجير بأربعة أيام ، فأمر أبو بكر بأن يسهم لهم في ذلك ، فأسهم لهم[4].

ونظرت عجوز من سبي النجير إلى الأشعث بن قيس ، فقالت : قبحت من وافد قوم ورسولهم ، أخذت الأمان لأهلك ومواليك وعرضتنا للسباء ، وقتلت رجالنا بغدرك ، ولم تواسهم بنفسك ، وأنت شأمتهم ، رأسوك فلم يبارك لهم في رياستك ،

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٢) نفسه ج١ ص ٢٢٠.

(٣) نفسه ج ١ ص ٢٢١.

(٤) نفسه ج ١ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

والله ما رجعوا عن الإسلام ولكن شحوا على أموالهم، فقتلوا، ورجعت أنت عن الإسلام فنجوت، ما كان أحد ـ قط ـ أشأم على قومه منك[1].

ومما يحفظ من شعر الأشعث، يذكر الجماعة الذين ضرب زياد أعناقهم من أهل النجير وهم سبعمائة كما تقدم:

فلا رزء إلا يـوم أقـرع بينهـم ... وما الدهر عنـدي بعـدهـم بـأمين

فليت جنوب النـاس تحت جنـوبهم ... ولم تمش أنثـي بعـدهـم بجنين

فكنت كذات البو ضغت فـأقبلـت ... إلى بـوهـا أو طـربـت بجنين

لعمـري ومـا عمـري على بهين ... لقـد كنـت بـالقتلى أحق ضنين[2]

(الطويل)

ويروى أن الأشعث إنما قال هذا في الملوك الأربعة الذين قتلوا، ومن روى هذا أنشد الشعر هكذا:

١٣٦ أ لعمـري ومـا عمـري على بهين ... لقـد كنـت بـالأملاك حـق ضنين

فإن يك هـذا الدهـر فـرق بينهـم ... فما الدهـر عنـدي بعـدهـم بـأمين

فليت جنوب النـاس تحت جنـوبهم ... ولم يبشروني بعـدهـم بجنين

وكنت كذات البو ريعت فـأقبلـت ... على بـوهـا أو طـربـت بجنين

(الطويل)

(١) المصدر السابق ج١ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١.
(٢) نفسه ج ١ ص ٢٢١.

ذكر بدء الغزو إلى الشام وما وقع في نفس أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - من ذلك وما قوى عزمه عليه

حدث سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - قال: لما فرغ أبو بكر - رضي الله عنه - من أهل الردة، واستقامت له العرب، حدث نفسه بغزو الروم، ولم يُطلع عليه أحداً، فبينما هو كذلك إذ جاءه شرحبيل بن حسنة فجلس إليه، فقال: يا خليفة رسول الله أحدثت نفسك أن تبعث إلى الشام جنداً؟ قال: نعم، قد حدثت نفسي بذلك ولم أطلع عليه أحداً، وما سألتني إلا لشيء. قال: أجل، إني رأيت فيما يرى النائم كأنك تمشي في ناس من المسلمين فوق حرشفة من الجبل، فأقبلت تمشي معهم حتى صعدت قلة في أعاليه، فأشرفت على الناس ومعك أصحابك أولئك، ثم هبطت من تلك القلة إلى أرض سهلة دمثة، فيها الزروع والعيون والقرى والحصون، فقلت: يا للمسلمين! شنوا الغارة على المشركين، فأنا ضامن لكم بالفتح والغنيمة! فشد المسلمون وأنا فيهم ومعي راية، فتوجهت بها إلى قرية فسألوني الأمان فأمنتهم، ثم جئت فأجدك قد انتهيت إلى حصن عظيم، ففتح لك، وألقوا إليك السلم، ووضع لك عريش فجلست عليه، ثم قال لك قائل: يفتح عليك وتنصر فاشكر ربك واعمل بطاعته، ثم قرأ ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾ (١ - ٤ : النصر)، ثم انتهيت. فقال له أبو بكر - رضي الله عنه: نامت عينك، ثم دمعت عينا أبي بكر - رضي الله عنه - فقال: أما الحرشفة التي كنا نمشي عليها حتى صعدنا منها إلى القُلة العالية فأشرفنا منها على الناس فإنا نكابد من أمر هذا الجند مشقة ويكابدوننا ثم نعلو بعد

ويعلو أمرنا، وأما نزولنا من القلة إلى الأرض السهلة الدمثة وما فيها من الزروع والعيون والقرى والحصون فإنا ننزل إلى أمر أسهل مما كنا فيه، فيه الخصب والمعاش، وأما قولي للمسلمين: شنوا عليهم الغارة، فإني ضامن لكم بالفتح والغنيمة، فإن ذلك توجيهي للمسلمين إلى بلاد المشركين واحتثاثي إياهم على الجهاد، وأما الراية التي كانت معك فتوجهت بها إلى قرية من قراهم فدخلتها فاستأمنوك فأمنتهم فإنك تكون أحد أمراء المسلمين ويفتح الله على يديك، وأما الحصن الذي فتح لنا فهو ذلك الوجه، يفتحه الله عليَّ، وأما العريش الذي رأيتني عليه جالساً، فإن الله يرفعني ويضع المشركين، وأما الذي أمرني بالعمل وبالطاعة وقرأ عليَّ السورة فإنه نعى إليّ نفسي، إن هذه السورة حين أنزلت على النبي - ﷺ علم أن نفسه قد نُعيت إليه، ثم سالت عينا أبي بكر، فقال: لآمرن بالمعروف ولأنهين عن المنكر ولأجاهدن من ترك أمر الله ولأجهزن الجنود إلى العادلين بالله في مشارق الأرض ومغاربها حتى يقولوا: الله أحد، الله أحد، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون، أمر الله وسنة رسوله، فإذا توفاني الله لم يجدني وانياً، ولا في ثواب المجاهدين فيه زاهداً، ثم إنه عند ذلك أمر الأمراء، وبعث إلى الشام البعوث.

وعن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي(١)، وكانت له صحبة، قال: لما أراد أبو بكر أن يجهز الجنود إلى الشام دعا عمر وعثمان وعلياً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح، ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم، فدخلوا عليه وأنا فيهم، فقال:

إن الله - (تبارك) وتعالى - لا تُحصى نعمه، ولا تبلغ جزاءها الأعمال، فله الحمد كثيراً على ما اصطنع عندكم، قد جمع كلمتكم، وأصلح ذات بينكم، وهداكم إلى الإسلام، ونفى عنكم الشيطان، فليس يطمع أن تشركوا بالله ولا أن

---

(١) هو علقمة بن خالد بن الحارث بن أبي معف بن رفاعة بن ثعلبة بن هوازن بن مسلم الأسلمي (ت ٨٠ هـ)، والنص في تاريخ فتوح الشام للأزدي ص ١ وما بعدها.

تتخذوا إلهاً غيره، فالعرب اليوم[1] بنو أم وأب، وقد رأيت أن أستنفرهم[2] إلى الروم بالشام، فمن هلك منهم هلك شهيداً، وما عند الله خير للأبرار، ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين، مستوجباً على الله ثواب المجاهدين، هذا رأيي الذي رأيت، فليشر عليّ (كل) امرىء بمبلغ رأيه.

فقام عمر - رضي الله عنه - فقال:

الحمد لله الذي يخص بالخير من يشاء من خلقه، والله ما استبقنا إلى شيء من الخير إلا سبقتنا إليه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، قد والله أردت لقاءك بهذا الرأي الذي ذكرت غير مرة، فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن، فقد أصبت، أصاب الله بك سبيل الرشاد، سرب إليهم الخيل في أثر الخيل، وابعث الرجال بعد الرجال، والجنود يتبعها الجنود[3]، فإن الله تعالى ناصر دينه، ومعز الإسلام وأهله، ومنجز ما وعده رسوله.

ثم إن عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - قام، فقال:

يا خليفة رسول الله، إنما الروم بنو الأصفر حد حديد، وركن شديد، والله ما أرى أن تقحم الخيل عليهم إقحاماً، ولكن تبعث الخيل فتغير في أدنى أرضهم، وترجع إليك، فإذا فعلوا ذلك مراراً أضروا بهم، وغنموا من أداني أرضهم، فقووا بذلك على قتالهم، ثم تبعث إلى أقاصي أهل اليمن، وأقاصي ربيعة ومضر، فتجمعهم إليك جميعاً، فإن شئت عند ذلك غزوتهم بنفسك، وإن شئت أغزيتهم[4] غيرك.

ثم جلس وسكت، وسكت الناس، فقال لهم أبو بكر: ماذا ترون رحمكم الله؟ فقام عثمان بن عفان - رضي الله عنه - فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على

---

(١) في الأزدي: فالعرب أمة واحدة.

(٢) نفسه: «وقد رأيت أستنفركم».

(٣) نفسه: «وأبعث الرجال تتبعها الرجال، والجنود تلوها الجنود».

(٤) نفسه: «وإن شئت بعثت على غزوهم غيرك».

رسوله، ثم قال:

نرى[٦] أنك ناصح لأهل هذا الدين، شفيق عليهم، فإذا رأيت رأياً تراه لعامتهم رشداً وصلاحاً فاعزم على إمضائه، فإنك غير ضنين عليهم ولا متهم.

فقال طلحة والزبير وسعد وأبـو عبيدة وسعيد بن زيد وجميع من حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار:

صدق عثمان، ما رأيت من الرأي فامضه، فإنا سامعون لك، مطيعون، لا نخالف أمرك، ولا نتهم رأيك، ولا نتخلف عن دعوتك وإجابتك.

١٣٦ ب // فذكروا هذا وأشباهه، وعلي - رضي الله عنه - في القوم لا يتكلم، فقال له أبو بكر - رضي الله عنهما: ماذا ترى يا أبا الحسن؟ فقال:

أرى أنك مبارك الأمر، ميمون النقيبة، وإنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نُصرت إن شاء الله تعالى.

قال : بشرك الله بخير، ومن أين علمت هذا؟

قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: لا يـزال هذا الدين ظاهراً على كل من ناوأه حتى تقوم الساعة وأهله ظاهرون.

فقال أبو بكر: سبحان الله! ما أحسن هذا الحديث، لقد سررتني به، سرك الله في الدنيا والآخرة.

ثم إنه قام في الناس فذكر الله بما هو أهله، وصلى على نبيه ﷺ ثم قال:

أيها الناس، إن الله - تعالى - قد أنعم عليكم بالإسلام، وأعزكم بالجهاد، وفضلكم بهذا الدين على أهل كل دين، فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام، فإني مؤمر عليكم أمراء، وعاقد لهم عليكم، فأطيعوا ربكم، ولا تخالفوا

---

(١) في المصدر السابق: «رأيي..».

(٢) نفسه: «فقال أبو بكر...»

أمراءكم، ولتحسن نيتكم وسريرتكم وطعمتكم، فإنّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

فسكت القوم، فوالله ما أجابه أحد هيبة لغزو الروم، لما يعلمون من كثرة عددهم وشدة شوكتهم.

فقام عمر ـ رحمه الله ـ فقال:

يا معشر المسلمين، ما لكم لا تجيبون خليفة رسول الله إذا دعاكم لما يحييكم؟ أما لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لابتدرتموه!

فقام إليه عمرو بن سعيد فقال: يا ابن الخطاب، ألنا تضرب أمثال المنافقين؟ فما يمنعك مما عتبت علينا فيه؟

فقال: الاتكال، على أنه يعلم أني أجيبه لو يدعوني، وأغزو لو يغزيني.

فقال عمرو: ولكن نحن لا نغزو لكم إن غزونا، فإنما نغزو لله.

فقال أبو بكر لعمرو: اجلس رحمك الله، فإن عمر لم يرد بما سمعت أذى مسلم ولا تأنيبه، إنما أراد أن يبعث بما سمعت المتثاقلين إلى الأرض عن الجهاد.

فقام خالد بن سعيد فقال: صدق خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ اجلس يا أخي، فجلس أخوه، فقال خالد:

الحمد لله الذي لا إله إلا هو، الذي بعث محمداً ـ ﷺ ـ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، فالله منجز وعده، ومعز دينه، ومهلك عدوه.

ثم أقبل على أبي بكر فقال: ونحن أولاً غير مخالفين لك، ولا متخلفين عنك، وأنت الوالي الناصح الشفيق، ننفر إذا استنفرتنا، ونطيعك إذا أمرتنا، ونجيبك إذا دعوتنا.

ففرح بمقالته أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وقال: له جزاك الله خيراً من أخ

وخليل، فقد أسلمت مرتغباً، وهاجرت محتسباً، وهربت بدينك من الكفار لكي يطاع الله ورسوله وتعلو كلمته، فأنت أمير الناس، فتيسر - رحمك الله.

ثم إنه نزل، ورجع خالد بن سعيد فتجهز، وأمر أبو بكر -رضي الله عنه- بلالاً فأذن في الناس: انفروا أيها الناس إلى جهاد عدوكم: الروم بالشام، وأمير الناس خالد بن سعيد، فكان الناس لا يشكون أن خالداً أميرهم، وكان خالد ابن سعيد من عمال رسول الله - ﷺ - على اليمن، فلما قبض رسول الله - ﷺ - جاء المدينة وقد استخلف الناس أبا بكر، فاحتبس عن أبي بكر ببيعته أياماً، وأتى بني هاشم وقال: أنتم الظهر والبطن والشعار دون الدثار، فإذا رضيتم رضينا، وإذا سخطتم سخطنا، حدثوني: أبايعتم هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: على بر ورضى من جماعتكم؟ قالوا: نعم، قال: فإني أرضى إذا رضيتم، وأبايع إذا بايعتم، أما أنكم والله يابني هاشم فينا لطوال الشجر، طيبو الثمر، ثم بايع أبا بكر بعد ذلك.

وبلغت مقالته أبا بكر فلم يبال، واضطغن ذلك عليه عمر، فلما ولاه أبو بكر الجند الذي استنفر إلى الشام، أتى عمر - أبا بكر فقال: أتولي خالد بن سعيد وقد حبس عنك بيعته وقال لبني هاشم ما بلغك، وقد جاء بورق اليمن وعبيد له حبشان وبدروع ورماحٍ؟ ما أرى أن توليه وما آمن خلافه، وكان أبو بكر لا يخالف عمر ولا يعصيه، فدعا يزيد بن أبي سفيان، وأبا عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، فقال لهم:

إني باعثكم في هذا الوجه، ومؤمركم على هذا الجند، وأنا باعث على كل رجل من الرجال ما قدرت عليه، فإذا قدمتم البلد ولقيتم العدو فاجتمعتم على قتالهم فأميركم أبو عبيدة. وإن أبو عبيدة لم يلقكما وجمعتكما حرب فيزيد بن أبي سفيان الأمير، انطلقوا فتجهزوا.

فخرج القوم يجهزون، وبلغ ذلك خالد بن سعيد، فتيسر وتهيأ بأحسن هيئة، ثم أقبل نحو أبي بكر وعنده المهاجرون والأنصار أجمع ما كانوا، وقد

تيسر الناس، وأمروا بالعسكرة مع هؤلاء النفر الثلاثة، فسلم على أبي بكر وعلى المسلمين، ثم جلس، فقال لأبي بكر:

أما إنك كنت وليتني أمر الناس، وأنت لي غير متهم، ورأيك فيَّ حَسَنٌ حتى خوفت مني أمراً، والله لأن أخر من رأس حالق [١] أو تخطفني الطير في الهواء بين الأرض والسماء أحب إليّ من أن يكون ما ظن، والله ما أنا في الإمارة براغب، ولا على البقاء في الدنيا بحريص، وإني أشهدكم أني وأخوتي وفتياني ومن أطاعني من أهلي جيش في سبيل الله نقاتل المشركين أبداً حتى يهلكهم [٢] الله أو نموت، لا نريد به حمد الناس ولا جزاءهم.

فقال له الناس: خيراً [٣]، ودعوا له به، وقال أبو بكر رحمه الله: أوتيت في نفسي وولدي ما أحب لك ولإخوتك، والله إني لأرجو أن تكون من نصحاء الله في عباده، وإقامة كتابه، واتباع سنة رسوله.

فخرج هو وإخوته وغلمته ومن معه، فكان أول خلق الله عسكر، ثم خرج الناس إلى معسكرهم من عشرة وعشرين وثلاثين وأربعين وخمسين ومائة في كل يوم حتى اجتمع الناس وكثروا، فخرج أبو بكر ذات يوم، ومعه من الصحابة كثير حتى انتهى إلى عسكرهم فرأى عدة حسنة، فلم يرض كثرتها للروم، فقال لأصحابه: ماذا ترون في هؤلاء؟ أترون أن نشخصهم إلى الشام في هذه العدة؟ فقال له عمر: ما أرضى بهذه العدة لجموع بني الأصفر، فأقبل على أصحابه فقال: ماذا ترون؟ فقالوا: ونحن ـ أيضاً ـ نرى ما رأى عمر، فقال أبو بكر: أفلا نكتب كتاباً إلى أهل اليمن ندعوهم إلى الجهاد // ونرغبهم في ثوابه؟ ١٣٧ أ فرأى ذلك جميع أصحابه، فقالوا: نعم ما رأيت، فافعل.

فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. من خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ إلى من قرىء

---

(١) الحالق: الجبل المرتفع.

(٢) في الأصل: يهلكم.

(٣) في الأزدي: «فقال له أبو بكر: خيراً، ودعا له المسلمون بخير».

عليه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن.

سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد. فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ كتب على المسلمين الجهاد، وأمرهم أن ينفروا فيه خفافاً وثقالاً، فقال جل ثناؤه: ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ (٩: الصف)، فالجهاد فريضة مفروضة، وثوابه عند الله عظيم، وقد استنفرنا من قبلنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام، وقد سارعوا إلى ذلك، وعسكروا وخرجوا، وحسنت نيتهم وعظمت حسبتهم، فسارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم وسنة نبيكم، وإلى إحدى الحسنيين: إما الشهادة وإما الفتح والغنيمة، إن الله ـ جل ذكره ـ لم يرض من عباده بالقول دون العمل، ولا يترك الجهاد فيه أهل عداوته حتى يدينوا بالحق ويقروا بحكم الكتاب، حفظ الله لكم دينكم وهدى قلوبكم، وزكى أعمالكم، ورزقكم أجر المجاهدين الصابرين، والسلام عليكم.

وبعث بالكتاب مع أنس بن مالك.

قال أنس:

أتيت اليمن فبدأت بهم حياً حياً [١]، وقبيلة قبيلة، أقرأ عليهم كتاب أبي بكر الصديق، فإذا فرغت من قراءته قلت: الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ـ ﷺ ـ أما بعد، فإني رسول خليفة رسول الله إليكم، ورسول المسلمين، ألا وإني قد تركتهم معسكرين، ليس يمنعهم عن الشخوص إلى عدوهم إلا انتظاركم، فعجلوا إلى إخوانكم بالنفر ـ رحمكم الله أيها المسلمون.

قال: فكان كل من أقرأ عليه ذلك الكتاب ويسمع مني هذا القول يحسن الرد ويقول: نحن سائرون، وكأن قد فعلنا حتى انتهيت إلى ذي الكلاع [٢]، فلما قرأت عليه الكتاب، وقلت له هذا المقال دعا بفرسه وسلاحه ونهض في قومه،

---

(١) نفسه: «أتيت أهل اليمن جناحاً جناحاً، وقبيلة قبيلة، أقرأ عليهم...»

(٢) هو «أيفع بن يزيد بن النعمان»، وسمي بذلك لأن حمير ـ قبيلته ـ تلكعوا (أي اتحدوا وتحالفوا) على يديه.

وأمر بالعسكرة، فما برحنا حتى عسكر وعسكرِ معه جموع كثيرة من أهل اليمن، وسارعوا، فلما اجتمعوا إليه قام فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه، ثم قال:

أيها الناس، إن من رحمة الله إياكم ونعمته عليكم أن بعث فيكم نبياً أنزل عليه الكتاب فأحسن عنه البلاغ، فعلمكم ما يرشدكم، ونهاكم عما يفسدكم، حتى علمكم ما لم تكونوا تعلمون، ورغبكم من الخير فيما لم تكونوا فيه ترغبون، وقد دعاكم إخوانكم الصالحون إلى جهاد المشركين، واكتساب الأجر العظيم، فلينفر من أراد النفر معي الساعة.

قال: فنفر بعدد من الناس كثير، وأقبل بهم إلى أبي بكر ـ رحمه الله ـ فرجعنا نحن فسبقناه بأيام فوجدنا أبا بكر بالمدينة ووجدنا ذلك العسكر على حاله، وأبو عبيدة يصلي بأهل ذلك العسكر.

فلما قدمت حمير معها أولادها ونساؤها، فرح بهم أبو بكر وقام فقال: عباد الله، ألم نكن نتحدث فنقول إذا مرت حمير معها نساؤها تحمل أولادها: نصر الله المسلمين وخذل المشركين؟ فأبشروا أيها المسلمون، قد جاءكم النصر.

قال: وجاء قيس بن هبيرة بن مكشوح المرادي معه جمع كثير حتى أتى أبا بكر فسلم عليه ثم جلس، فقال له: ما تنتظر ببعثة هذه الجنود؟ قال: ما كنا ننتظر إلا قدومكم، قال: فقد قدمنا، فابعث الناس الأول فالأول، فإن هذه البلدة ليست ببلدة خف ولا كراع [1].

قال: فعند ذلك خرج أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يمشي، فدعا يزيد بن أبي سفيان فعقد له، ودعا ربيعة بن عامر من بني عامر بن لؤي فعقد له، ثم قال له: أنت مع يزيد بن أبي سفيان لا تعصه ولا تخالفه، ثم قال ليزيد: إن رأيت أن توليه مقدمتك فافعل، فإنه من فرسان العرب وصلحاء قومك، وأرجو أن يكون من عباد الله الصالحين، فقال يزيد: لقد زاده إليّ حباً حسن ظنك به ورجاؤك

(١) الخف: الإبل، والكراع، الخيل.

فيه، ثم إنه خرج معه يمشي، فقال له يزيد: يا خليفة رسول الله، إما أن تركب، وإما أن تأذن لي فأمشي معك، فإني أكره أن أركب وأنت تمشي، فقال أبو بكر - رضي الله عنه: ما أنا براكب، وما أنت بنازل، إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله، ثم أوصاه فقال:

يا يزيد، إني أوصيك بتقوى الله وطاعته، والإيثار له، والخوف منه، وإذا لقيتم العدو فأظفركم الله به فلا تغلل [١] ولا تمثل [٢] ولا تغدر ولا تجبن، ولا تقتلن وليداً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تحرقن نخلاً ولا تغرقنه، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تعقروا بهيمة إلا لمأكل، وستمرون بقوم في هذه الصوامع [٣] يزعمون أنهم حبسوا أنفسهم لله، فدعهم وما حبسوا أنفسهم له، وستجدون آخرين فحص الشيطان أوساط رؤوسهم كأن أوساطها أفاحيص القطا [٤]، فأضربوا بالسيف ما فحصوا عنه من رؤوسهم حتى ينيبوا إلى الإسلام أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ولينصرن الله من ينصره ورسله بالغيب. وأقرأ عليك السلام، وأستودعك الله.

ثم أخذ بيده فودعه، ثم قال:

إنك أول امرىء وليته على رجال من المسلمين أشراف غير أوضاع في الناس، ولا ضعفاء ولا أدنياء ولا جفاة في الدين، فأحسن صحبتهم، وألن لهم كتفك، واخفض لهم جناحك، وشاورهم في الأمر، أحسن أحسن الله لك الصحابة، وعلينا الخلافة.

فخرج يزيد في جيشه قبل الشام.

وكان أبو بكر - رحمه الله - كل غدوة وعشية يدعو في دبر صلاة الغداة،

---

(١) الغل بالكسر: الحقد والضغينة.

(٢) التمثيل: هو التجاوز عن الحاجة في ضرب العدو.

(٣) جمع صومعة، وهي بيت العبادة عند النصارى.

(٤) جمع أفحوص، وهو التراب، تتخذ فيه طيور القطا مساكن لها.

ويدعو بعد صلاة العصر، فيقول: اللهم إنك خلقتنا ولم نـك شيئاً، ثم بعثت إلينا رسولاً رحمة منك وفضلاً علينا، فهديتنا وكنا ضلالاً، وحببت إلينا الايمان وكنا كفاراً، وكثرتنا وكنا قليلاً، وجمعتنا وكنا أشتاتاً، وقويتنا وكنا ضعفاء، ثم فرضت علينا الجهاد وأمرتنا بقتال المشركين حتى يقولوا: لا إله الا الله، ويعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، اللهم إنا أصبحنا نطلب رضاك، بجهاد من عاداك، ثم عدل بك وعبد معك آلهة غيرك، لا اله إلا أنت تعاليت عما يقول الظالمون علواً كبيراً، اللهم فانصر عبادك المسلمين على عدوك من المشركين، اللهم افتح لهم فتحاً يسيراً، وانصرهم نصراً عزيزاً، وشجع جبنهم، وثبت أقدامهم // وزلزل ١٣٧ ب بعدوهم، وأدخل الرعب قلوبهم، واستأصل شأفتهم، واقطع دابرهم، وأبد خضراءهم، وأورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم وآثارهم، وكن لنا ولياً، وبنا حفياً، وأصلح لنا شأننا، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين، واغفر لنا وللمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، ثبتنا الله وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، إنه بالمؤمنين رءوف رحيم.

وعن أنس قال: لما بعث أبو بكر ـ رحمه الله ـ يزيد بن أبي سفيان الى الشام لم يسر من المدينة حتى جاء شرحبيل بن حسنة الى أبي بكر، فقال: يا خليفة رسول الله، إني قد رأيت فيما يرى النائم كأنك في جماعة من المسلمين كثيرة، وكأنك بالشام ونحن معك، إذ استقبلك النصارى بصلبها، والبطارقة بكتبها، وانحطوا عليك من كل شرف وحدب، وكأنهم السيل، فاعتصمنا بلا إله إلا الله، وقلنا: حسبنا الله ونعم الوكيل، ثم نظرنا فإذا نحن بالقرى والحصون من ورائهم وعن أيمانهم وشمائلهم، فإذا نحن بآت قد أتى، فنزل بأعلى شاهقة في الجبل حتى استوى بالحضيض، ثم أخرج كفهوأصابعه فإذا هي نار، ثم أنه أهوى بها إلى ما قابله مـن القرى والحصون، فصارت ناراً تأجج، ثم إنها خبت فصارت رمادا، ثم نظرنا إلى ما استقبلنا من نصاراهم وبطارقتهم وجموعهم فإذا الأرض قد ساخت بهم، فرفع الناس رؤوسهم وأيديهم إلى ربهم يحمدونه ويمجدونه ويشكرونه، فهذا ما رأيت، ثم انتبهت.

فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه: نامت عينك، هذه بشرى، وهو الفتح إن شاء الله لا شك فيه، وأنت أحد أمرائي، فإذا سار يزيد بن أبي سفيان فأقم ثلاثاً ثم تيسر للسير، ففعل، فلما مضى اليوم الثالث أتاه من الغد يودعه، فقال له: يا شرحبيل، ألم تسمع وصيتي يزيد بن أبي سفيان؟ قال: بلى، قال: فإني أوصيك بمثلها، وأوصيك بخصال أغفلت ذكرهن لابن أبي سفيان، أوصيك بالصلاة لوقتها، وبالصبر يوم البأس حتى تظفر أو تقتل، وبعيادة المرضى وحضور الجنائز، وبذكر الله كثيراً على كل حال. فقال له أبو سفيان: إن هذه الخصال كان يزيد بهن مستوصياً، وعليهن مواظباً قبل أن يسير إلى الشام، فهو الآن لهن ألزم إن شاء الله تعالى. فقال شرحبيل: الله المستعان، وما شاء الله أن يكون كان، ثم ودع أبا بكر وخرج في جيشه قبل الشام، وبقي عظم الناس مع أبي عبيدة في العسكر يصلي بهم، وأبو عبيدة ينتظر كل يوم أن يدعوه أبو بكر، فيسرحه، وأبو بكر ينتظر به قدوم العرب عليه من كل مكان، يريد أن يشحن أرض الشام من المسلمين، ويريد إن زحفت إليهم الروم أن يكونوا مجتمعين، فقدمت عليه حمير فيها ذو الكلاع، واسمه أيقع، وجاءت مذحج فيها قيس بن هبيرة المرادي معه جمع عظيم من قومه، وفيهم الحجاج بن عبد يغوث الزبيدي، وجاء حابس بن سعد الطائي في عدد كثير من طيء، وجاءت الأزد فيهم جندب بن عمرو بن حممة الدوسي، وفيهم أبو هريرة، وجاءت جماعة من قبائل قيس، فعقد أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ لميسرة بن مسروق العبسي عليهم، وجاء قباث ابن أشيم في بني كنانة، فأما ربيعة وأسد وتميم فإنهم كانوا بالعراق.

وعن سهل بن سعد أن أبا بكر ـ رحمه الله ـ لما أراد أن يبعث أبا عبيدة دعاه، فأتاه فسلم عليه، ثم جلس، فمكث أبو بكر ملياً لا يكلمه، فظن أبو عبيدة أنه هم بعزله كما عزل خالد بن سعيد وهو يستحي أن يستقبله به، فقال: يا خليفة رسول الله، إن كنا لا نصلح لكم ولا نحبكم ولا ننصحكم إلا بأن تولونا فلسنا بإخوان في الله، وإن كنا لا نجاهد في سبيل الله ولا نقاتل أعداء الله إلا أن نكون أمراء رؤساء فلسنا الله نريد بجهادنا، وإنما ننوي به إذاً الفخر في الدنيا،

إني أطلب إليك أن تعزلني عن هذا الجند وتولي عليه من أحببت وأنا أخرج معه، فأشير عليه برأيي وأنصحه جهدي، وأواسي المسلمين بنفسي. فقال أبو بكر: سبحان الله، يا أبا عبيدة أظننت أنك ممن نتهمه أو ممن نبتغي به بدلاً أو ممن نتخوف أن يأتي المسلمين من قبله وهن أو خلاف أو فساد؟ معاذ الله أن نكون من أولئك، ثم قال له:

اسمع سماع من يريد أن يفهم ما قيل له ثم يعمل بما أمر به، إنك تخرج في أشراف العرب وبيوتات الناس وصلحاء المسلمين وفرسان الجاهلية، كانوا إذ ذاك يقاتلون حية، وهم اليوم يقاتلون على النية الحسنة والحسبة، أحسن صحبة من صحبك، وليكونوا عندك في الحق سواء، فاستعن بالله، وكفى به معيناً، وتوكل عليه وكفى بالله وكيلاً. اخرج من غد إن شاء الله.

فخرج من عنده، فلما ولى قال: يا أبا عبيدة، فانصرف إليه، فقال له:

إني أحب أن تعلم كرامتك عليّ، ومنزلتك مني، والذي نفسي بيده، ما على الأرض من المهاجرين ولا غيرهم من أعدله بك، ولا بهذا - يعني عمر - رحمه الله - ولا له عندي في المنزلة الا دون ما لك.

فقال أبو عبيدة: رحمك ربك يا خليفة رسول الله، هذا كان ظني بك.

قال: فانصرف. فلما كان من الغد خرج أبو بكر في رجال من المسلمين على رواحلهم، حتى أتى أبا عبيدة، فسار معه حتى بلغ ثنية الوداع، ثم قال حين أراد أن يفارقه:

يا أبا عبيدة، اعمل صالحاً، وعش مجاهداً، ولتتوف شهيداً، وليعطك الله كتابك بيمينك، ويقر عينك في دنياك وآخرتك، فو الله إني لأرجو أن تكون من التوابين الأوابين الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، إن الله تبارك وتعالى قد صنع بك خيراً وساقه إليك إذ جعلك تسير في جيش من المسلمين تقاتل به من كفر بالله وعبد غيره.

فقال أبو عبيدة:

رحمك الله يا خليفة رسول الله، فنشهد بفضلك في إسلامك، ومناصحتك الله، ومجاهدتك بعد رسول الله من تولى عن دين الله حتى ردهم الله بك إلى الدين وهم صاغرون، ونشهد أنك رحيم بالمؤمنين، ذو غلظة على الكافرين، فبورك لك فيما عملت، وسددت فيما حملت، إن أكن صالحاً فلربي المنة عليّ ١٣٨ أ بصلاحي، وإن أكن فاسداً فهو // ولى إصلاحي، وأما أنت فنرى أن نجيبك إذا دعوت، وأن نطيعك إذا أمرت.

ثم إنه تأخر، وتقدم إليه معاذ بن جبل فقال:

يا خليفة رسول الله، إني أردت أن يكون ما أكلمك به الآن بالمدينة قبل شخوصنا عنها، ثم بدا لي أن أؤخر ما أردت من ذلك حتى يكون عند وداعي، فيكون ذلك آخر ما أفارقك عليه.

قال: هات يا معاذ، فو الله إنك ما علمت لسديد القول، موفق الرأي، رشيد الأمر.

فأدنى راحلته، ومقود فرسه في يده، وهو متنكب القوس ومتقلد السيف، فقال:

إن الله ـ تعالى ـ بعث محمداً ـ ﷺ ـ برسالته إلى خلقه، فبلغ ما أحب أن يبلغ، وكان كما أحب ربه أن يكون، فقبضه الله إليه وهو محمود مبرور ـ صلوات الله عليه وبركاته ـ إنه حميد مجيد، جزاه الله عن أمته كأحسن ما يجزي النبيين، ثم ان الله ـ تعالى ـ استخلفك أيها الصديق عن ملأ من المسلمين، ورضي منهم بك، فارتد مرتدون، وأرجف مرجفون، ورجعت راجعة عن هذا الدين، فأدهن بعضنا، وحار جلنا، وأحب المهادنة والموادعة طائفة منا، واجتمع رأي الملأ الأكابر منا أن يتمسكوا بدينهم ويعبدوا الله حتى يأتيهم اليقين، ويدعوا الناس وما ذهبوا إليه، فلم ترض منهم بشيء كان رسول الله ـ ﷺ ـ يرده عليهم، فنهضت بالمسلمين، وشمرت للمجرمين، وشددت بالمطيع المقبل على العاصي المدبر، حتى أجاب إلى الحق من كان عَنَدَ عنه، وزجل عن الباطل

من كان مرتكساً فيه، فلما تمت نعمة الله عليك وعلى المسلمين في ذلك قدت المسلمين إلى هذا الوجه الذي يضاعف الله لهم فيه الأجر، ويعظم لهم الفتح والمغنم، فأمرك مبارك، ورأيك محمود ورشيد، ونحن وصالحو المؤمنين نسأل الله لك المغفرة والرحمة الواسعة والقوة في العمل بطاعة الله في عافية، وإن هذا الذي تسمع من دعائي وثنائي ومقالتي لتزداد في فعل الخير رغبة، وتحمد الله ـ تعالى ـ على النعمة، وأنا معيد هذا على المؤمنين ليحمدوا الله على ما أبلاهم واصطنع عندهم بولايتك عليهم.

ثم أخذ كل واحد منهما بيد صاحبه فودعه، ودعا له، ثم تفرقا، وانصرف أبو بكر ـ رحمه الله ـ ومضى ذلك الجيش.

وقال رجل من المسلمين لخالد بن سعيد وقد تهيأ للخروج مع أبي عبيدة: لو كنت خرجت مع ابن عمك يزيد بن أبي سفيان كان أمثل من خروجك مع غيره. فقال: ابن عمي أحب إليّ من هذا في قرابته، وهذا أحب إلي من ابن عمي في دينه، هذا كان أخي في ديني على عهد الرسول ـ ﷺ ـ ووليي وناصري على ابن عمي قبل اليوم، فأنا به أشد استئناساً وإليه أشد طمأنينة. فلما أراد أن يغدو سائراً إلى الشام لبس سلاحه، وأمر إخوته فلبسوا أسلحتهم: عمراً، وإباناً، والحكم، وعلقمة [1] ومواليه، ثم أقبل إلى أبي بكر ـ رحمه الله ـ عند صلاة الغداة فصلى معه، فلما انصرفوا قام إليه هو وإخوته، فجلسوا إليه، فحمد الله خالد وأثنى عليه، وصلى على رسوله ـ ﷺ ـ ثم قال:

يا أبا بكر، إن الله ـ تبارك وتعالى ـ قد أكرمنا وإياك والمسلمين عامة بهذا الدين، فأحق من أقام السنة وأمات البدعة وعدل في السيرة الوالي على الرعية، وكل امرىء من أهل هذا الدين محفوف بالإحسان، ومعدلة الوالي أعم نفعاً، فاتق الله يا أبا بكر فيمن ولاك أمره، وارحم الأرملة واليتيم، وأعن الضعيف والمظلوم، ولا يكن رجل من المسلمين إذا رضيت عنه آثر عندك في الحق منه إذا سخطت عليه، ولا تغضب ما قدرت على ذلك، فإن الغضب يجر الجور، ولا

(١) في الأصل: علمته.

تحقد على مسلم وأنت تستطيع، فإن حقدك على المسلم يجعلك له عدواً، وإن اطلع على ذلك منك عاداك، وإذا عادى الوالي الرعية وعادت الرعية الوالي كان ذلك قمنا أن يكون إلى هلاكهم داعياً، ولِنْ للمحسن واشتد على المريب، ولا تأخذك في الله لومة لائم.

ثم قال: هات يدك يا أبا بكر، فإني لا أدري أنلتقي في الدنيا أم لا، فإن قضى الله لنا في الدنيا البقاء، فنسأل الله عفوه وغفرانه، وإن كانت هي الفرقة التي لس بعدها لقاء، فعرفنا الله وإياك وجه النبي - ﷺ - في جنات النعيم.

فأخذ أبو بكر - رضي الله عنه - بيده فبكى، وبكى خالد، وبكى المسلمون وظنوا أنه يريد الشهادة، وطال بكاؤهم، ثم إن أبا بكر - رضي الله عنه - قال: انتظر نمشي معك، قال: ما أريد أن تفعل، قال: لكني أريد ذلك، ومن أراده من المسلمين. فقام، وقام الناس معه حتى خرج من بيوت المدينة، فما رأيت مشيعاً من المسلمين شيعه أكثر ممن شيع خالد بن سعيد يومئذ وإخوته، فلما خرج من المدينة قال له أبو بكر: إنك قد أوصيتني برشدي وقد وعيت، وأنا موصيك فاسمع وصاتي وعها، إنك امرؤ قد جعل الله لك سابقة في الإسلام وفضيلة عظيمة، والناس ناظرون إليك ومستمعون منك، وقد خرجت في هذا الوجه العظيم الأجر وأنا أرجو أن يكون خروجك فيه بحسبة ونية صادقة إن شاء الله تعالى، فثبت العالم، وعلم الجاهل، وعاتب السفيه المسرف، وانصح لعامة المسلمين، واخصص الوالي على الجهد من نصيحتك ومشورتك بما يحق لله وللمسلمين عليك، واعمل لله كأنك تراه، واعدد نفسك في الموتى وأعلم أنا عما قليل ميتون ثم مبعوثون ثم مسؤولون ومحاسبون، جعلنا الله وإياك لأنعمه من الشاكرين، ولنقمه من الخائفين. ثم أخذ بيده فودعه، وأخذ بأيدي إخوته بعد ذلك فودعهم واحداً واحداً، ثم ودعهم المسلمون، ثم إنهم دعوا بإبلهم فركبوها، وكانوا قبل ذلك يمشون مع أبي بكر - رضي الله عنهم أجمعين، ثم قيدت معهم خيلهم، فخرجوا بهيئة حسنة، فلما أدبروا قال أبو بكر: اللهم احفظهم من بين

أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، وآحطط أوزارهم وأعظم أجورهم. ثم انصرف أبو بكر ومن معه // من المسلمين. ١٣٨ ب

وقد قيل: إن أبا بكر ـ رحمه الله ـ جعل خالداً ردءاً بتيماء لما عزله عن الجند وأطاع عمر ـ رحمه الله ـ في بعض أمره وعصاه في بعض، وسيأتي ذكر ذلك في موضعه إن شاء الله.

وعن محمد بن خليفة أن ملحان بن زياد الطائي، أخا عدي بن حاتم لأمه أتى أبا بكر ـ رحمه الله ـ في جماعة من قومه من طيء نحو ستمائة، فقال له: إنا أتيناك رغبة في الجهاد وحرصاً على الخير، ونحن القوم الذين تعرف الذين قاتلنا معكم من ارتد منا حتى أقر بمعرفة ما كان ينكر، وقاتلنا معكم من ارتد منكم حتى أسلموا طوعاً وكرهاً، فسرحنا في أثر الناس، واختر لنا ولياً صالحاً نكن معه.

وكان قدومهم على أبي بكر بعد مسير الأمراء كلهم إلى الشام، فقال أبو بكر: قد اخترت لك أفضل أمرائنا أميراً، وأقدم المهاجرين هجرة، الحق بأبي عبيدة بن الجراح، فقد رضيت لك صحبته، وحمدت لك أدبه، فنعم الرفيق في السفر، ونعم الصاحب في الحضر.

قال: فقلت لأبي بكر: فقد رضيت لخيرتك التي اخترت لي. فاتبعته حتى لحقته بالشام فشهدت معه مواطنه كلها، لم أغب عن يوم منها.

وعن أبي سعيد المقبري قال: قدم ابن ذي السهم الخثعمي على أبي بكر وجماعة من خثعم فوق تسعمائة ودون ألف، فقال لأبي بكر: إنَّا تركنا الديار والأصول، والعشائر والأموال، وأقبلنا بنسائنا وأبنائنا، ونحن نريد جهاد المشركين، فماذا ترى لنا في أولادنا ونسائنا؟ أنخلفهم عندك ونمضي؟ فإذا جاء الله بالفتح بعثنا إليهم فأقدمناهم علينا؟ أم ترى لنا أن نخرجهم معنا ونتوكل على الله ربنا؟ فقال أبو بكر: سبحان الله، يا معشر المسلمين، هل سمعتم أحداً ممن سار من المسلمين إلى أرض الروم وأرض الشام ذكر من الأولاد والنساء مثل ما ذكر أخو خثعم؟ أما إني أقسم لك يا أخا خثعم، لو سمعت هذا القول منك

والناس مجتمعون عندي قبل أن يشخصوا لأحببت أن أحبس عيالاتهم عندي وأسرحهم ليس معهم من النساء والأبناء ما يشغلهم ويهمهم حتى يفتح الله عليهم ومعهم ذراريهم، ولك بجماعة المسلمين إسوة، وأنا أرجو أن يدفع الله بعزته عن حرمة الإسلام وأهله، فسر في حفظ الله وكنفه، فإن بالشام أمراء قد وجهناهم إليها، فأيهم أحببت أن تصحبه فاصحبه. فسار حتى لقي يزيد بن أبي سفيان فصحبه.

وعن يحيي بن هانيء بن عروة أن أبا بكر كان أوصى أبا عبيدة بقيس بن مكشوح وقال له: إنه قد صحبك رجل عظيم الشرف، فارس من فرسان العرب، لا أظن له عظيم حسبة ولا كبير نية في الجهاد، وليس بالمسلمين غني عن مشورته ورأيه وبأسه في الحرب، فأذنه والطفه وأره أنك غير مستغن عنه ولا مستهين بأمره، فإنك تستخرج منه بذلك نصيحة لك، وجهده وجده على عدوك، ودعا أبو بكر قيساً فقال له: إني قد بعثتك مع أبي عبيدة الأمين، الذي إذا ظُلم كظم، وإذا أُسيء إليه غفر، وإذا قطع وصل، رحيم بالمؤمنين، شديد على الكافرين، فلا تعصين له أمراً، ولا تخالفن له رأيا، فإنه لن يأمرك إلا بخير، وقد أمرته أن يسمع منك، فلا تأمره إلا بتقوى الله، فقد كنا نسمع أنك شريف بئيس مجرب، وذلك في زمان الشرك والجاهلية الجهلاء، فاجعل بأسك وشدتك ونجدتك اليوم في الإسلام على من كفر بالله وعبد غيره، فقد جعل الله فيه الأجر العظيم، والعز للمسلمين. فقال: ان بقيت ولقيت فسيبلغك من حيطتي على المسلم، وجهدي على الكافر ما يسرك ويرضيك، فقال أبو بكر ـ رحمه الله: فافعل ذلك.

فلما بلغته مبارزته البطريقين بالجابية وقتله إياهما، قال: صدق قيس ووفى وبر.

وعن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص قال: لما مضت جنود أبي بكر إلى الشام بلغ ذلك هرقل ـ ملك الروم ـ وهو بفلسطين، وقيل له: قد أتتك العرب وجمعت لك جموعاً عظيمة، وهم يزعمون أن نبيهم الذي بعث إليهم أخبرهم أنهم يظهرون على أهل هذه البلاد، وقد جاؤوك وهم لا يشكون أن هذا يكون،

وجاؤوك بأبنائهم ونسائهم تصديقاً لمقالة نبيهم، يقولون: لو دخلناها وافتتحناها نزلناها بأولادنا ونسائنا. فقال هرقل: ذلك أشد لشوكتهم، إذا قاتل القوم على تصديق ويقين فما أشد على من كابدهم أن يزيلهم أو يصدهم.

قال: فجمع إليه أهل البلاد وأشراف الروم، ومن كان على دينه من العرب، فقال: يا أهل هذا الدين، إن الله قد كان إليكم محسناً، وكان لدينكم هذا معزاً، وله ناصراً على الأمم الخالية، وعلى كسرى والمجوس، وعلى الترك الذين لا يعلمون، وعلى من سواهم من الأمم كلها، وذلك أنكم كنتم تعملون بكتاب ربكم وسنة نبيكم الذي كان أمره رشداً وفعله هدى، فلما بدلتم وغيرتم أطمع ذلك فيكم قوماً، والله ما كنا نعبأ بهم ولا نخاف أن نبتلى بهم، وقد ساروا إليكم حفاة عراة جياعاً، اضطرهم إلى بلادكم قحط المطر وجُدُوبة الأرض وسوء الحال، فسيروا إليهم، فقاتلوهم عن دينكم وعن بلادكم وعن أبنائكم ونسائكم، وأنا شاخص عنكم وممدكم بالخيول والرجال، وقد أمرت عليكم أمراء، فاسمعوا لهم وأطيعوا. ثم خرج حتى أتى دمشق فقام فيهم مثل هذا المقام، وقال فيها مثل هذا المقال، ثم خرج حتى أتى حمص، ففعل مثل ذلك، ثم أتى أنطاكية، فأقام بها وبعث إلى الروم، فحشدهم إليه، فجاءه منهم ما لا يحصى عدده، ونفر إليه مقاتلتهم وشبابهم وأتباعهم، وأعظموا دخول العرب عليهم، وخافوا أن يسلبوا ملكهم.

وأقبل أبو عبيدة حتى مروا بوادي القرى [١]، ثم أخذ على الحجر - أرض صالح النبي - ﷺ - ثم على ذات المنار [٢]، ثم على زبرا [٣]، ثم ساروا إلى مؤب بعمان [٤]، فخرج إليهم الروم، فلم يلبثهم المسلمون أن هزموهم حتى دخلوا مدينتهم، فحاصروهم فيها، وصالح أهل مؤب عليها، فكانت أول مدائن

---

(١) موضع بسوريا يطلق عليه - الآن - اسم: القريتين.

(٢) موضع في أول بادية الشام مما يلي الحجاز.

(٣) الزبرا: المكان المرتفع من الأرض، والمقصود: أحد أماكن البلقاء في الأردن.

(٤) إحدى قرى البلقاء في الأردن.

١٣٩ أ الشام // صالح أهلها، ثم سار أبو عبيدة حتى إذا دنا من الجابيـة[1] أتاه آت فخبره أن هرقل بأنطاكية، وأنه قد جمع لكم من الجموع ما لم يجمعه أحد كان قبله من آبائه لأحد من الأمم قبلكم، فكتب أبو عبيدة إلى أبي بكر ـ رضي الله عنهما:

(بسم الله الرحمن الرحيم). لعبدالله أبي بكر، خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ من أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإنا نسألُ الله أن يعز الإسلام وأهله عزاً مبيناً، وأن يفتح لهم فتحاً يسيراً، فإنه بلغني أن هرقل ـ ملك الروم ـ نزل قرية من قرى الشام تدعى بأنطاكية، وأنه بعث إلى أهـل مملكتـه فحشـدهـم إليـه، وأنهم نفـروا إليـه على الصعـب والذلـول، وقد رأيت أن أعلمك ذلك فترى فيه رأيك، والسلام عليك ورحمة الله تعالى.

فكتب إليه أبو بكر:

(بسم الله الرحمن الرحيم). أما بعد، فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من أمر هرقل ملك الروم، فأما منزله بأنطاكية فهزيمة له ولأصحابه، وفتح من الله عليك وعلى المسلمين، وأما حشده أهل مملكته وجمعه لكم الجموع، فإن ذلك ما قد كنا وكنتم تعلمون أنه سيكون منهم، ما كان قوم ليدعوا سلطانهم ولا ليخرجوا من مملكتهم بغير قتال، ولقد علمت والحمد لله أن قد غزاهم رجال كثير من المسلمين يحبون الموت حب عدوهم الحياة، يحتسبون من الله في قتالهم الأجر العظيم، ويحبون الجهاد في سبيل الله أشد من حبهم أبكار نسائهم وعقائل أموالهم، الرجل منهم عند الهيج خير من ألف رجل من المشركين، فالقهم بجندك، ولا تستوحش لمن غاب عنك من المسلمين، فإن الله تعالى ذكره معك، وأنا مع ذلك ممدك بالرجال بعد الرجال حتى تكتفي ولا تريد أن تزداد، والسلام عليك.

---

(١) إحدى مدن الشام الواقعة شمال نهر اليرموك.

وبعث بهذا الكتاب مع دارم العبسي.

وكتب يزيد بن أبي سفيان إلى أبي بكر ـ رحمه الله:

أما بعد، فإن هرقل ملك الروم لما بلغه مسيرنا إليه ألقى الله الرعب في قلبه، فتحمل ونزل أنطاكية، وخلف أمراء من جنده على جند الشام، وأمرهم بقتالنا، وقد تيسروا لنا واستعدوا، وقد نبأنا مسالمة الشام أن هرقل استنفر أهل مملكته، وأنهم جاءوا يجرون الشوك والشجر، فمرنا بأمرك، وعجل علينا في ذلك برأيك، نتبعه، نسأل الله النصر والصبر والفتح وعافية المسلمين، والسلام عليك.

وبعث بهذا الكتاب مع عبدالله بن قرط الثمالي، فقال له أبو بكر لما قدم عليه: أخبرني خبر الناس، قال: المسلمون بخير، قد دخلوا أدنى أرض الشام، ورعب أهلها منهم، وذكر لنا أن الروم قد جمعت لناجموعاً عظاماً، ولم نلق عدونا بعد، ونحن في كل يوم نتوكف لقاء العدو أو نتوقعه، وإن لم تأتنا جيوش من قبل هرقل، فليست الشام بشيء. فقال له أبو بكر ـ رحمه الله: صدقتني الخبر، فقال: ومالي لا أصدقك، ويحل لي الكذب، ويصلح لمثلي أن يكذب مثلك، ولو كذبت في هذا لم أخن إلا أمانتي وأخن ربي وأخن المسلمين. قال أبو بكر: معاذ الله، لست من أولئك، وكتب حينئذ معه بهذا الكتاب:

أما بعد، فقد بلغني كتابك، تذكر فيه تحول ملك الروم إلى أنطاكية، وإلقاء الله الرعب في قلبه من جموع المسلمين، فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ وله الحمد قد نصرنا ونحن مع رسول الله ـ ﷺ ـ بالرعب، وأيدنا بملائكته الكرام، وإن ذلك الدين الذي نصرنا الله فيه بالرعب هو هذا الدين الذي ندعو الناس إليه اليوم، فوربك لا يجعل الله المسلمين كالمجرمين، ولا من يشهد أنه لا إله غيره كمن يعبد معه آلهة أخرى ويدين بعبادة آلهة شتى، فإذا لقيتهم فانبذ إليهم بمن معك وقاتلهم، فإن الله لن يخذلك، وقد نبأنا الله أن الفئة القليلة منا تغلب الفئة الكثيرة بإذن الله، وأنا مع ما هنالك ممدكم بالرجال في أثر الرجال حتى تكتفوا ولا تحتاجوا إلى زيادة إنسان إن شاء الله، والسلام.

ولما رد أبو بكر - رضي الله عنه - عبدالله بن قرط بهذا الكتاب إلى يزيد، قال له: أخبره والمسلمين أن مدد المسلمين آتيهم مع هاشم بن عتبة وسعيد بن عامر بن حذيم.

فخرج عبدالله بكتابه حتى قدم به على يزيد، وقرأه على المسلمين، فتباشروا به، وفرحوا.

ثم إن أبا بكر - رضي الله عنه - دعا هاشم بن عتبة، فقال له: يا هاشم، إن من سعادة جدك ووفاء حظك أنك أصبحت ممن تستعين به الأمة على جهاد عدوها من المشركين، وممن يثق الوالي بنصيحته وصحته وعفافه، وبأسه، وقد بعث إليّ المسلمون يستنصرون على عدوهم من الكفار، فسر إليهم فيمن يتبعك، فإني نادب الناس معك، فاخرج حتى تقدم على أبي عبيدة.

ثم قام أبو بكر في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد، فإن إخوانكم من المسلمين معافون مكلوؤون، مدفوع عنهم، مصنوع لهم، قد ألقى الله جل ثناؤه الرعب منهم في قلوب عدوهم، فقد استعصموا بحصونهم وأغلقوا أبوابها دونهم، وقد جاءتني رسلهم يخبرونني بهرب هرقل ملك الروم من بين أيديهم حتى نزل قرية من أقصى قرى الشام، وأنه وجه إليهم جنداً من مكانه ذلك، فرأيت أن أمد إخوانكم بجند منكم يشد الله بهم ظهورهم، ويكبت به عدوهم، ويلقي به الرعب في قلوبهم، فانتدبوا - رحمكم الله - مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، واحتسبوا في ذلك الأجر والخير، فإنكم إن نصرتم فهو الفتح والغنيمة، وإن هلكتم فهي الشهادة والكرامة.

ثم انصرف إلى منزله، ومال الناس على هاشم حتى كثروا عليه، فلما تموا ألفا أمره أبو بكر - رحمه الله - أن يسير، فسلم عليه وودعه، وقال له أبو بكر: يا هاشم، إنما كنا ننتفع من الشيخ الكبير برأيه ومشورته وحسن تدبيره، وكنا ننتفع من الشاب بصبره وبأسه ونجدته، وإن الله تعالى قد جمع لك تلك الخصال كلها، وأنت حديث السن مستقبل الخير، فإذا لقيت عدوك فاصبر

وصابر، واعلم أنك لا تخطو خطوة ولا تنفق نفقة ولا يصيبك ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله إلا كتب الله لك بذلك عملاً صالحاً، إن الله لا يضيع أجر المحسنين. فقال: إن يرد الله بي // خيراً يجعلني كذلك، وأنا أفعل، ولا قوة ١٣٩ ب إلا بالله، أما أنا فأرجو إن لم أقتل أن أقتل ثم أقتل ثم أقتل!

فقال له عمه سعد بن أبي وقاص: يا ابن أخي لا تطعنن طعنة ولا تضربن ضربة إلا وأنت تريد بها وجه الله، واعلم أنك خارج من الدنيا وشيكاً، وراجع إلى الله قريباً، ولن يصحبك من الدنيا إلى الآخرة إلا قدم صدق قدمته، وعمل صالح أسلفته.

فقال: يا عم، لا تخافن هذه مني، إني إذا لمن الخاسرين إن جعلت حلي وارتحالي وغدوي ورواحي وسعيي وإجلابي، وطعني برمحي وضربي بسيفي رياء للناس.

ثم خرج من عند أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فلزم طريق أبي عبيدة حتى قدم عليه، فسر المسلمون بقدومه وتباشروا به.

وبلغ سعيد بن عامر بن حذيم أن أبا بكر يريد أن يبعثه، فلما أبطأ ذلك عليه، ومكث أياماً لا يذكر له ذلك أتاه، فقال: يا أبا بكر، والله لقد بلغني أنك كنت أردت أن تبعثني في هذا الوجه، ثم رأيتك قد سكت، فما أدري ما بدا لك فيَّ، فإن كنت تريد أن تبعث غيري فابعثني معه، فما أرضاني بذلك، وإن كنت لا تريد أن تبعث أحداً فإني راغب في الجهاد، فأذن لي يرحمك الله كيما ألحق بالمسلمين، فقد ذكر لي أن الروم جمعت لهم جمعاً عظيماً. فقال أبو بكر: رحمك أرحم الراحمين يا سعيد بن عامر، فإنك ما علمت من المتواضعين المتواصلين المخبتين المتهجدين بالأسحار، الذاكرين الله كثيراً. فقال له سعيد: رحمك الله، نعم الله علي أفضل، وله الطول والمن، وأنت والله ما علمت صدوع بالحق، قوام بالقسط، رحيم بالمؤمنين، شديد على الكافرين، تحكم بالعدل، ولا تستأثر في القسم، فقال له: حسبك يا سعيد، حسبك، اخرج

ـ رحمك الله ـ فتجهز، فإني مسرح إلى المسلمين جيشاً وأؤمرك عليهم، فأمر بلالاً فنادى في الناس: أن انتدبوا أيها المسلمون مع سعيد بن عامر إلى الشام، فانتدب معه سبعمائة رجل في أيام، فلما أراد سعيد الشخوص جاء بلال فقال: يا خليفة رسول الله، إن كنت إنما أعتقتني لله تعالى لأملك نفسي وأصطرف فيما ينفعني فخل سبيلي حتى أجاهد في سبيل ربي، فإن الجهاد إليّ أحب من المقام. قال أبو بكر: فإن الله يشهد أني لم أعتقك إلا له، وأني لا أريد منك جزاء ولا شكوراً، فهذه الأرض ذات العرض، فاسلك أي فجاجها أحببت، فقال: كأنك أيها الصديق عتبت عليّ في مقالتي ووجدت في نفسك منها؟ قال: لا، والله ما وجدت في نفسي من ذلك، وإني لأحب أن لا تدع هواك لهواي ما دعاك هواك إلى طاعة ربك، قال: فإن شئت أقمت معك، قال: أما إذا كان هواك الجهاد فلم أكن لآمرك بالمقام، وإنما أردتك للأذان، ولأجدن لفراقك وحشة يا بلال، ولا بد من التفرق فرقة لا التقاء بعدها حتى يوم البعث، فاعمل صالحاً يا بلال، وليكن زادك من الدنيا ما يذكرك الله به ما حييت، ويحسن لك به الثواب إذا توفيت. فقال له بلال: جزاك الله من ولي نعمة وأخ في الإسلام خيراً، فوالله ما أمرك لنا بالصبر على الحق والمداومة على العمل بالطاعة ببدع، وما كنت لأؤذن لأحد بعد النبي ـ ﷺ ـ ثم خرج بلال مع سعيد بن عامر.

وجاء سعيد على راحلته حتى وقف على أبي بكر والمسلمين، فقال له: إنا نؤم هذا الوجه، فجعله الله وجه بركة، اللهم فإن قضيت لنا التقاء فاجمعنا على طاعتك، وإن قضيت لنا الفرقة فإلى رحمتك، والسلام عليكم، ثم ولى يذهب. فقال أبو بكر: عباد الله، ادعوا الله كيما يصحب صاحبكم ويسلمه، ارفعوا أيديكم ـ رحمكم الله ـ فرفع القوم أيديهم إلى ربهم وهم أكثر من خمسين رجلاً، فقال علي ـ رضي الله عنه: ما رفع عدتكم من المسلمين أيديهم إلى ربهم يسألونه شيئاً إلا استجاب لهم، ما لم يكن معصية أو قطيعة رحم، فبلغه ذلك بعدما واقع أرض الشام وقاتل العدو، فقال: رحم الله إخواني، ليتهم لم يكونوا دعوا لي، قد كنت خرجت وإني على الشهادة لحريص جاهد، فما هو إلا أن لقيت العدو

فعصمني الله من الهزيمة والفرار، وذهب من نفسي ما كنت أعرف من حب الشهادة، فلما خبرت أن أخواني دعوا لي بالسلامة عرفت أنهم استجيب لهم.

وكان أبو بكر أمره أن يلحق بيزيد بن أبي سفيان، فسار حتى لحق به، وشهد معه وقعة العربة والداثنة.

وعن حمزة بن مالك الهمذاني أنه قدم في جمع عظيم من همذان على أبي بكر ـ رحمه الله ـ قال: فقدموا وهم ألفا رجل أو أكثر، فلما رأى أبو بكر عددهم وعدتهم سره ذلك، فقال: الحمد لله على صنيعه للمسلمين، ما يزال الله ـ تعالى ـ يرتاج لهم بمدد من أنفسهم يشد به ظهورهم ويقصم به عدوهم، قال: ثم إن أبا بكر أمرنا فعسكرنا بالمدينة، وكنت أختلف إلى أبي بكر غدوة وعشية، وعنده رجال من المهاجرين والأنصار، فكان يلطفني ويدني مجلسي، ويقول لي: تعلم القرآن، وأسبغ الوضوء، وأحسن الركوع والسجود، وصل الصلاة لوقتها، وأد الزكاة في حينها، وانصح المسلم، وفارق المشرك، واحضر البأس يوم البأس. فقلت: والله لأجهدن أن لا أدع شيئاً مما أمرتني به إلا عملته، إني لأعلم أنك قد اجتهدت لي في النصيحة، وأبلغت في الموعظة، ثم إنه خرج إلى عسكرنا وأمرنا أن نتيسر ونتجهز ونشتري حوائجنا، ثم نعجل على أصحابنا، فتحشحشنا لذلك وعجلنا بالجهاز، فلما فرغنا وعلم ذلك بعث إليّ فقال: يا أخا همذان، إنك شريف بئيس ذو عشيرة، فأحضرهم البأس، ولا تؤذ بهم الناس.

قال: وكان معي رجال من أهل القرى من همذان، فيهم جهل وجفاء، وكانوا قد تأذى منهم أهل المدينة، فشكوا ذلك إلى أبي بكر، فقال أبو بكر: نشدتك الله امرأ مسلماً سمع نشدي لما كف عن هؤلاء القوم، ومن رأى عليه حقاً فليحتمل ذرب ألسنتهم، أو عجلة يكرهها منهم ما لم يبلغ ذلك الحد، إن الله ـ تعالى ـ مهلك بهؤلاء وأشباههم غداً جموع هرقل والروم، وإنما هم إخوانكم، فلو أن أخا أحدكم في دينه عجل عليه في شيء ألم يكن أصوب في الرأي وخيراً في المعاد أن يحتمل له؟ قال المسلمون: بلى، قال: فهم إخوانكم في

١٤٠ أ الدين وأنصاركم على الأعداء، ولهم عليكم حق، //فاحتملوا لهم ذلك، ثم نظر إليّ فقال: ارتحل، ما تنتظر؟ فارتحلت وقد قلت له قبل أن نرتحل: عليّ أمير دونك؟ قال: نعم، هناك ثلاثة أمراء قد أمرناهم؟ فأيهم شئت فكن معه. فلما لحقت بالمسلمين سألتهم: أي الأمراء أفضل وأيهم كان أفضل عند النبي - ﷺ - صحبة؟ فقيل: أبو عبيدة بن الجراح، فقلت في نفسي: والله لا أعدل بهذا أحداً، فجئت حتى أتيت أبا عبيدة ثم قصصت عليه قصة مخرجي ومقدمي على أبي بكر، وما كان من أمري وأمر أصحابي بالمدينة، وبمقدمي عليه واختياري له، فقال: بارك الله لك في إسلامك وجهادك وقدومك علينا، وبارك لنا فيك وفيمن قدمت به علينا من المسلمين.

وقال عمرو بن محصن: لم يكن أبو بكر - رحمه الله - يسأم توجيه الجنود إلى الشام، وإمداد الأمراء الذين بعث إليها بالرجال بعد الرجال، إرادة إعزاز أهل الإسلام وإذلال أهل الشرك.

وعن أبي سعيد المقبري [١] قال: لما بلغ أبا بكر - رحمه الله - جمع الأعاجم لم يكن شيء أعجب إليه من قدوم المجاهدين عليه من أرض العرب، فكانوا كلما قدموا عليه سرح الأول فالأول، فقدم عليه فيمن قدم أبو الأعور السلمي، فدخل عليه فقال: إنا جئناك من غير قحمة ولا عدم، فإن شئت أقمنا معك مرابطين، وإن شئت وجهتنا إلى عدوك المشركين، فقال له أبو بكر: لا، بل تجاهدون الكافرين، وتواسون المسلمين، فبعثه، فسار حتى قدم على أبي عبيدة.

ثم قدم على أبي بكر - رضي الله عنه - معن بن يزيد بن الأخنس السلمي في رجال من بني سليم، نحو من مائة، فقال أبو بكر: لو كان هؤلاء أكثر مما هم لأمضيناهم [٢]، فقال له عمر: والله لو كانوا عشرة لرأيت لك أن تمد بهم

---

(١) هو «كيسان بن سعد المدني» (ت ١٠٠ هـ)، والنص في تاريخ فتوح الشام للأزدي ص ٤٢ وما بعدها.

(٢) في الأصول: أمضيناهم.

إخوانهم، أي والله، وأرى أن تمدهم بالرجل الواحد إذا كان ذا جزاء وغناء.

فقال حبيب بن مسلمة الفهري [1] : عندي نحو من عدتهم رجال من أبناء القبائل ذوو رغبة في الجهاد، فأخرجنا وهؤلاء جميعاً يا خليفة رسول الله، ثم ابعثنا. فقال له: أما الآن فاخرج بهم جميعاً حتى تقدم بهم على إخوانهم.

فخرج فعسكر معهم، ثم جمع أصحابه إليهم، ثم مضى بهم حتى قدم على يزيد ابن أبي سفيان.

قال: واجتمعت رجال من كعب وأسلم وغفار ومزينة نحو من مائتين، فأتوا أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ فقالوا: ابعث علينا رجلاً، وسرحنا إلى إخواننا، فبعث عليهم الضحاك بن قيس، فسار حتى أتى يزيد، فنزل معه.

وعن سعيد بن يزيد بن عمرو بن نفيل قال: لما رأى أهل مدائن الشام أن العرب قد جاشت عليهم من كل وجه، وكثرة جموعهم، بعثوا الرسل إلى ملكهم يعلمونه ذلك ويسألونه المدد، فكتب إليهم: إني قد عجبت لكم حين تستمدونني وحين تكثرون عليّ عدة من جاءكم، وأنا أعلم بكم وبمن جاءكم منهم، ولأهل مدينة واحدة من مدائنكم أكثر ممن جاءكم منهم أضعافاً، فالقوهم فقاتلوهم ولا تحسبوا أني كتبت إليكم بهذا وأنا لا أريد أن أمدكم، لأبعثن إليكم من الجنود ما تضيق به الأرض الفضاء.

وكانت مدائن أهل الشام من الروم قد أرسلوا الى كل من كان على دينهم من العرب فأطمعهم أكثرهم في النصر، ومنهم من حمى للعرب، فكان ظهور العرب أحب إليه، وذلك من لم يكن في دينه راسخاً منهم، وبلغ خبرهم وتراسلهم أبا عبيدة بن الجراح، فكتب إلى أبي بكر ـ رضي الله عنهما:

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فالحمد لله الذي أعزنا بالإسلام، وكرمنا بالإيمان، وهدانا لما اختلف فيه المختلفون من الحق بإذنه، إنه يهدي من يشاء

---

(١) ويسمى «حبيب الروم» لكثرة جهاده فيهم.

إلى صراط مستقيم، وإن عيوني من أنباط الشام نبئوني أن أول أمداد ملك الروم قد وقعوا إليه، وأن أهل مدائن الشام بعثوا رسلهم إليه يستمدونه، وأنه كتب إليهم: أن أهل مدينة من مدائنكم أكثر ممن قدم عليكم من عدوكم، فانهضوا إليهم فقاتلوهم، فإن مددي من ورائكم، فهذا ما بلغنا عنهم، وأنفس المسلمين طيبة بقتالهم، وقد خبرنا أنهم تيسروا لقتالنا، فأنزل الله على المسلمين نصره، وعلى عدوهم رجزه، إنه بما يعملون عليم، والسلام.

قال: فجمع أبو بكر ـ رحمه الله ـ أشراف قريش من المهاجرين وغيرهم من أهل مكة، ثم دعا بأشراف الأنصار وذوي السابقة منهم، فقال عمر: لأي شيء دعوت بهؤلاء؟ فقال: لأستشيرهم في هذا الأمر الذي كتب إلينا فيه أبو عبيدة. قال له: أما المهاجرون والأنصار فأهل الاستنصاح والمشورة، وأما رجال أهل مكة الذين كنا نقاتلهم لتكون كلمة الله هي العليا ويقاتلوننا ليطفئوا نور الله بأفواههم جاهدين على قتالنا، أن قلنا ليس مع الله آلهة قالوا: مع الله آلهة أخرى، فلما أعز الله دعوتنا وصدق أحدوثتنا ونصرنا عليهم أردنا أن نقدمهم في الأمور ونستشيرهم فيها ونستنصحهم وندنيهم دون من هو خير منهم، ما أنصفنا إذاً نصحاءنا الذين كانوا يقاتلونهم في الله حين نقدمهم دونهم، ولا نراهم وضعهم عندنا إذاً جهادهم إيانا وجهدهم علينا، لا والله لا نفعل ذلك أبداً. فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه: قد كنت أردت إدناءهم وإنزالهم منا بالمنازل التي كانوا بها في قومهم من الشرف، فأما الآن حيث ذكرت ما ذكرت، فوالله ما أرى الرأي في هذا إلا رأيك، فبلغ ذلك أشراف قريش أولئك، فشق عليهم.

وقال الحارث بن هشام: إن عمر كان في شدته علينا قبل أن هدانا الله للإسلام مصيباً، فأما الآن حيث هدانا الله فلا نراه في شدته علينا إلا قاطعاً.

ثم خرج هو وسهيل بن عمرو مع عكرمة بن أبي جهل في رجال من أشراف قريش حتى أتوا أبا بكر ـ رحمه الله ـ وعنده عمر، فقال الحارث: يا عمر، إنك قد كنت في شدتك علينا قبل الإسلام مصيباً، فأما الآن وقد هدانا الله لدينه فما

نراك إلا قاطعاً، ثم جثا سهيل بن عمرو على ركبتيه وقال: إياك يا عمر نخاطب، وعليك نعتب، فأما خليفة رسول الله - ﷺ - فبريء عندنا من الضغن والحقد والقطيعة، ألسنا أخوانكم في الإسلام، وبني أبيكم في النسب، أفإنكم إن كان الله قدم لكم في هذا الأمر قدماً صالحاً لم نؤت مثله قاطعون قرابتنا ومستهينون بحقنا، ثم قال لهم عكرمة: أما إنكم وإن كنتم تجدون في عداوتنا قبل اليوم مقالاً فلستم اليوم بأشد على من ترك // هذا الدين، ولا أعدى منا. ١٤٠ ب

فقال لهم عمر - رضي الله عن جميعهم: والله ما قلت الذي بلغكم إلا نصيحة لمن سبقكم بالإسلام، وتحرياً للعدل فيما بينكم وبين من هو أفضل منكم.

قال سهيل: فإن كنتم إنما فضلتمونا بالجهاد في سبيل الله، فوالله لنستكثرن منه، أشهدكم أني حبيس في سبيل الله.

وقال الحارث بن هشام: وأنا أشهدكم أني حبيس في سبيل الله، والله لأنفقن مكان كل نفقة أنفقتها على حرب رسول الله - ﷺ - نفقتين في سبيل الله، ولأنفقن مكان كل موقف وقفته على رسول الله - ﷺ - موقفين على أعداء الله.

وقال عكرمة: وأنا أشهدكم أني حبيس في سبيل الله.

فقال أبو بكر - رضي الله عنه: اللهم أبلغ بهم أفضل ما يأملون، واجزهم بأحسن ما يعملون، فقد أصبتم فيما صنعتم، فأرشدكم الله.

فلما خرجوا من عنده أقبل سهيل على أصحابه، وكان شريفاً عاقلاً، فقال لهم: لا تجزعوا مما ترون، فإنهم دعوا ودعينا، فأجابوا وأبطأنا، ولو ترون فضائل من سبقكم إلى الإسلام عند الله عليكم ما نفعكم عيش، وما من أعمال الله عمل أفضل من الجهاد في سبيل الله، فانطلقوا حتى تكونوا بين المسلمين وبين عدوهم، فتجاهدوهم دونهم حتى تموتوا، فلعلنا أن نبلغ فضل المجاهدين، فخرجوا حينئذ إلى جهاد الروم.

قال: فبلغني أنهم ماتوا مقترنين بين المسلمين وبين الروم - رضي الله عنهم.

ثم دعا أبو بكر ـ عمرو بن العاص، فقال: يا عمرو، هؤلاء أشراف قومك يخرجون مجاهدين، فاخرج فعسكر حتى أنـدب الناس معك، فقال: يا خليفة رسول الله، ألست أنا الوالي على الناس؟ قال: نعم، أنت الوالي على من أبعثه معك من هاهنا، قال: لا، بل وال على من أقدم عليه من المسلمين، قال: لا، ولكنك أحد الأمراء، فإن جمعتكم حرب فأبو عبيدة أميركم، فسكت عنه، ثم خرج فعسكر، واجتمع إليه ناس كثير، وكان معه أشراف قريش أولئك، فلما حضر خروجه جاء إلى عمر، فقال: يا أبا حفص، إنك قد عرفت بصري بالحرب، وتيمن نقيبتي في الغزو، وقد رأيت منزلتي عند رسول الله ـ ﷺ ـ وقد علمت أن أبا بكر ليس يعصيك، فأشر عليه أن يوليني أمر هذه الجنود التي بالشام، فإني أرجو أن يفتح الله على يديّ هذه البلاد، وأن يريكم والمسلمين من ذلك ما تسرون به. فقال له عمر: لا أكذبك، ما كنت لأكلمه في ذلك، لأنه لا يوافقني أن يبعثك على أبي عبيدة، وأبو عبيدة أفضل منزلة عندنا منك، قال: فإنه لا ينقص أبا عبيدة شيئاً من فضله أن ألي عليه، فقال له: ويحك يا عمرو، إنك والله ما تطلب بهذه الرياسة إلا شرف الدنيا، فاتق الله ولا تطلب بشيء من سعيك إلا وجه الله، واخرج في هذا الجيش، فإنك إن يكن عليك أمير في هذه المرة فما أسرع ما تكون إن شاء الله أميراً ليس فوقك أحد، فقال: قد رضيت.

فخرج واستتب له المسير، فلما أراد الشخوص خرج معه أبو بكر يشيعه، وقال: يا عمرو، إنك ذو رأي وتجربة للأمور، وبصر بالحرب، وقد خرجت في أشراف قومك، ورجال من صلحاء المسلمين، وأنت قادم على إخوانك فلا تألوهم نصيحة ولا تدخر عنهم صالح مشورة، فرب رأي لك محمود في الحرب، مبارك في عواقب الأمور. فقال له عمرو: ما أخلق أن أصدق ظنك ولأفنك رأيك، ثم ودعه وانصرف عنه، فقدم الشام، فعظم غناؤه وبلاؤه عند المسلمين.

وكتب أبو بكر ـ رحمه الله ـ إلى أبي عبيدة:

أما بعد، فقد جاءني كتابك تذكر فيه تيسـر عدوكم لمواقعتكم، وما كتب به

إليهم ملكهم من عدته إياهم أن يمدهم من الجنود بما تضيق به الأرض الفضاء، ولعمر الله لقد أصبحت الأرض ضيقة عليه برحبها، وأيم الله ما أنا بيائس أن تزيلوه من مكانه الذي هو به عاجلاً إن شاء الله ـ تعالى ـ فبث خيلك في القرى والسواد، وضيق عليهم بقطع الميرة، ولا تحاصر المدائن حتى يأتيك أمري، فإن ناهدوك فانهض إليهم، واستعن بالله عليهم، فإنه ليس يأتيهم مدد إلا أمددناكم بمثلهم أو ضعفهم،وليس بكم والحمد لله قلة ولا ذلة، ولأعرفن ما جبنتم عنهم، فإن الله فاتح لكم، ومظهركم على عدوكم، ومعزكم بالنصر، وملتمس منكم الشكر، لينظر كيف تعملون، وعمرو فأوصيك به خيراً، فقد أوصيته أن لا يضيع لك حقاً، والسلام عليك.

وجاء عمرو بالناس حتى نزل بأبي عبيدة، وكان عمرو في مسيره ذلك إلى الشام ـ فيما حدث به عمرو بن شعيب ـ يستنفر من مر بهم من الأعراب، قال: فتبعه منهم ناس كثير، فلما اجتمعوا هم ومن كان قدم بهم معه من المدينة، كانوا نحواً من ألفين، فلما قدم بهم على أبي عبيدة سُر بهم هو والناس الذين معه، واستأنس بهم، وكان عمرو ذا رأي في الحرب وبصر بالأشياء، فقال له أبو عبيدة: أبا عبد الله، رب يوم شهدته فبورك للمسلمين فيه برأيك ومحضرك، إنما أنا رجل منكم، لست وإن كنت الوالي عليكم بقاطع أمراً دونكم، فأحضرني رأيك في كل يوم بما ترى، فإنه ليس بي عنكم غنى. فقال له: أفعل، والله يوفقك لما يصلح المسلمين.

وقال سهل بن سعد: ما زال أبو بكر ـ رحمه الله تعالى ـ يبعث الأمراء إلى الشام، أميراً أميراً، ويبعث القبائل، قبيلة قبيلة، حتى ظن أنهم قد اكتفوا، وأنهم لا يريدون أن يزدادوا رجلاً.

وذكر أبو جعفر الطبري[1] عن محمد بن إسحاق: أن تجهيز أبي بكر الجيوش إلى الشام كان بعد قفوله من الحج سنة اثنتي عشرة، وأنه حينئذ بعث

---

(١) الطبري. التاريخ ج٣ ص ٣٨٧.

عمرو بن العاص قبل فلسطين.

وذكر [1] في تولية أبي بكر خالد بن سعيد بن العاص جند الشام، وتأخيره عن ذلك قبل نفوذه نحواً مما تقدم.

وذكر [2] ـ أيضاً ـ من طريق آخر أن توليته إياه إنما كان على ربع من ذلك الجند.

وقيل [3]: إن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ جعله رداءاً بتيماء، وأمره أن لا يبرحها، وأن يدعو من حوله بالانضمام إليه، وأن لا يقبل إلا ممن لم يرتد، ولا يقاتل إلا من قاتله حتى يأتيه أمره. فأقام، فاجتمعت إليه جموع كثيرة، وبلغ الروم عظم ذلك العسكر، فضربوا على العرب الضاحية بالشام البعوث إليهم، فكتب خالد بن سعيد بذلك إلى أبي بكر، فكتب إليه أبو بكر ـ رضي الله عنه: ١٤١ أ أن أقدم ولا تحجم// واستنصر الله. فسار إليهم خالد، فلما دنا منهم تفرقوا وأعروا منزلهم، فنزله ودخل من كان تجمع له في الإسلام. وكتب بذلك إلى أبي بكر، فكتب إليه أبو بكر ـ رضي الله عنه: أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتي من خلفك. فسار فيمن كان خرج معه من تيماء وفيمن لحق به من طرف الرمل، فسار إليه بطريق من بطارقة الروم، يدعى باهان، فهزمه وفل جنده، وكتب بذلك إلى أبي بكر واستمده، وقد قدم على أبي بكر أوائل مستنفري اليمن، ومن بين مكة واليمن، فساروا فقدموا على خالد بن سعيد، وعند ذلك اهتاج أبو بكر للشام وعناه أمره.

وقد كان أبو بكر رد عمرو بن العاص على عمالته التي كان رسول الله ـ ﷺ ـ ولاه إياها من صدقات سعد وعُذرة وما كان معها قبل ذهابه إلى عمان، فخرج إلى عُمان من عند رسول الله ـ ﷺ ـ وهو على عدة من عمله إذا هو رجع، فأنجز له

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نفسه ج٣ ص ٣٨٨.

(٣) نفسه ج٣ ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

ذلك أبو بكر، ثم كتب إليه أبو بكر عند احتياجه للشام: إني كنت قد رددتك على العمل الذي كان رسول الله - ﷺ - ولاكه مرة وسماه لك أخرى إذ بعثك إلى عمان إنجازاً لموعد رسول الله - ﷺ - فقد وليته ثم وليته، وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك. فكتب إليه عمرو: إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أسرها وأحسنها وأفضلها فارم به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي [1].

وكتب أبو بكر -رضي الله عنه- إلى الوليد بن عقبة بنحو ذلك، فأجابه بإيثار الجهاد.

وعن أبي أمامة الباهلي [2] قال: كنت ممن سرح أبو بكر -رضي الله عنه- مع أبي عبيدة، وأوصاني به وأوصاه بي، فكانت أول وقعة بالشام يوم العربة، ثم يوم الداثنة، وليسا من الأيام العظام، خرج ستة قواد من الروم مع كل قائد خمسمائة، فكانوا ثلاثة آلاف، فأقبلوا حتى انتهوا إلى العربة، فبعث يزيد بن أبي سفيان إلى أبي عبيدة يعلمه، فبعثني إليه في خمسمائة، فلما أتيته بعث معي رجلاً في خمسمائة، فلما رأيناهم يعني الروم وقوادهم أولئك - حملنا عليهم فهزمناهم وقتلنا قائداً من قوادهم، ثم مضوا وأتبعناهم، فجمعوا لنا بالداثنة، فسرنا إليهم، فقدمني يزيد وصاحبي في عدتنا، فهزمناهم، فعند ذلك فزعوا واجتمعوا وأمدهم ملكهم.

وذكر ابن إسحاق عن صالح بن كيسان أن عمرو بن العاص خرج حتى نزل بعمر العربات، ونزلت الروم بثنية جلق بأعلى فلسطين في سبعين ألفاً عليهم تُذارق أخو هرقل لأبيه وأمه، فكتب عمرو إلى أبي بكر يستمده، وخرج خالد

---

(١) المصدر السابق ج٣ ص ٣٨٩.

(٢) هو «الصدي بن عجلان الباهلي»، والنص في تاريخ فتوح الشام للأزدي ص ٥٢.

ابن سعيد بن العاص وهو بمرج الصفر من أرض الشام في يوم مطير يستمطر فيه فتعادى عليه أعلاج الروم فقتلوه، وقيل أتاهم أذريجا في أربعة آلاف وهم غازون فاستشهد خالد بن سعيد وعدة من المسلمين.

قال أبو جعفر الطبري [1] : قيل إن المقتول في هذه الغزوة ابن لخالد بن سعيد، وأن خالداً انحاز حين قتل ابنه.

وذكر سيف[2] أن الوليد بن عقبة لما قدم على خالد بن سعيد فسانده، وقدمت جنود المسلمين الذين كان أبو بكر أمده بهم، وبلغه عن الأمراء - يعني أمراء المسلمين الذين أمدهم أبو بكر - وتوجههم إليه، اقتحم على الروم طلب الحظوة، وأعرى ظهره، وبادر الأمراء لقتال الروم، واستطرد له باهان، فأرز هو ومن معه إلى دمشق، واقتحم خالد في الجيش ومعه ذو الكلاع وعكرمة والوليد حتى ينزل المرج، مرج الصفر - ما بين الواقوصة ودمشق - فانطوت مسالح باهان عليه، وأخذوا عليه الطرق ولا يشعر، وزحف له باهان فوجد ابنه سعيد بن خالد يستمطر في الناس، فقتلوهم. وأتى الخبر خالداً، فخرج هارباً في جريدة خيل، ولم ينته بخالد الهزيمة عن ذي المروة، وأقام عكرمة في الناس ردءاً لهم، فرد عنهم باهان وجنوده أن يطلبوهم، وأقام من الشام على قريب.

وذكر ابن إسحاق مسير الأمراء ومنازلهم، وأن يزيد بن أبي سفيان نزل البلقاء، ونزل شرحبيل بن حسنة الأردن، ويقال: بصرى، ونزل أبو عبيدة الجابية.

وعن غير ابن إسحاق [3] أنه لما نزل أبو عبيدة بالجابية كتب إلى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - منها:

أما بعد، فإن الروم وأهل البلد، ومن كان على دينهم من العرب قد أجمعوا

---

(١) الطبري، التاريخ ج٣ ص ٣٩١.

(٢) نفسه.

(٣) الأزدي، تاريخ فتوح الشام ص ٦٧ - ٦٨.

على حرب المسلمين، ونحن نرجو النصر، وانجاز موعود الرب ـ تبارك وتعالى ـ وعادته الحسنى، وأحببت إعلامك ذلك لترينا رأيك.

فقال أبو بكر ـ رحمه الله: والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد. وكان خالد إذ ذاك يلي حرب العراق، فكتب اليه أبو بكر:

أما بعد، فدع العراق وخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه، وامض متخفياً [1] في أهل القوة من أصحابك الذين قدموا معك العراق من اليمامة، وصحبوك في الطريق، وقدموا عليك من الحجاز، حتى تأتي الشام، فتلقى أبا عبيدة ومن معه من المسلمين، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة، والسلام.

ويروى أنه كان فيما كتب إليه به: «أن سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شجوا وأشجوا، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت، فإنه لم يشج الجموع بعون الله ـ سبحانه ـ أحد من الناس إشجاءك، ولم ينزع الشجاء أحد من الناس نزعك، فلتهنئك أبا سليمان النعمة والحظوة، فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل، فإن الله ـ تعالى ـ له المن، وهو ولي الجزاء [2] ».

ووافى خالداً كتاب أبي بكر هذا وهو بالحيرة، منصرفاً من حجة حجها مكتتماً بها، وذلك أنه لما فرغ من إيقاعه بالروم ومن انضوى إليهم مغيثاً لهم من مسالح فارس بالفراض، والفراض تخوم الشام والعراق والجزيرة، أقام بالفراض عشراً، ثم أذن بالقفل إلى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بهم، وأمر //شجرة بن الأعز أن يسوقهم، وأظهر خالد أنه في الساقة. ١٤١ ب

وخرج من الحيرة ومعه عدة من أصحابه يعتسف البلاد حتى أتى مكة

---

(١) في المصدر السابق: متخففاً.

(٢) الطبري. التاريخ ج٣ ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

بالسمت [1] فتأتى له من ذلك ما لم يتأت لدليل ولا رئبال، فسار طريقاً من طرق الجزيرة، لم ير طريقاً أعجب منه، فكانت غيبته عن الجند يسيرة، ما توافى إلى الحيرة آخرهم حتى وافاهم مع صاحب الساقة الذي وضعه، وقدما معاً، وخالد وأصحابه محلقون، ولم يعلم بحجه إلا من أفضى إليه بذلك من الساقة، ولم يعلم أبو بكر ـ رحمه الله ـ بذلك إلا بعد، فهو الذي يعنيه بما تقدم في كتابه إليه من معاتبته إياه [2].

وقدم [3] على خالد بالكتاب عبد الرحمن بن حنبل الجمحي، فقال له خالد قبل أن يقرأ كتابه: ما وراءك؟ فقال: خير، تسير إلى الشام. فشق عليه ذلك وقال: هذا عمل عمر، نفس عليّ أن يفتح الله عليّ العراق.

وكانت الفرس قد هابوه هيبة شديدة، وكان خالد إذا نزل بقوم من المشركين عذاباً من عذاب الله عليهم، وليثاً من الليوث.

فلما قرأ كتاب أبي بكر ورأى أنه قد ولاه على أبي عبيدة وعلى الشام، كأن ذلك سخا بنفسه. وقال: أما إذ ولاني، فإن في الشام من العراق خلفاً، فقام إليه النسير ابن ديسم العجلي، وكان من أشراف بني عجل وفرسان بكر بن وائل، ومن رءوس أصحاب المثنى بن حارثة، فقال لخالد: أصلحك الله، والله ما جعل الله في الشام من العراق خلفاً، للعراق أكثر حنطة وشعيراً وديباجاً وحريراً وفضة وذهباً، وأوسع سعة، وأعرض عرضاً، والله ما الشام كله إلا كجانب من العراق، فكره المثنى مشورته عليه، وكان يحب أن يخرج عن العراق ويخليه وإياها.

فقال خالد: إن بالشام أهل الإسلام، وقد تهيأت لهم الروم وتيسرت، فإنما أنا مغيث وليس لهم مترك، فكونوا أنتم هاهنا على حالكم التي كنتم عليها، فإن

---

(١) السمت: السير على الطريق بالظن.

(٢) الطبري. التاريخ ج٣ ص ٣٨٤.

(٣) النص في الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٦٨ - ٦٩.

نفرغ مما أشخصنا إليه عاجلاً عجلنا إليكم، وإن أبطأت رجوت أن لا تعجزوا ولا تهنوا، وليس خليفة رسول الله بتارك أمدادكم بالرجال حتى يفتح الله عليكم هذه البلاد إن شاء الله تعالى.

ويروى أن أبا بكر أمر خالداً بالخروج في شطر الناس، وأن يخلف على الشطر الثاني المثنى بن حارثة، وقال له: لا تأخذ مجداً إلا خلفت لهم مجداً، فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم، ثم أنت على عملك.

وأحصى خالد أصحاب رسول الله - ﷺ - فاستأثرهم على المثنى وترك للمثنى أعدادهم من أهل الغناء ممن لم يكن له صحبة، ثم نظر فيمن بقي فاختلج من كان قدم على النبي - ﷺ - وافداً أو غير وافد، وترك للمثنى أعدادهم من أهل الغناء، ثم قسم الجند نصفين. فقال المثنى، والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر كله في استصحاب نصف الصحابة، وإبقاء النصف أو بعض النصف، فوالله ما أرجو النصر إلا بهم، فأنى تعريني منهم؟ فلما رأى ذلك خالد بعدما تلكأ عليه أعاضه منهم حتى رضي، وكان فيمن أعاضه منهم فرات بن حيان العجلي وبشير ابن الخصاصية والحارث بن حسان الذهليان ومعبد بن أم معبد الأسلمي وبلال ابن الحارث المزني وعاصم بن عمرو التميمي، حتى إذا رضي المثنى وأخذ حاجته انحدر خالد فمضى لوجهه، وشيعه المثنى إلى قراقر، فقال له خالد: انصرف إلى سلطانك غير مقصر ولا ملوم ولا وان [١].

وذكر الطبري [٢] أن خالداً - رحمه الله - لما أراد المسير إلى الشام دعا بالأدلة فارتحل من الحيرة سائراً إلى دومة، ثم ظعن في البر إلى قراقر، ثم قال: كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم؟ فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين، فكلهم قال: لا نعرف إلا طريقاً لا تحمل الجيوش، فإياك أن تغرر بالمسلمين، فعزم عليه، ولم يجبه إلى ذلك إلا رافع بن عميرة على تهيب شديد،

---

(١) المصدر السابق، والطبري. التاريخ ج٣ ص ٤١١.
(٢) الطبري. التاريخ ج٣ ص ٤٠٩.

فقام فيهم فقال: لا يختلفن هديكم ولا تضعفن تعبئتكم، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية، والأجر على قدر الحسبة، وأن المسلم لا ينبغي له أن يكترث لشيء يقع فيه مع معونة الله له. فقالوا له: أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك، فطابقوه ونووا واحتسبوا.

وذكر غير الطبري أن خالداً حين أراد المسير إلى الشام قال له محرز بن حريش - وكان يتجر بالحيرة، ويسافر إلى الشام: اجعل كوكب [1] الصبح على حاجبك [2] الأيمن، ثم أمه حتى تصبح، فإنك لا تجور. فجرب ذلك فوجده كذلك [3].

ثم أخذ في السماوة حتى انتهى إلى قراقر فَفَوَّزَ من قراقر إلى سوى - وهما منزلان بينهما خمس ليال - فلم يهتدوا للطريق، فدل على رافع بن عميرة الطائي، فقال: خفف الأثقال واسلك هذه المفازة إن كنت فاعلاً، فكره خالد أن يخلف أحداً، فقال: قد أتاني أمر لا بد من إنفاذه، وأن نكون جميعاً. قال: فوالله إن الراكب المنفرد ليخافها على نفسه، ما يسلكها إلا مغرراً، فكيف أنت بمن معك؟ قال: إنه لا بد من ذلك، فقد أتتني عزيمة، قال: فمن استطاع منكم أن يصر أذن راحلته على ماء فليفعل، فإنها المهالك إلا ما وقى الله. ثم قال لخالد: ابغني عشرين جزوراً عظاماً سماناً مسان. فأتاه بهن، فظمأهن حتى إذا أجهدهن عطشاً سقاهن حتى أرواهن، ثم قطع مشافرهن، ثم كعمهن [4]، ثم قال لخالد: سر بالخيول والأثقال، فكلما نزل منزلاً نحر من تلك الشرف أربعاً فافتض [5] ماءهن فسقاه الخيول، وشرب الناس مما تزودوا حتى إذا كان آخر ذلك قال خالد لرافع: ويحك ما عندك يا رافع؟ فقال: أدركك الرأي إن شاء الله، انظروا، هل تجدون شجرة؟ هو شج على ظهر الطريق، قالوا: لا، قال: إنا لله إذاً والله

(١) المقصود بذلك: الشمس.

(٢) في الأزدي: جانبك.

(٣) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٧٣ - ٧٤.

(٤) أي: شد أفواههن.

(٥) في الأصول: فافتظ.

هلكت وأهلكت، لا أبا لكم انظروا، فنظروا فوجدوها، فكبروا وكبر، وقال: أحفروا في أصلها، فاحتفروا، فوجدوا عيناً، فشربوا وارتووا، فقال رافع: والله ما وردت هذا الماء قط إلا مرة مع أبي وأنا غلام (1).

وقال راجز من المسلمين:

لله در رافعٍ أنَّى اهتدى	فوز من قراقر إلى سوى
أرضا إذا ما سارها الجيش بكى	ما سارها من قبله إنس أرى
// لكن بأسباب متينات الهدى	نكبها الله بنيات الردى (2)

١٤٢ أ

(الرجز)

وعن عبد الله بن قرط الثمالي قال: لما خرج خالد من عين التمر مقبلاً إلى الشام كتب إلى المسلمين مع عمرو بن الطفيل بن عمرو الأزدي، وهو ابن ذي النور:

أما بعد، فإن كتاب خليفة رسول الله - ﷺ - أتاني، فأمرني بالمسير اليكم، وقد شمرت وانكمشت، وكأن قد أظلت عليكم خيلي ورجالي، فأبشروا بإنجاز موعود الله، وحسن ثواب الله، عصمنا الله وإياكم باليقين، وأثابنا أحسن ثواب المجاهدين، والسلام عليكم (3).

وكتب معه إلى أبي عبيدة:

أما بعد، فإني أسأل الله تعالى لنا ولك الأمن يوم الخوف والعصمة في دار الدنيا من كل سوء، وقد أتاني كتاب خليفة رسول الله - ﷺ - يأمرني بالمسير إلى الشام، وبالقيام على جندها، والتولي لأمرها، والله ما طلبت ذلك قط، ولا

---

(1) راجع: الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٧٦، والطبري. التاريخ ج٣ ص ٤١٥ - ٤١٦.

(2) البيتان الأول والثاني في تاريخ فتوح الشام للأزدي ص ٧٥، وتاريخ الطبري ج٣ ص ٤١٦، ومعجم البلدان لياقوت ج٣ ص ٢٧٠.

(3) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٧١.

أردتـه، إذ وليته، فأنت على حالتك التي كنت لانعصيك ولانخالفك ولانقطع أمراً دونك، فإنك سيد المسلمين، لا ننكر فضلك، ولا نستغني عن رأيك، تمم الله ما بنا وبك من إحسان، ورحمنا وإياك من صلى النار، والسلام عليك ورحمة الله [1] .

قال[2] : فلما قدم علينا عمرو بن الطفيل[3]، قرأ كتاب خالد على الناس وهم بالجابية، ودفع إلى أبي عبيدة كتابه، فقرأه، فقال: بارك الله لخليفة رسول الله فيما رأى وحيى الله خالداً.

قال: وشق على المسلمين أن ولى خالد على أبي عبيدة، ولم أره على أحد أشد منه على بني سعيد بن العاص، وإنما كانوا متطوعين حبسوا أنفسهم في سبيل الله حتى يظهر الله الإسلام.

فأما أبو عبيدة فإنا لم نتبين في وجهه ولا في شيء من منطقه الكراهة لأمر خالد.

وعن سهل بن سعد [4] أن أبا بكر كتب إلى أبي عبيدة - رضي الله عنهما:

أما بعد، فإني قد وليت خالداً قتال العدو بالشام فلا تخالفه واسمع له وأطع أمره، فإني لم أبعثه عليك أن لا تكون عندي خيراً منه، ولكني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك، أراد الله بنا وبك خيراً، والسلام.

ثم أن خالداً خرج من عين التمر حتى أغار على بني تغلب والنمر بالبسر فقتلهم، وهزمهم، وأصاب من أموالهم طرفاً.

قال: وأن رجلاً منهم ليشرب من شراب له في جفنة، وهو يقول:

---

(١) المصدر السابق ص ٧١ - ٧٢.

(٢) نفسه ص ٧٢ - ٧٣.

(٣) نفسه ص ٨٦.

(٤) في الأصول: الطفيلي.

ألا عللاني قبـل جيش أبي بكـــر   لعل منايانا قـريـب ومـا نـدري
(الطويل)

فما هو إلا أن فرغ من قوله، شد عليه رجل من المسلمين فضرب عنقه، فإذا رأسه في الجفنة [1].

وعن عدي بن حاتم قال [2] غزونا [3] - يعني مع خالد - على أهل المصيخ، وإذا رجل من النمر يدعى حرقوص بن النعمان، حوله بنوه وامرأته، وبينهم جفنة من خمر، وهم عليها عكوف يقولون له: ومن يشرب هذه الساعة في أعجاز الليل؟ فقال: اشربوا شرب وداع، فما أرى أن تشربوا خمراً بعدها أبداً، هذا خالد بالعين وقد بلغه جمعنا وليس بتاركنا:

ألا فاشربوا من قبل قاصمة الظهـر   وقبل انتقاض القوم بالعسكر الدثـر
وقبـل منـايـانـا المصيبـة بـالقـدر   لحين لعمـري لا يـزيـد ولا يجرى
(الطويل)

فسبق إليه وهو في ذلك بعض الخيـل، فضرب رأسه، فإذا هو في جفنته، فأخذنا بناته وقتلنا بنيه.

وفي كتاب سيف [4] قال: ولما بلغ غسان خروج خالد على سوى وانتسافها، وإغارته على مصيخ بهراء وانتسافها، اجتمعوا بمرج راهط، وبلغ ذلك خالداً وقد خلف ثغور الشام وجنودها مما يلي العراق، فصار بينهم وبين اليرموك صمد لهم، فخرج من سوى بعدما رجع إليها بسبي بهراء فنزل علمين - على الطريق - ثم نزل الكـثيب[5]، حتى سار إلى دمشق، ثم مرج الصفر، فلقي عليه غسان،

---

(١) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٧٢ - ٧٣.
(٢) الطبري. التاريخ ج٣ ص ٣٨٢.
(٣) في الأصول، أغزنا.
(٤) الطبري. التاريخ ج٣ ص ٤١٠ - ٤١١.
(٥) في الطبري: الكسب.

وعليهم الحارث بن الأيهم، فانتسف عسكرهم ونـزل بالمرج أياماً، وبعث إلى أبي بكر بالأخماس، ثم خرج من المرج حتى نزل مياه بُصري، فكانت أول مدينة افتتحت بالشام على يدي خالد فيمن معه من جنود العراق، وخرج منها فوافى المسلمين بالواقوصة.

وعن غير سيف [1] أن خالداً أغار على غسان في يوم فصحهم، فقتل وسبى، وخرج على أهل الغوطة حتى أغار عليهم، فقتل ما شاء وغنم، ثم إن العدوّ دخلوا دمشق فتحصنوا، وأقبل أبو عبيدة ـ وكان بالجابية مقيماً ـ حتى نزل معه بالغوطة، فحاصر أهل دمشق.

وعن قيس بن أبي حازم قال: كان خرج مع خالد من بجيلة وعظمهم أحمس نحو من مائتي رجل ومن طيء نحو من مائة وخمسين.

قال: وكان معنا المسيب بن نجية، في نحو مائتي فارس من بني ذبيان، وكان ـ يعني خالداً ـ في نحو من ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، فكان أصحابه الذين دخلوا معه الشام ثمانمائة وخمسين رجلاً كلهم ذو نية وبصيرة، لأنه كان يقحمهم أموراً يعلمون أنه لا يقوى على ذلك إلا كل قوي جلد، فأقبل بنا حتى مر بأركة، فأغار عليها، وأخذ الأموال، وتحصن منه أهلها، فلم يبارحهم حتى صالحهم [2].

قال [3]: ومر بتدمر، فتحصنوا منه، فأحاط بهم من كل جانب، وأخذهم من كل مأخذ، فلم يقدر عليهم، فلما لم يطقهم ترحل عنهم، وقال لهم حين أراد أن يرتحل ـ فيما روي عن عبد الله بن قرط: والله لو كنتم في السحاب لاستنزلناكم وظهرنا عليكم، ما جئناكم إلا ونحن نعلم أنكم ستفتحون علينا، وإن أنتم لم تصالحوا هذه المرة لأرجعن إليكم لو قد انصرفت من وجهي هذا ثم لا

---

(١) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٨٣.

(٢) نفسه ص ٧٦ - ٧٧.

(٣) المقصود بذلك: «عبد الله بن قرط»، وليس القائل الأول.

أرحل عنكم حتى أقتل مقاتلتكم وأسبي ذراريكم.

فلما فصل قال علماؤهم ـ واجتمعوا : إنا لا نرى هؤلاء القوم إلا الذين كنا نتحدث أنهم يظهرون علينا ، فافتحوا لهم.

فبعثوا إلى خالد فجاء ، ففتحوا له وصالحوه.

وعن سُراقة بن عبد الأعلى بن سراقة [1] : أن خالداً في طريقه ذلك مر على حوران فهابوه ، فتحرز أكثرهم منه ، وأغار عليهم ، فاستاق الأموال وقتل الرجال وأقام عليهم أياماً ، فبعثوا إلى ما حولهم ليمدوهم ، فأمدوهم من مكانين: من بعلبك ـ وهي أرض دمشق ـ ومن قبل بُصرى ـ وبصرى مدينة حوران ، وهي من أرض دمشق أيضاً.

فلما رأى المددين قد أقبلا خرج فصف بالمسلمين، ثم تجرد في مائتي فارس، فحمل على مدد بعلبك وهم أكثر من ألفين فما وقفوا حتى انهزموا ، فدخلوا المدينة ، ثم انصرف يوجف في أصحابه وجيفاً ، حتى إذا // كان بحذاء بصرى، ١٤٢ ب وإنهم لأكثر من ألفين، حمل عليهم فما ثبتوا له فواقاً [2] حتى هزمهم، فدخلوا المدينة، وخرج أهل المدينة فرموا المسلمين بالنشاب، فانصرف عنهم خالد وأصحابه ، حتى إذا كان من الغد خرجوا إليه ليقاتلوه، فعجزوا وأظهر الله عليهم المسلمين ، فصالحوهم.

وقال عمرو بن محصن [3] : حدثني علج من أهل حوران كان يشجع ، قال: والله لخرجنا إليهم بعدما جاءنا مدد أهل بعلبك وأهل بصرى بيوم ،فلخرجنا وإنا لأكثر من خالد وأصحابه بعشرة أضعافهم وأكثر ، فما هو إلا أن دنونا منهم، فثاروا في وجوهنا بالسيوف كأنهم الأسد ، فانهزمنا أقبح الهزيمة ، وقتلونا شر المقتلة ، فما عدنا نخرج إليهم حتى صالحناهم، ولقد رأيت رجلاً منا كنا نعده

---

(١) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) الفواق: الوقت القليل.

(٣) المصدر السابق ص ٧٩.

بألف رجل، قال: لئن رأيت أميرهم لأقتلنه، فلما رأى خالداً قيل له: هذا خالد أمير القوم، فحمل عليه، وإنا لنرجو لبأسه أن يقتله، فما هو إلا أن دنا منه، فضرب خالد فرسه، فقدمه عليه، ثم استعرض وجهه بالسيف فأطار قحف رأسه، ودخلنا مدينتنا، فما كان لنا هم إلا الصلح حتى صالحناهم.

وعن قيس بن أبي حازم قال [1]: كنت مع خالد حين مر بالشام، فأقبل حتى نزل بقناة بصرى من أرض حوران، وهي مدينتها، فلما نزلنا واطمأننا خرج إلينا الدرنجار [2] في خمسة آلاف فارس من الروم، فأقبل إلينا وما يظن هو وأصحابه إلا أنا في أكفهم، فخرج خالد فصفنا، ثم جعل على ميمنتنا رافع بن عميرة الطائي، وعلى ميسرتنا ضرار بن الأزور، وعلى الرجال عبد الرحمن بن حنبل الجمحي، وقسم خيله، فجعل على شطرها المسيب بن نجية، وعلى الشطر الآخر رجلاً كان معه من بكر بن وائل ـ ولم يسمه [3] ـ وأمرهما خالد حين قسم الخيل بينهما أن يرتفعا من فوق القوم عن يمين وشمال، ثم ينضبا على القوم، ففعلا ذلك، وأمرنا خالد أن نزحف إلى القلب، فزحفنا إليهم، والله ما نحن إلا ثمانمائة وخمسون رجلاً، وأربعمائة رجل من مشجعة من قضاعة، استقبلنا بهم يعبوب رجل منهم، فكنا ألفاً ومائتين ونيفاً.

قال: وكنا نظن أن الكثير من المشركين والقليل عند خالد سواء، لأنه كان لا يملأ صدره منهم شيء، ولا يبالي بمن لقي منهم لجرأته عليهم، فلما دنوا منا شدوا علينا شدتين، فلم نبرح، ثم إن خالداً نادى بصوت له جهوري شديد عال، فقال: يا أهل الإسلام، الشدة، الشدة، احملوا ـ رحمكم الله ـ عليهم، فإنكم إن قاتلتموهم محتسبين بذلك وجه الله فليس لهم أن يواقفوكم ساعة، ثم أن خالداً شد عليهم، فشددنا معه، فوالله الذي لا إله إلا هو ما ثبتوا لنا فواقاً حتى انهزموا،

---

(١) المصدر السابق ص ٨١.

(٢) هو: قائد الروم البيزنطيين.

(٣) تسميته في الأزدي. تاريخ فتوح الشام: «مذعور».

فقتلنا منهم في المعركة مقتلة عظيمة، ثم أتبعناهم نكردهم [1] ونصيب الطرف منهم، ونقطعهم عن أصحابهم، ثم نقتلهم، فلم نزل كذلك حتى انتهينا إلى مدينة بصرى، فأخرج لنا أهلها الأسواق، واستقبلوا المسلمين بكل ما يحبون، ثم سألوا الصلح، فصالحناهم، فخرج خالد من فوره ذلك، فأغار على غسان في جانب من مرج راهط في يوم فصحهم، فقتل وسبى.

وعن أبي الخزرج الغساني قال: كانت أمي في ذلك السبي، فلما رأت هدى المسلمين وصلاحهم وصلاتهم وقع الإسلام في قلبها فأسلمت، فطلبها أبي في السبي فعرفها، فجاء المسلمين فقال: يا أهل الإسلام، إني رجل مسلم، وهذه امرأتي قد أصبتموها، فإن رأيتم أن تصلوني وتحفظوا حقي فتردوا عليّ أهلي فعلتم. فقال لها المسلمون: ما تقولين في زوجك قد جاء يطلبك وهو مسلم؟ قالت: إن كان مسلماً رجعت إليه، وإلا فلا حاجة لي فيه، ولست براجعة إليه.

* * *

(١) أي: نطردهم.

وقعة أجنادين (*)

ذكر سعيد بن الفضل وأبو إسماعيل وغيرهما (1) أن خالد بن الوليد لما دخل الغوطة كان قد مر بثنية فخرعها، ومعه راية له بيضاء تدعى العقاب، فسميت بذلك تلك الثنية: ثنية العقاب، ثم نزل ديراً يقال له: دير خالد لنزوله به، وهو مما يلي باب الشرقي - يعني من دمشق.

وجاء أبو عبيدة من قبل الجابية، حتى نزل باب الجابية، ثم شنا الغارات في الغوطة وغيرها، فبينما هما كذلك أتاهما أن وردان - صاحب حمص - قد جمع الجموع يريد أن يقتطع شرحبيل بن حسنة وهو ببصرى، وأن جموعاً من الروم قد نزلت أجنادين، وأن أهل البلد ومن مروا به من نصارى العرب قد سارعوا إليهم، فأتاهما خبر أفظعهما وهما مقيمان على عدو يقاتلانه، فالتقيا فتشاوروا في ذلك، فقال أبو عبيدة: أرى أن نسير حتى نقدم على شرحبيل قبل أن ينتهي إليه العدو الذي قد صمد صمدة، فإذا اجتمعنا سرنا إليه حتى نلقاه. فقال له خالد: إن جمع الروم هنا بأجنادين، وإن نحن سرنا إلى شرحبيل تبعنا هؤلاء من قريب، ولكن أرى أن نصمد صمد عظمهم، وأن نبعث إلى شرحبيل فنحذره مسير العدو إليه، ونأمره فيوافينا بأجنادين، ونبعث إلى يزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص فيوافيانا بأجنادين، ثم نناهض عدونا. فقال له أبو عبيدة: هذا رأي حسن، فأمضه على بركة الله.

وكان خالد مبارك الولاية، ميمون النقيبة، مجرباً، بصيراً بالحرب، مظفراً.

(*) في هامش «ط» و «ح»: أجنادين، تعرف الآن بمجة.

(1) الأزدي. تاريخ فتوح الشام.

فلما أراد الشخوص من أرض دمشق إلى الروم الذين اجتمعوا بأجنادين، كتب نسخة واحدة إلى الأمراء:

أما بعد، فإنه قد نزل بأجنادين جمع من جموع الروم، غير ذي قوة ولا عدة، والله قاصمهم وقاطع دابرهم، وجاعل دائرة السوء عليهم، وقد شخصت إليهم يوم سرحت رسولي إليكم، فإذا قدم عليكم فانهضوا إلى عدوكم بأحسن عدتكم وأصح نيتكم، ضاعف الله أجوركم وحط أوزاركم، والسلام [١].

ووجه بهذه النسخ مع أنباط كانوا مع المسلمين عيوناً لهم، وفيوجاً [٢] وكان المسلمون يرضخون لهم، ودعا خالد الرسول الذي بعثه منهم إلى شرحبيل، فقال له: كيف علمك بالطريق؟ قال: أنا أدل الناس بالطريق، قال: فادفع إليه هذا الكتاب، وحذره الجيش الذي ذكر لنا أنه يريده، وخذ به وبأصحابه طريقاً تعدل به عن طريق العدو الذي شخص //إليه وتأتي به حتى تقدمه علينا ١٤٣ أ بأجنادين. قال: نعم.

فخرج الرسول إلى شرحبيل، ورسول آخر إلى عمرو بن العاص، وآخر إلى يزيد بن أبي سفيان.

وخرج خالد وأبو عبيدة بالناس إلى أهل أجنادين، والمسلمون سراع إليهم، جراء عليهم، فلما شخصوا لم يرعهم إلا أهل دمشق في آثارهم، فلحقوا أبا عبيدة وهو في أخريات الناس، فلما رآهم قد لحقوا به نزل، وأحاطوا به، وهو في نحو من مائتي رجل من أصحابه، وأهل دمشق في عدد كثير، فقاتلهم أبو عبيدة قتالاً شديداً، وأتى الخبر خالداً وهو أمام الناس في الفرسان والخيل، فعطف راجعاً، ورجع الناس معه، وتعجل خالد في الخيل وأهل القوة، وانتهوا إلى أبي عبيدة وأصحابه وهم يقاتلون الروم قتالاً حسناً، فحمل الخيل على الروم فدق بعضهم على بعض، وقتلهم ثلاثة أميال حتى دخلوا دمشق، ثم انصرف، ومضى

(١) المصدر السابق ص ٨٧.

(٢) الفيوج: جمع فيج، وهو الحارث أو العداء سريع الجري.

بالناس نحو الجابية، وأخذ يلتفت وينتظر قدوم أصحابه عليه.

ومضى رسول خالد إلى شرحبيل، فوافاه وليس بينه وبين الجيش الذي سار إليه من حمص مع وردان إلا مسيرة يوم، وهو لا يشعر، فدفع إليه الرسول الكتاب، وأخبره الخبر، واستحثه بالشخوص، فقام شرحبيل في الناس، فقال:

أيها الناس، اشخصوا إلى أميركم، فإنه قد توجه إلى عدو المسلمين بأجنادين، وقد كتب إليّ يأمرني بموافاته هنالك.

ثم خرج بالناس ومضى بهم الدليل، وبلغ ذلك الجيش الذي جاء في طلبهم، فعجل المسير في آثارهم، وجاء وردان كتاب من الروم الذين بأجنادين: أن عجل إلينا فإنا مؤمروك علينا ومقاتلون معك العرب حتى تنفيهم من بلادنا. فأقبل في آثار هؤلاء، رجاء أن يستأصلهم أو يصيب طرفاً منهم، فيكون قد نكب طائفة من المسلمين، فأسرع السير فلم يلحقهم، وجاؤوا حتى قدموا على المسلمين، وجاء وردان فيمن معه حتى وافى جمع الروم بأجنادين، فأمروه عليهم، واشتد أمرهم.

وأقبل يزيد بن أبي سفيان حتى وافى أبا عبيدة وخالداً، ثم إنهم ساروا حتى نزلوا بأجنادين، وجاء عمرو بن العاص فيمن معه، فاجتمع المسلمون جميعاً بأجنادين، وتزاحف الناس غداة السبت.

فخرج خالد، فأنزل أبا عبيدة في الرجال، وبعث معاذ بن جبل على الميمنة، وسعيد بن عامر بن حذيم على الميسرة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل على الخيل.

وأقبل خالد يسير في الناس، لا يقر في مكان واحد، يحرض الناس، وقد أمر نساء المسلمين فاحتزمن وقمن وراء الناس يدعون الله ويستغثنه، وكلما مر بهن رجل من المسلمين رفعن أولادهن إليه وقلن لهم: قاتلوا دون أولادكم ونسائكم.

وأقبل خالد يقف على كل قبيلة فيقول: اتقوا الله عباد الله، وقاتلوا في الله

من كفر بالله، ولا تنكصوا على أعقابكم، ولا تهنوا من عدوكم، ولكن أقدموا كإقدام الأسد، أو ينجلي الرعب وأنتم أحرار كرام، قد أوتيتم الدنيا واستوجبتم على الله ثواب الآخرة، ولا يهولنكم ما ترون من كثرتهم، فإن الله منزل رجزه وعقابه بهم. وقال للناس: إذا حملت فاحملوا.

وقال معاذ بن جبل: يا معشر المسلمين، اشروا أنفسكم اليوم لله، فإنكم إن هزمتموهم اليوم كانت لكم دار السلام أبداً مع رضوان الله والثواب العظيم من الله.

وكان من رأي خالد مدافعتهم، وأن يؤخر القتال إلى صلاة الظهر، عند مهب الأرواح، وتلك الساعة التي كان رسول الله - ﷺ - يستحب القتال فيها، فأعجله الروم، فحملوا على المسلمين مرتين: من قبل الميمنة على معاذ بن جبل، ومن قبل الميسرة على سعيد بن عامر، فلم يتخلخل أحد منهم، ورموا المسلمين بالنشاب، فنادى سعيد بن زيد، وكان من أشد الناس: يا خالد علام تستهدف لهؤلاء الأعلاج؟ وقد رشقونا بالنشاب حتى شمست الخيل، فقال خالد للمسلمين: احملوا رحمكم الله على اسم الله، فحمل خالد والناس بأجمعهم، فما واقفوهم فواقاً، وهزمهم الله، فقتلهم المسلمون كيف شاؤوا، وأصابوا عسكرهم وما فيه.

وأصابت إبان بن سعيد بن العاص نشابة، فنزعها وعصبها بعمامته، فحمله إخوته، فقال: لا تنزعوا عمامتي عن جرحي فلو قد نزعتموها تبعتها نفسي، أما والله ما أحب أنها بحجر من جبل الحمر - وهو جبل السماق [1] - فمات منها - يرحمه الله.

وأبلى يومئذ بلاء حسناً، وقاتل قتالاً شديداً عظم فيه غناؤه، وعرف به مكانه، وكان قد تزوج أم أبان بنت عتبة بن ربيعة، وبنى عليها، فباتت عنده الليلة التي زحفوا للعدو في غدها، فأصيب، فقالت أم أبان هذه لما مات: ما

---

(١) جبل عرف بنبات ينبته.

كان أغناني عن ليلة أبان.

وقتل اليعبوب بن عمرو بن ضُريس المشجعي - يومئذ - سبعة من المشركين، وكان شديداً جليداً، فطعن طعنة كان يرجى أن يبرأ منها، فمكث أربعة أيام أو خمسة ثم انتقضت به فاستأذن أبا عبيدة أن يأذن له إلى أهله، فإن يبرأ رجع إليهم، فأذن له، فرجع إلى أهله بالعمر - عمر المدائن - فمات - يرحمه الله - فدفن هنالك.

وقتل مسلمة بن هشام المخزومي، ونعيم بن عدي بن صخر العدوي، وهشام ابن العاص السهمي - أخو عمرو بن العاص - وهبار بن سفيان، وعبد الله بن عمرو بن الطفيل الدوسي - وهو ابن ذي النور، وكان من فرسان المسلمين - فقتلوا يومئذ، يرحمهم الله.

وقتل المسلمون في المعركة منهم ثلاثة آلاف، وأتبعوهم يأسرونهم ويقتلونهم، فخرج فل الروم بإيلياء وقيسارية ودمشق وحمص فتحصنوا في المدائن العظام.

وكتب خالد إلى أبي بكر:

لعبد الله أبي بكر الصديق، خليفة رسول الله - ﷺ - من خالد بن الوليد، سيف الله المصبوب على المشركين، سلام عليك، فإني أخبرك أيها الصديق أنا التقينا نحن والمشركون وقد جمعوا لنا جموعاً جمة بأجنادين، وقد رفعوا صلبهم، ونشروا كتبهم، وتقاسموا بالله لا يفروا حتى يفنونا أو يخرجونا//من بلادهم، فخرجنا إليهم واثقين بالله متوكلين على الله، فطاعناهم بالرماح شيئاً، ثم صرنا إلى السيوف فقارعناهم بها مقدار جزر جزور، ثم إن الله أنزل نصره وأنجز وعده وهزم الكافرين، فقتلناهم في كل فج وشعب وحائط، فالحمد لله على إعزاز دينه وإذلال عدوه وحسن الصنع لأوليائه، والسلام عليك ورحمة الله. ١٤٣ ب

وبعث خالد بكتابه هذا مع عبد الرحمن بن حنبل الجمحي، فلما قرىء على أبي بكر وهو مريض مرضه الذي توفاه الله فيه أعجبه ذلك، وقال: الحمد لله الذي نصر المسلمين، وأقر عيني بذلك.

قال سهل بن سعد [1]: وكانت وقعة أجنادين هذه أول وقعة عظيمة كانت بالشام، كانت سنة ثلاث عشرة، في جمادى الأولى لليلتين بقيتا منه، يوم السبت نصف النهار، قبل وفاة أبي بكر - رضي الله عنه - بأربع وعشرين ليلة.

وذكر الطبري [2] عن ابن إسحاق أن الذي كان على الروم تذارق أخو هرقل لأبيه وأمه، ثم ذكر عنه - عن عروة بن الزبير - أنه قال: كان على الروم رجل منهم يقال له: القبقلار [3]، وكان هرقل استخلفه على أمراء الشام حين سار إلى القسطنطينية، وإليه انصرف تذارق ومن معه من الروم.

قال ابن إسحاق: فأما علماء أهل الشام فيزعمون أنه إنما كان على الروم تذارق، فالله أعلم.

وعنه قال: لما تدانى العسكران بعث القبقلار رجلاً عربياً، فقال له: ادخل في هؤلاء القوم فأقم فيهم يوماً وليلة ثم ائتني بخبرهم. فدخل في الناس رجل عربي لا ينكر، فأقام فيهم يوماً وليلة، ثم أتاه فقال له: مه ما وراءك؟ قال: بالليل رهبان وبالنهار فرسان، ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنى لرجم، لإقامة الحق فيهم، فقال له القبقلار: لئن كنت صدقتني لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها، ولوددت أن حظي من الله أن يُخلي بيني وبينهم، فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم عليّ. ثم تزاحف الناس، فاقتتلوا، فلما رأى القبقلار ما رأى من قتالهم قال للروم: لفوا رأسي بثوب، قالوا له: لم؟ قال: هذا يوم بئيس، ما أحب أن أراه، ما رأيت من الدنيا يوماً أشد من هذا. قال: فاحتز المسلمون رأسه، وإنه لملفف.

---

(١) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٩٣.

(٢) الطبري. التاريخ ج٣ ص ٤١٧، وما بعدها.

(٣) في الأصل: القلنقاز.

وعن غير ابن إسحاق [1] قال: ثم إن خالد بن الوليد أمر الناس أن يسيروا إلى دمشق، وأقبل بهم حتى نزلوها، وقصد إلى ديره الذي كان ينزل به، فنزله وهو من دمشق على ميل مما يلي باب الشرقي، وبخالد يعرف ذلك الدير إلى اليوم، وجاء أبو عبيدة حتى نزل على باب الجابية، ونزل يزيد بن أبي سفيان على جانب آخر من دمشق وأحاطوا بها، وحاصروا أهلها حصاراً شديداً.

وقدم عبد الرحمن بن حنبل من عند أبي بكر بكتابه إلى خالد، وأتى يزيد ابن أبي سفيان ومعه كان يكون، فقال له يزيد: هل لقيت أبي؟ قال: نعم، قال: فهل سألك عني؟ قال: نعم، قال: فما قلت له؟ قال: قلت له أن يزيد حازم الرأي، متواضع في ولايته، بئيس البأس، محبب في الأخوان، يبذل ما قدر عليه من فضله. فقال أبو سفيان: كذلك ينبغي لمثله أن يكون، وطلب إلي أن أكتب إليه بما يكون من أمرنا، وأن أعلمه حالنا، فوعدته ذلك.

قال: فخرج خالد بالمسلمين ذات يوم، فأحاطوا بمدينة دمشق، ودنوا من أبوابها، فرماهم أهلها بالحجارة ورشقوهم من فوق السور بالنشاب، فقال ابن حنبل:

[و] أبلغ أبا سفيان عنا فإننا	على خير حال كان جيش يكونها
وأنا على بابي دمشقة نرتمي	وقد حان من بابي دمشقة حينها

(الطويل)

* * *

---

(1) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٩٤.

وقعة مرج الصفر

قال[1] : فإن المسلمين لكذلك يقاتلونهم ويرجون فتح مدينتهم إذ أتاهم آت فأخبرهم أن هذا جيش قد جاءكم من قبل ملك الروم، فنهض خالد بالناس على تعبئته وهيئته، فقدم الأثقال والنساء، وخرج معهن يزيد بن أبي سفيان، ووقف خالد وأبو عبيدة من وراء الناس، ثم أقبلوا نحو ذلك الجيش، فإذا هو درنجار بعثه ملك الروم في خمسة آلاف رجل من أهل القوة والشدة ليغيث أهل دمشق، فصمد المسلمون صمدهم، وخرج إليهم أهل القوة من أهل دمشق، وناس كثير من أهل حمص، فالقوم نحو من خمسة عشر ألفاً، فلما نظر إليهم خالد عبأ أصحابه كتعبئته يوم أجنادين، فجعل على ميمنته معاذ بن جبل، وعلى ميسرته هاشم بن عتبة، وعلى الخيل سعيد بن زيد، وأبا عبيدة على الرجال. وذهب خالد فوقف في أول الصف يريد أن يحرض الناس، ثم نظر إلى الصف من أوله إلى آخره حتى حملت خيل لهم على خالد بن سعيد، وكان واقفاً في جماعة من المسلمين في ميمنة الناس يدعون الله، ويقص عليهم، فحملت طائفة منهم عليه، فقاتلهم حتى قتل - رحمه الله - وحمل عليهم معاذ بن جبل من الميمنة فهزمهم، وحمل عليهم خالد بن الوليد من الميسرة فهزم من يليه منهم، وحمل سعيد بن زيد بالخيل على عظم جمعهم، فهزمهم الله وقتلهم، واجتث عسكرهم، ورجع الناس وقد ظفروا وقتلوهم كل قتلة، وذهب المشركون على وجوههم، فمنهم من دخل مدينة دمشق مع أهلها، ومنهم من رجع إلى حمص، ومنهم من لحق بقيصر.

---

(١) المصدر السابق ص ٩٥ - ٩٦.

وعن عمرو بن محصن[1]: أن قتلاهم يومئذ وهو يوم مرج الصفر كانت خمسمائة في المعركة، وقد قتلوا وأسروا نحواً من خمسمائة أخرى.

وقال أبو أمامة[2] فيما رواه عنه يزيد بن يزيد بن جابر: كان بين أجنادين وبين يوم مرج الصفر عشرون يوماً. قال: فحسبت ذلك فوجدته يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة، قبل وفاة أبي بكر - رضي الله عنه - بأربعة أيام

ثم إن الناس أقبلوا عودهم على بدئهم حتى نزلوا دمشق، فحاصروا أهلها وضيقوا عليهم، وعجز أهلها عن قتال المسلمين، ونزل خالد منزله الذي كان ينزل به على باب الشرقي، ونزل أبو عبيدة منزله على باب الجابية، ونزل يزيد ابن أبي سفيان جانباً آخر، فكان المسلمون يغيرون، فكلما أصاب رجل نفلاً جاء بنفله حتى يلقيه في القبض، لا يستحل أن يأخذ منه قليلاً //ولا كثيراً، حتى إن الرجل منهم ليجيء بالكبة الغزل أو بالكبة الصوف أو الشعر أو المسلة أو الإبرة فيلقيها في القبض، لا يستحل أن يأخذها، فسأل صاحب دمشق بعض عيونه عن أعمالهم وسيرتهم، فوصفهم له بهذه الصفة في الأمانة، ووصفهم بالصلاة بالليل وطول القيام، فقال: هؤلاء رهبان بالليل أسد بالنهار، لا والله ما لي بهؤلاء طاقة، وما لي في قتالهم خير.

١٤٤ أ

قال[3]: فراود[4] المسلمين على الصلح، فأخذ لا يعطيهم ما يرضيهم، ولا يبايعونه على ما يسأل، وهو في ذلك لا يمنعه من الصلح والفراغ إلا أنه قد بلغه أن قيصر يجمع الجموع للمسلمين، يريد غزوهم، فكان ذلك مما يمنعه من تعجيل الصلح.

---

(١) المصدر السابق ص ٩٦.

(٢) نفسه ص ٩٧.

(٣) نفسه ص ٩٨.

(٤) في الأصول: فراوق.

وعلى تعبئة ذلك بلغ المسلمين الخبر بوفاة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - واستخلافه عمر - رضي الله عنهما - وما تبع ذلك من صرف خالد بأبي عبيدة، حسبما يأتي تفصيله وبيانه إن شاء الله تعالى.

* * *

ذكر الخبر عن وفاة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وما كان من عهده إلى عمر بن الخطاب ـ جزاهما الله عن دينه الحق أفضل الجزاء

قد تقدم في بدء الردة، وذكر خلافة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ من هذا الكتاب ما دل على ولاية عمر بعده، من حديث رسول الله ﷺ كالذي يروى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: رأى الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيط برسول الله، ونيط عمر بأبي بكر، ونيط عثمان بعمر، قال جابر فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا: أما الرجل الصالح فرسول الله ﷺ وأما ما ذكر من نوط بعضهم ببعض، فهم ولاة هذا الأمر الذي بعث الله به نبيه.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: بينما أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو، فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة، فنزع منها ذنوباً، أو ذنوبين، وفي نزعه ـ والله يغفر له ـ ضعف، ثم استحالت غرباً، فأخذها ابن الخطاب، فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر بن الخطاب، حتى ضرب الناس بعطن.

واختلف أهل العلم في السبب الذي توفي منه أبو بكر، فذكر الواقدي أنه اغتسل في يوم بارد فحُم ومرض خمسة عشر يوماً. وقال الزبير بن بكار: كان به طرف من السل. وقال غيره: أن أصل ابتداء ذلك السل به الوجد على رسول الله ﷺ لما قبضه الله إليه، فما زال ذلك به حتى قضى منه.

وروي عن سلام بن أبي مطيع أنه ـ رضي الله عنه ـ سُمَّ. وبعض من ذكر ذلك يقول: أن اليهود سمته في أرزة، وقيل في حريرة، فمات بعد سنة. وقيل

له: لو أرسلت إلى الطبيب، فقال: قد رآني، قالوا: فما قال لك؟ قال: قال: إني أفعل ما أريد.

وكذلك اختلفوا في حين وفاته، فقال ابن إسحاق: توفي يوم الجمعة لسبع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة. وقال غيره من أهل السير: إنه مات عشي يوم الاثنين، وقيل ليلة الثلاثاء وقيل عشي الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة، وهذا هو الأكثر في وفاته [١].

وأوصى أن تغسله زوجه أسماء بنت عميس، فغسلته، وصلى عليه عمر بن الخطاب في مسجد رسول الله ﷺ وحمل على السرير الذي حمل عليه رسول الله ﷺ ونزل في قبره عمر وعثمان وطلحة وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر، ودفن ليلاً في بيت عائشة مع النبي ﷺ [٢] - وجعل رأسه عند كتفي رسول الله ﷺ وألصقوا لحده بلحده، وجعل قبره مسطحاً مثل قبر النبي ﷺ ورش عليه بالماء.

ولا يختلفون في أنه توفي ابن ثلاث وستين سنة، وأنه استوفى بخلافته بعد الرسول - صلوات الله عليه - سن رسول الله ﷺ التي توفاه الله لها [٣].

ويروى أنه - رضي الله عنه - لما احتضر، وابنته عائشة حاضرة، فأنشدت رضي الله عنها:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر [٤]

(الطويل)

---

(١) راجع بشأن هذه النواحي المختلف فيها: تاريخ الخلفاء لابن يزيد ص ٢٢، وتاريخ أبي زرعة ص ١٧٤/١ وما بعدها، والمعارف لابن قتيبة ص ١٧٠، ومروج الذهب للمسعودي ص ٥١٩/١، والعبر للذهبي ص ١٦/١، والمختصر في أخبار البشر لأبي الفداء ص ١٥٨ - ١٥٩/١، وتتمة المختصر لابن الوردي ص ٢١٨ - ٢١٩/١.

(٢) المعارف لابن قتيبة ص ١٧١، الطبري ص ٤٢٢/٣، المختصر لأبي الفدا ص ١٥٩/١.

(٣) الطبري ص ٤٢١/٣.

(٤) البيت لحاتم الطائي من قصيدة أولها:

رفع إليها رأسه وقال: لا تقولي هذا يابنية، أو: ليس هكذا يا بنية، ولكن قولي: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق[1]، ذلك ما كنت منه تحيد﴾ (١٩: ق)، هكذا قرأها أبو بكر ـ رضي الله عنه.

وقالوا: كان آخر ما تكلم به: رب توفني مسلماً، وألحقني بالصالحين.

وقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ لعائشة ـ رضي الله عنها ـ وهو مريض: في كم كفن رسول الله ﷺ؟ فقالت: في ثلاثة أثواب بيض سحولية. فقال أبو بكر: خذوا هذا الثوب ـ لثوب عليه قد أصابه مشق أو زعفران ـ فاغسلوه، ثم كفنوني فيه مع ثوبين آخرين. فقالت عائشة: وما هذا؟ فقال أبو بكر: الحي أحوج إلى الجديد من الميت، وإنما هذا للمهلة.

ولما توفي أبو بكر ـ رحمه الله ـ ارتجت المدينة بالبكاء، ودهش القوم كيوم قبض النبي ﷺ فأقبل علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ مسرعاً باكياً مسترجعاً، حتى وقف على باب البيت الذي فيه أبو بكر، وقد سجي بثوب، فقال: رحمك الله يا أبا بكر، كنت أول القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشدهم يقيناً، وأخوفهم لله عز وجل، وأعظمهم غناء، وأحدبهم على الإسلام، وأيمنهم على أصحابه، وأحسنهم صحبة وأفضلهم مناقب، وأكثرهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم من رسول الله ﷺ وأشبههم به هدياً وخلقاً وسمتاً وفعلاً، وأشرفهم منزلة، وأكرمهم عليه، وأوثقهم عند الله، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسوله والمسلمين خيراً، صدقت رسول الله

= أماوى قد طال التجنب والهجر ... وقد عذرتني من طلابكم الغدر

وصدره في الديوان:

ماوى ما يغني الثراء عن الغنى

(راجع: ديوانه ص ٥١)

وهو في العقد الفريد ـ ص ١٩ / ٥ ـ كالمذكور هنا، في ذكر وفاة أبي بكر الصديق ـ رحمه الله ـ دون نسبة.

(١) في الأصل: «الحق بالموت». ولعل هذا هو المعنى بقول مؤرخنا: «هكذا قرأها».

حين كذبه الناس، فسماك الله في كتابه صديقاً، فقال: والذي جاء بالصدق محمد، وصدق به أبو بكر، وآسيتـه حين بخلوا، وقمت معه حين عنه قعدوا، وصحبته في الشدة أكرم الصحبة، ثاني اثنين، وصاحبه في الغار، والمنـزل عليـه السكينة، ورفيقه في الهجرة ومواطن الكريهة، ثم خلفته في أمته أحسن الخلافة حين ارتد الناس، وقمت بدين الله قياماً لم يقم به خليفة نبي قط، قويت حين ضعف أصحابك، وبدرت حين استكانوا، ونهضت حين وهنوا، ولزمت منهاج رسوله إذ هم// أصحابه، كنت خليفته حقاً، لم تنازع ولم تضرع برغم المنافقين ١٤٤ ب وصغر الفاسقين وغيظ الكافرين وكره الحاسدين، فقمت بالأمر حين فشلوا، ونطقت حين تتعتعوا، ومضيت بنور الله إذ وقفوا، فاتبعوك، فهدوا، وكنت أخفضهم صوتاً، وأعلاهم فوقاً، وأقلهم كلاماً، وأصوبهم منطقاً، وأطولهم صمتاً، وأبلغهم قولاً، وكنت أكبرهم رأياً، وأشجعهم قلباً، وأحسنهم عملاً، وأعرفهم بالأمور، كنت والله للدين يعسوباً أولاً حين تفرق عنه الناس، وآخراً حين أقبلوا، كنت للمؤمنين أباً رحيماً إذ صاروا عليك عيالاً، فحملت أثقال ما عنه ضعفوا، وحفظت ما ضيعوا، ورعيت ما أهملوا، وشمرت إذ خنعوا، وعلوت إذ هلعوا، وصبرت إذ جزعوا، فأدركت أوتار ما طلبوا ونالوا بك ما لم يحتسبوا، كنت على الكافرين عذاباً صباً، وكنت للمسلمين غيثاً وخصباً، فطرت والله بغنائها، وفزت بحبابها، وذهبت بفضائلها، وأحرزت سوابقها، لم تفلل حجتك، ولم يزغ قلبك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك، ولم تخن، كنت كالجبل الذي لا تحركه العواصف، ولا تزيله القواصف، كنت كما قال رسول الله ﷺ: أمن الناس عليه في صحبتك وذات يدك، وكما قال: ضعيفاً في بدنك قوياً في أمر الله ـ تعالى ـ متواضعاً في نفسك، عظيما عند الله، جليلاً في الأرض، كبيراً عند المؤمنين، لم يكن لأحد فيك مهمز ولا لقائل فيك مغمز، ولا لأحد فيك مطمع، ولا عندك هوادة لأحد، الضعيف الذليل عندك قوي عزيز حتى تأخذ له بحقه، والقوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق، القريب والبعيد عندك في ذلك سواء، شأنك الحق والصدق والرفق، وقولك حكم وحتم، ورأيك علم وعرف، فأقلعت وقد نهج السبيل، وسهل

العسير، واطفئت النيران، واعتدل بك الدين، وقوي الإيمان، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون، فسبقت والله سبقاً بعيداً، وأتعبت من بعدك إتعاباً شديداً، وفزت بالحق فوزاً مبيناً، فجللت عن البكاء، وعظمت رزيتك في السماء، وهدت مصيبتك الأنام، فإنا لله وإنا إليه راجعون، رضينا عن الله قضاءه، وسلمنا لله أمره، ولن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثلك أبداً، كنت للدين عزاً وكهفاً، وللمؤمنين حصناً وفئة وأنساً، وعلى المنافقين غلظة وغيظاً وكظماً، فألحقك الله بميتة نبيك ﷺ ولا حرمنا أجرك، ولا أضلنا بعدك، فإنا لله، وإنا إليه راجعون (١).

وأنصت الناس حتى قضى كلامه، ثم بكى وبكوا، وقالوا: صدقت يا بن عم رسول الله ﷺ.

* * *

(١) الخطبة في العقد الفريد ص ١٩ - ٢٠/٥.

(استخلاف عمر بن الخطاب)

وتقلد أمر الأمة وخلافة المسلمين بعد أبي بكر صاحبه ورفيقه وظهيره ووزيره عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - بعهد أبي بكر إليه بذلك، واستخلافه إياه عليه، نظراً للدين، ونصيحة لله وللأمة، وذلك لما استعز بأبي بكر - رضي الله عنه - وجعه، وثقل، أرسل إلى عثمان وعلي ورجال من أهل السابقة والفضل من المهاجرين والأنصار، فقال: قد حضر ما ترون، ولا بد من قائم بأمركم يجمع فئتكم ويمنع ظالمكم من الظلم، ويرد على الضعيف حقه، فإن شئتم اخترتم لأنفسكم، وإن شئتم جعلتم ذلك إليّ، فوالله لا آلوكم ونفسي خيراً. قالوا: قد رضينا من اخترت لنا، قال: فقد اخترت عمر، وقال لعثمان: أكتب:

هذا ما عهد أبو بكر في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حين يتوب الفاجر ويؤمن الكافر ويصدق الكاذب. عهد أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن وعد الله حق وصدق المرسلون، وأن محمداً رسول الله وخاتم النبيين - صلى الله عليه وعلى أنبيائه ورسله - وقد استخلفت...

ولما انتهى أبو بكر إلى هذا الموضع ضعف ورهقته غشية، فكتب عثمان: وقد استخلفت عمر بن الخطاب، وأمسك، حتى أفاق أبو بكر فقال: أكتبت شيئاً؟ قال: نعم، كتبت عمر بن الخطاب، فقال: رحمك الله، أما لو كتبت نفسك لكنت لها أهلاً، فاكتب:

قد استخلفت عمر بن الخطاب بعدي عليكم، ورضيته لكم، فإن عدل فذلك ظني به، ورأيي فيه، وذلك أردت، وما توفيقي إلا بالله، وإن بدل فلكل

نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، والخير أردت، ولا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

والتوى عمر ـ رضي الله عنه ـ على أبي بكر ـ رحمه الله ـ في قبول عهده، وقال: لا أطيق القيام بأمر الناس، فقال أبو بكر لابنه عبد الرحمن: إرفعني وناولني السيف، فقال عمر: أوتعفيني؟ قال: لا، فعند ذلك قبل.

ذكر هذا كله أبو الحسن المدائني، وذكر بإسناد له عن أبي هريرة وغيره أنه لما عهد أبو بكر إلى عمر عهده قال له: يا عمر، إن لله حقاً في الليل لا يقبله في النهار، وحقاً في النهار لا يقبله في الليل، ولا يقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة، وإنه يا عمر إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً، وإنه يا عمر إنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الباطل، وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه يوم القيامة إلا الباطل أن يكون خفيفاً، ألم تر أنه نزلت آية الرخاء مع آية الشدة، وآية الشدة مع آية الرخاء، ليكون المؤمن راغباً راهباً، فلا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له، ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيده إلى التهلكة، ألم تر[1] يا عمر أن الله ذكر أهل النار بسيء أعمالهم، لأنه رد عليهم ما كان لهم من حسن، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأخشى أن أكون منهم. وفي رواية: عوضاً من هذا، فيقول قائل: أنا خير منهم، فيطمع، وذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم، لأنه تجاوز لهم عما كان من سيء، فإذا ذكرتهم قلت: إني مقصر، أين عملي من أعمالهم، وفي رواية: عوضاً من هذا، فيقول قائل: من أين أدرك درجتهم، ليجتهد، فإن حفظت وصيتي يا عمر، فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت، وهو نازل بك، وإن ضيعت وصيتي فلا يكونن غائب أكره

١٤٥ أ لك من // الموت، ولست بمعجزه.

وعن أسماء بنت عميس قالت: لما أحس أبو بكر بنفسه أرسل إلى عمر، فقال له: يا عمر إني قد وليتك ما وليتك، وقد صحبت رسول الله ﷺ ورأيت

(١) في الأصل: أولم تر.

عمله، وأثرته أنفسكم على نفسه، وأهلكم على أهله، حتى إن كنا لنظل نهدي إليه من فضل ما يأتينا من قبله، وصحبتني ورأيتني وإنما اتبعت أثر من كان قبلي، والله ما نمت فحلمت، ولا شبهت فتوهمت، وإني لعلى السبيل ما زغت، وإن أول ما أحذرك نفسك، فإن لكل نفس شهوة، فإذا أعطيتها شهوتها تمادت فيها ورغبت في غيرها.

وفي حديث غير هذا: وخذ هذه اللقحة فإنها من إبل الصدقة، احتبستها للرسل إذا قدموا يصيبون من رسلها، وخذ هذا البرد فإني كنت أتجمل به للوفود، وخذ هذا السقاء وهذه العلبة فإنها من متاع إبل الصدقة، وعليّ ثمانية آلاف درهم، ويقال: قال: ستة آلاف أخذتها للرسل، ولمن كان يغشانا، فأدها من مالي.

فخرج عمر متأبطاً البرد، وقد حمل السقاء والعلبة، يقود اللقحة، يبكي ويقول: يرحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده.

ومات أبو بكر ـ رحمه الله ـ ودفن ليلاً، فلما أصبح عمر بعث إليه عائشة بناضح وعبد حبشي كان يسقي لآل أبي بكر على ذلك الناضح، وقطيفة. فقبض عمر ذلك، فقال له عبد الرحمن بن عوف: سبحان الله، تسلب عيال أبي بكر ناضحاً وعبداً أسود كان ينفعهم، وقطيفة قيمتها خمسة دراهم؟ قال: فما ترى؟ قال: ترده عليهم، قال: لا ورب الكعبة، لا يكون ذلك وأنا حي، يخرج منه أبو بكر وأرده أنا على عياله[1].

---

(١) الوارد في المعارف ـ ص ١٧١ ـ لابن قتيبة، قوله: «.. وكان قال لعائشة: أنظري يا بنية، فما زاد في مال أبي بكر منذ ولينا هذا الأمر فرديه على المسلمين، فوالله ما نابنا من أموالهم إلا ما أكلنا في بطوننا من جريش طعامهم، ولبسنا على ظهورنا من خشن ثيابهم. فنظرت، فإذا بكر، وجرد قطيفة لا تساوي خمسة دراهم، وحشية.

فلما جاء الرسول إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ قال عبد الرحمن بن عوف لعمر: يا أمير المؤمنين، أتسلب هذا ولد أبي بكر؟ قال: كلا ورب الكعبة، لا يتأثم بها أبو بكر في حياته وأتحملها من بعد موته، رحم الله أبا بكر، فقد كلف من بعده تعباً».

وعن المسور بن مخرمة أو علقمة بن أبي الفغواء الخزاعي قال: أرسل أبو بكر إلى عمر وهو مريض، فأتاه، فقال: يا عمر، إني كنت أرى الرأي فتشير عليّ بخلافه، فأتهم نفسي لك، ألا إني قد عصيتك في استعمال شرحبيل بن حسنة، وقلت: أخاف ضعفه، فقلت لك: قد كان له في الإسلام نصيب، وقد أحببت أن أبلوه، فإن رأيت ما أحب أثبته، وإن بلغني عنه ضعف استبدلت به، فلا عليك أن تقره على عمله، وكنت تنهاني عن يزيد بن أبي سفيان، فقلت لك: إن له موضعاً في قريش، ونشأ بخير، وكان فيه، وقد أحببت أن أقيم له شرفه، فلا عليك أن تقره على عمله، ورجل لم أوصك بمثله ولا أراك فاعلاً، قال: تريد خالداً؟ قال: أريده، فقال عمر: أما شرحبيل بن حسنة فقد كنت أشير عليك أن لا تبعثه، وخفت ضعفه، وأمرتك أن تبعث مكانه عمار بن ياسر، ولم يبلغنا عنه إلا خير، ولست عازله إلا أن يبلغني عنه ما لا أستحل معه تركه، وأما يزيد فقلت لك: غلام حديث السن لا سابقة له، ابعث مكانه سعد بن أبي وقاص، فلم يكن في أمره إلا خير، ولا أعزله إلا أن يبلغني عنه ما لا أستحل معه تركه. وأما خالد، فوالله ما أعدك في أمره بما لا أفعل ولا أبدأ بأول من عزله، وما كنت أرى لك أن تجعل مع أبي عبيدة ضداً، وقد عرفت فضل أبي عبيدة. فقال أبو بكر: أما أني قد رأيت أبا عبيدة في مرضي هذا آخذاً بثوب رسول الله ﷺ يتبعه، ولنعم المتبع، ورأيتني آخذاً بثوب أبي عبيدة، ولنعم المتقدم، ثم سمعت خسفاً ورائي، فالتفت فإذا أنت وإذا الظلمة، فاستلحقتك وما أبالي إذا لحقت بمن تخلف، فكأني أسمع وقع نعليك، حتى أخذت بثوبي والنفت، فإذا نفر يخرجون من الظلمة يزدحمون، فالنجاء، النجاء يا عمر.

وكانت من جماعة من المهاجرين موافقة لأبي بكر في استخلاف عمر ليس إلا، لما كانوا يعرفون من غلظته، فيقول أبو بكر: هو والله إن شاء الله خيركم. وقال لبعضهم: إني أرى ما ترون، ولو قد أفضي إليه أمركم لترك كثيراً مما ترون، إني رمقته، فإذا أغلظت في أمر أراني التسهيل، وإذا لنت في أمر تشدد فيه.

وقال له طلحة والزبير: ما أنت قائل لربك إذ وليته مع غلظته؟ قال:

ساندوني، فأجلسوه، فقال: أبالله تخوفونني، أقول: استعملت عليهم خير أهلك وحلفت، ما تركت أحداً أشد حباً له من عمر، ستعلمون إذا فارقتموه وتنافستموها.

ودخل عثمان وعلي فأخبرهما أبو بكر، فقال عثمان: علمي به أنه يخاف الله فوله، فما فينا مثله، وقال علي: يا خليفة رسول الله امض لرأيك، فما نعلم إلا خيراً، وخرجا ودخل عمر، فقال أبو بكر: كرهك كاره، وأحبك محب. قال: لا حاجة لي بها، قال: اسكت، إني ميت من مرضي هذا، إني رأيت بعد وفاة رسول الله ﷺ أني فقت ثلاث فوقات، فدسعت في الآخرة طعاماً، فمرضت به مرضتين، وهذه الثالثة، فأنا ميت، وإياك والأثرة على الناس، وإياك والذخيرة فإن ذخيرة الإمام تهلك دينه.

ولما توفي أبو بكر - رحمه الله - كتب عمر - رضي الله عنه - إلى أبي عبيدة:

أما بعد، فإن أبا بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ توفي، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ورحمة الله على أبي بكر، القائل بالحق، والآمر بالقسط، والآخذ بالعرف، البر الشيم، السهل القريب، وأنا أرغب إلى الله في العصمة برحمته، والعمل بطاعته، والحلول في جنته، إنه على كل شيء قدير، والسلام عليك ورحمة الله [1].

وجاء بالكتاب يرفأ حتى أتى أبا عبيدة، فقرأه فلم يسمع من أبي عبيدة حين قرأه شيء ينتفع به مقيم ولا ظاعن، ودعا أبو عبيدة معاذ بن جبل فأقرأه الكتاب، فالتفت معاذ إلى الرسول فقال: رحمة الله على أبي بكر، ويح غيرك، ما فعل المسلمون؟ قال: استخلف أبو بكر عمر، فقال معاذ: الحمد لله، وفقوا وأصابوا، فقال أبو عبيدة: ما منعني من مسألته منذ قرأت الكتاب حتى دعوتك لقراءته إلا مخافة أن يستقبلني فيخبرني أن الوالي غير عمر. فقال له الرسول: يا أبا عبيدة، إن عمر يقول لك: أخبرني عن حال الناس، وأخبرني عن خالد

(١) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٩٨.

١٤٥ ب ابن الوليد، أي رجل هو؟ وأخبرني// عن يزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، كيف هما في حالها ونصيحتها للمسلمين؟ فقال أبو عبيدة: أما خالد فخير أمير، أنصحه لأهل الإسلام، وأحسنه نظراً لهم، وأشده على عدوهم من الكفار، ويزيد وعمرو في نصيحتها وجدهما كما يحب عمر ونحب، قال: فأخبرني عن أخويك: سعيد بن زيد، ومعاذ بن جبل. قال: قل له هما كما عهدت، إلا أن تكون السن زادتها في الدنيا زهادة، وفي الآخرة رغبة.

قال[1]: ثم إن الرسول وثب (لينصرف) فقالا له: سبحان الله، انتظر نكتب معك. فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم. من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب، سلام عليك، فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنا عهدناك وأمر نفسك لك مهم، فأصبحت قد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها يجلس بين يديك، الشريف والوضيع، والعدو والصديق، والضعيف والشديد، ولكل حصته من العدل، فانظر كيف تكون عند ذلك يا عمر، إنا نذكرك يوماً تبلى فيه السرائر، وتكشف فيه العورات، وتنقطع فيه الحجج، وتزاح فيه العلل، وتجب فيه القلوب، وتعنو فيه الوجوه لعزة ملك قهرهم بجبروته، فالناس له داخرون، ينتظرون قضاءه، ويخافون عقابه، ويرجون رحمته.

وإنا كنا نتحدث على عهد نبينا ﷺ أنه سيكون في آخر الزمان - ويروى: في هذه الأمة - رجال يكونون إخوان العلانية أعداء السريرة، وإنا نعوذ بالله أن ينزل كتابنا منك بغير المنزلة التي هو بها من أنفسنا، والسلام.

فمضى الرسول بهذا الكتاب، وقال أبو عبيدة لمعاذ: والله ما أمرنا عمر أن نظهر وفاة أبي بكر للناس، ولا ننعاه إليهم، فما أرى أن نذكر من ذلك شيئاً دون أن يكون هو يذكره. فقال له معاذ: فإنك نعم ما رأيت. فسكتا، فلم يذكرا للناس شيئاً، ولم يلبثا إلا مقدار ما قدم رسول عمر إليه حتى بعث إليهما بجواب

(١) المصدر السابق ص ٩٩ - ١٠١.

كتابهما، وبعهد أبي عبيدة، وأمره بعظة الناس. وكان جوابه عن كتابهما:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل، سلام عليكما، فإني أحمد إليكما الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد. فإني أوصيكما بتقوى الله، فإنه رضاء ربكما وحفظ أنفسكما، وغنيمة الأكياس لأنفسهم عند تفريط العجزة، وقد بلغني كتابكما تذكران أنكما عهدتماني وأمر نفسي إلي مهم، وما يدريكما؟ وكتبتما تذكران أني وليت أمر هذه الأمة، يقعد بين يدي العدو والصديق، والقوي والضعيف، ولكل عليّ حصته من العدل، وتسألاني: كيف بي عند ذلك؟ وإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وكتبتما تخوفاني بيوم هو آت، يوم تجب فيه القلوب، وتعنو فيه الوجوه. وتنقطع فيه الحجج، وتزيح فيه العلل، لعزة ملك قهرهم بجبروته، فالخلق له داخرون، ينتظرون قضاءه ويخافون عقابه، وكأن ذلك قد كان، هذا الليل والنهار، يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويأتيان بكل موعود، حتى يكون الناس بأعمالهم فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير، وكتبتما تذكران أنكما كنتما تحدثان على عهد رسول الله ﷺ أنه سيكون في آخر الزمان أخوان العلانية أعداء السريرة، وأن هذا ليس بزمان ذلك، ولا أنتم أولئك، وإنما ذلكم إذا ظهرت الرغبة والرهبة، وإذا كانت رغبة الناس بعضهم إلى بعض، ورهبة بعضهم من بعض في صلاح دنياهم، وكتبتما تعوذان بالله من أن أنزل كتابكما من قلبي سوى المكان الذي تنزلانه من قلوبكما، فإنكما كتبتما لي نظراً لي، وقد صدقتما، ولا غنى بي عن كتابكما، فتعاهداني بكتبكما، والسلام[1].

وذكر المدائني وغيره[2] عن صالح بن كيسان، قال: أول كتاب كتبه عمر حين ولي إلى أبي عبيدة يوليه على جند خالد بن الوليد:

أوصيك بتقوى الله الذي يبقي ويفني ما سواه، الذي هدانا من الضلالة،

(١) المصدر السابق.

(٢) الرواية في الطبري. التاريخ ج٣ ص ٤٣٤.

وأخرجنا من الظلمات إلى النور. وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد، فقم بأمرهم الذي يحق لله عليك، لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم، وتعلم كيف مأتاه، ولا تبعث سرية إلا في كثف من الناس، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة، وقد أبلاك الله وأبلى بك، فغمض بصرك عن الدنيا، وأله قلبك عنها، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك، فقد رأيت مصارعهم.

وعن عباس بن سهل بن سعد قال: قدم شداد بن أوس بعهد أبي عبيدة، فدفعه إليه، وشداد شاك، فنزل مع أبي عبيدة ومعاذ بن جبل في منزلها وأمرهما واحد، فكانا يقومان إليه حتى تماثل، فمكث أبو عبيدة خمس عشرة ليلة يصلي خالد بالناس ويأمر بالأمر، وما يعلم أن أبا عبيدة الأمير، حتى جاء كتاب من عمر إلى أبي عبيدة، فكره أن يخفيه، وكان في كتابه إليه:

أما بعد، فإنك في كنف من المسلمين، وعدد يكفي حصار دمشق، فابعث سراياك في أرض حمص ودمشق وما سواهما من الشام، ولا يبعثنك قولي هذا على أن تعري عسكرك فيطمع فيك عدوك، ولكن انظر برأيك فما استغنيت عنه منهم فسيرهم، وما احتجت إليه منهم فاحتبسهم عندك، وليكن فيمن تحتبس عندك خالد بن الوليد، فإنه لا غنى بك عنه، والسلام.

فلما قرأ أبو عبيدة كتابه على الناس، قال خالد: يرحم الله أبا بكر، لو كان حياً ما عزلني. وولى عمر فولى أبا عبيدة، فعافى الله أبا عبيدة، كيف لم يعلمني بولايته عليّ ثم أتى أبا عبيدة، فقال له: رحمك الله، أنت الأمير والوالي عليَّ ولا تعلمني؟ وأنت تصلي خلفي والسلطان سلطانك. فقال له أبو عبيدة: ما كنت لأعلمك به أبداً حتى تعلمه من عند غيري، وما سلطان الدنيا وإمارتها؟ فإن ١٤٦ أ كل ما ترى يصير إلى زوال، وإنما نحن أخوان// فإننا أمة أخوة أو أمر عليه لم يضره ذلك في دينه ولا دنياه، بل لعل الوالي أن يكون أقربهما إلى الفتنة، وأوقعهما بالخطيئة، إلا من عصم الله، وقليل ما هم.

ذكر الخبر عما صار إليه أمر دمشق من الفتح والصلح بعد طول الحصار في خلافة عمر بن الخطاب، على نحو ما ذكره من ذلك أصحاب فتوح الشام

(فتح دمشق) :

قالوا : وتولى أبو عبيدة حصار دمشق، وولى خالداً القتال على الباب الذي كان عليه، وهو باب الشرقي، وولاه الخيل إذا كان يوم يجتمع فيه المسلمون للقتال، فحاصروا دمشق بعد مهلك أبي بكر ـ رحمه الله ـ وولايته حولاً كاملاً، وأياماً.

وكان أهلها قد بعثوا إلى قيصر وهو بأنطاكية : أن العرب قد حاصرتنا وضيقت علينا، وليس لنا بهم طاقة، وقد قاتلناهم مراراً، فعجزنا عنهم، فإن كان لك فينا وفي السلطان علينا حاجة فأمددنا وأغثنا وعجل علينا، فإنا في ضيق وجهد، وإلا فقد أعذرنا، والقوم قد أعطونا الأمان، ورضوا منا من الجزية باليسير.

فأرسل إليهم : أن تمسكوا بحصنكم، وقاتلوا عدوكم، فإنكم إن صالحتموهم وفتحتم حصنكم لهم لم يفوا لكم، وأجبروكم على ترك دينكم، واقتسموكم بينهم، وأنا مسرح إليكم الجيوش في أثر رسولي.

فانتظروا مدده وجيشه، فلما أبطأ عليهم وألح عليهم المسلمون بالتضييق وشدة الحصار، ورأوا أن المسلمين لا يزدادون كل يوم إلا قوة وكثرة بعثوا إلى أبي عبيدة يسألونه الصلح. وكان أبو عبيدة أحب إلى الروم وسكان الشام من خالد ابن لوليد، وكان أن يكون كتاب الصلح من أبي عبيدة أحب إليهم، لأنه كان ألينهما

وأشدهما منهم استماعاً، وأقربهما منهم قرباً، وكان قد بلغهم أنه أقدمهما هجرة وإسلاماً، فكانت رسل صاحب دمشق: إنما تأتي أبا عبيدة وخالد ملح على الباب الذي يليه، فأرسل صاحب دمشق إلى أبي عبيدة فصالحه، وفتح له باب الجابية، وألح خالد على باب الشرقي ففتحه عنوة، فقال لأبي عبيدة: اقتلهم واسبهم، فإني قد فتحتها عنوة، فقال أبو عبيدة: لا، إني قد أمنتهم[1].

ودخل المسلمون دمشق، وتم الصلح، وجاء الجيش من قبل أنطاكية مدداً لأهل دمشق، فلما قدموا بعلبك أتاهم الخبر بأن دمشق قد افتتحت، وكان عليهم درنجاران عظيمان، كل درنجار على خمسة آلاف، فكانوا عشرة آلاف، فأقاموا وبعثوا إلى ملكهم يخبرونه بالمكان الذي هم فيه، وبالخبر الذي بلغهم عن دمشق[2].

وذكر أبو جعفر الطبري[3] أن شداد بن أوس هو الذي قدم الشام بوفاة أبي بكر، ومعه محمية بن جزء ويرفأ، فوجدوا المسلمين بالواقوصة يقاتلون عدوهم، فكتموا الخبر حتى ظفر المسلمون، فعند ذلك أخبروا أبا عبيدة بوفاة أبي بكر، وبولايته حرب الشام، وعزل خالد.

وعن محمد بن إسحاق[4]: أن المسلمين لما فرغوا من أجنادين ساروا إلى فحل من أرض الأردن، وقد اجتمعت به رافضة الروم، والمسلمون على أمرائهم، فاقتتلوا فهزمت الروم، ودخل المسلمون فحل، ولحقت رافضة الروم بدمشق، فسار المسلمون الى دمشق، وعلى مقدمة الناس خالد بن الوليد، وقد اجتمعت الروم الى رجل منهم يقال له باهان، فالتقى المسلمون والروم حول دمشق فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم هزم الله الروم فدخلوا دمشق، وجثم المسلمون عليها فرابطوها حتى فتحت، وقد كان الكتاب قدم على أبي عبيدة بإمارته وعزل

---

(١) تاريخ اليعقوبي ص ١٤٠ / ١.

(٢) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ١٠٤ ـ ١٠٦.

(٣) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص ٤٣٤.

(٤) نفسه ج٣ ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥.

خالد، فاستحيا أبو عبيدة أن يعلم خالداً حتى فتحت دمشق وجرى الصلح على يدي خالد، وكتب الكتاب باسمه، فبعد ذلك أظهر أبو عبيدة إمارته. فلما صالحت دمشق لحق باهان صاحب الروم بهرقل.

وخالف سيف بن عمرو[1] ما تقدم من المساق والتاريخ في أمر دمشق، فذكر على ما سيأتي أن وقعة اليرموك كانت في سنة ثلاث عشرة، وأن المسلمين ورد عليهم البريد بوفاة أبي بكر باليرموك في اليوم الذي هزمت الروم في آخره، وأن عمر - رحمه الله - أمرهم بعد الفراغ من اليرموك بالمسير إلى دمشق.

وزعم أن فحلا كانت بعد دمشق، خلافاً لما ذكره ابن إسحاق من أنها كانت قبلها، وأن رافضة فحل هم الذين صاروا إلى دمشق.

وأما الواقدي[1] فزعم أن فتح دمشق كان سنة أربع عشرة، وكذا قال ابن إسحاق، وزعم أن حصار المسلمين لها كان ستة أشهر، وأن وقعة اليرموك كانت في سنة خمس عشرة، وبعدها في تلك السنة بعينها جلا هرقل عن أنطاكية إلى قسطنطينية[2]، وأنه لم يكن بعد اليرموك وقعة. وسنورد إن شاء الله مما أوردوه على اختلافه ما نبلغ به المقصود من الإمتاع وتذكير الناس بأيام الله.

فأما خبر دمشق من رواية سيف[3] فذكر أنه: لما هزم الله جند اليرموك، وتهافت أهل الواقوصة، وفرغ من المقاسم والأنفال، وبعث بالأخماس، وسرحت الوفود، استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب (بن أبي) الحميري كيلا تغتال بردة ولا تقطع الروم مواده، وخرج أبو عبيدة حتى نزل بالصفرين وهو يريد اتباع الفل، ولا يدري أيجتمعون أو يفترقون، فأتاه الخبر بأنهم أرزوا إلى فحل، وبأن المدد قد أتى على دمشق من حمص، فهو لا يدري أبدمشق يبدأ أم بفحل من بلاد الأردن، فكتب في ذلك إلى عمر، وأقام بالصفرين ينتظر جوابه، وكان عمر لما جاءه فتح اليرموك أقر الأمراء على ما كان استعملهم عليه

---

(١) المصدر السابق ج٣ ص ٤٣٥ - ٤٣٦.

(٢) في الأصول: قسطنينة، وسوف يتكرر ذلك دون إشارة.

(٣) نفسه ج٣ ص ٤٣٦.

أبو بكر، إلا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، فإنه ضم خالد إلى أبي عبيدة، وأمر عمراً بمعونة الناس حتى تصير الحرب إلى فلسطين، ثم يتولى حربها.

فلما [1] جاء عمر كتاب أبي عبيدة، كتب إليه:

١٤٦ ب أما بعد//،فابدءوا بدمشق، وانهدوا لها، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم، واشغلوا عنهم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم ونحور أهل فلسطين وأهل حمص، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذي نحب، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل دمشق من تمسك بها، ودعوها، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل، فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص، ودع شرحبيل وعمراً وأخلهما بالأردن وفلسطين، وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته.

فسرح أبو عبيدة إلى فحل عشرة فيهم أبو الأعور وعمارة بن مخش [2] ـ وهو قائد الناس ـ وكانت الرؤساء تكون من الصحابة، فساروا من الصفرين حتى نزلوا قريباً من فحل، فلما رأت الروم أن الجنود تريدهم بثقوا المياه حول فحل، فأردغت [3] الأرض، ثم وحلت، واغتنم المسلمون ذلك، فحبسوا عن المسلمين ثمانين ألف فارس. وبعث أبو عبيدة ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص ردءاً. وبعث علقمة بن حكيم ومسروقاً فكانا بين دمشق وفلسطين، والأمير يزيد. وقدم خالد وأبو عبيدة وعمرو وشرحبيل على دمشق فنزلوا حواليها وحاصروا أهلها حصاراً شديداً نحواً من سبعين ليلة، وقاتلوهم قتالاً عظيماً بالزحوف والترامي والمجانيق، وهم معتصمون بالمدينة، يرجون الغياث، وهرقل منهم قريب بحمص، ومدينة حمص بينه وبين المسلمين، وذو الكلاع بين المسلمين وبين حمص على رأس ليلة من دمشق، كأنه يريد حمص.

وجاءت جنود هرقل مغيثة لأهل دمشق، فأشجتها الخيول التي مع ذي

---

(١) المصدر السابق ج٣ ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨

(٢) نفسه ج٣ ص ٤٣٨، حيث تسميتهم فيه.

(٣) أردغت الأرض: كثر رداغها، والرداغ: الوحل الشديد.

الكلاع وشغلتها، فلما أيقن أهل دمشق أن الأمداد لا تصل إليهم فشلوا ووهنوا وأبلسوا[١]، وازداد المسلمون طمعاً فيهم، وكانوا قبل يرون أنها كالغارات، وأنه إذا جاء البرد قفل الناس، فسقط النجم والمسلمون مقيمون، فعند ذلك انقطع رجاء الروم وندموا على دخول دمشق، واتفق أن ولد للبطريق[٢] الذي دخل على أهل دمشق مولود، فصنع[٣] عليه طعاماً، فأكل القوم وشربوا، وغفلوا عن مواقفهم، ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين إلا ما كان من خالد، فإنه كان لا ينام ولا ينيم، ولا يخفى عليه من أمرهم شيء، عيونه ذاكية وهو معني بما يليه[٤]، قد اتخذ حبالاً كهيئة السلالم وأوهاقاً[٥]، فلما أمسى من ذلك اليوم نهد هو ومن معه من جنوده الذين قدم بهم، وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وأمثالها، وقالوا: إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا وانهدوا[٦] للباب وأئتوا من الباب الذي كان خالد يليه، فقطعوا الخندق سبحاً على ظهورهم القرب، ثم رموا بالحبال الشرف. فلما ثبت لهم وهقان تسلق القعقاع ومذعور ثم لم يدعا أحبولة إلا أثبتاها - والأوهاق بالشرف - وكان المكان الذي اقتحموا منه خندقهم أحصن مكان يحيط بدمشق، أكثره ماء، وأشده مدخلاً، وتوافوا لذلك، فلم يبق ممن دخل معه أحد إلا رقي أو دنا من الباب، حتى إذا استووا على السور حدر عامة أصحابه، وانحدر معهم، فكبر الذين على رأس السور، فنهد المسلمون إلى الباب، ومال إلى الحبال بشر كثير، فوثبوا فيها، وانتهى خالد إلى أول من يليه فأنامهم، وانحدر إلى الباب فقتل البوابين، وثار

---

(١) أبلسوا: تحيروا.

(٢) البطريق: القائد من قواد الروم، أو هو من أهل الرياسة.

(٣) أي أولم.

(٤) في الأصول: بما إليه، والتصويب من الطبري.

(٥) الأوهاق: جمع وهق، بالتحريك، وهو الحبل في طرفيه أنشوطة يطرح في عنق الدابة أو الإنسان حتى يؤخذ.

(٦) نهد الرجل: نهض ومضى على كل حال.

أهل المدينة، وفزع سائر الناس فأخذوا مواقفهم ولا يدرون ما الشأن، وتشاغل أهل كل ناحية مما يليهم وقطع خالد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف، وفتحوا للمسلمين، فأقبلوا عليهم من داخل حتى ما بقي مما يلي باب خالد مقاتل إلا أنيم. ولما شد خالد على من يليه، وبلغ منهم الذي أراد عنوة أرز من أفلت إلى أهل الأبواب التي كان يليها غير خالد، وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة فأبوا وأبعدوا، فلم يفجأهم إلا وهم يبوحون لهم بالصلح، فأجابهم المسلمون وقبلوا منهم، ففتحوا لهم الأبواب، وقالوا: ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب، فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم، ودخل خالد مما يليه عنوة، فالتقى خالد والقواد في أوساطها، هذا استعراضاً وانتهاباً، وهذا صلحاً وتسكيناً، فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح، فصار كل ذلك صلحاً، وكان صلح دمشق على مقاسمة الديار والعقار، ودينار على كل رأس، وعلى جريب[1] من كل حرث أرض، واقتسموا الأسلاب، فكان أصحاب خالد فيها كأصحاب سائر القواد، ووقف ما كان للملوك ومن صوب معهم فيئاً، وقسموا لذي الكلاع ومن معه، ولأبي الأعور ومن معه، وبعثوا بالبشارة إلى عمر، وقدم على أبي عبيدة كتاب عمر: أن اصرف جند العراق إلى العراق، وأمرهم بالحث إلى سعد ابن مالك. فأمر عليهم أبو عبيدة هاشم بن عتبة، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو، وعلى مجنبتيه عمرو بن مالك الزهري، وربعي بن عامر، وخرج هاشم نحو العراق في جند العراق، وكانوا عشرة آلاف إلا من أصيب منهم فأتموهم بأناس ممن لم يكن منهم، كقيس والأشطر، وخرج القواد نحو فحل، وخرج علقمة ومسروق إلى إيلياء، فنزلا على طريقها، وبقي بدمشق مع يزيد بن أبي سفيان من قواد أهل اليمن عدد، وبعث يزيد، دحية بن خليفة الكلبي في خيل بعد فتح دمشق إلى تدمر، وأبا الزهراء القشيري إلى البثنية وحوران، فصالحوهما على صلح دمشق، ووليا القيام على فتح ما بعثا إليه.

وكان الذي سار على الناس نحو فحل شرحبيل بن حسنة، على ما ذكره

---

(١) الجريب: مقدار من الأرض، قدره قدامة بن جعفر بثلاثة آلاف وستمائة ذراع.

سيف عن أشياخه [1]، قالوا: وبعث خالداً على المقدمة، وأبا عبيدة وعمراً على مجنبتيه، وعلى الخيل ضرار بن الأزور، وعلى الرجال عياض، وكرهوا أن يصمدوا لهرقل، وخلفهم من الروم ثمانون ألفاً بإزاء فحل ينظرون إليهم، فلما انتهوا إلى أبي الأعور قدموه إلى طبرية، فحاصرها ونزلوا هم//على فحل من أرض الأردن ـ وقد كان أهلها حين نزل بهم أبو الأعور تركوها وأرزوا إلى بيسان وجعلوا بينهم وبين المسلمين تلك المياه والأوحال ـ وكتب المسلمون إلى عمر بالخبر، وأقاموا بفحل لا يريدون أن يريموها حتى يرجع جواب عمر، ولا يستطيعون الإقدام على العدو من مكانهم لما دونهم من الأوحال، وأصاب المسلمون من ريف الأردن أفضل مما فيه المشركون، مادتهم متواصلة، وخصبهم رغد، ورجاء الروم أن يكون المسلمون على غرة، فقصدوهم ليلاً، والمسلمون على حذر لا يأمنون مجيئهم، وكان شرحبيل لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة، فلما هجموا على المسلمين غافصوهم [2]، ولم يناظروهم، فاقتتلوا بفحل كأشد قتال اقتتلوا قط ليلتهم ويومهم إلى الليل، فأظلم الليل عليهم وقد حاروا، فانهزموا، وقد أصيب رئيسهم سقلار بن مخراق، والذي يليه فيهم نسطورس [3]، وظفر المسلمون بهم كأحسن الظفر وأهناه، وركبوهم وهم يرون أنهم على قصد، فوجدوهم حيارى لا يعرفون مأخذهم، فأسلمتهم هزيمتهم وحيرتهم إلى الوحل، فركبوه، ولحق بهم أوائل المسلمين وقد وحلوا فيه، فوخزوهم بالرماح وهم لا يمنعون يد لامس، وقتلوا في الرداغ، فما أفلت من أولئك الثمانين ألفاً إلا الشريد، وكان الله يصنع للمسلمين وهم كارهون، كرهوا البثوق فكانت عوناً لهم على عدوهم، وآية من الله ليزدادوا بصيرة وجداً، واقتسموا ما أفاء الله عليهم، وانصرف أبو عبيدة بخالد من فحل إلى حمص، وصرفوا بشير [4] بن كعب معهم، ومضوا بذي الكلاع ومن معه، وخلوا شرحبيل بن حسنة ومن معه.

١٤٧ أ

---

(١) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص ٣٣٦ ـ ٣٤١.

(٢) غافصوهم، فاجأوهم واخذوهم على غرة.

(٣) في الأصول: نسطوس، والتصويب من الطبري.

(٤) في الطبري: سمير.

(ذكر بيسان)

ولما [1] فرغ شرحبيل من وقعة فحل نهد بالناس إلى بيسان ومعه عمرو، فنزلوا عليها، وأبو الأعور والقواد معه على طبرية، وقد بلغ أفناء أهل الأردن ما لقيت دمشق، وما لقي سقلار والروم بفحل وفي الردغة، ومسير شرحبيل إليهم، فتحصنوا بكل مكان، وحصر شرحبيل أهل بيسان أياماً. ثم خرجوا يقاتلونه، فقتل المسلمون من خرج إليهم منهم، وصالح بقية أهلها.

* * *

(١) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص ٤٤٣.

(ذكر طبرية)

وبلغ[1] أهل طبرية، فصالحوا أبا الأعور على أن يبلغهم شرحبيل، ففعل، وصالحهم شرحبيل وأهل بيسان على صلح دمشق، على أن يشاطروا [2] المسلمين المنازل في المدائن، وما أحاط بها مما يصلها، فيدعوا لهم نصفاً، ويأخذوا نصفاً، وعلى كل رأس دينار كل سنة، ومن كل حرث أرض جريب بر أو شعير، أي ذلك حُرث، وأشياء صالحوهم عليها. ونزلت القواد وخيولهم فيها.

وتم صلح الأردن، وتفرقت الأمداد في مدائنها وقراها، وكُتب إلى عمر بالفتح.

* * *

---

(١) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص ٤٤٤.

(٢) في الأصول: على أن شاطروا.

حديث مرج الروم من رواية سيف أيضاً

قال[1] : خرج أبو عبيدة بخالد بن الوليد من فحل إلى حمص، وبمن تضيف إليهم من اليرموك، فنزلوا جميعاً على ذي الكلاع، وقد بلغ الخبر هرقل، فبعث توذرا [2] البطريق حتى نزل بمرج دمشق وغربها، فبدأ أبو عبيدة بمرج الروم وجمْعُهم هذا بِهِ، وقد هجم الشتاء عليهم والجراح فيهم فاشية، فلما نزل على القوم بمرج الروم نازله يوم نزل عليه شنس الرومي، في مثل خيل توذرا، إمداداً لتوذرا وردءاً لأهل حمص، فنزل في عسكره على حدة، فلما كان من الليل فَرَّ توذرا، فأصبحت الأرض منه بلاقع، وكان خالد بإزائه وأبو عبيدة بإزاء شنس، وأتى خالداً الخبر برحيل توذرا إلى جهة دمشق، فأجمع رأيه ورأي أبي عبيدة أن يتبعه خالد، فأتبعه من ليلته في جريدة، وبلغ يزيد بن أبي سفيان ما فعل توذرا، فاستقبله، فاقتتلوا، ولحق بهم خالد وهم يقتتلون، فأخذهم من خلفهم، فقتلوا من بين أيديهم ومن خلفهم، فلم يفلت منهم إلا الشريد، وقتل يزيد توذرا، وأصاب المسلمون ما شاءوا من ظهر وأداة وثياب، وقسم ذلك يزيد على أصحابه وأصحاب خالد، ثم انصرف يزيد إلى دمشق، وانصرف خالد إلى أبي عبيدة، وبعد خروج خالد في أثر توذرا ناهد أبو عبيدة شنس، فاقتتلوا بمرج الروم، فقتلهم أبو عبيدة مقتلة عظيمة، حتى امتلأ المرج من قتلاهم، وأنتنت منهم

---

(١) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص ٥٩٨ ـ ٥٩٩.

(٢) في الأصول: توذر، والرسم من الطبري.

الأرض. وقتل أبو عبيدة شنس، وهرب من هرب منهم، فلم يُقلهم، وركب أقفاءهم إلى حمص.

* * *

فهذا ما ذكر سيف من حديث دمشق، وفحل، ومرج الروم، وسائر ما ذكر معها أوردناه مهذباً مقرباً، ثم نعود إلى تتمة ما وقع في كتب فتوح الشام مما يخالف ما ذكره سيف من بعض الوجوه ليوقف على كل ما ذكروه مما اتفقوا عليه واختلفوا فيه.

قالوا [1]: إن أبا عبيدة لما ظهر على دمشق أمر عمرو بن العاص بالمسير إلى أرض الأردن وفلسطين، فيكون فيما بينهما، ولا يقدم على المدينتين وجمع الروم بهما، ولكن ينزل أطراف الرساتيق، ويغير بالخيل عليهم من كل جانب، ويصالح من صالحه.

فخرج عمرو حتى واقع أرض الأردن، فلما بلغ أهل الأردن وفلسطين فتح دمشق وتوجه الجيش إليهم هالهم ذلك ورعبهم، وأشفقوا على مدائنهم أن تفتح، فاجتمع من كان بها من الروم ونزلوا من حصونهم، ووافاهم أهل البلد، وكثير من نصارى العرب، فكثر جمعهم، وكتبوا إلى قيصر يستمدونه وهو بأنطاكية، فبعث إلى أولئك الذين كان وجههم مدداً لأهل دمشق فأقاموا ببعلبك لما بلغهم خبر فتحها أن يسيروا إليهم.

وكتب عمرو إلى أبي عبيدة:

أما بعد، فإن الروم قد أعظمت فتح دمشق، فاجتمعوا من نواحي الأردن وفلسطين، فعسكروا وقد تعاقدوا وتواثقوا وتحالفوا بالله: لا يرجعون إلى النساء والأولاد أو يخرجون العرب من بلادهم، والله مكذب أملهم، ومبطل قولهم، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً. فاكتب إليّ برأيك في هذا الحديث، أرشد

(١) الأزدي. فتوح الشام ص ١٠٦ وما بعدها.

الله رأيك وسددك وأدام رشدك، والسلام.

وقدم بهذا الكتاب رسول عمرو، وقد استشار أبو عبيدة أصحابه في المسير بهم إلى//حمص، وقال: إن الله ـ تعالى ـ قد فتح هذه المدينة ـ يعني دمشق ـ وهي من أعظم مدائن الشام، وقد رأيت أن أسير إلى حمص، لعل الله يفتحها علينا، وهذا عمرو بن العاص من ورائنا، فلسنا نتخوف أن نؤتى من هناك. ١٤٧ ب

فقال له خالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، ومعاذ بن جبل ورءوس المسلمين: فإنك قد أصبت ووفقت، فسر بنا إليهم.

فإنهم لكذلك في هذا الرأي إذ قدم عليهم كتاب عمرو الذي تقدم، فلما قرأه أبو عبيدة ألقاه إلى خالد، وقال: قد حدث أمر غير ما كنا فيه، ثم قرأوا الكتاب على من حضرهم، فقال يزيد: أمدد عمراً ومره بمواقعة القوم وأقم أنت بمكانك. فقال أبو عبيدة: ماذا ترى أنت يا خالد؟ قال: أرى أن تنظر ما يصنع هذا الجيش الذي ببعلبك، فإن هم ساروا منها إلى إخوانهم سرت إلى إخوانك فلقيتهم بجماعة المسلمين، وإن هم أقاموا أمددت عمراً، وبعثت إلى هؤلاء من يقاتلهم، وأقمت أنت بمكانك. فقال له: نعم ما رأيت، فسير أبو عبيدة شرحبيل ابن حسنة إلى عمرو، وقال له: لا تخالفه. فخرج شرحبيل في ألفين وثمانمائة، فقدم على عمرو، وعمرو في ألفين وخمسمائة.

وقال أبو عبيدة لخالد: ما لهذا الجيش النازل ببعلبك إلا أنا وأنت أو يزيد. فقال له خالد: لا، بل أنا أسير إليهم. فقال: أنت لهم.

فبعثه أبو عبيدة في خمسة آلاف فارس، وخرج معه يشيعه، فسار معه قليلاً، فقال له خالد: ارجع ـ رحمك الله ـ إلى عسكرك، فقال له: يا خالد، أوصيك بتقوى الله، وإذا أنت لقيت القوم فلا تناظرهم ولا تطاولهم في حصونهم، ولا تذرهم يأكلون ويشربون وينتظرون أن تأتيهم أمدادهم، وإذا لقيتهم فقاتلهم، فإنك إن هزمتهم انقطع رجاؤهم، وإن احتجت إلى مدد فأعلمني حتى يأتيك من المدد حاجتك، وإن احتجت أن آتيك بنفسي أتيتك إن شاء الله. ثم أخذ

بيده فودعه، ثم انصرف عنه.

ويجيء رسول قيصر إلى الذين ببعلبك، فأمرهم باللحاق بأولئك الذين اجتمعوا ببيسان، فخرجوا إليهم، وأخرجوا معهم ناساً كثيراً من أهل بعلبك، وأتاهم ناس كثير من أهل حمص غضباً لدينهم وشفقاً من أن تفتح مدينتهم كما فتحت دمشق، فخرجوا وهم أكثر من عشرين ألفاً متوجهين إلى الجمع الذي ببيسان منهم، وجاء خالد حتى انتهى إلى بعلبك، فأخبر الخبر، فأغار على نواحي بعلبك، فقتل وسبى واستاق من المغانم شيئاً كثيراً، وأقبل راجعاً إلى أبي عبيدة فأخبره، واجتمع رأيهم على أن يسير أبو عبيدة بجماعة الناس إلى ذلك الجمع من الروم، فقدم خالد في ألف وخمسمائة فارس أمامهم، وأمره بالإسراع إلى عمرو وأصحابه ليشد الله بهم ظهورهم، وليرى الروم أن المسلمين قد أتوهم، فأقبل خالد مسرعاً في آثار الروم فلحقهم وقد دخل أوائلهم عسكرهم، فحمل على أخرياتهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وأصاب كثيراً من أثقالهم، وأفلت من أفلت منهم منهزمين حتى دخلوا عسكرهم، وجاء خالد في خيله حتى نزل قريباً من عمرو، ففرح المسلمون بهم، وكان عمرو يصلي بأصحابه الذين كانوا معه، وخالد يصلي بأصحاب الخيل التي أقبل فيها.

* * *

وقعة فحل حسبما في كتب فتوح الشام

قالوا [١] : فلما بلغ الروم أن أبا عبيدة قد أقبل إليهم تحولوا إلى فحل فنزلوا بها ، وجاء المسلمون بأجمعهم حتى نزلوا بهم ، وخرج علقمة بن الأرث فجمع من أطاعه من بني القين ، وجاءت لخم وجذام وعاملة وغسان ، وقبائل من قضاعة ، فدخلوا مع المسلمين ، وأخذ أهل البلد من النصارى يراسلون المسلمين ، فيقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى ، ويقولون : أنتم أحب إلينا من الروم وإن كنتم على غير ديننا ، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا ، فيقول لهم المسلمون : إن هذا ليس بنافعكم عندنا ما لم تعتقدوا منا الذمة ، وإنا إن ظهرنا عليكم كان لنا أن نسبيكم ونستعبدكم ، وإن اعتقدتم منا الذمة سلمتم من ذلك ، فكانوا يتربصون وينتظرون ما يكون من أمر قيصر ، وقد بلغهم أنه بعث إلى أقاصي بلاده ، وإلى كل من كان على دينه ممن حوله ، وأنهم في كل يوم يقدمون عليه ويسقطون إليه ، فهم ينتظرون ما يكون منه ، وهم مع ذلك بموضعهم بين الثلاثين ألفاً والأربعين ألفاً .

وكان المسلمون حيث نزلوا بهم ليس شيء أحب إليهم من معاجلتهم ، وكانوا هم ليس شيء أحب إليهم من مطاولة المسلمين رجاء المدد من صاحبهم ، ولأن المسلمين ليسوا في مثل ما الروم فيه من الخصب والكفاية .

وأقبلت الروم يبثقون المياه بينهم وبين المسلمين ليطاولوهم ، وأقبل المسلمون يخوضون إليهم الماء ويمشون في الوحل ، فلما رأى ذلك الروم ، وأنه لا يمنعهم منهم شيء خرجوا فعسكروا وتيسروا للقتال ، ووطنوا أنفسهم عليه ، وكانوا كل يوم

---

(١) الأزدي . تاريخ فتوح الشام ص ١١١ ـ ١٣٠ .

في زيادة من الأمداد الواصلة إليهم.

فأمر أبو عبيدة المسلمين حيث بلغه ذلك أن يغيروا عليهم وعلى ما حولهم من القرى والسواد والرساتيق، ففعلوا، وقطعوا عنهم بذلك المادة والميرة.

فلما رأى ذلك ابن الجعد أتى أبا عبيدة فصالحه على سواد الأردن، وكتب له كتاباً.

وكان صفوان بن المعطل، ومعن بن يزيد بن الأخنس السلميان قد خرجا في خيل لهما فأغارا، فغنما، فلما انصرفا عرضت لهم الروم فقاتلوهم، وإنما كان المسلمون في نحو من مائة رجل والروم في خمسة آلاف مع درنجار عظيم منهم، فطاردوهم وصبروا لهم، واحتسبوا في قتالهم، ثم إن الروم غلبوهم على غنيمتهم. وجاء حابس بن سعد الطائي في نحو من مائة رجل، فحمل عليهم فزالوا غير بعيد، ثم حملوا عليه فردوه وأصحابه حتى ألحقوهم بالمسلمين، ثم انصرفوا وقد بغوا، وهم يعدون هذا ظفراً، ولم يقتلوا أحداً، ولم يهزموا جمعاً، فلما انصرفوا إلى عسكرهم // أرسلوا إلى أبي عبيدة: أن اخرج أنت ومن معك من بلادنا التي تنبت الحنطة والشعير والفواكه والأعناب، فلستم لها بأهل، وارجعوا إلى بلادكم، بلاد البؤس والشقاء، وإلا أتيناكم فيما لا قبل لكم به، ثم لم ننصرف عنكم وفيكم عين تطرف. ١٤٨ أ

فرد عليهم أبو عبيدة: أما قولكم: أخرجوا من بلادنا فلستم لها بأهل، فلعمري ما كنا لنخرج عنها وقد أورثناها الله ونزعها من أيديكم، وإنما البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، والله ملك الملوك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء. وأما قولكم في بلادنا أنها بلاد البؤس والشقاء، فصدقتم، إنها لكذلك، وقد أبدلنا الله بها بلادكم، بلاد العيش الرفيع والسعر الرخيص والجناب الخصيب، فلا تحسبونا تاركيها ولا منصرفين عنها حتى نفنيكم أو نخرجكم منها، ولكن أقيموا، فوالله لا نجشمكم أن تأتونا، ولنأتينكم إن أنتم أقمتم لنا، فلا نبرح حتى نبيد خضراءكم، ونستأصل شأفتكم إن شاء الله تعالى.

فلما جاءهم ذلك عنهم أيقنوا بجد القوم، فأرسلوا إليهم، أن ابعثوا إلينا رجلاً من صلحائكم نسأله عما تريدون وما تسألون وما تدعون إليه، ونخبره بذات أنفسنا، وندعوكم إلى حظكم إن قبلتم.

فأرسل إليهم أبو عبيدة - معاذ بن جبل، فأتاهم على فرس له، فلما دنا منهم نزل عن فرسه، ثم أخذ بلجامه وأقبل إليهم يقوده، فقالوا لبعض غلمانهم: انطلق إليه فأمسك له فرسه، فجاء الغلام ليفعل، فقال له معاذ: أنا أمسك فرسي، لا أريد أن يمسكه أحد غيري، وأقبل يمشي إليهم، فإذا هم على فرش وبسط ونمارق تكاد الأبصار تغشى منها، فلما دنا من تلك الثياب قام قائماً، فقال له رجل منهم: أعطني هذه الدابة أمسكها لك، وادن أنت فاجلس مع هذه الملوك مجالسهم، فإنه ليس كل أحد يقدر أن يجلس معهم، وقد بلغهم عنك صلاح وفضل فيمن أنت منه، فهم يكرهون أن يكلموك جلوساً وأنت قائم. فقال لهم معاذ، والترجمان يفسر لهم ما يقول: إن نبينا ﷺ أمرنا أن لا نقوم لأحد من خلق الله، ولا يكوّن قيامنا إلا لله في الصلاة والعبادة والرغبة إليه، فليس قيامي هذا لكم، ولكن قمت إعظاماً للمشي على هذه البسط والجلوس على هذه النمارق التي استأثرتم بها على ضعفائكم، وإنما هي من زينة الدنيا وغرورها، وقد زهد الله في الدنيا وذمها، ونهى عن البغي والسرف فيها، فأنا أجلس هاهنا على الأرض، وكلموني أنتم بحاجتكم من ثم، وأقيموا الترجمان بيني وبينكم، يفهمني ما تقولون، ويفهمكم ما أقول، ثم أمسك برأس فرسه وجلس على الأرض عند طرف البساط. فقالوا له: لو دنوت فجلست معنا كان أكرم لك، إن جلوسك مع هذه الملوك على هذه المجالس مكرمة لك، وإن جلوسك على الأرض متنحياً صنيع العبد بنفسه، فلا نراك إلا قد أزريت بنفسك. فلما أخبره الترجمان بمقالتهم جثا على ركبتيه واستقبل القوم بوجهه، وقال للترجمان: قل لهم إن كانت هذه المكرمة التي تدعونني إليها استأثرتم بها على من هو مثلكم إنما هي للدنيا، فلا حاجة لنا في شرف الدنيا ولا في فخرها، وإن زعمتم أن هذه المجالس والدنيا التي في أيدي عظمائكم وهم مستأثرون بها على ضعفائكم مكرمة لمن كانت في يده منكم

عند الله، فهذا خطأ من قولكم، وجور من فعلكم، ولا يدرك ما عند الله بالخطأ، ولا بخلاف ما جاء به الأنبياء عن الله من الزهادة في الدنيا. وأما قولكم إن جلوسي على الأرض متنحياً صنيع العبد بنفسه، ألا فصنيع العبد بنفسه صنعت، أنا عبد من عبيد الله جلست على بساط الله، ولا أستأثر من مال الله بشيء على إخواني من أولياء الله، وأما قولكم أزريت بنفسي في مجلسي، فإن كان ذلك إنما هو عندكم وليس كذلك عند الله، فلست أبالي كيف كانت منزلتي عندكم إذا كنت عند الله على غير ذلك، وإن قلتم أن ذلك عند الله فقد أخطأتم خطأ بيناً، لأن أحب عباد الله إلى الله المتواضعون لله القريبون من عباد الله، الذين لا يشغلون أنفسهم بالدنيا، ولا يدعون التماس نصيبهم من الآخرة.

فلما فسر لهم الترجمان هذا الكلام نظر بعضهم إلى بعض وتعجبوا مما سمعوا منه، وقالوا لترجمانهم: قل له: أنت أفضل أصحابك؟ فلما قال له، قال: معاذ الله أن أقول ذلك، وليتني لا أكون شرهم، فسكتوا عنه ساعة لا يكلمونه، وتكلموا فيما بينهم، فلما رأى ذلك قال لترجمانهم: إن كانت لهم حاجة في كلامي وإلا انصرفت عنهم، فلما أخبرهم قالوا: قل له: أخبرونا ما تطلبون؟ وإلام تدعون؟ ولماذا دخلتم بلادنا وتركتم أرض الحبشة وليسوا منكم ببعيد، وأهل فارس وقد هلك ملكهم وهلك ابنه، وإنما يملكهم اليوم النساء، ونحن ملكنا حي وجنودنا عظيمة، وإن أنتم افتتحتم من مدائننا مدينة أو من قرانا قرية أو من حصوننا حصناً أو هزمتم لنا جنداً أظننتم أنكم ظفرتم بجماعتنا أو قطعتم عنكم حربنا وفرغتم مما وراءنا، ونحن عدد نجوم السماء وحصى الأرض؟ وأخبرونا بم تستحلون قتالنا وأنتم تؤمنون بنبينا وكتابنا؟

فلما قالوا هذا القول وفسره الترجمان لمعاذ، سكتوا، فقال معاذ للترجمان: أقد فرغوا؟ قال: نعم،قال: فأفهم عني، إن أول ما أنا ذاكر: حمداً لله الذي لا إله إلا هو، والصلاة على محمد ﷺ وأول ما أدعوكم إليه أن تؤمنوا بالله وحده، وبمحمد ﷺ وأن تصلوا صلاتنا، وتستقبلوا قبلتنا، وأن تستسنوا بسنة نبينا،

وتكسروا الصليب، وتجتنبوا شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، ثم أنتم منا ونحن منكم، وأنتم إخواننا في ديننا، لكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم، فأدوا الجزية في كل عام إلينا عن يد وأنتم صاغرون، فإن أنتم أبيتم هاتين الخصلتين فليس شيء مما خلق الله نحن قابلوه منكم، فابرزوا إلينا//حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين. فهذا ما نأمركم به وما ندعوكم إليه. ١٤٨ ب

وأما قولكم: ما أدخلكم بلادنا وتركتم أرض الحبشة وليسوا منكم ببعيد، وأهل فارس وقد هلك ملكهم، فإني أخبركم عن ذلك، ما بدأنا بقتالكم أن يكونوا آثر عندنا منكم، إنكم جميعاً لسواء، وما حابيناهم بالكف عنهم إذ بدأنا بكم، ولكن الله ـ تبارك وتعالى ـ أنزل في كتابه على نبينا ﷺ: ﴿يا أيها الذين آمنوا، قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة﴾ (١٢٢ : التوبة)، فكنتم أقرب إلينا منهم، فبدأنا بكم لذلك، ثم لقد أتتهم طائفة منا بعدنا، فإنهم اليوم ليقاتلونهم، وإنا لنرجو أن يعزهم الله ويفتح عليهم، وأما قولكم: إن ملكنا حي، وإن جنودنا عظيمة، وإنا عدد نجوم السماء وحصى الأرض وتؤيسونا من الظهور عليكم، فإن الأمر في ذلك ليس إليكم، وإن الأمور كلها لله، وكل شيء في قبضته وقدرته، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، فإن يكن ملككم هرقل فإنما ملكنا نحن الله ـ تبارك وتعالى ـ وأميرنا رجل منا، إن عمل فينا بكتاب ربنا وسنة نبينا أقررناه، وإن غير عزلناه، ولا يحتجب منا، ولا يتكبر علينا، ولا يستأثر علينا في فيئنا الذي أفاء الله ـ عز وجل ـ علينا، وهو فيه كرجل منا. وأما جنودنا، فإنها وإن عظمت وكثرت حتى تكون أكثر من نجوم السماء وحصى الأرض، فإنا لا نثق بها ولا نتكل عليها، ولكنا نتبرأ من الحول والقوة، ونتوكل على الله ونثق به، وكم من فئة قليلة قد أعزها الله ونصرها وأعانها، وكم من فئة كثيرة قد أذلها الله ـ سبحانه ـ وأهانها، قال الله تبارك وتعالى: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين﴾ (٢٤٩ : البقرة).

وأما قولكم: كيف تستحلون قتالنا وأنتم مؤمنون بنبينا وكتابنا، فأنا أخبركم

عن ذلك: نحن نؤمن بنبيكم، ونشهد أنه عبد من عباد الله ورسول من رسل الله، وأن مثله عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون، ولا نقول: إنه الله، ولا إنه ثاني اثنين ولا ثالث ثلاثة، ولا أن لله ـ عز وجل ـ ولداً ولا صاحبة، ولا أن مع الله آلهة أخرى، لا إله إلا هو، تعالى عما تقولون علواً كبيراً، وأنتم تقولون في عيسى قولاً عظيماً، ولو أنكم قلتم في عيسى كما نقول، وآمنتم بنبوة نبينا ﷺ كما تجدونه في كتابكم، وكما نؤمن نحن بنبيكم، وأقررتم بما جاء به من عند الله، ووحدتم الله، ما قاتلناكم، بل سالمناكم وواليناكم وقاتلنا عدوكم معكم.

فلما فرغ معاذ من مخاطبتهم قالوا له: ما نرى ما بيننا وبينكم إلا متباعداً، وقد بقيت خصلة ونحن عارضوها عليكم، فإن قبلتموها منا فهو خير لكم، وإن أبيتم فهو شر لكم: نعطيكم البلقاء وما والى أرضكم من سواد الأردن، وتتحولون عن بقية أرضنا، وعن مدائننا، ونكتب عليكم كتاباً نسمي فيه خياركم وصلحاءكم، ونأخذ فيه عهودكم ومواثيقكم أن لا تطلبوا من أرضنا غير ما صالحناكم عليه، وعليكم بأهل فارس فقاتلوهم ونحن نعينكم عليهم حتى تقتلوهم أو تظهروا عليهم.

فقال لهم معاذ: هذا الذي تعطوننا هو كله في أيدينا، ولو أعطيتمونا جميع ما في أيديكم مما لم نظهر عليه ومنعتمونا خصلة من الخصال الثلاث التي وصفت لكم ما فعلنا.

فغضبوا، وقالوا: أنتقرب منك وتتباعد منا، اذهب إلى أصحابك، فوالله إنا لنرجو أن نقرنكم غداً في الحبال. فقال معاذ: أما في الحبال فلا، ولكن والله لتقتلننا عن آخرنا أو لنخرجنكم منها أذلة وأنتم صاغرون. ثم انصرف إلى أبي عبيدة فأخبره بما قالوا وما رد عليهم. فإنهم لكذلك إذ بعثوا إلى أبي عبيدة:

إنك بعثت إلينا رجلاً لا يقبل النصف، ولا يريد الصلح، فلا ندري أعن رأيك ذلك أم لا، وإنا نريد أن نبعث إليك رجلاً منا يعرض عليك النصف،

ويدعوك إلى الصلح، فإن قبلت ذلك منه فلعله يكون خيراً لنا ولك، وإن أبيت فلا نراه إلا شراً لك.

فقال لهم أبو عبيدة: ابعثوا من شئتم. فبعثوا إليه رجلاً منهم، طويلاً أحمر أزرق[1]، فلما جاء المسلمين لم يعرف أبا عبيدة من القوم، ولم يدر أفيهم هو أم لا، ولم ير هيبة مكان أمير، فقال: يا معشر العرب، أين أميركم؟ قالوا له: هو ذا، فنظر فإذا هو بأبي عبيدة جالساً على الأرض عليه الدرع، وهو متنكب القوس، وفي يده أسهم يقلبها، فقال له: أنت أمير هؤلاء الناس؟ قال: نعم، قال: فما جلوسك على الأرض؟ أرأيت لو كنت جالساً على وسادة، أو كان تحتك بساط، أكان ذلك واضعك عند الله أو مباعدك من الإحسان؟ فقال أبو عبيدة: إن الله لا يستحيي من الحق، لأصدقنك عما قلت، ما أصبحت أملك ديناراً ولا درهماً، وما أملك إلا فرسي وسلاحي، ولقد احتجت أمس إلى نفقة فلم تكن عندي حتى استقرضت أخي هذا ـ يعني معاذاً ـ نفقة كانت عنده، فأقرضنيها، ولو كان عندي ـ أيضاً ـ بساط أو وسادة ما كنت لأجلس عليه دون أصحابي وأخواني، وأجلس على الأرض أخي المسلم الذي لا أدري لعله عند الله خير مني، ونحن عباد الله نمشي على الأرض، ونأكل على الأرض، ونجلس عليها، ونضطجع عليها، وليس بناقصنا ذلك عند الله شيئاً، بل يعظم الله به أجورنا، ويرفع به درجاتنا. هات حاجتك التي جئت لها.

فقال الرومي: إنه ليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح، ولا أبغض إليه من البغي والفساد، وإنكم قد دخلتم بلادنا فظهر منكم فيها الفساد والبغي، وقل ما بغى قوم وأفسدوا في الأرض إلا عمهم الله بهلاك، وإنا نعرض عليكم أمراً فيه حظ إن قبلتموه: إن شئتم أعطيناكم دينارين دينارين، وثوباً ثوباً، وأعطيناك أنت ألف دينار، ونعطي الأمير الذي فوقك ـ يعنون عمر بن الخطاب ـ ألفي دينار، وتنصرفون عنا، وإن شئتم أعطيناكم البلقاء وما إلى أرضكم من سواد الأردن،

(١) أي أحمر الوجه، أزرق العينين.

وخرجتم من مدائننا وأرضنا، وكتبنا فيما بيننا وبينكم كتاباً يستوثق فيه بعضنا من بعض بالأيمان المغلظة لتقومن بما فيه ولنفين بما عاهدنا الله عليه.

فقال أبو عبيدة: إن الله ـ تعالى ـ بعث فينا رسولاً تنبأه، وأنزل عليه كتاباً حكيماً، وأمره أن يدعو الناس إلى عبادته ـ رحمة منه للعالمين ـ فقال لهم: إن الله إله واحد عزيز حكيم، علي مجيد، وهو خالق كل شيء، وليس كمثله // ١٤٩ أ شيء، فوحدوا الله الذي لا إله إلا هو، ولا تتخذوا معه إلهاً آخر، فإن كل شيء يعبده الناس دونه فهو خلقه، وإذا أتيتم المشركين فادعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله والإقرار بما جاء به من ربه، فمن آمن وصدق فهو أخوكم في دينكم، له ما لكم وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليهم أن يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فإن أبوا أن يؤمنوا أو يـؤدوا الجزية فقاتلوهم، فإن قتيلكم المحتسب بنفسه شهيد عند الله في جنات النعيم، وقتيل عدوكم في النار، فإن قبلتم ما سمعتم فذاكم، وإن أبيتم فابرزوا إلينا حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين.

قال الرومي: فقد أبيتم إلا هذا. فقال أبو عبيدة: نعم. فقال: أما والله على ذلك إني لأراكم ستتمنون أنكم قبلتم منا دون ما عرضنا عليكم. فقال أبو عبيدة: لا والله، لا نقبل هذا منك ولا من غيرك أبداً، فانصرف الرومي رافعاً يديه إلى السماء يقول: اللهم إنا قد أنصفناهم فأبوا، اللهم فانصرنا عليهم.

ووثب أبو عبيدة مكانه، فسار في الناس، وقال: أصبحوا أيها الناس وأنتم تحت راياتكم وعلى مصافكم. فأصبح الناس وخرجوا على تعبئتهم ومصافهم.

وكتب أبو عبيدة إلى عمر:

لعبد الله عمر ـ أمير المؤمنين ـ من أبي عبيدة بن الجراح. سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد. فإن الروم قد أقبلت، فنزلت طائفة منهم فحلا مع أهلها، وقد سارع إليهم أهل البلد ومن كان على دينهم من العرب، وقد أرسلوا إليّ: أن اخرجوا من بلادنا، فإنكم لستم لهذه البلاد التي تنبت الحنطة والشعير والفواكه والأعناب أهلاً، والحقوا ببلادكم، بلاد الشقاء

والبؤس، فإن أنتم لم تفعلوا سرنا إليكم بما لا قبل لكم به، ثم أعطينا الله عهداً أن لا ننصرف عنكم وفيكم عين تطرف، فأرسلت إليهم:

أما قولكم: اخرجوا من بلادنا، فلستم لما تنبت أهلاً، فلعمري ما كنا لنخرج عنها وقد أورثناها الله ـ تعالى ـ ونزعها من أيديكم، وإنما البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، وهو سبحانه ملك الملوك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء.

وأما ما ذكرتم من بلادنا، وزعمتم أنها بلاد البؤس والشقاء، فقد صدقتم، وقد أبدلنا الله بها بلادكم، بلاد العيش الرفيع، والسعر الرخيص، والجناب الخصيب، فلا تحسبونا تاركيها ولا منصرفين عنها، ولكن أقيموا لنا، فوالله لا نجشمكم إتياننا ولنأتينكم إن أقمتم لنا.

وكتبت إليك حين نهضت إليهم متوكلاً على الله، راضياً بقضاء الله، واثقاً بنصر الله، فكفانا الله وإياك كيد كل كائد، وحسد كل حاسد، ونصر الله أهل دينه نصراً عزيزاً، وفتح لهم فتحاً يسيراً، وجعل لهم من لدنه سلطاناً نصيراً، والسلام عليك.

ودفع أبو عبيدة هذا الكتاب إلى نبطي من أنباط الشام، وقال له: ائت به أمير المؤمنين، ثم نهض هو إلى الروم بجماعة المسلمين، فدنا منهم، وتعرضت خيل المسلمين لهم، فلم يخرجوا يومئذ، فانصرف المسلمون عنهم من غير قتال، وتأخر النبطي عن المسير حتى انصرف المسلمون، فذهب عند ذلك بالكتاب. وقد كان أبو عبيدة بعثه أول النهار، فلما قدم على عمر ـ رحمه الله ـ وقرأ كتابه، قال له: ويحك، هل علمت أو بلغت ما كان من أمر المسلمين، فإن أبا عبيدة كتب إليّ يخبرني أنه كتب إليّ حين نهض إلى المشركين؟ فقال له: أصلحك الله، فإني لم أبرح يومئذ حتى رجع المسلمون عنهم، وكانوا زحفوا إليهم، وتعرضت خيلهم لهم، فلم يخرج النصارى إليهم، فانصرف المسلمون إلى عسكرهم، وهم أطيب شيء أنفساً وأحسن شيء حالاً. قال: فأنت ما حبسك ـ يومئذ ـ إلى العشي لم

تقبل بالكتاب وقد دفعه إليك أبو عبيدة أول النهار ؟ قال: ظننت أنك ستسألني عما سألتني عنه الساعة، فأحببت أن يكون عندي علم ما تسألني عنه. قال له عمر: ويحك، ما دينك؟ قال: نصراني، قال: ويحك، أفما يدلك عقلك هذا الذي أرى على أن تسلم، ويحك أسلم فهو خير لك. قال: فقد أسلمت. فقال عمر: الحمد لله الذي يهدي من يشاء إذا يشاء، ثم كتب معه إلى أبي عبيدة بن الجراح:

سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإن كتابك جاءني بنفير الروم إليك، ومنزلهم الذي نزلوا به، ورسالتهم التي أرسلوها، وبالذي رجعت إليهم فيما سألوك، وقد سددت بحجتك، وأوتيت رشدك، فإن أتاكم كتابي هذا وأنتم الغالبون فكثيراً ما يكون من ربنا الإحسان، وإن أتاكم وقد أصابكم نكب أو قرح فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تستكينوا، وأنتم الأعلون، وإنها دار الله، وهو فاتحها عليكم فاصبروا إن الله مع الصابرين، واعلم أنك متى لقيت عدوك فاستعنت بالله عليهم وعلم منك الصدق نصرك عليهم، فقل إذا أنت لقيتهم: اللهم أنت الناصر لدينك، المعز لأوليائك، الناصر لهم قديماً وحديثاً، اللهم فتول نصرهم، وأظهر فلجهم، ولا تكلهم إلى أنفسهم فيعجزوا عنها، وكن أنت الصانع لهم والمدافع عنهم برحمتك، إنك أنت الولي الحميد.

فأقبل الرسول بهذا إلى أبي عبيدة، وكان أبو عبيدة بعد ذلك اليوم الذي زحف فيه إلى الروم فلم يخرجوا إليه ـ سرح إليهم من الغد خالداً في الخيل، ولم يخرج أبو عبيدة يومئذ في الرجالة، فخرجت إلى خالد خيل لهم عظيمة، فأقبلت نحوه، فقال لقيس بن هبيرة ـ وكان من أشد الناس بأساً، وأشده نكاية في العدو، ومباشرة لهم بعد خالد: يا قيس، أخرج إلى هذا الخيل. فخرج إليهم قيس، فحمل عليهم مراراً، وحملوا عليه، فقاتلهم قتالاً شديداً، ثم أقبلت خيل أخرى عظيمة للروم، فقال خالد لميسرة بن مسروق: اخرج إليهم، فخرج ميسرة فقاتلهم قتالاً شديداً، ثم خرجت إليهم من الروم خيل أخرى عظيمة، هي أعظم من الخيلين جميعاً، عليها بطريق عظيم من بطارقتهم، فجاء حتى إذا دنا من خالد، أمر بشطر خيله، فحملت على خالد وأصحابه، فلم يتخلخل أحد منهم،

ثم إنه جمعهم جميعاً، فحمل بهم، فلم يبرح أحد من المسلمين، فلما رأى ذلك الرومي
انصرف// . فقال خالد لأصحابه: إنه لم يبق من جد القوم ولا حدهم ولا قسوتهم ١٤٩ ب
إلا ما قد رأيتم، فاحملوا معي يا أهل الإسلام حملة واحدة وأتبعوهم ولا تقلعوا
عنهم ـ رحمكم الله. ثم حمل عليهم خالد بمن معه، فكشف من يليه منهم، وحمل
قيس بن هبيرة على الذين كانوا يلونه فهزمهم وكشفهم، وحمل ميسرة على الذين
كانوا يلونه، فهزمهم، وأتبعهم المسلمون يقتلونهم ويقصفون بعضهم على بعض،
حتى اضطروهم إلى عسكرهم وقد رأوا ما أصابهم، فانكسروا ووهنوا وهابوا
المسلمين هيبة شديدة، وانصرف المسلمون إلى عسكرهم وقد قرت أعينهم،
واجتمعوا إلى أبي عبيدة وهم مسرورون بما أراهم الله في عدوهم من عونه لهم
عليهم فقال له خالد: إن هزيمتنا خيل المشركين قد دخل رعبها قلوب جماعتهم،
فكلهم قلبه مرعوب متخوف لمثلها منا مرة أخرى، فناهض القوم غداً بالغداة ما
دام رعب هذه الهزيمة في قلوبهم، فإنك إن أخرت قتالهم أياماً ذهب رعبها من
قلوبهم واجترؤوا علينا.

قال أبو عبيدة: فانهضوا على بركة الله غداً بالغداة.

قال عمرو بن مالك القيسي: ولم يكن شيء أحب إلى الروم من التطويل
ودفع الحرب، انتظاراً لمدد، ولا شيء أحب إلى المسلمين من المناجزة وتعجيل
الفراغ.

وقال عبد الله بن قرط: لما كانت الليلة التي خرجنا في صبيحتها إلى أهل
فحل، خرج إلينا أبو عبيدة في الثلث الباقي من الليل، فلم يزل يعبىء الناس
ويحرضهم حتى إذا أصبح صلى بالناس، فكان إلى التغليس أقرب منه إلى
التنوير، ثم إنه جعل على ميمنته معاذ بن جبل، وعلى ميسرته هاشم بن عتبة،
وعلى الرجالة سعيد بن زيد، وعلى الخيل خالد بن الوليد، ثم زحف أبو عبيدة
بالناس، وأخذوا يزفون زفاً رويداً على رسلهم.

وركب أبو عبيدة فاستعرض الصف من أوله إلى آخره، يقف على كل راية، وكل قبيلة، ويقول: عباد الله، استوجبوا من الله النصر بالصبر، فإن الله مع الصابرين، عباد الله، ليبشر من قتل منكم بالشهادة، ومن بقي بالنصر والغنيمة، ولكن وطنوا أنفسكم على القتال والطعن بالرماح، والضرب بالسيوف، والرمي بالنبل، ومعانقة الأقران، فإنه والله ما يدرك ما عند الله إلا بطاعته والصبر في المواطن المكروهة التماس رضوانه.

وتقدم خالد في الخيل حتى أطل على الروم، فلما رأوه خرجوا إليه في الخيل والرجل جميعاً، وقالوا: إن العرب أفرس على الخيل منا، وخيلنا لا تكاد تثبت لخيلهم، فاخرجوا إليهم في الخيل والرجال، وكان خالد قد هزم خيلهم بالأمس، فكان ذلك - أيضاً - مما حملهم على الخروج على هذه التعبئة، خرجوا وهم خمسة صفوف، فأول صف من صفوفهم جعلوا فيه الفارس بين راجلين: رامح وناشب، وجعلوا صفاً من الخيل وراء هذا الصف، وجعلوا له مجنبتين، ثم صفوا ثلاثة صفوف أخر رجالاً كلهم، ثم أقبلوا نحو المسلمين، وهم نحو خمسين ألفاً، فكان أول من لقيهم خالد بن الوليد في الخيل، فأخذ لا يجد عليهم مقدماً، وأخذوا يزحفون إليه ويرشقونه بالنشاب، وجعل ينكص هو وأصحابه وراءهم، وأخذت الروم تقدم عليهم وهم يتأخرون، حتى انتهوا إلى صفهم، ودافعت أعجاز كثير من خيلهم صدور رجالهم، ثم إن خالداً بعث إلى قيس بن هبيرة: أن اخرج في خيلك حتى تأتي ميسرتهم فتحمل عليها، وقال لميسرة بن مسروق: قف قبالة صفهم في خيلك، وضمها إليك كتيبة واحدة، فإذا رأيتنا قد حملنا وانتقض صفهم فاحمل على من يليك منهم.

وكان خالد قسم خيله أثلاثاً، فجعل للمرادي - قيس بن هبيرة - ثلثها، ولميسرة بن مسروق العبسي ثلثها، وكان هو في ثلثها، فخرج خالد في ثلث الخيل التي معه حتى انتهى إلى ميمنتهم، فعلاها، حتى إذا ارتفع عليهم أخرجوا إليه خيلاً لهم، كيما تشغله وأصحابه، فلما دنت منه، قال: الله أكبر، الله أخرجهم

لكم من رجالتهم، شدوا عليهم، ثم استعرضهم فشد عليهم، وشد معه أصحابه بجماعة خيلهم، فهزمهم الله، ووضعوا السلاح والسيوف فيهم حيث شاءوا، فصرعوا منهم أكثر من سبعين قبل أن ينتهوا إلى ميمنتهم، وارتفع قيس بن هبيرة إلى ميسرتهم، فأخرجوا إليه خيلاً كما صنعوا بخالد، فحمل عليهم قيس، فهزمهم وضربهم حتى انتهى إلى ميسرتهم، وقتل منهم بشر كثير، وقتلى عظيمة، وكان واثلة بن الأسقع في خيل قيس بن هبيرة، فخرج له بطريق من كبارهم، فبرز له واثلة وهو يقول في حملته:

ليث وليث في مجال ضنك ‌‌ ‌‌ كلاهما ذو أَنَفٍ ومعك[1]
أجول جول صارم في العرْك ‌‌ ‌‌ أو يكشف الله قناع الشك
مَعْ ظفري بحاجتي ودركي

(الرجز)

ثم حمل على البطريق فضربه ضربة قتله بها، وحملوا بأجمعهم حتى اضطروا الروم إلى عسكرهم، ووقفوا بإزائهم.

قال هاشم بن عتبة[2] ـ رحمه الله: والله لقد كنا أشفقنا ـ يومئذ ـ على خيلنا أول النهار، ثم أحسن الله، فما هو إلا أن رأينا خيلنا قد نصرها الله على خيلهم، فدعوت الناس إليّ وأمرتهم بتقوى الله، ثم نزلت، فهززت رايتي، ثم قلت: والله لا أردها حتى أركزها في صفهم، فمن شاء فليتبعني، ومن شاء فليتخلف عني، قال: فوالذي لا إله غيره، ما أعلم أن أحداً من أصحاب رايتي تخلف عني، حتى انتهيت إلى صفهم، فنضحونا بالنشاب، فجثونا على الركب واتقيناهم بالدرق، ثم ثرت بلوائي وقلت لأصحابي: شدوا عليهم أنا فداؤكم، فإنها غنيمة الدنيا

---

(١) المعك: الرمي في التراب.

(٢) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

والآخرة، فشددت وشدوا معي، فأستقبل عظماً منهم قد أقبل نحوي فأوجزه الرمح، فخر ميتاً، وضاربناهم بالسيوف ساعة في صفهم، وحمل عليهم خالد من قبل ميسرتهم فقتلهم قتلاً ذريعاً، وانتقضت صفوفهم من قبل خالد ومن قبلي، ونهد إليهم أبو عبيدة بالناس، وأمر الخيل التي كانت تليه من خيل خالد، فحملت عليهم، فكانت هزيمتهم.

وقال عمرو بن مالك القيني[1] عن أبيه: كان منا رجل له فينا منزلة وحال حسنة، قال: فقلت في نفسي: قد بلغني أن صاحب العرب هذا ـ يعني أبا عبيدة ـ رجل صدق، فوالله لآتينه فلأصحبنه ولأتعلمن منه. قال: فكنت آتيه وأخرج معه إذا خرج إلى // عسكره، فلما كان ذلك اليوم أقبل حتى كان إلى جنب أبي عبيدة، فألظ[2] به لا يفارقه، قال: فوالله لرأيته يقص علينا، ويقول: كونوا عباد الله أولياء الله، وارغبوا فيما عند الله أشد من رغبتكم في الدنيا، ولا تواكلوا فتخاذلوا، وليغن كل رجل منكم قرنه، وأقدموا إقدام من يريد بإقدامه ثواب الله، ولا يكن من لقيكم من عدوكم أصبر على باطلهم منكم على حقكم، ثم نهض يمشي إليهم، ونهض المسلمون معه تحت راياتهم ببصيرة وسكينة ودعة وحسن رعة، وحمل قيس بن هبيرة على الروم من قبل ميسرتهم، فقصف بعضهم على بعض. ١٥٠ أ

وعن يحي بن هانيء المرادي[3]: أن قيساً قطع يومئذ ثلاثة أسياف، وكسر بضعة عشر رمحاً، وكان يقاتل ويقول:

لا يبعدن كلُّ فتًى كرارِ	ماضي الجَنان شاحبٍ صبَّارِ
حين تهم الخيل بالإدبارِ	يُقْدِمُ إقدامَ الشجاع الضاري

(الرجز)

---

(١) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٢) ألظ به: لازمه لا يفارقه.

(٣) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ١٣٥.

وقال سالم بن ربيعة[1]: حمل ميسرة بن مسروق ـ يومئذ ـ ونحن معه في الخيل، فحملنا على القلب وقد أخذ صف الروم ينتقض من قبل ميسرتهم وميمنتهم، ولم ينته الانتقاض إلى القلب بعد، فثبتوا لنا، وقاتلونا قتالاً شديداً، فصرع ميسرة عن فرسه، وصرعت معه، وجرح فرسي فعار، ويعتنق ميسرة رجلاً من الروم، فاعتركا ساعة، فقتله ميسرة، ثم شد عليه آخر وقد أعي ميسرة، فاعتركا ساعة، فصرعه الرومي وجلس على صدره، وأشُدُّ عليه، فأضربُ وجه الرومي بالسيف، فأطرت قحفه، فوقع ميتاً، ووثب ميسرة وانبرى إليّ رجل منهم، فضربني ضربة دِيَر لي منها، ويضربه ميسرة فيصرعه، وركبنا منهم عدد كثير، فأحاطوا بنا، وظننا والله أنه الهلاك، إذ نظرنا فإذا نحن نسمع نداء المسلمين وتكبيرهم، وإذا صفوفهم قد انتهت إلينا، وراياتهم قد غشيتنا، فكبرنا، واشتدت ظهورنا، فانقشع الروم عنا، وحمل عليهم خالد من قبل ميمنتهم، فدق بعضهم على بعض حتى دخلوا عسكرهم.

وعن نوفل بن مساحق[2]، (عن أبيه): أن خالداً قاتل ـ يومئذ ـ قتالاً شديداً ما قاتل مثله أحد من المسلمين، وما كان إلا حديثاً ومثلاً لمن حضره، ولقد كان يستعرض صفوفهم وجماعتهم، فيحمل عليهم حتى يخالطهم، ثم يجالدهم حتى يفرقهم، ويهزمهم، ويكثر القتل فيهم.

قال: ولقد سمعت من يزعم أنه قتل في ذلك اليوم أحد عشر رجلاً من الروم من بطارقتهم وأشدائهم وأهل الشجاعة منهم، وكان يقاتلهم ويقول:

أضربهم بصارم مهنَّدِ ضرْبَ صليبِ الدين هاد مهتدِ
لا واهن الحول ولا مُفَنَّدِ

(الراجز)

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٥ ـ ١٣٦.
(٢) نفسه ص ١٣٦.

وعن سهل بن سعد قال[1]: كان معاذ بن جبل يومئذ من أشد الناس بأساً، وكان يقول: يا أهل الإسلام، إن هذا اليوم لما بعده من الأيام، غضوا أبصاركم - رحمكم الله - وأقدموا إقدام الأسد على عدوكم، ولا تفارقوا راياتكم، ولا تزولوا عن مصافكم، وسوقوهم سوقاً عنيفاً، ولا تشاغلوا عنهم بغنائمهم، ولا بما في عسكرهم، فإني أخاف أن يكون لهم عليكم عطفة فلا تقوم لكم بعدها قائمة إن تفرقتم وشغلتكم غنائمهم، فاطلبوهم حتى لا تروا لهم جمعاً ولا صفاً.

فمضى المسلمون كما وصف لهم على راياتهم وصفوفهم يقدمون عليهم، وجعلت صفوف الروم تنتقض وتدبر، وخيل المسلمين تكردهم وتقتلهم، وتحمل عليهم، ولا تقلع عنهم، فقتلوا منهم في المعركة نحواً من خمسة آلاف، وقتلوا في عسكرهم حيث دخلوا نحواً من ألفين، وخرجوا عباديد منهزمين، وخيل المسلمين تتبعهم وتقتلهم حتى اقتحموا في فحل، وفِحل مطلة على أهوية تحتها الماء، فتحصنوا فيها، وأصاب المسلمون منهم نحواً من ألفي أسير، فقتلهم المسلمون، وأقبل أبو عبيدة حتى دخل عسكرهم وحوى ما فيه.

وقال عبد الله بن قرط الثمالي[2]: مررت يومئذ بعمرو بن سعيد بن العاص قبل هزيمة المشركين، ومعه رجال من المسلمين، سبعة أو ثمانية، وإنه لأمامهم نحو العدو، وإنه ليقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله، ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ (١٥ - ١٦: الأنفال)، ثم يقول: لكن الجنة والله نعم المصير، ولمن؟ هي هي والله لمن شرى نفسه اليوم لله، وقاتل في سبيل الله، ثم يقول: إليّ يا أهل الإسلام، أنا عمرو بن سعيد بن العاص، لا تفروا، فإن الله يراكم، ومن يره الله يفر عن نصر دينه يمقته، فاستحيوا من الله ربكم أن يراكم تطيعون أبغض خلقه اليه، وهو الشيطان الرجيم، وتعصونه

(١) المصدر السابق ص ١٣٦ - ١٣٧، مع ملاحظة وجود سقط في المطبوعة.

(٢) نفسه ص ١٣٧ - ١٣٨، مع ملاحظة وجود سقط في المطبوعة، تكشف عنه رواية البلنسي عن الأزدي في هذا الموضع.

وهو الرحمن الرحيم.

قال عبد الله بن قرط، وقد كان العدو حمل علينا حملة منكرة، فرقت بيني وبين أصحابي، فانتهيت إلى عمرو وهو يقول هذا القول، فقلت في نفسي: والله ما أنا بواجد اليوم في هذا العسكر رجلاً أقدم صحبة ولا أقرب قرابة من رسول الله ﷺ من هذا الرجل، فدنوت منه ومعي الرمح، وقد أحاطت به من الروم جماعة، فحملت عليهم، فأصرع أحدهم، ثم أقبلت اليه، فوقفت معه، ثم قلت، يا ابن أبي أحيحة، أتعرفني؟ فقال لي: نعم يا أخا ثقيف، فقلت له: لم تبعد، هم الأخوان والجيران والحلفاء، ولكني أخو ثمالة، عبد الله بن قرط. فقال لي: مرحباً بك أنت أخي في الإسلام، وهو أقرب النسب، أما والله لئن استشهدت وكفى بالله شهيداً لأشهدن لك، ولئن شفعت لأشفعن لك. قال: فنظرت إلى وجهه، فإذا هو مضروب على حاجبه بالسيف، وإذا الدم قد ملأ عينيه، وإذا هو لا يستطيع أن يطرف ولا يفتح عينيه من الدم، فقلت له: أبشر بخير، فإن الله معافيك من هذه الضربة، ومنزل النصر على الإسلام. قال: أما النصر لأهل الإسلام، فأنزل الله فعجل، وأما أنا، فجعل الله لي هذه الضربة شهادة وأهدى إليّ أخرى مثلها، فوالله ما أحب أنها بعرض أبي قبيس، ووالله لولا أن يقتل ١٥٠ ب بعض من حولي لأقدمت // على هذا العدو حتى ألحق بربي، يا أخي إن ثواب الشهادة عظيم، وإن الدنيا قل ما يسلم منها أهلها.

قال: فما كان بأسرع من أن شد علينا منهم جماعة، فمشى إليهم بسيفه، فضاربهم ساعة وهو أمام الناس، وثار بينهم الغبار، فشددنا عليهم، فصرعنا منهم عدة، وإذا نحن بعمرو بن سعيد صريعاً، وإذا هو قد بضع وبه أكثر من ثلاثين ضربة، وكانوا حنقوا عليه وحردوا لما رأوا من شدة قتاله، فقطعوه بأسيافهم - يرحمه الله.

وقتل - أيضاً - هناك من قريش من بني سهم: سعيد بن عمرو، وسعيد بن الحارث بن قيس، والحارث بن الحارث، وغلب المسلمون على الأرض

واحتووها، وصار من بقي من العدو في الحصن، وقد قتل الله منهم مقتلة عظيمة، فأقام المسلمون على الحصن وقد غلبوا على سواد الأردن وأرضها وكل ما فيها، وطلبوهم بالنزول إليهم، على أن يؤمنوهم، فأبوا، وذلك أنه بلغهم أن ملك الروم بعث إليهم رجلاً من غسان يقال له: المنذر بن عمرو، فجاء في جمع عظيم من الروم يمد أهل فحل، فلم يبلغهم حتى هزمهم الله وأذلهم، فكان أراد أن يجيء حتى يدخل معهم حصنهم.

وكانت طائفة قد جاءوا بعد وقعة فحل بيوم، فقال خالد: ما أظن هؤلاء ينبغي لنا أن نعطيهم أنصباء قوم قاتلوا على هذا الفيء وغلبوا عليه. فقال علقمة ابن الأرث القيسي: لم أصلحك الله لا تجعلهم شركاءنا وقد جاءوا بعيالهم يسيرون ويغدون ويروحون لينصروا الإسلام ويجاهدوا في سبيل الله؟ أفإن المسلمون سبقوهم بساعة من النهار لا يشركونهم وهم أخوانهم وأنصارهم؟ فقال خالد: ننظر، قال أبو عبيدة: ما نرى إلا أن نشركهم.

فلما بلغ قضاعة أن المنذر بن عمرو قد دخل بطن الأردن، جاء علقمة بن الأرث إلي أبي عبيدة، فقال: إن المنذر بن عمرو قد نزل بطن الأردن، أفلا تبعث إليه المسلمين؟ فقال: دعه حتى يدنو. فقال: أصلحك الله، ابعث معي خيلاً فأنا أكفيكه. فقال: لا، لا تقربنه، لست آذن لك، دعه حتى يدنو، فخرج إلى أصحابه فقال لمن لم يشهد الوقعة منهم، ولمن شهدها، ولهم خيل وقوة: اخرجوا بنا حتى نلقى المنذر بن عمرو، فإني أرجو أن نصادمه مغتراً فنقتله، فنذهب إن شاء الله بأجرها وشرف ذكرها، فتابعوه، فأقبل حتى إذا دنا من عسكر المنذر ابن عمرو، حمل الخيل عليهم من جانب العسكر وهم غازون، فهزمهم، وأتبعهم الخيل تثفنهم وتقتلهم في كل جانب، وأغارت رجالته في العسكر فاحتووا ما فيه، ولحق علقمة بالمنذر فجاراه ساعة حتى دنا منه، فطعنه وقتله، وأخذ فرسه ورجع إلى أبي عبيدة وقد جاءه خبره، فقال له أبو عبيدة: إني لأكره أن لا ألومك وقد عصيتني، وإني لأكره أن ألومك وقد فتح الله عليك، ورأى أبو عبيدة أن يسهم لهم مع المسلمين، فقاسموهم ما كان في عسكر المنذر، فلم يصيبوا منها إلا اليسير.

وكتب ابو عبيدة إلى عمر - رحمها الله[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله عمر - أمير المؤمنين - من أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فالحمد لله الذي أنزل على المسلمين نصره، وعلى الكافرين رجزه، أخبر أمير المؤمنين - أصلحه الله - أنا لقينا الروم وقد جمعوا لنا الجموع العظام، فجاءونا من رءوس الجبال وأسياف البحار، يرون أن لا غالب لهم من الناس، فبرزوا إلينا، وبغوا علينا، وتوكلنا على الله - تعالى - ورفعنا رغبتنا إلى الله، وقلنا حسبنا الله ونعم الوكيل، فنهضنا إليهم بخيلنا ورجلنا، وكان القتال بين الفريقين ملياً من النهار، أهدى الله فيه الشهادة لرجال من المسلمين - رحمهم الله - منهم: عمرو بن سعيد بن العاص، وضرب الله وجوه المشركين، وأتبعهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم، حتى اعتصموا بحصنهم، وانتهب المسلمون عسكرهم، وغلبوا على بلادهم، وأنزلهم الله من صياصيهم، وقذف الرعب في قلوبهم فاحمد الله يا أمير المؤمنين أنت ومن قبلك من المسلمين على إعزاز الدين وإظهار الفلج على المشركين، وادع الله لنا بتمام النعمة، والسلام عليك.

ولما رأى أهل فحل أن أرض الأردن قد غلب عليها المسلمون سألوا الصلح على أن يعفي لهم عن أنفسهم، وأن يؤدوا الجزية، ومن كان فيهم من الروم إن أحب لحق بالروم وخلي بلاد الأردن، وإن أحب أن يقيم ويؤدي الجزية أقام، فصالحهم المسلمون وكتبوا لهم كتاباً. وخرج منهم من كان أقبل من الروم في تلك السنة، وتبقى معهم من كان تبنبك قبل ذلك بالبلد، واتخذ الضياع، وتزوج بها، وولد له فيها، فأقاموا على أن يؤدوا الجزية هم وسائر من كان معهم في الحصن.

وأما من عداهم من أهل الأردن أهل الأرض والقرى، فاختلف فيهم

---

(1) النص منقول عن الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ١٣٩ - ١٤٠.

المسلمون، لأخذهم ذلك عنوة، وغلبتهم عليه بغير صلح، فقالت طائفة: نقتسمهم، وقالت طائفة: نتركهم، فكتب أبو عبيدة إلى عمر:

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإن الله جل ثناؤه ذا المن والفضل والنعم العظام فتح على المسلمين أرض الأردن، فرأت طائفة من المسلمين أن يقروا أهلها، على أن يؤدوا الجزية إليهم، ويكونوا عمار الأرض، ورأت طائفة أن يقتسموهم، فاكتب إلينا يا أمير المؤمنين برأيك في ذلك، أدام الله لك التوفيق في جميع الأمور، والسلام.

فكتب إليه عمر:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر ـ أمير المؤمنين ـ إلى أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فقد بلغني كتابك تذكر إعزاز الله أهل دينه، وخذلانه أهل عدوانه، وكفايته إيانا مؤنة من عادانا، فالحمد لله على إحسانه فيما مضى، وحسن صنيعه فيما غبر، الذي عافى جماعة المسلمين، وأكرم بالشهادة فريقاً من المؤمنين، فهنيئاً لهم رضا ربهم، وكرامته إياهم، ونسأل الله أن لا يحرمنا أجرهم، ولا يفتنا بعدهم، فقد نصحوا الله وقضوا ما عليهم، ولربهم كانوا يحفدون، ولأنفسهم كانوا يمهدون، وقد فهمت ما ذكرت // من أمر الأرض التي ظهر عليها وعلى أهلها المسلمون، فقالت طائفة: نقر أهلها، على أن يؤدوا الجزية للمسلمين، ويكونوا للأرض عماراً. ورأت طائفة أن يقتسموهم، وإني نظرت فيما كتبت فيه، ففرق لي من الرأي فيما سألتني عنه أني رأيت أن تقرهم، وتجعل الجزية عليهم، وتقسمها بين المسلمين، ويكونوا للأرض عماراً، فهم أعلم بها وأقوى عليها، أرأيتم لو أنا أخذنا أهلها فاقتسمناهم، من كان يكون لمن يأتي بعدنا من المسلمين؟ والله ما كانوا ليجدوا إنساناً يكلمونه، ولا ينتفعون بشيء من ذات يده، وإن هؤلاء يأكلهم المسلمون ما داموا أحياء، فإذا هلكنا وهلكوا أكل أبناؤنا أبناءهم أبداً ما بقوا، وكانوا عبيداً لأهل الإسلام ما دام دين الإسلام ظاهراً، فضع عليهم الجزية، وكف عنهم السباء، وامنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم وأكل أموالهم إلا

١٥١ أ

بحقها، والسلام عليك.

فلما جاء أبا عبيدة هذا الرأي من عمر عمل به، وكان رأيه ورأي عمر في ذلك واحداً.

وقال علقمة بن الأرث القيني في يوم فحل:

ونحن قتلنا كل وافٍ سِبالُهُ ... من الروم معروف النجار مُنطَّق
نطلق بالبيض الرقاق نساءهم[1] ... وأبنا إلى أزواجنا لم تُطَلَّقِ
نُصَرِّعُهم في كل فج وغائط ... كأنهُمُ بالقاعِ مِعْزَى المُحَلِّقِ
فكم من قتيل أوهطَتْهُ سيوفُنا ... كفاحاً وكفٌّ قد أطارت وأسْوُقِ[2]

(الطويل)

***

(١) في الأزدي: فطلق الحنا بالرماح نساؤهم.

(٢) الخبر منقول عن الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ١٣٨ - ١٤٢.

فتح حمص فيما حكاه أصحاب فتوح الشام

عن محرز بن أسد الباهلي قال[1]: دعا أبو عبيدة رءوس المسلمين وفرسان العرب الذين معه،فجمعنا بعدما ظهرنا على فحل وفرغنا من الأردن وأرضها، وقد تحصن منا أهل إيلياء، واجتمعت بقيسارية جموع عظام مع أهلها، وأهلها لم يزالوا كثيراً، فقال أبو عبيدة: يا أهل الإسلام، إن الله قد أحسن إليكم وألبسكم عافية مجللة وأمناً واسعاً، وأظهركم على بطارقة الروم، وفتح لكم الحصون والقلاع والقرى والمدائن، وجعلكم لهذه الدار ـ دار الملوك ـ أرباباً، وجعلها لكم منزلاً، وقد كنت أردت النهوض بكم إلى أهل إيلياء وأهل قيسارية، فكرهت أن آتيهم وهم في جوف مدينتهم متحرزون متحصنون، ولم آمن أن يأتيهم مدد من جندهم، وأنا نازل عليهم قد حبست نفسي لهم عن افتتاخ الأرض، ولم أدر لعل من في طاعتي إذا رأوني قد شغلت نفسي بهم أن يرجعوا إليهم، وأن ينقضوا العهد الذي بيني وبينهم، فرأيت أن أسير إلى دمشق، ثم أسير في أرضها إلى من لم يدخل طاعتي منهم، ثم أسير إلى حمص، فإن قدرنا عليها، وإلا تركناها ولا نقيم عليها أكثرمن يوم الأربعاء والخميس والجمعة، ثم ندنو من ملك الروم وننظر ما يريد بمكانه الذي هو به، فإن الله نفاه عن مكانه ذلك لم تبق بالشام قرية ولا مدينة إلا سالمت وصالحت وأعطت الجزية ودخلت في الطاعة.

فقال المسلمون جميعاً: فنعم الرأي رأيك، فأمضه وسر بنا إذا بدا لك.

---

(١) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ١٤٣ ـ ١٤٨.

فدعا خالداً ـ وكان لكل ملمة ولكل شدة ـ فقال له: سر ـ رحمك الله ـ في الخيل. فخرج فيها، وخلف عمرو بن العاص في أرض الأردن، وفي طائفة من أرض فلسطين مما يلي أرض العرب، وجاء خالد حتى تولى أرض دمشق، فاستقبله الذين كانوا صالحوا المسلمين.

ثم إن أبا عبيدة جاء من الغد، فخرجوا ـ أيضاً ـ فاستقبلوه بما يحب، فلبث يومين أو ثلاثة، ثم أمر خالداً فسار حتى بلغ بعلبك وأرض البقاع، فغلب على أرض البقاع، وأقبل قبل بعلبك حتى نزل عليها، فخرج إليه منها رجل، فأرسل إليهم فرساناً من المسلمين نحواً من خمسين، فيهم ملحان بن زياد الطائي، وقنان ابن دارم العبسي [١]، فحملوا عليهم حتى أقحموهم الحصن. فلما رأوا ذلك بعثوا في طلب الصلح، فأعطاهم ذلك أبو عبيدة، وكتب لهم كتاباً.

ثم إنه خرج نحو حمص، فجمع له أهلها جمعاً عظيماً، ثم استقبلوه بجوسية [٢]، فرماهم بخالد بن الوليد، فلما نظر اليهم خالد قال: يا أهل الإسلام، الشدة، الشدة. ثم حمل عليهم خالد، وحمل المسلمون معه، فولوا منهزمين حتى دخلوا مدينتهم، وبعث خالد ميسرة بن مسروق فاستقبل خيلاً لهم عظيمة عند نهير قريب من حمص، فطاردهم قليلاً ثم حمل عليهم، فهزمهم، وأقبل رجل من المسلمين من حمير يقال له شرحبيل، فعرض له منهم فوارس، فحمل عليهم وحده، فقتل منهم سبعة، ثم جاء إلى نهر دون حمص مما يلي دير مسحل [٣] فنزل عن فرسه فسقاه، وجاء نحو من ثلاثين فارساً من أهل حمص فنظروا إلى رجل واحد، فأقبلوا نحوه، فلما رأى ذلك أقحم فرسه وعبر الماء إليهم، ثم ضرب فرسه فحمل عليهم، فقتل أول فارس، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم الرابع، ثم الخامس، ثم

---

(١) في الأزدي: وبنان بن حازم القيسي.

(٢) في الأصل: بجويبية، والتصويب من الأزدي، وجوسية بالضم ثم السكون وكسر السين المهملة وياء خفيفة، قرية من قرى حمص على ستة فراسخ منها من جهة دمشق ـ ياقوت. معجم البلدان ج٢ ص ١٨٥.

(٣) موضع بين حمص وبعلبك ـ نفسه ج٢ ص ٥٣٨.

انهزموا وتبعهم وحده، فلم يزل يقتل واحداً واحداً حتى انتهوا إلى دير مسحل وقد صرع منهم أحد عشر رجلاً، فاقتحموا جوف الدير واقتحم معهم، فرماه أهل الدير بالحجارة حتى قتلوه - رحمه الله.

وجاء ملحان بن زياد وعبد الله بن قرط وصفوان بن المعطل إلى المدينة، فأخذوا يطيفون بها يريدون أن يخرج إليهم أهلها، فلم يخرجوا. وجاء المسلمون حتى نزلوا على باب الرستن[1]، فزعم النضر بن شفي أن رجلاً من آل ذي الكلاع كان أول من دخل مدينة حمص، وذلك أنه حمل من جهة باب الشرقي فلم يرد وجهه شيء، فإذا هو في جوف المدينة، فلما رأى ذلك ضرب فرسه فخرج كما هو على وجهه ولا يرى إلا أنه قد هلك، حتى خرج من باب الرستن، فإذا هو في عسكر المسلمين.

وحاصر المسلمون أهل حمص حصاراً شديداً، فأخذوا يقولون للمسلمين: اذهبوا نحو الملك، فإن ظفرتم به فنحن كلنا لكم عبيد. فأقام أبو عبيدة على باب الرستن بالناس، وبث الخيل في نواحي أرضهم، فأصابوا غنائم كثيرة وقطعوا عنهم المادة والميرة، واشتد عليهم الحصار، وخشوا السباء فأرسلوا إلى المسلمين يطلبون الصلح، فصالحهم المسلمون وكتبوا لهم كتاباً // بالأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وعلى أن يضيفوا المسلمين يوماً وليلة، وعلى أن على أرض حمص مائة ألف دينار وسبعين ألف دينار، وفرغوا من الصلح، وفتحوا باب المدينة للمسلمين، فدخلوها وأمن بعضهم بعضاً.

١٥١ ب

وكتب أبو عبيدة إلى عمر - رضي الله عنهما:

بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله عمر - أمير المؤمنين - من أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.

---

(١) الرستن: بفتح أوله وسكون ثانيه. بليدة قديمة كانت على نهر المياس (العاصي)، بين حماة وحمص، في نصف الطريق - المصدر السابق ج٣ ص ٤٣.

أما بعد، فأحمد الله الذي أفاء علينا وعليك يا أمير المؤمنين أفضل كورة بالشام، أكثرها أهلاً وقلاعاً وجمعاً وخراجاً، وأكبتهم للمشركين كبتاً، وأيسره على المسلمين فتحاً. أخبرك يا أمير المؤمنين ـ أصلحك الله ـ أنا قدمنا بلاد حمص وبها من المشركين عدد كثير، والمسلمون يزفون إليهم ببأس شديد، فلما دخلنا بلادهم ألقى الله الرعب في قلوبهم، ووهن كيدهم، وقلم أظفارهم، فسألونا الصلح وأذعنوا بأداء الخراج، فقبلنا منهم وكففنا عنهم، ففتحوا لنا الحصون واكتتبوا منا الأمان، وقد وجهنا الخيول إلى الناحية التي بها ملكهم وجنوده.

نسأل الله ملك الملوك وناصر الجنود أن يعز المسلمين بنصره، وأن يُسْلِمَ المشركَ الخاطىء بذنبه، والسلام عليك.

فكتب إليه عمر:

أما بعد، فقد بلغني كتابك تأمرني فيه بحمد الله على ما أفاء علينا من الأرض وفتح علينا من القلاع ومكن لنا في البلاد وصنع لنا ولكم وأبلانا وإياكم من حسن البلاء، فالحمد لله على ذلك حمداً كثيراً ليس له نفاد ولا يحصى له تعداد، وذكرت أنك وجهت الخيول نحو البلاد التي فيها ملك الروم وجموعهم، فلا تفعل، ابعث إلي خيلك فأضممها إليك وأقم حتى يمضي هذا الحول ونرى من رأينا. ونستعين الله ذا الجلال والإكرام على جميع أمرنا، والسلام عليك.

فلما أتى أبا عبيدة الكتاب دعا رءوس المسلمين، فقال لهم: إني قد كنت قدمت ميسرة بن مسروق إلى ناحية حلب وأنا أريد الإقدام والغارة على ما دون الدرب من أرض الروم، وكتبت بذلك إلى أمير المؤمنين، فكتب إليّ: أن أصرف إلى خيلي، وأن أتربص بهم الحول حتى يرى من رأيه. فقالوا: لم يألك أمير المؤمنين والمسلمين نظراً وخيراً. فسرح إلى ميسرة، وقد كان أشرف على حلب ودنا منها، فيجامعه كتاب إلى ميسرة:

أما بعد، فإذا لقيت رسولي فأقبل معه ودع ما كنت وجهتك إليه حتى نرى من رأينا وننظر ما يأمرنا به خليفتنا، والسلام.

فأقبل ميسرة في أصحابه حتى انتهى إلى أبي عبيدة بحمص، فنزل معه.

وخرج أبو عبيدة فعسكر بالناس، ودعا خالد بن الوليد، فقال له: اخرج إلى دمشق فانزلها في ألف رجل من المسلمين، وأقيم أنا هاهنا، ويقيم عمرو بن العاص في مكانه الذي هو فيه، فيكون بكل جانب من الشام طائفة من المسلمين، فهو أقوى لنا عليها وأحرى أن نضبطها، فخرج خالد في ألف رجل حتى أتى دمشق وبها سويد بن كلثوم بن قيس القرشي ـ من بني محارب بن فهر ـ وكان أبو عبيدة خلفه بها في خمسمائة رجل، فقدم خالد فعسكر على باب من أبوابها، ونزل سويد في جوفها.

وعن أدهم بن محرز بن أسد الباهلي قال[1]: أول راية دخلت أرض حمص ودارت حول مدينتها راية ميسرة بن مسروق، ولقد كانت لأبي أمامة راية ولأبي راية، وإن أول رجل من المسلمين قتل رجلاً من المشركين لأبي، إلا أن يكون رجل من حمير، فإنه حل هو وأبي جميعاً فكل واحد منهما قتل في حملته رجلاً، فكان أبي يقول: أنا أول رجل من المسلمين قتل رجلاً من المشركين بحمص، لا أدري ما الحميري، فإني حملت أنا وهو فقتل كل رجل منا في حملته رجلاً، ولا أخال إلا أني قتلت قتيلي قبل قتيله.

وقال أدهم[2]: إني لأول مولود بحمص، وأول مولود فرض له بها، وأول من رئى فيها بيده كتف يختلف إلى الكتاب، ولقد شهدت صفين وقاتلت.

وقال عبد الله بن قرط[3]: عسكر أبو عبيدة ونحن معه حول حمص نحواً من ثمان عشرة ليلة، وبث عماله في نواحي أرضها، واطمأن في عسكره، وذهبت منهزمة الروم من فحل حتى قدمت على ملك الروم بأنطاكية، وخرجت فرسان من فرسان الروم ورجال من عظمائهم وذوي الأموال والغنى والقوة منهم ممن كان

---

(١) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) نفسه ص ١٤٩.

(٣) نفسه ص ١٤٩ ـ ١٥١.

أوطن بالشام فدخلوا قيسارية، وتحصن أهل فلسطين بإيلياء.

ولما قدمت المنهزمة على هرقل دعا رجالاً منهم، فقال لهم: أخبروني ويلكم عن هؤلاء القوم الذين تلقونهم، أليسوا بشراً مثلكم؟ قالوا بلى، قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: نحن أكثر منهم أضعافاً، وما لقيناهم في موطن إلا ونحن أكثر منهم. قال: ويلكم فما بالكم تنهزمون إذا لقيتموهم؟ فسكتوا. فقام شيخ منهم، فقال: أنا أخبرك أيها الملك من أين يؤتون، قال: فأخبرني، قال: إنهم إذا حُمل عليهم صبروا، وإذا حملوا لم يكذبوا، ونحن نحمل فنكذب ويُحمل علينا فلا نصبر. قال: وما بالكم كما تصفون، وهم كما تزعمون؟ قال الشيخ: ما أراني إلا قد علمت من أين هذا. قال له: ومن أين هذا؟ قال: من أجل أن القوم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وإنا نشرب الخمر، ونرتكب المحارم، وننقض العهد ونأمر بما يسخط الله وننهي عما يرضيه ونفسد في الأرض. قال: صدقتني، لأخرجن من هذه القرية، ولأدعن هذه البلدة، وما لي في صحبتكم من خير وأنتم هكذا. قال: نشدتك الله أيها الملك أن تفعل، تدع سورية جنة الدنيا للعرب وتخرج منها ولما تقاتل وتجهد؟ قال: قد قاتلتموهم غير مرة: بأجنادين، وفحل، ودمشق، والأردن، وفلسطين، وحمص، وفي غير موطن، كل ذلك تنهزمون وتفرون وتغلبون. قال الشيخ: حولك من الروم عدد الحصى والثرى والذر، لم يلقهم // منهم إنسان، ثم تريد أن تخرج منها وترجع بهؤلاء جميعاً من قبل أن يقاتلوا؟ ١٥٢ أ

فإن هذا الشيخ ليكلمه إذ قدم عليه وفد قيسارية وإيلياء، وسيأتي خبرهم بعد إن شاء الله.

وذكر الطبري عن سيف [١]: أن هرقل لما بلغه الخبر بمقتل أهل المرج أمر أمير حمص بالمضي إليها، وقال له: إنه بلغني - يعني عن المسلمين - أن طعامهم لحوم الإبل، وشرابهم ألبانها، وهذا الشتاء، فلا تقاتلوهم إلا في كل يوم بارد، فإنه

(١) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص ٥٩٩ - ٦٠٠.

لا يبقى إلى الصيف منهم أحد هذا جل طعامه وشرابه ، وارتحل في عسكره ذلك حتى أتى الرها .

وأقبل أبو عبيدة حتى نزل على حمص، وأقبل خالد بعده حتى ينزل عليها ، فكان أهلها يغادون المسلمين ويراوحونهم في كل يوم بارد ، ولقي المسلمون بها برداً شديداً والروم حصاراً طويلاً . فأما المسلمون فصبروا ورابطوا ، وأفرغ الله عليهم الصبر وأعقبهم النصر ، حتى انصرم الشتاء ، وإنما تمسك الروم بالمدينة رجاء أن يهلكهم الشتاء . فكانوا يتواصون فيما بينهم ويقولون: تمسكوا فإنهم جفاة ، فإذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم مع ما يأكلون ويشربون ، فكانت الروم ترجع وقد سقطت أقدام بعضهم في خفافهم، وإن المسلمين لفي النعال ما أصيب إصبع أحد منهم، حتى إذا انخنس الشتاء ، قام فيهم شيخ لهم يدعوهم إلى مصالحة المسلمين، قالوا : كيف والملك في عزه وملكه ليس بيننا وبينهم شيء ؟ فتركهم، وقام فيهم آخر وقال: ذهب الشتاء وانقطع الرجاء فما تنتظرون ؟ قالوا : البرسام ، فإنما يسكن في الشتاء ويثور في الصيف، قال: إن هؤلاء قوم يعانون ولأن تأتوهم بعهد وميثاق خير من أن تؤخذوا عنوة، أجيبوني محمودين قبل أن تجيبوني مذمومين. فقالوا : شيخ خرف ولا علم له بالحرب. وأثاب الله المسلمين على صبرهم أيام حمص - فيما حُكي عن بعض (أشياخ من) غسان وبلقين[1] - : أن زلزل بأهل حمص، وذلك أن المسلمين ناهدوهم، فكبروا تكبيرة زلزلت معها الروم في المدينة ، وتصدعت الحيطان ، ففزعوا إلى رؤسائهم وذوي رأيهم ممن كان يدعوهم إلى المسالمة فلم يجيبوهم وأذلوهم بذلك ، ثم كبروا الثانية فتهافتت دور كثيرة وحيطان ، وفزعوا إلى رؤسائهم وذوي رأيهم ، فقالوا : ألا ترون إلى عذاب الله ؟ فأجابوهم: لا يطلب الصلح غيركم ، فأشرفوا ينادون، الصلح الصلح ، ولا يشعر المسلمون بما حدث فيهم، فأجابوهم وقبلوا منهم على أنصاف دورهم، وعلى أن يترك المسلمون أموال ملوك الروم وبنيانهم لا ينزلونه عليهم ، فتركوه لهم ، فصالح بعضهم على صلح دمشق على دينار وطعام على كل جريب أبداً

(١) المصدر السابق ج٣ ص ٦٠٠.

أيسروا أو أعسروا، وصالح بعضهم على قدر طاقته إن زاد ماله زيد عليه وإن نقص نقص، وعلى هذين الوجهين كان صلح دمشق والأردن، وولوا معاملة ما جلا ملوكهم عنه.

* * *

حديث حمص آخر

قالوا : وغزى هرقل أهل حمص في البحر ، واستمد أهل الجزيرة ، واستثار أهل حمص ، فأرسلوا إليه : بأنا قد عاهدنا ، فنخاف أن لا ننصر .

واستمد أبو عبيدة خالد ، فأمده بمن معه جيعاً ، لم يخلف أحداً ، فكفر أهل قنسرين بعده وتابعوا هرقل ، وكان أكثر من هنالك تنوخ الحاضر .

ودنا هرقل من حمص وعسكر وبعث البعوث إلى حمص ، فأجمع المسلمون على الخندقة والكتاب إلى عمر ، إلا ما كان من خالد ، فإن المناجزة كانت رأيه ، فخندقوا على حمص ، وكتبوا إلى عمر واستصرخوه .

وجاء الروم ومن أمدهم حتى نزلوا عليهم فحصروهم ، وبلغت أمداد الجزيرة ثلاثين ألفاً سوى أمداد قنسرين من تنوخ وغيرهم ، فبلغوا من المسلمين كل مبلغ .

وجاء الكتاب إلى عمر وهو موجه إلى مكة للحج ، فمضى لحجه وكتب إلى سعد بن أبي وقاص : إن أبا عبيدة قد أحيط به ولزم حصنه ، فبث المسلمين بالجزيرة ، واشغلهم بالخيول عن أهل حمص ، وأمد أبا عبيدة بالقعقاع بن عمرو .

فخرج القعقاع ممداً لأبي عبيدة ، وخرجت الخيول نحو الرقة ونصيبين وحران ، فلما وصلوا الجزيرة وبلغ ذلك الروم الذين كانوا منها وهم بحمص تقوضوا إلى مدائنهم ، وبادروا المسلمين إليها ، فتحصنوا ، ونزل عليهم المسلمون فيها ، ولما دنا القعقاع من حمص راسلت طائفة من تنوخ خالداً ودلوه وأخبروه بما عندهم من الخبر ، فأرسل إليهم خالد : والله لولا أني في سلطان غيري ما

باليت قللتم أم كثرتم أو أقمتم أو ذهبتم، فإن كنتم صادقين فانفشوا كما انفش أهل الجزيرة، فساموا سائر تنوخ ذلك، فأجابوهم، وراسلوا خالداً: إن ذلك إليك، فإن شئت فعلنا، وإن شئت أن تخرج علينا فننهزم بالروم، وأوثقوا له، فقال: بل أقيموا، فإذا خرجنا فانهزموا بهم.

فقال المسلمون لأبي عبيدة: قد أنفش أهل الجزيرة، وقد ندم أهل قنسرين وواعدوا من أنفسهم، وهم العرب، فاخرج بنا ـ وخالد ساكت ـ فقال: يا خالد، ما لك لا تتكلم؟ فقال: قد عرفت الذي كان من رأيي فلم تسمع من كلامي. قال: فتكلم فإني أسمع منك وأطيعك، قال: فاخرج بالمسلمين، فإن الله ـ تعالى ـ قد نقص من عدتهم، وبالعدد يقاتلون، ونحن إنما نقاتل منذ أسلمنا بالنصر، فلا تحفلك كثرتهم.

قالوا: فجمع أبو عبيدة الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

أيها الناس، إن هذا يوم له ما بعده، أما من حي منكم فإنه يصفو له ملكه وقراره، وأما من مات منكم فإنها الشهادة، فأحسنوا بالله الظن ولا يُكَرِّهن إليكم الموتَ أمْرٌ اقترفه أحدكم دون الشرك، توبوا إلى الله وتعرضوا للشهادة، فإني أشهد ـ وليس أوان الكذب ـ أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة.

فكأنما كانت بالناس عُقلٌ تنشطت، فخرج بهم وخالد على الميمنة، وقيس على الميسرة، وأبو عبيدة في القلب //وعلى باب المدينة معاذ بن جبل، فاجتلدوا بها، فإنهم كذلك إذ قدم القعقاع متعجلاً في مائة، فانهزم أهل قنسرين بالروم، فاجتمع القلب والميمنة على قلبهم وقد انكسر أحد جناحيه، فما أفلت منهم مخبر، وذهبت الميسرة على وجهها، وآخر من أصيب منهم ببرج الديباج انتهوا إليه فكسروا سلاحهم وألقوا بلامهم تخففاً، فأصيبوا وتغنموا. ١٥٢ب

ولما ظفر المسلمون جمعهم أبو عبيدة فخطبهم، وقال لهم: لا تتكلوا ولا تزهدوا في الدرجات.

(فتح قنسرين)

وبعث[1] بعد فتح حمص خالد بن الوليد إلى قنسرين، فلما نزل بالحاضر زحف إليه الروم وعليهم ميناس، وهو رأس الروم وأعظمهم فيهم بعد هرقل، فالتقوا بالحاضر، فقتل ميناس ومن معه مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها. فأما الروم فماتوا على دمه حتى لم يبق منهم أحد، وأما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب، وأنهم إنما حشدوا ولم يكن من رأيهم حربه، فقبل منهم وتركهم.

ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: أمَّر خالد نفسه، يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني، وكان قد عزله والمثنى بن حارثة عند قيامه بالأمر، وقال: إني لم أعزلها عن ريبة، ولكن الناس عظموهما، فخشيت أن يوكلوا إليهما.

ويروى أنه قال حين ولي: والله لأعزلن خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة ليعلما أن الله إنما ينصر دينه لا إياهما. فلما كان من أمر خالد في قنسرين ما كان، رجع عن رأيه.

وسار خالد حتى نزل على قنسرين، فتحصنوا منه، فقال: إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا. فنظروا في أمرهم، وذكروا ما لقي أهل حمص وقنسرين، فسألوه الصلح على مثل صلحها[2]، فأبى إلا على إخراب المدينة، فأخربها.

---

(١) الطبري. التاريخ ج٣ ص ٦٠١.

(٢) أي صلح أهل حمص.

واتطأت حمص وقنسرين، فعند ذلك خنس هرقل وخرج نحو القسطنطينية. وأفلت[1] رجل من الروم كان أسيراً في أيدي المسلمين فلحق بهرقل، فقال له: أخبرني عن هؤلاء القوم. فقال: أحدثك كأنك تنظر إليهم، فرسان بالنهار، ورهبان بالليل، ما يأكلون في ذمتهم إلا بثمن، ولا يدخلون إلا بسلام، يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه. فقال: لئن كنت صدقتني ليرثن ما تحت قدمي هاتين.

وكان [1] هرقل كلما حج بيت المقدس فخلف سورية، وظعن في أرض الروم التفت فقال: السلام عليك يا سورية، تسليم مودع لم يقض منك وطره، وهو عائد. فلما توجه المسلمون نحو حمص عبر الماء فنزل الرها، فلم يزل بها حتى إذا فتحت قنسرين، وقتل ميناس خنس عند ذلك إلى شمشاط [2] حتى إذا فصل منها نحو أرض الروم على شرف[3]، فالتفت نحو سورية وقال: عليك السلام يا سورية، سلاماً لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً، حتى يولد المولود المشؤوم، ويا ليته لا يولد، ما أحلى فعله، وما أمر عاقبته على الروم. ثم مضى حتى نزل قسطنطينية.

وهذا مقتضب من أحاديث متفرقة ذكرها سيف في كتابه.

* * *

---

(١) الطبري. التاريخ ج٣ ص ٦٠٢ ـ ٦٠٣.

(٢) في الأصل: سميساط، وشمشاط: بكسر أوله وسكون ثانيه، مدينة على شاطىء الفرات شرقيها بألوية وغربيها خرتبرت، وهي غير سميساط الواردة في الأصل ـ ياقوت. معجم البلدان ج٣ ص ٣٦٢.

(٣) في الأصل: شرفا.

(جمع الروم للمسلمين)

ثم نعود إلى صلة ما قطعنا قبل من الحديث عن وفد أهل إيلياء وقيسارية القادم على هرقل، إذ قد وعدنا بذكره حسب ما ذكره من ذلك أصحاب فتوح الشام في كتبهم.

وذلك[1] أن أهل قيسارية وأهل إيلياء تواطأوا بعد يوم فحل وتآمروا[2]، أن يبعثوا وفداً منهم إلى هرقل بأنطاكية، فيخبروه بتمسكهم بأمره وإقامتهم على طاعته وخلافهم العرب، ويسألونه المدد والنصر. فلما جاءه وفدهم هذا رأى أن يبعث الجنود ويقيم هو (بأنطاكية)[3]، فأرسل إلى رومية والقسطنطينية، وإلى من كان من جنوده وعلى دينه من أهل الجزيرة وأرمينية، وكتب إلى عماله أن يحشروا إليه كل من أدرك الحلم من أهل مملكته فما فوق ذلك إلى الشيخ الفاني، فأقبلوا إليه، وجاء منهم ما لا تحمله الأرض، وجاءه جرجير صاحب أرمينية في ثلاثين ألفاً، وآتاه أهل الجزيرة، ونزع إليه أهل دينه وجميع من كان في طاعته، فدعا باهان، وكان من عظمائهم وأشرافهم، فعقد له على مائة ألف، ودعا ابن قماطر فعقد له على مائة ألف فيهم جرجير ومن معه من أهل أرمينية، ودعا الدرنجار فعقد له على مائة ألف، ثم أعطى الأمراء مائة ألف، مائة ألف، وأعطى باهان مائتي ألف، وقال لهم: إذا اجتمعتم فأميركم باهان، ثم قال:

---

(١) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ١٥١ ـ ١٥٩.

(٢) في الأصل: وتوامروا.

(٣) مضاف من الأزدي.

يا معشر الروم، إن العرب قد ظهروا على سورية، ولم يرضوا بها حتى تعاطوا أقصى بلادكم، وهم لا يرضون بالبلاد والمدائن والبر والشعير والذهب والفضة حتى يسبوا الأمهات والبنات والأخوات والأزواج، ويتخذوا الأحرار وأبناء الملوك عبيداً، فامنعوا حرمتكم وسلطانكم ودار ملككم.

قال عبد الله بن قرط - والحديث له: ثم وجههم إلينا، فقدمت عيوننا من قبلهم، فخبرونا بمقالة ملكهم وبمسيرهم إلينا وجمعهم لنا، ومن أجلب معهم من غيرهم علينا ممن كان على دينهم وفي طاعتهم. فلما جاء أبا عبيدة الخبر عن عددهم وكثرتهم، رأى أن لا يكتم ذلك المسلمين، وأن يستشيرهم فيه لينظر ما يؤول إليه رأي جماعتهم، فدعا رءوس المسلمين وأهل الصلاح منهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد. فإن الله - عز وجل - قد أبلاكم أيها المؤمنون فأحسن البلاء، وصدقكم الوعد، وأعزكم بالنصر، وأراكم في كل موطن ما تسرون به، وقد سار إليكم عدوكم من المشركين بعدد كثير، ونفروا إليكم فيما حدثني عيوني نفير الروم الأعظم، فجاؤوكم براً وبحراً حتى خرجوا إلى صاحبهم بأنطاكية، ثم قد وجه إليكم ثلاثة عساكر في كل عسكر منها ما لا يحصيه إلا الله من البشر، وقد أحببت أن لا أغركم من أنفسكم، ولا أطوي عنكم خبر عدوكم، ثم تشيرون عليّ برأيكم، وأشير عليكم برأيي، فإنما أنا كأحدكم.

فقام يزيد بن أبي سفيان، فقال:

نعم ما رأيت - رحمك الله - إذ لم تكتم عنا ما أتاك من عدونا، وأنا مشير عليكم، فإن كان صواباً فذاك // ما نويت، وإن يكن الرأي غير ما أشير به، فإني لا أتعمد غير ما يصلح المسلمين. أرى أن نعسكر على باب مدينة حمص بجماعة المسلمين، وندخل النساء والأبناء داخل المدينة، ثم نجعل المدينة في ظهورنا، ثم نبعث إلى خالد فيقدم عليك من دمشق، وإلى عمرو بن العاص فيقدم عليك من الأردن، فتلتقاهم بجماعة من معك من المسلمين. ١٥٣ أ

وقام شرحبيل بن حسنة فقال:

إن هذا مقام لا بد فيه من النصيحة للمسلمين وإن خالف الرجل منا أخاه، وإنما على كل رجل منا أن يجتهد رأيه، وأنا الآن فقد رأيت غير ما رأى يزيد، وهو والله عندي من الناصحين لجماعة المسلمين، ولكن لا أجد بداً من أن أشير عليكم بما أظنه خيراً للمسلمين.

إني لا أرى أن ندخل ذراري المسلمين مع أهل حمص وهم على دين عدونا هذا الذي قد أقبل إلينا، ولا آمن إن وقع بيننا وبينهم من الحرب ما نتشاغل به أن ينقضوا عهدنا وأن يثبوا على ذرارينا فيتقربوا بهم إلى عدونا.

فقال له أبو عبيدة: إن الله قد أذلهم لكم، وسلطانكم أحب إليهم من سلطان عدوكم، وأما إذ ذكرت ما ذكرت، وخوفتنا ما خوفت، فإني أخرج أهل المدينة منها وأنزلها عيالنا، وأدخل رجالاً من المسلمين يقومون على سورها وأبوابها، ونقيم نحن بمكاننا هذا حتى يقدم علينا أخواننا.

فقال له شرحبيل: إنه ليس لك ولا لنا معك أن نخرجهم من ديارهم وقد صالحناهم على ألا نخرجهم منها.

فأقبل أبو عبيدة على جماعة من عنده فقال: ماذا ترون - رحمكم الله؟

فقالوا: نرى أن نقيم، ونكتب إلى أمير المؤمنين فنعلمه نفير الروم إلينا، وتبعث إلى من بالشام من أخوانك المسلمين فيقدموا عليك.

فقال أبو عبيدة: إن الأمر أجل وأعظم مما تحسبون، ولا أحسب القوم إلا سيعاجلونكم قبل وصول خبركم إلى أمير المؤمنين.

فقام إليه ميسرة بن مسروق، فقال:

أصلحك الله، إنا لسنا بأصحاب القلاع ولا الحصون ولا المدائن، وإنما نحن أصحاب البر والبلد القفر، فأخرجنا من بلاد الروم ومدائنها إلى بلادنا أو إلى بلاد من بلادهم تشبه بلادنا إن كانوا قد جاشوا علينا كما ذكرت، ثم اضمم إليك قواصيك، وابعث إلى أمير المؤمنين فليمددك.

فقال كل من حضر ذلك المجلس: الرأي ما رأى ميسرة. فقال لهم أبو عبيدة: فتهيأوا وتيسروا حتى أرى من رأي.

وكان رأي أبي عبيدة أن يقيموا ولا يبرحوا، ولكنه كره خلافهم، ورجا أن يكون في اجتماع رأيهم الخير والبركة.

ثم بعث إلى حبيب بن مسلمة، وكان استعمله على الخراج، فقال: انظر ما كنت جبيت من حمص فاحتفظ به حتى آمرك فيه، ولا تجبين أحداً ممن بقي حتى أحدث إليك في ذلك، ففعل، فلما أراد أبو عبيدة أن يشخص دعا حبيباً فقال له: اردد على القوم الذين كنا صالحناهم من أهل البلد ما كنا أخذنا منهم، وقل لهم: نحن على ما كان بيننا وبينكم من الصلح، لا نرجع عنه إلا أن ترجعوا، وإنما رددنا عليكم أموالكم كراهية أن نأخذها ولا نمنع بلادكم، ولكنا نتنحى إلى بعض الأرض ونبعث إلى أخواننا فيقدموا علينا، ثم نلقى عدونا، فإن أظفرنا الله بهم وفينا لكم بعهدكم، إلا ألا تطلبوا ذلك.

ثم أخذ الناس في الرحيل إلى دمشق، ورد حبيب بن مسلمة إلى أهل البلد ما كان أخذ منهم، وأخبرهم بما قال أبو عبيدة، فقالوا: ردكم الله إلينا، ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم، لكنهم والله لو كانوا هم ما ردوا علينا، بل غصبونا وأخذوا مع هذا ما قدروا عليه من أموالنا.

وأعلم أبو عبيدة عمر بن الخطاب بكل ما قبله. قال سفيان بن عوف بن معقل: بعثني أبو عبيدة ليلة غدا من حمص إلى دمشق، فقال: ائت أمير المؤمنين فأبلغه مني السلام وأخبره بما قد رأيت وعاينت، وبما جاءتنا به العيون، وبما استقر من كثرة العدو، وبالذي رأى المسلمون من التنحي عنهم. وكتب إليه معه:

أما بعد، فإن عيوني قدمت عليّ من أرض قنسرين ومن القرية التي فيها ملك الروم، فحدثوني بأن الروم قد توجهوا إلينا وجمعوا لنا من الجموع ما لم يجمعوه قط لأمة كانت قبلنا، وقد دعوت المسلمين فأخبرتهم الخبر واستشرتهم في الرأي،

فاجتمع رأيهم على أن يتنحوا عنهم حتى يأتينا رأيك، وقد بعثت إليك رجلاً عنده علم ما قِبَلنا، فاسأله عما بدا لك، فإنه بذلك عليم، وهو عندنا أمين، ونستعين الله العزيز الحكيم، وهو حسبنا ونعم الوكيل. والسلام عليك.

قال سفيان: فلما قدمت على أمير المؤمنين سلمت عليه، فقال: أخبرني عن الناس، فأخبرته بصلاحهم، ودفاع الله عنهم، ثم أخذ الكتاب فقرأه، فقال لي: ويحك ما فعل المسلمون؟ فقلت: أصلحك الله، خرجت من عندهم ليلاً من حمص وتركتهم يقولون: نصلي الغداة ثم نرحل إلى دمشق. قال: فكأنه كرهه حتى عرفت الكراهة في وجهه، ثم قال: لله أبوك، ما رجوعهم عن عدوهم وقد أظفرهم الله بهم في غير موطن؟ وما تركهم أرضاً قد فتحها الله عليهم وصارت في أيديهم؟ إني لأخاف أن يكونوا قد أساءوا الرأي وجاءوا بالعجز وجرّأوا عدوهم عليهم. فقلت: أصلحك الله، إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، إن صاحب الروم قد جمع لنا جموعاً لم يجمعها هو ولا أحد كان قبله لأحد كان قبلنا، ولقد أخبرنا بعض عيوننا أن عسكراً واحداً من عساكرهم أمر بالعسكرة في أصل جبل، فهبطوا من الثنية نصف النهار إلى معسكرهم فما تكاملوا فيه حتى أمسوا، ثم ما تكاملوا فيه إلى نصف الليل، فهذا عسكر واحد من عساكرهم، فما ظنك أصلحك الله بما بقي؟ فقال: لولا أني ربما كرهت الشيء من أمرهم يضيعونه، فأرى الله ـ تعالى ـ يخير لهم في عواقبه لكان هذا رأياً أنا له كاره. أخبرني: اجتمع رأي جميعهم على التحول؟ قلت: نعم. قال: // فالحمد لله، إني لأرجو إن شاء الله أن لا يكون جمع الله رأيهم إلا على ما هو خير لهم. فقلت: يا أمير المؤمنين، اشدد أعضاد المسلمين بمدد يأتيهم من قبلك قبل الوقعة، فإن هذه الوقعة هي الفيصل فيما بيننا وبينهم. فقال لي: أبشر بما يسرك ويسر المسلمين، [و] احمل كتابي هذا إلى أبي عبيدة وإلى المسلمين، وأعلمهم أن سعيد بن عامر ابن حذيم قادم عليهم بالمدد، وكتب:

١٥٣ ب

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن

الجراح وإلى الذين معه من المهاجرين والأنصار، والتابعين بإحسان، والمجاهدين في سبيل الله، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد. فإنه قد بلغني توجهكم من أرض حمص إلى أرض دمشق، وترككم بلاداً فتحها الله عليكم، وخليتموها لعدوكم وخرجتم منها طائعين، فكرهت هذا من رأيكم وفعلكم، ثم إني سألت رسولكم عن رأي من جميعكم كان ذلك، فزعم أن ذلك كان رأياً من أماثلكم وأولي النهي منكم، فعلمت أن الله لم يكن يجمع رأيكم إلا على توفيق وصواب ورشد في العاجلة والعاقبة، فهون ذلك عليّ ما كان داخلني من الكراهية قبل ذلك لتحولكم، وقد سألني رسولكم المدد، وأنا ممدكم، لن يقرأ عليكم كتابي حتى يشخص إليكم المدد من قبلي إن شاء الله، واعلموا أنه ليس بالجمع الكثير تهزم الجموع وينزل الله النصر، ولربما خذل الله الجموع الكثيرة فوهنت وقلت وفشلت، ولم تغن عنهم فئتهم شيئاً، ولربما نصر الله العصابة القليل عددها على الكثير عددها من أعداء الله.

فأنزل الله عليكم نصره، وبعدو المسلمين بأسه ورجزه، والسلام عليكم.

فجاء سفيان بالكتاب إلى أبي عبيدة فقرأه على الناس وسروا به.

وعن عبد الله بن قرط [1] - في حديثه المتقدم عما اجتمع عليه رأي المسلمين مع أبي عبيدة من الرحيل عن حمص - قال: فلما صلينا صلاة الغداة بحمص خرجنا مع أبي عبيدة نسير حتى قدمنا دمشق وبها خالد بن الوليد، وتركنا أرض حمص ليس فيها منا ديار بعدما كنا قد افتتحناها، وأمنا أهلها، وصالحناهم عليها، وخلا أبو عبيدة بخالد بن الوليد فأخبره الخبر، وذكر له مشورة الناس عليه بالرحلة، ومقالة العبسي في ذلك، فقال له خالد: أما أنه لم يكن الرأي إلا الإقامة بحمص حتى نناجزهم، فأما إذا اجتمع رأيكم على أمر واحد، فوالله إني لأرجو أن لا يكون الله قد جمع رأيكم إلا على ما هو خير.

---

(١) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ١٦٠ - ١٦٩.

فأقام أبو عبيدة بدمشق يومين، وأمر سويد بن كلثوم أن يرد على أهل دمشق الذين كانوا أمنوا وصولحوا ما كان جبي منهم، ففعل، وقال لهم المسلمون: نحن على العهد الذي كان بيننا وبينكم.

ثم إن أبا عبيدة جمع أصحابه، فقال لهم: ماذا ترون؟ أشيروا عليّ.

فقال يزيد بن أبي سفيان: أرى أن تخرج حتى تنزل الجابية، ثم تبعث إلى عمرو بن العاص فيقدم عليك بمن معه من المسلمين، ثم نقيم للقوم حتى يقدموا علينا، فنقاتلهم ونستعين الله عليهم.

فقال شرحبيل بن حسنة: لكني أرى إذ خلينا لهم ما خلينا من أرضهم أن ندعها كلها في أيديهم وننزل التخوم بين أرضنا وأرضهم فندنو من خليفتنا ومن مددنا، فإذا أتانا من المدد ما نرجو أن نكون لهم به مقرنين قاتلناهم إن أتونا، وإلا أقدمنا عليهم إن هم أقاموا عنا.

فقال رجل من المسلمين لأبي عبيدة: هذا أصلحك الله رأي حسن، فاقبله واعمل به.

فقال معاذ بن جبل: وهل يلتمس هؤلاء القوم من عدوهم أمراً أضر لهم ولا أشد عليهم مما تريدون أنتم بأنفسكم، تخلون لهم عن أرض قد فتحها الله عليكم وقتل فيها صناديدهم وأهلك جنودهم، فإذا خرج المسلمون منها وتركوها لهم فكانوا فيها على مثل حالهم الأول، فما أشد على المسلمين دخولها بعد الخروج منها، وهل يصلح لكم أن تدعوها وتدعوا البلقاء والأردن وقد جبيتم خراجهم لتدفعوا عنهم؟ أما والله لئن أردتم دخولها بعد الخروج منها لتكابدن من ذلك مشقة.

فقال أبو عبيدة: صدق والله وبر، ما ينبغي أن نترك قوماً قد جبينا خراجهم وعقدنا العهد لهم حتى نعذر إلى الله في الدفع عنهم، فإن شئتم نزلنا الجابية وبعثنا إلى عمرو بن العاص يقدم علينا، ثم أقمنا للقوم حتى نلقاهم بها.

فقال له خالد: كأنك إذا كنت بالجابية كنت على أكثر مما أنت عليه في مكانك الذي أنت فيه.

فإنهم لكذلك يجيلون الرأي إذقدم على أبي عبيدة عبد الله بن عمرو بن العاص بكتاب من أبيه يقول فيه:

أما بعد، فإن أهل إيلياء وكثيراً ممن كنا صالحناهم من أهل الأردن قد نقضوا العهد فيما بيننا وبينهم، وذكروا أن الروم قد أقبلت إلى الشام بقضها وقضيضها، وأنكم قد خليتم لهم عن الأرض وأقبلتم منصرفين عنها، وقد جرأهم ذلك عليّ وعلى من قبلي من المسلمين، وقد تراسلوا وتواثقوا وتعاهدوا ليسيرون إليّ. فاكتب إليّ برأيك، فإن كنت تريد القدوم عليّ أقمت لك حتى تقدم عليّ، وإن كنت تريد أن تنزل منزلاً من الشام أو من غيرها وأن أقدم عليك فأعلمني برأيك، أوافك فيه، فإني صائر إليك أينما كنت، وإلا فابعث إليّ مدداً أقوى به على عدوي وعلى ضبط ما قبلي، فإنهم قد أرجفوا بنا واغتمزوا فينا واستعدوا لنا، ولو يجدون فينا ضعفاً أو يرون فينا فرصة ما ناظرونا، والسلام عليك.

فكتب إليه أبو عبيدة: أما بعد، فقد قدم علينا عبد الله بن عمرو بكتابك تذكر فيه إرجاف المرجفين واستعدادهم لك، وجرأتهم عليك للذي بلغهم من انصرافنا عن الروم وما خلينا لهم من الأرض، وأن ذلك والحمد لله لم يكن من المسلمين عن ضعف من بصائرهم، ولا وهن عن عدوهم، ولكنه كان رأياً من جماعتهم كادوا به عدوهم ليخرجوهم من مدائنهم وحصونهم وقلاعهم وليجتمع بعض المسلمين إلى بعض وينتظروا قدوم أمدادهم، ثم يناهضونهم إن شاء الله، وقد اجتمعت خيلهم وتتامت فرسانهم، فعند // ذلك فارتقب نصر الله أولياءه، وإنجاز موعوده، وإعزاز دينه، وإذلاله المشركين حتى لا يمنع أحد منهم أمه ولا حليلته ولا نفسه، حتى يتوقلوا في شعف الجبال[1]، ويعجزوا عن منع الحصون

١٥٤ أ

(١) شعف الجبال: رءوس الجبال ـ ابن منظور. اللسان ص ٢٢٧٩.

ويجنحوا للسلم، ويلتمسوا الصلح، ﴿سنة الله التي قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ (٦٢ : الأحزاب).

ثم أعلم من قبلك من المسلمين أني قادم عليهم بجماعة أهل الإسلام إن شاء الله، فليحسنوا بالله الظن ولا يجدن عدوكم فيكم ضعفاً ولا وهناً، ولا تؤبسوا منكم رعباً فيطمعوا فيكم ويجترئوا عليكم، أعزنا الله وإياكم بنصره، وعمنا بعافيته وعفوه، والسلام عليك.

وقال لعبد الله بن عمرو: اقرأ على أبيك السلام، وأخبره أني في أثرك، وأعلم بذلك المسلمين وكن يا عبد الله بن عمرو ممن يشد الله به ظهور المسلمين ويستأنسون به، فإنك رجل من الصحابة، وقد جعل الله للصحابة فضلاً على غيرهم من المسلمين، بصحبتهم رسول الله ﷺ ولا تتكل على أبيك، وكن أنت في جانب تحرض المسلمين وتمنيهم النصر، وتأمرهم بالصبر، ويكون أبوك يفعل ذلك في جانب آخر.

فقال: إني أرجو أن يبلغك عني إن شاء الله من ذلك ما تسر به.

ثم خرج حتى قدم على أبيه بكتاب أبي عبيدة، فقرأه أبوه على الناس، ثم قال:

أما بعد، فقد برئت ذمة الله من رجل من أهل عهدنا من أهل الأردن ثقف[1] رجلاً من أهل إيلياء فلم يأتنا به، ألا ولا يبقين رجل من أهل عهدنا إلا تهيأ واستعد ليسير معي إلى أهل إيلياء، فإني أريد السير إليهم والنزول بساحتهم، ثم لا أزايلهم حتى أقتل مقاتلتهم وأسبي ذراريهم، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

ثم نادى في المسلمين: أن ارتحلوا إلى إيلياء، فسار نحواً من ميلين قبل أرض إيلياء، ثم نزل وعسكر، وقال لأهل الأردن: أخرجوا إلينا الأسواق، ونادى مناديه: برئت الذمة من رجل من أهل الصلح لم يخرج بسلاحه حتى يحضر معنا

---

(١) ثقف الرجل: ظفر به ـ المصدر السابق ص ٤٩٢.

معسكرنا وينتظر ما نأمر به من أمرنا، فاجتمع أهل الصلح كلهم إليه، وخرجوا بعدتهم وسلاحهم، فقدمهم مع ابنه عبد الله في خمسمائة من المسلمين، وأمره أن يعسكر بهم، ففعل.

وإنما أراد أن يشغل أهل الأردن عن الإرجاف، وأن يبلغ أهل إيلياء أنه يريد المسير إليهم والنزول بهم، فيرعب قلوبهم ويشغلهم في أنفسهم وحصونهم عن الغارة عليهم.

فخرج التجار من أهل الأردن ومن كان فيها من أهل إيلياء عند حميم أو ذوي قرابة فلحقوا بإيلياء فقالوا لهم: هذا عمرو بن العاص قد أقبل نحوكم بالناس، فاجتمعوا من كل مكان، وتراسلوا، وجعلوا لا يجيئهم أحد من قبل الأردن إلا أخبرهم بمعسكره، فأيقنوا أنه يريدهم، فكانوا من ذلك في هول شديد، وزادهم خوفاً ووجلاً كتاب كتبه إليهم عمرو بن العاص مضمنه:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عمرو بن العاص إلى بطارقة أهل إيلياء، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله الذي لا إله إلا هو، وبنبوة محمد ﷺ أما بعد:

فإنا نثني على ربنا خيراً، ونحمده حمداً كثيراً، كما رحمنا بنبيه وشرفنا برسالته وأكرمنا بدينه، وأعزنا بطاعته، وأيدنا بتوحيده، فلسنا والحمد لله نجعل له نداً ولا نتخذ من دونه إلهاً، لقد قلنا إذا شططاً، والحمد لله الذي جعلكم شيعاً وجعلكم في دينكم أحزاباً، كل حزب بما لديهم فرحون، فمنكم من يزعم أن لله ولداً، ومنكم من يزعم أن الله ثاني اثنين، ومنكم من يزعم أن الله ثالث ثلاثة، فبعداً لمن أشرك بالله وسحقاً، وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، والحمد لله الذي قتل بطارقتكم، وسلب عزكم، وطرد من هذه البلاد ملوككم، وأورثنا أرضكم ودياركم وأموالكم، وأذلكم بكفركم بالله وشرككم به وترككم ما دعوناكم إليه من الإيمان بالله وبرسوله، فأعقبكم الله لباس الخوف والجوع ونقصاً في الأموال والأنفس، وما الله بظلام للعبيد.

فإذا بلغكم كتابي هذا، فأسلِموا تسْلَموا، وإلا فأقبلوا إليّ حتى أكتب لكم

أماناً على دمائكم وأموالكم، وأعقد لكم عقداً على أن تؤدوا إليّ الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإلا فوالله الذي لا إله إلاّ هو لأرمينكم بالخيل بعد الخيل وبالرجال بعد الرجال، ثم لا أقلع عنكم حتى أقتل المقاتلة وأسبي الذرية، وحتى تكونوا كأمة كانت فأصبحت كأنها لم تكن.

وأرسل بالكتاب إليهم مع فيج - نصراني على دينهم - وقال له: عجل علي، فإني إنما أنتظرك، فلما قدم عليهم قالوا له: ويحك، ما وراءك؟ قال: لا أدري إلا أن هذا الرجل بعثني إليكم بهذا الكتاب، وقد وجه عسكره نحوكم، وقال لي: ما يمنعني من المسير إليهم إلا انتظار رجوعك. فقالوا: انتظرنا ساعة من النهار، فإنا ننتظر عيناً لنا يقدم علينا من قبل أمير العرب الذي بدمشق، ومن قبل جند الملك الذي أقبل إلينا، فننظر ما يأتينا به، فإن ظننا أن لنا بالعرب قوة لم نصالحهم، وإن خشينا ألا نقوى عليهم صنعنا ما صنع أهل الأردن وغيرهم، فما نحن إلا كغيرنا من أهل الشام. فأقام العلج حتى أمسى، ثم إن رسول أهل إيلياء الذي بعثوه عيناً لهم أتاهم فأخبرهم أن باهان قد أقبل من عند ملك الروم في ثلاثة عساكر، في كل عسكر منها أكثر من مائة ألف مقاتل، وأن العرب لما بلغهم ما سار إليهم من تلك الجموع علموا أنه لا قبل لهم بما جاءهم، فانصرفوا راجعين، وقد كان أوائل العرب دخلوا أرض قنسرين فأخرجوهم منها، ثم أتوا أرض دمشق فأخرجوهم منها، ثم أقبلت العرب الآن نحو الأردن، نحو صاحبهم هذا الذي كتب إليكم، والروم يسوقونهم سوقاً عنيفاً، فتباشروا بذلك وسروا به، ودعوا العلج الذي بعث به إليهم عمرو بن العاص، وقالوا: إذهب بكتابنا هذا إلى صاحبك، وكتبوا معه:

أما بعد، فإنك كتبت إلينا تزكي نفسك وتعيبنا، وقول الباطل لا ينفع قائله نفسه ولا يضر عدوه، وقد فهمنا ما دعوتنا إليه، وهؤلاء ملوكنا وأهل ديننا قد جاؤوكم، فإن أظهرهم الله عليكم فذلك بلاؤه عندنا في القديم، وإن ابتلانا بظهوركم، فلعمري لنقِرَّنَّ. لكم بالصغار. // وما نحن إلا كمن ظهرتم عليه من ١٥٤ ب

إخواننا، ثم دانوا لكم وأعطوكم ما سألتم.

فقدم الرسول بهذا الكتاب على عمرو، فقال له: ما حبسك؟ فأخبره الخبر، فلم يكن إلا يومه ذلك حتى قدم خالد بن الوليد في مقدمة أبي عبيدة، فجاء حتى نزل اليرموك، وأقبل عمرو حتى نزل معه.

* * *

وقعة اليرموك على نحو ما حكاه أصحاب كتب فتوح الشام

قالوا[1]: ولما اجتمع جمع المسلمين باليرموك استشار أبو عبيدة أهل الرأي من المسلمين: أين ترون أن نعسكر حتى يقدم مددنا؟ فقال يزيد بن أبي سفيان: أرى أن نسير بمن معنا إلى أيلة، فنقيم بها حتى يقدم علينا المدد. فقال عمرو: ما أيلة إلا كبعض الشام، ولكن سر بنا حتى ننزل الحجر فننتظر المدد، فقال قيس ابن هبيرة: لا ردنا الله إذاً إليها إن خرجنا لهم عن الشام أكثر مما خرجنا لهم عنه، أتدعون هذه العيون المتفجرة، والأنهار المطردة، والزروع والأعناب، والذهب والفضة والحرير، وترجعون إلى أكل الضباء[2] ولبس العباء والبؤس والشقاء وأنتم تعلمون أن من قتل منكم صار إلى الجنة وأصاب نعيماً لا يشاكله نعيم، فأين تدعون الجنة وتهربون منها؟ وتزهدون فيها وتأتون الحجر. لا صحب الله من سار إلى الحجر ولا حفظه. فقال له خالد بن الوليد: جزاك الله خيراً يا قيس، فإن رأيك موافق لرأيي.

وفي حديث عن أبي معشر: أن الروم حين جاشت على المسلمين ودنوا منهم دعا أبو عبيدة رءوس المسلمين واستشارهم، فذكر من مشورة يزيد بن أبي سفيان عليه، وعمرو بن العاص نحواً مما تقدم. قال: وخالد بن الوليد ساكت يسمع ما يقولون، وكان يرحمه الله إذا كانت شدة فإليه وإلى رأيه يفزعون، إذ كان لا يهوله من أمر الروم شيء، ولا يزداد بما يبلغه عنهم إلا جرأة عليهم، فقال له أبو

---

(١) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ١٦٩ - ١٧١.

(٢) في الأصل: الظباء.

عبيدة: ماذا ترى يا خالد؟ فقال: أرى والله أنا إن كنا إنما نقاتل بالكثرة والقوة فهم أكثر منا وأقوى علينا، وإن كنا إنما نقاتلهم بالله ولله فما أرى أن جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض جميعاً تغني عنهم شيئاً، ثم غضب، فقال لأبي عبيدة: أتطيعني أنت فيما آمرك به؟ قال: نعم. قال: فولني ما وراء بابك، وخلني والقوم، فإني والله لأرجو أن ينصرنا الله عليهم، قال: قد فعلت، فولاه ذلك، فكان خالد من أعظم الناس بلاء، وأحسنه غناء وأعظمه بركة، وأيمنه نقيبة، وكانوا أهون عليه من الكلاب.

وعن مالك بن قسامة بن زهير[1]، عن رجل من الروم يدعى جرجة - كان قد أسلم فحسن إسلامه - قال: كنت في ذلك الجيش الذي بعث قيصر من أنطاكية مع باهان، فأقبلنا ونحن لا يحصي عددنا إلا الله، ولا نرى أن لنا غالباً من الناس، فأخرجنا أوائل العرب من أرض قنسرين ثم أقبلنا في آثارهم حتى أخرجناهم من حمص، ثم أقبلنا في آثارهم حتى أخرجناهم من دمشق. قال: ولحق بنا كل من كان على ديننا من النصارى، حتى إن كان الراهب لينزل عن صومعته وقد كان فيها دهراً طويلاً من دهره، فيتركها وينزل إلينا ليقاتل معنا غضباً لدينه ومحاماة عليه، وكان من كان من العرب بالشام ممن كان على طاعة قيصر ثلاثة أصناف، فأما صنف فكانوا على دين العرب، وكانوا معهم، وأما صنف فكانوا نصارى، وكانت لهم في النصرانية نية، فكانوا معنا، وأما صنف فكانوا نصارى ليس لهم في النصرانية تلك النية، فقالوا: نكره أن نقاتل أهل ديننا ونكره أن ننصر العجم على قومنا، وأقبلت الروم تتبع أهل الإسلام وقد كانوا هائبين لهم مرعوبين منهم، ولكنهم لما رأوهم قد خلوا لهم البلاد وتركوا لهم ما كانوا افتتحوا جرأهم ذلك عليهم مع عددهم الذي لم يجتمع قط لأحد من قبلهم.

وعن عبد الله بن قرط[2] قال: لما أقبلت الروم من عند ملكهم أخذوا لا

---

(١) النص خارج الأزدي.

(٢) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ١٧٢ - ١٧٤.

يمرون بأرض قد كنا افتتحناها ثم أجلينا لهم عنها إلا أوقعوا بهم ولاموهم وشتموهم وخوفوهم، فيقولون لهم: أنتم أولَى باللائمة منا، أنتم وهنتم وعجزتم وتركتمونا وذهبتم، وأتانا قوم لم تكن لنا بهم طاقة، فكانوا يعرفون صدقهم فيكفون عنهم، وأقبلوا يتبعون آثار المسلمين حتى نزلوا بمكان من اليرموك يدعى دير الجبل مما يلي المسلمين، والمسلمون قد جعلوا نساءهم وأولادهم على جبل خلف ظهورهم، فمر قيس بن هبيرة بنسوة من نساء المسلمين مجتمعات، فلما رأينه قامت إليه أميمة بنت أبي بشر بن زيد بن الأطول الأزدية، وكانت تحت عبد الله بن قرط، وكان أشبه خلق الله به في الحرب، فرسه يشبه فرسه، وباده يشبه باده، وكل شيء منه كذلك، فظنت أنه زوجها، فقالت له: اسمع بنفسي أنت، فعلم قيس أنها شبهته بزوجها، فقال: أظنك شبهتني بزوجك. فقالت: واسوأتاه وانصرفت، فأقبل قيس عليها، وعلى من كان معها من النساء، فقال لهن: قبح الله امرأة منكن تضطجع لزوجها وهذا عدوه قد نزل بساحته إن لم يقاتل عنها، وإذا أراد ذلك منها فلتتمنع عليه ولتحث في وجهه التراب، ثم لتقل له: أخرج قاتل عني، فلست لك بامرأة حتى تمنعني، فلعمري ما تقرب النساء على مثل هذه الحال إلا أهل الفسولة والنذالة، ثم مضى. فقالت المرأة: وا سوأتاه منه، إنما ظننت أنه ابن قرط، فإنه لم يتعش البارحة إلا عشاء خفيفاً، آثر بعشائه رجلين من إخوانه تعشياً عنده، فكنت هيأت له غداءه، فأردت أن ينزل فيتغدى.

قال ابن قرط [1]: ولما نزل الروم منزلهم الذي نزلوا فيه، دسسنا إليهم رجالاً من أهل البلد كانوا نصارى قد أسلموا، فأمرناهم أن يدخلوا عسكرهم فيكتموا إسلامهم ويأتونا بأخبارهم، فكانوا يفعلون ذلك، قال: فلبثوا أياماً مقابلينا ثلاثاً أو أربعاً لا يسألوننا [2] عن شيء ولا نسألهم، ولا يتعرضون لنا ولا نتعرض // لهم، ١٥٥ أ فبينا نحن كذلك إذ سمعنا جلبة شديدة وأصواتاً عالية، فظننا أن القوم يريدون

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٢) في الأصل: لا يسألونا.

النهوض إلينا، فتهيأنا وتيسرنا، ثم دسسنا إليهم عيوناً ليأتونا بالخبر، فما لبثنا إلا قليلاً حتى رجعوا إلينا فأخبرونا أن بريداً جاءهم من قبل ملك الروم فبشرهم بمال يقسم بينهم وبمدد يأتيهم، ففرحوا بذلك ورفعوا له أصواتهم، واجتمعوا إلى باهان النائب فيهم عن ملكهم، فقام فيهم فقال: إن الله لم يزل لدينكم هذا معزاً وناصراً، وقد جاءكم قوم يريدون أن يفسدوا عليكم دينكم ويغلبوكم على دنياكم، وأنتم عدد الحصى والثرى والذر، والله إن في هذا الوادي منكم لنحواً من أربعمائة ألف مقاتل سوى أتباعكم وأعوانكم، ومن اجتمع إليكم من سكان بلادكم وممن هو معكم على دينكم، فلا يهولنكم أمر هؤلاء القوم، فإن عددهم قليل، وهم أهل الشقاء والبؤس وجلهم حاسر جائع، وأنتم الملوك، وأهل الحصون والقلاع والعدة والقوة، فلا تبرحوا العرصة [١] حتى تهلكوهم أو تهلكوا أنتم. فقام إليه بطارقتهم فقالوا له: مرنا بأمرك، ثم انظر ما نصنع. قال: فتيسروا حتى آمركم.

وعن أبي بشر [٢] - رجل من تنوخ كان مع باهان - قال: كنت نصرانياً، فنصرت النصارى على العرب، فأقبلت مع الروم، فإذا من نمر به من أهل البلد أحسن شيء ثناء على العرب في سيرتهم وفي كل شيء من أمرهم، وأقبلت الروم فجعلوا يفسدون في الأرض ويسيئون السيرة، ويعصون الأمراء، حتى ضج منهم الناس، وشكاهم أهل القرى، فلا تزال جماعة تجيء معها بالجارية قد افتضت، وجماعة يشكون أن أغنامهم ذبحت، وآخرون أنهم خربوا وسلبوا، فلما رأى ذلك باهان، قام فيهم خطيباً فقال: يا معشر أهل هذا الدين، إن حجة الله عليكم عظيمة، إذ بعث إليكم رسولاً، وأنزل عليه كتاباً، وكان رسولكم لا يريد الدنيا، ويزهدكم فيها، وأمركم أن لا تظلموا أحداً، فإن الله لا يحب الظالمين، وأنتم الآن تظلمون، فما عذركم غداً عند خالقكم وقد تركتم أمره وأمر نبيكم

(١) العرصة: كل جوبة منفتقة ليس فيها بناء - ابن منظور. اللسان ص ٢٨٨٣.

(٢) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ١٧٥ - ١٧٧.

وما أتاكم به من كتاب ربكم؟ وهذا عدوكم قد نزل بكم، يقتل مقاتليكم، ويسبي ذراريكم، وأنتم تعملون بالمعاصي، ولا ترعوَن منها خشية العقاب، فإن نزع الله سلطانكم من أيديكم وأظهر عليكم عدوكم فمن الظالم إلا أنتم، فاتقوا الله وانزعوا عن ظلم الناس.

فقام إليه رجل من أهل البلد من أهل الذمة يشكو مظلمة، فتكلم بلسانهم، وأنا أفقه كلامهم، فقال: أيها الملك، عشت الدهر ووقيناك بأنفسنا مكروه الأحداث، إني امرؤ من أهل البلد من أهل الذمة وكانت لي غنم أظنها مائة شاة أو تنقص قليلاً، وكان فيها ابن لي يرعاها، فمر به عظيم من عظماء أصحابك، فضرب بناءه[1] إلى جنبها وأخذ حاجته منها، وانتهب بقيتها أصحابه، فجاءته امرأتي تشكو إليه انتهاب أصحابه غنمي، وتقول له: أما ما أخذت أنت لنفسك فهو لك، ولكن ابعث إلى أصحابك يردوا علينا غنمنا، فلما رآها أمر بها فأدخلت بناءه، وطال مكثها عنده، فلما رأى ذلك ابنها دنا من باب البناء فاطلع فيه، فإذا هو بصاحبكم ينكح أمه وهي تبكي، فصاح الغـلام، فأمر به فقتل، فأخبروني ذلك، فأقبلت إلى ابني، فأمر بعض أصحابه فشد عليّ بالسيف ليضربني، فاتقيته بيدي فقطعها، فقال له باهان: فهل تعرفه؟ قال: نعم، قال: وأين هو؟ قال: هو ذا، لعظيم حاضر عنده من عظمائهم، قال: فغضب ذلك العظيم، وغضب له ناس من أصحابه، وكان فيهم ذا شارة وشرف، فأقبل ناس من أصحابه أكثر من مائة، فشدوا على المستعدي فضربوه بأسيافهم حتى مات، ثم رجعوا، وباهان ينظر إلى ما صنعوا، فقال بلسانه: العجب كل العجب، كيف لا تنهد الجبال، وتنفجر البحار، وتتزلزل الأرض، وترعد السماء لهذه الخطيئة التي عملتموها وأنا أنظر، ولأعمالكم العظام التي تعملونها وأنا أرى وأسمع، إن كنتم تؤمنون أن لهؤلاء المستضعفين المظلومين إلهاً ينصف المظلوم من الظالم فأيقنوا بالقصاص، ومن الآن يعجل لكم الهلاك، وإن كنتم لا تؤمنون بذلك، فأنتم والله عندي شر

---

(١) في الأزدي: حباءه.

من الكلاب والحمر، ولعمري إنكم لتعملون أعمال قوم لا يؤمنون، ولقد سخط الله أعمالكم، وليكلنكم إلى أنفسكم، فأما أنا فأشهد الله أني بريء من أعمالكم، وسترون عاقبة الظلم إلى ما تؤديكم، وإلى أي مصير تصيركم. ثم نزل.

قال التنوخي[1]: وكنا نزلنا بالمسلمين ونحن لهم هائبون، وقد كان بلغنا أن نبيهم ﷺ قال لهم: إنكم ستظهرون على الروم، وقد كانوا واقعونا غير مرة، كل ذلك يكون لهم الظفر علينا، غير أنا إذا نظرنا إلى عددنا وجموعنا طابت أنفسنا وظننا أن مثل جمعنا لا يفل، فأقام باهان أياماً يراسل من حوله من الروم ويأمرهم أن يحملوا إلى أصحابه الأسواق، فكانوا يفعلون، ولم يكن ذلك يضر المسلمين، لأن الأردن في أيديهم، فهم مخصبون بخير، فلما رأى باهان أن ذلك لا يضرهم، وأنهم مكتفون بالأردن بعث خيلاً عظيمة لتأتيهم من وراءهم وعليها بطريق من بطارقتهم، يريد أن يكبتهم بجنوده من كل جانب، فعلم المسلمون ما يريد، فدعا أبو عبيدة خالد بن الوليد، فبعثه في ألفي فارس وألفي راجل، فخرج حتى اعترض العلج، فلما استقبله نزل خالد في الرجالة، وبعث قيس بن هبيرة في الخيل، فحمل عليهم قيس، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى هزمهم الله، ومشى خالد في الرجالة حتى إذا دنا شد برايته، وشد معه المسلمون، فضاربوهم بالسيوف حتى تبددوا، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وقال قيس لرجل من بني نمير، وقد مر به البطريق يركض: يا أخا بني نمير، لا يفوتنك البطريق، فإني والله لقد كددت فرسي على هذا العدو اليوم حتى ما عنده جري، فحمل عليه النميري فركض في أثره ساعة ثم أدركه// فلما رآه البطريق قد غشيه وأحرجه عطف عليه، فاضطربا بسيفيهما، فلم يصنع السيفان شيئاً، واعتنق كل واحد منهما صاحبه، فوقعا إلى الأرض، فاعتركا ساعة، ثم صرعه النميري، فوقع على صدر البطريق، في ساقيه، فضمه البطريق إليه، وكان مثل الأسد، فلم يستطع النميري يتحرك، وجاء قيس حتى وقف عليهما، فقال: يا أخا بني نمير، قتلت الرجل إن شاء الله، قال: لا والله، ما أستطيع أن أتحرك ولا أضربه بشيء، ولقد ضمني

١٥٥ ب

---

(١) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ١٧٨ - ١٧٩.

بفخذيه، وأمسك يدي بيديه، فنزل إليه قيس فضربه، فقطع إحدى يديه، ثم تركه وانطلق، وقال للنميري: شأنك به، وقام النميري فضربه بسيفه حتى قتله، ومر به خالد بن الوليد، فقال: من قتل هذا؟ فقال له قيس: هذا النميري قتله، ولم يخبره هو بما صنع.

وفي حديث عبد الله بن قرط [١]: أن معاذ بن جبل ورجالاً معه من المسلمين قالوا لأبي عبيدة حين سار من دمشق إلى اليرموك: ألا تكتب إلى أمير المؤمنين تعلمه علم هذه الجيوش التي جاءتنا وتسأله المدد؟ قال: بلى، فكتب إليه:

أما بعد، فإن الروم نفرت إلينا براً وبحراً، ولم يخلفوا وراءهم أحداً يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به علينا، وخرجوا معهم بالقسيسين والأساقفة ونزلت إليهم الرهبان من الصوامع فاستجاشوا أهل أرمينية والجزيرة وجاؤونا وهم نحو من أربعمائة ألف رجل، وإنه لما بلغني ذلك من أمرهم كرهت أن أغر المسلمين من أنفسهم، فكشفت لهم عن الخبر، وصرحت لهم عن الأمر، وسألتهم عن الرأي، فرأى المسلمون أن يتنحوا إلى جانب من أرض الشام، ثم نضم إلينا قواصينا وننتظر المدد، فالعجل العجل علينا يا أمير المؤمنين بالمدد بعد المدد، والرجال بعد الرجال، وإلا فاحتسب نفوس المسلمين إن هم أقاموا، أو دينهم إن هم هربوا، فقد جاءهم ما لا قبل لهم به، إلا أن يمدهم الله بملائكته أو يأتيهم بغياث من عنده، والسلام عليك.

قال عبد الله بن قرط [٢]: وبعثني بكتابه، فلما قدمت على عمر دعا المهاجرين والأنصار فقرأ عليهم كتاب أبي عبيدة، فبكى المسلمون بكاء شديداً، ورفعوا أيديهم ورغبتهم إلى الله ـ عز وجل ـ أن ينصرهم، وأن يعافيهم ويدفع عنهم، واشتدت شفقتهم عليهم، وقالوا: يا أمير المؤمنين، ابعثنا إلى إخواننا، وأمر علينا أميراً ترضاه لنا، أو سر أنت بنا إليهم، فوالله إن أصيبوا فما في العيش خير

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٠.

(٢) نفسه ص ١٨١ ـ ١٨٤.

بعدهم، قال: ولم أر منهم أحداً كان أظهر جزعاً ولا أكثر شفقاً من عبد الرحمن ابن عوف، ولا أكثر قولاً لعمر: سر بنا يا أمير المؤمنين، فإنك لو قدمت الشام شد الله قلوب المسلمين، ورعب قلوب الكافرين. قال: واجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ على أن يقيم عمر ويبعث المدد، ويكون ردءاً للمسلمين. قال: فقال لي عمر ـ رحمه الله ـ كم كان بين الروم وبين المسلمين يوم خرجت؟ فقلت: نحو من ثلاث ليال. فقال عمر: هيهات متى يأتي هؤلاء غياثنا.

ثم كتب معي إلى أبي عبيدة:

أما بعد، فقد قدم علينا أخو ثمالة بكتابك، تخبر فيه بنفير الروم إلى المسلمين براً وبحراً، وبما جاشوا به عليكم من أساقفتهم ورهبانهم، وأن ربنا المحمود ذا الصنع العظيم والمن الدائم قد رأى مكان هؤلاء الأساقفة والرهبان حين بعث محمداً ﷺ بالحق فنصره بالرعب وأعزه بالنصر، وقال وهو لا يخلف الميعاد: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ (٩: الصف)، فلا يهولنك كثرة من جاءك منهم فإن الله منهم بريء، ومن بريء الله منه كان قمنا [1] أن لا تنفعه كثرته، وأن يكله الله إلى نفسه ويخذله، ولا يوحشنك قلة المسلمين في المشركين، فإن الله معك، وليس قليلاً من كان الله معه، فأقم بمكانك الذي أنت فيه حتى تلقى عدوك وتناجزهم إن شاء الله، وستظهر بالله عليهم، وكفى بالله ظهيراً ووليناً وناصراً.

وقد فهمت مقالتك: احتسب أنفس المسلمين إن أقاموا، أو دينهم إن هم هربوا، فقد جاءهم ما لا قبل لهم به إلا أن يمدهم الله بملائكته أو يأتيهم بغياث من قبله. وأيم الله، لولا استثناؤك هذا لقد كنت أسأت لعمري، لئن أقام المسلمون وصبروا فأصيبوا، لما عند الله خير للأبرار، ولقد قال الله تعالى فيهم: ﴿فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا﴾ (٢٣: الأحزاب)، فطوبى للشهداء ولمن عقل عن الله ممن معك من المسلمين أسوة

---

(١) قمن: حرى وخليق وجدير - ابن منظور. اللسان ص ٣٧٤٥.

بالمصرعين حول رسول الله ﷺ في مواطنه، فما عجز الذين قاتلوا في سبيل الله ولا هابوا لقاء الموت في جنب الله ولا وهن الذين بقوا من بعدهم ولا استكانوا لمصيبتهم، ولكن تأسوا بهم وجاهدوا في سبيل الله من خالفهم وفارق دينهم، ولقد أثنى الله على قوم بصبرهم، فقال: ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين، وما كان قولهم إلا أن قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين﴾ (١٤٦ - ١٤٨: آل عمران)، فأما ثواب الدنيا فالفتح والغنيمة، وأما ثواب الآخرة، فالمغفرة والجنة.

واقرأ كتابي هذا على الناس، ومرهم فليقاتلوا في سبيل الله وليصبروا كيما يؤتيهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

وأما قولك: إنه قد جاءهم ما لا قبل لهم به، فإلا يكن لهم به قبل، فإن لله - تعالى - بهم قبلاً، ولم يزل ربنا عليهم مقتدراً، ولو كنا إنما نقاتل عدونا بحولنا وقوتنا وكثرتنا لهيهات ما قد بدنا وهلكنا، ولكنا نتوكل على الله ربنا، ونفوض إليه أمرنا، ونبرأ إليه من الحول والقوة، ونسأله النصر والرحمة، وإنكم منصورون إن شاء الله على كل حال، فأخلصوا لله نياتكم، وارفعوا إليه رغبتكم، واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون، والسلام.

قال عبد الله بن قرط: فدفع إليّ عمر الكتاب وأمرني أن أعجل السير، وقال لي: إذا قدمت على المسلمين فسر في صفهم، وقف على كل صاحب راية منهم، وأخبرهم أنك رسولي إليهم، وقل لهم: إن عمر يقرئكم السلام ويقول: يا أهل الإسلام، اصدقوا //وشدوا على أعدائكم شد الليوث، وأعضوا هامهم السيوف، ١٥٦ أ وليكونوا أهون عليكم من الذر، لا تهلكم كثرتهم ولا تستوحشوا لمن لم يلحق بكم منكم.

قال: فركبت راحلتي وأقبلت مسرعاً، أتخوف ألا آتي الناس حتى تكون

الوقعة، فانتهيت إلى أبي عبيدة يوم قدم عليه سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي في ألف رجل مدداً من قبل عمر ـ رضي الله عنه ـ فسر بمقدمه المسلمون، وشجعهم ذلك على عدوهم، ودفعت إلى أبي عبيدة كتاب عمر، فقرأه على الناس، فاشتد سرورهم برأيه لهم، وبما أمرهم به من الصبر، وما رجا لهم في ذلك من الأجر.

وكان أبو عبيدة بعث سفيان بن عوف من حمص إلى عمر يستمده حين بلغه أن الروم قد جاشوا واختلفوا في الاجتماع للمسلمين، فعند ذلك بعث عمر ـ رحمه الله ـ سعيد بن عامر بالمدد، وقد كان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وجه سعيداً هذا إلى الشام في جيش، فكان مع أبي عبيدة حتى شهد معه وقعة فحل، ثم أرسله أبو عبيدة إلى عمر بالفتح، فقدم به عليه، ثم حج بعد ورجع إلى المدينة، فلم يزل مقيماً بها حتى بعثه عمر بهذا المدد.

قال حسان بن عطية[1]: لما عقد له عمر على من وجهه معه، قال له: يا سعيد، إني قد وليتك على هذا الجيش، ولست بخير رجل منهم إلا أن تكون أتقى لله منه، فلا تشتم أعراضهم، ولا تضرب أبشارهم، ولا تحقر ضعيفهم، ولا تؤثر قويهم، وكن للحق تابعاً، ولا تتبع هواك سادراً[2]، فإنه إن بلغني عنك ما أحب لم يعدمك مني ما تحب! فقال له سعيد: يا أمير المؤمنين، إنك قد أوصيتني، فاستمعت منك، فاستمع مني أوصك. قال: هات، فقد آتاك الله علماً يا سعيد، قال: يا أمير المؤمنين، خف الله في الناس، ولا تخف الناس في الله، واحبب لقريب الناس وبعيدهم ما تحب لنفسك وأهل بيتك، واكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك، وألزم الأمر ذا الحجة يكفك الله ما أهمك ويعنك على ما أمرك وما ولاك، ولا تقضين في أمر واحد بقضائين فيختلف قولك وفعلك، ويلتبس الحق بالباطل، ويشتبه عليك الأمر، فتزيغ عن الحق، وخض الغمرات إلى الحق حيث علمته، ولا يأخذك في الله لومة لائم.

---

(١) رجل سادر: غير متثبت، متحير ـ المصدر السابق ص ١٩٧٢.

(٢) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

قال: فأكب عمر طويلاً وفي يده عصا له وهو واضع جبهته عليها، ثم رفع رأسه ودموعه تسيل، فقال: لله أبوك يا سعيد، ومن يستطيع هذا الذي تذكر؟ قال: من طوق ما طوقت، وحمل ما حملت من هذا الأمر، وإنما عليك أن تأمر فتطاع، أو تعصي فتبوء بالحجة، ويبوء القوم بالمعصية.

وعن الحارث بن عبد الله الأزدي قال:[١] لما نزل أبو عبيدة اليرموك وضم إليه قواصيه وجاءتنا جموع الروم يجرون الشوك والشجر، ومعهم القسيسون والرهبان والأساقفة، يقصون عليهم ويحرضونهم، خافهم المسلمون، فما كان شيء أحب إليهم من أن يخرجوا لهم ويتنحوا عن بلادهم حتى يأتيهم مدد، يرون أنهم يقوون به على من جاءهم من الروم، فاستشار أبو عبيدة الناس، فكلهم أشار عليه بالخروج من الشام، إلا خالد بن الوليد، فإنه أشار عليه بالمقام، وقال له: خلني والناس ودعني والأمر وولني ما وراء بابك فأنا أكفيك بإذن الله أمر هذا العدو، فقال له أبو عبيدة: شأنك بالناس، فخلاه وإياهم، قال: وكان قيس بن هبيرة على مثل رأي خالد، ولم يكن في المسلمين أحد يعدلها في الحرب وشدة البأس. قال: فخرج خالد في الناس وهم أحسن شيء دعة ورعة وهيئة، وأشدهم في لقاء عدوهم بصيرة، وأطيبهم أنفساً، فصفهم خالد ثلاثة صفوف، وجعل ميمنة وميسرة، ثم أتى أبا عبيدة. قال: من كنت تجعل على ميمنتك؟ قال: معاذ بن جبل، قال: أهل ذلك هو الرضي الثقة، فولها إياه، فأمر أبو عبيدة معاذاً فوقف في الميمنة، ثم قال: من كنت تول الميسرة؟ قال: غير واحد، قال: فولها إن رأيت قباث بن أشيم، فأمره أبو عبيدة فوقف في الميسرة، وكان فيها كنانة وقيس، وكان قباث كنانياً، وكان شجاعاً بئساً. قال خالد: وأنا على الخيل، وول على الرجالة من شئت، قال: أوليها إن شاء الله من لا يخاف نكوله ولا صدوده عند البأس، أوليها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، قال: أصبت ووفقت ورشدت. قال أبو عبيدة: انزل يا هاشم، فأنت على الرجالة وأنا معك،

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٧ ـ ١٩٩.

وقال خالد لأبي عبيدة: أرسل إلى أهل كل راية فمرهم أن يطيعوني، فدعا أبو عبيدة الضحاك بن قيس، فأمره بذلك، فخرج الضحاك يسير في الناس ويقول لهم: إن أميركم أبا عبيدة يأمركم بطاعة خالد بن الوليد فيما أمركم به. فقال الناس: سمعنا وأطعنا، وقال ذلك أيضاً معاذ بن جبل لما أنهى إليه الضحاك أمر أبي عبيدة، ثم نظر معاذ إلى الناس فقال: أما إنكم إن أطعتموه لتطيعن مبارك الأمر ميمون النقيبة عظيم الغناء حسن الحسبة والنية، قال الضحاك: فحدثت خالداً بذلك، فقال: رحم الله أخي معاذاً، أما والله إن أحبني إني لأحبه في الله، لقد سبقت له ولأصحابه سوابق لا ندركها فهنيئاً ما خصهم الله به من ذلك. قال الضحاك: فأخبرت معاذاً بما رد عليّ خالد، فقال: إني لأرجو أن يكون الله قد أعطاه بصيرة على جهاد المشركين، وشدة عليهم مع بصيرته وحسن نيته في إعزاز دينه أحسن الثواب، وأن يكون من أفضلنا بذلك عملاً، فقال خالد ـ وقد لقيته بذلك: ما شيء على الله بعزيز.

قال: ثم إن خالداً سار في الصفوف، يقف على أهل كل راية، ويقول: يا أهل الإسلام، إن الصبر عز وإن الفشل عجز، وإن مع الصبر تنصرون، والصابرون هم الأعلون، ومازال يقف على أهل كل راية يعظهم ويحضهم[1]، ويرغبهم حتى مر بجماعة الناس، ثم إنه جمع إليه خيل المسلمين، ودعا قيس بن هبيرة، وكان يساعده ويوافقه ويشبهه في جلده وشدته وشجاعته وإقدامه على المشركين، فقال له خالد: أنت فارس العرب، ولقل من حضر اليوم يعدلك عندي، فاخرج معي في هذه الخيل، وبعث إلى ميسرة بن مسروق العبسي، وكان من أشراف العرب وفرسانهم، وإلى // عمرو بن الطفيل ـ ذي النور ـ بن عمرو الدوسي، فخرجوا معه، ثم قسموا الخيل أرباعاً، فبعث كل رجل منهم على ربع، وخرج خالد في ربع منها حتى دنوا من عسكر الروم الأعظم الذي فيه باهان، فلما رأتهم الروم فزعوا لمجيئهم، وقد كانوا أخبروا أن العرب تريد الانصراف عن أرض الشام ويخلونهم[2] وإياها، فكان ذلك قد وقع في نفوسهم

١٥٦ ب

(١) في الأصل: ويحظهم.

(٢) في الأصل: ويخلوهم.

وطمعوا به، ورجوا أن لا يكون بينهم قتال، وصدق ذلك عندهم خروجهم من بين أيديهم يسوقونهم، وهم يدعون لهم الأرض والمدائن التي كانوا قد غلبوا عليها، فلما رأوا خالداً قد أقبل إليهم في الخيل فزعهم ذلك وخرجوا على راياتهم بصلبهم، والقسيسون والرهبان والبطارقة معهم، فصفوا عشرين صفاً لا ترى أطرافها، ثم أخرجوا إلى المسلمين خيلاً عظيمة تكون أضعاف المسلمين مضاعفة، فلما دنت خيلهم من خيل المسلمين خرج بطريق من بطارقتهم يسأل المبارزة، ويتعرض لخيل المسلمين، فقال خالد: أما لهذا رجل يخرج إليه، ليخرجن إليه بعضكم أو لأخرجن إليه، فنفلت إليه عدة من المسلمين ليخرجوا إليه، وأراد ميسرة بن مسروق ذلك، فقال له خالد: أنت شيخ كبير وهذا الرومي شاب ولا أحب أن تخرج إليه، فإنه لا يكاد الشيخ الكبير يقوى على الشاب الحديث السن، فقف لنا يرحمك الله في كتيبتك، فإنك ما علمت حسن البلاء عظيم الغناء، وأراد عمرو بن الطفيل الخروج إليه، فقال له خالد: يا بن أخي أنت غلام حدث، وأخاف أن لا تقوى عليه، قال الحارث بن عبد الله: وكنت في خيل خالد التي خرجت معه، فقلت: أنا أخرج إليه، فقال: ما شئت، قال، فلما ذهبت لأخرج قال لي: هل بارزت رجلاً قط قبله؟ قلت: لا، قال: فلا تخرج إليه، فقال قيس ابن هبيرة: كأنك يا خالد عليّ تحوم؟ قال: أجل، وإني أرجو إن خرجت إليه أن تقتله، وإن أنت لم تخرج إليه لأخرجن إليه أنا، قال قيس: بل أنا أخرج إليه، فخرج وهو يقول:

سائل نساء الحي في حجلاتها[1] ألست يوم الحرب من أبطالها

ومقعص[2] الأقران من رجالها

(الرجز)

فخرج إليه، فلما دنا منه ضرب فرسه، ثم حمل عليه فما هلل[3] أن ضربه

---

(١) في الأصل، حجالها.

(٢) القعص: القتل المعجل، وضربه فأقعصه: أماته مكانه - ابن منظور. اللسان ص ٣٦٩٣.

(٣) ماهلل: ما تأخر - نفسه ص ٤٦٩٠.

بالسيف على هامته فقطع ما عليها من السلاح، وفلق هامته، فإذا الرومي بين يدي فرسه قتيلاً، وكبر المسلمون فقال خالد: ما بعد ما ترون إلا الفتح، احمل عليهم يا قيس، ثم أقبل خالد على أصحابه فقال: احملوا عليهم، فوالله لا يفلحون وأولهم فارساً متعفراً في التراب، قال: فحملنا عليهم وعلى من يلينا منهم ومن خيلهم، وهي مستقدمة أمام صفوفهم وصفوفهم كأنها أعراض الجبال، فكشفنا خيلهم حتى لحقت بالصفوف، وحمل خالد وأصحابه على من يليه منهم، فكشفوهم حتى ألحقوهم بالصفوف، وحمل عمرو بن الطفيل وميسرة بن مسروق في أصحابهما حتى ألحقوهم بالصفوف، ثم إن خالداً أمر خيله فانصرفت عنهم ثم أقبل بها حتى لحق بجماعة المسلمين وقد أراهم الله السرور في المشركين.

قال: وتلاومت بطارقة الروم، وقال بعضهم لبعض: جاءتكم خيل لعدوكم ليست بالكثيرة فكشفت خيولكم من كل جانب، فأقبلت[1] منهم كتائب في أثر كتائب، فطيفوا الأرض مثل الليل والسيل، كأنها الجراد السود، وظن المسلمون أنهم يخالطونهم، والمسلمون جراء عليهم سراع إليهم، فأقبلوا حتى إذا دنوا من جماعة المسلمين وقفوا ساعة وقد هابوا المسلمين وامتلأت صدورهم خوفاً منهم، فقال خالد للناس: قد رجعنا عنهم ولنا الظفر عليهم، فاثبتوا لهم ساعة، فإن أقدموا علينا قاتلناهم، وإن رجعوا عنا كان لنا الظفر والفضل عليهم، فأخذوا يقتربون ثم يرجعون، والمسلمون في مصافهم وتحت راياتهم سكوت لا يتكلم رجل منهم كلمة إلا أن يدعو الله في نفسه ويستنصره على عدوه، فلما نظرت الروم إلى خيل المسلمين ورجالتهم ومصافهم وحدهم وجدهم وصبرهم وسكونهم ألقى الله ـ عز وجل ـ الرعب في قلوبهم منهم، فواقفوهم ساعة ثم انصرفوا راجعين عنهم إلى عسكرهم، فاجتمعت بطارقتهم وعظماؤهم إلى باهان وهو أصبر جماعتهم، فقال لهم باهان: إني قد رأيت رأياً وأنا ذاكره لكم، إن هؤلاء القوم قد نزلوا بلادكم وركبوا من مراكبكم وطعموا من طعامكم ولبسوا من ثيابكم، فعدل الموت عندهم أن يفارقوا ما تطعموه من عيشكم الرفيع ودنياكم التي لم يروا مثلها قط،

---

(١) في الأصل: أقبل.

وقد رأيت أن أسألهم إن رأيتم ذلك أن يبعثوا إلينا رجلاً منهم له عقل فنناطقه ونشافهه ونطمعهم في شيء يرجعون به إلى أهاليهم، لعل ذلك يسخى بأنفسهم عن بلادنا، فإن هم فعلوا ذلك كان الذي يريدون منا قليلاً فيما نخاف وندفع به خطر الوقعة التي لا ندري أعلينا تكون أم لنا، فقالوا له: قد أصبت وأحسنت النظر لجماعتنا، فاعمل برأيك. فبعث رجلاً من خيارهم وعظمائهم يقال له جرجة إلى أبي عبيدة، فقال له: إني رسول باهان عامل ملك الروم على الشام، وعلى هذه الجنود، وهو يقول لك: أرسل إليّ الرجل الذي كان قبلك أميراً فإنه ذكر لي أنه رجل ذو عقل وله فيكم حسب، وقد سمعنا أن عقول ذوي الأحساب أفضل من عقول غيرهم، فنخبره بما نريد ونسأله عما تريدون، فإن وقع فيما بيننا وبينكم أمر لنا ولكم فيه صلاح أو رضى أخذنا به وحمدنا الله عليه، وإن لم يتفق ذلك كان القتال من ورائنا هنالك.

فدعا أبو عبيدة خالداً فأخبره بالذي جاء فيه الرومي، وقال لخالد: القهم فادعهم إلى الإسلام، فإن قبلوا فهو حظهم، وكانوا قوماً لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وإن أبوا فاعرض عليهم الجزية، أن يؤدوها عن يد وهم صاغرون، فإن أبوا فأعلمهم أنا نناجزهم ونستعين الله عليهم، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

قال: وجاء رسولهم - هذا الرومي - عند غروب الشمس فلم يمكث إلا يسيراً حتى حضرت الصلاة فقام المسلمون يصلون صلاتهم، فلما قضوها قال ذلك الرومي: هذا الليل// قد غشينا، ولكن إذا أصبحت غدوت إلى صاحبنا إن شاء الله، وجعل ينظر إلى رجال من المسلمين يصلون وهم يدعون الله ويتضرعون إليه، وجعل ما يفيق وما يصرف بصره عنهم، فقال عمرو: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، فقال أبو عبيدة: كلا والله، إني لأرجو أن يكون الله قد قذف في قلبه الإيمان وحببه إليه، وعرفه فضله، أوما ننظر إلى نظره إلى المصلين؟ ولبث الرومي بذلك قليلاً ثم أقبل على أبي عبيدة، فقال: أيها الرجل، ١٥٧ أ

أخبرني متى دخلتم في هذا الدين؟ ومتى دعوتم الناس إليه؟ فقال أبو عبيدة: دعينا إليه منذ بضع وعشرين سنة، فمنا من أسلم حين أتاه الرسول، ومنا من أسلم بعد ذلك، فقال: هل كان رسولكم أخبركم أنه يأتي من بعده رسول؟ قال: لا، ولكنه أخبرنا أنه لا نبيّ بعده، وأخبرنا أن عيسى بن مريم قد بشر به قومه، قال الرومي: وأنا على ذلك من الشاهدين، إن عيسى بن مريم قد بشرنا براكب الجمل، وما أظنه إلا صاحبكم. ثم قال: أخبرني عن قول صاحبكم في عيسى، فقال له أبو عبيدة: قول صاحبنا فيه قول الله ـ تعالى ـ فيه، وهو أصدق القائلين وأبرهم، قال الله تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له: كن فيكون﴾ (٥٩ : آل عمران)، وقال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ إلى قوله: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾ (١٧١ - ١٧٢ : النساء)، فلما فسر له الترجمان ذلك وبلغ هذا المكان قال: أشهد أن هذه صفة عيسى، وأشهد أن نبيكم صادق، وأنه الذي بشر به عيسى، وأنكم قوم صدق، وقال لأبي عبيدة: ادع لي رجلين من أول أصحابك إسلاماً، وهما فيما ترى أفضل من معك، فدعا أبو عبيدة ـ معاذ بن جبل وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، فقال له: هذان من أفضل المسلمين فضلاً، ومن أولهم إسلاماً، فقال لهما الرومي ولأبي عبيدة: أتضمنون لي الجنة إن أنا أسلمت وجاهدت معكم؟ فقالوا له: نعم، إن أنت أسلمت واستقمت ولم تغير حتى تموت وأنت على ذلك فإنك من أهل الجنة، قال: فإني أشهدكم أني من المسلمين، فأسلم وفرح المسلمون بإسلامه، وصافحوه ودعوا له بخير، وقالوا له: إنا إن أرسلنا رسولنا إلى صاحبكم وأنت عندنا ظنوا أنا حبسناك عنهم، فنتخوف أن يحبسوا صاحبنا، فإن شئت أن تأتيهم الليلة وتكتم إسلامك حتى نبعث إليهم رسولنا غداً وننظر علام ينصرم الأمر بيننا وبينهم، فإذا رجع رسولنا إلينا أتيتنا عند ذلك، فما أعزك علينا وأرغبنا فيك وأكرمك علينا، وما أنت الآن عند كل امرىء منا إلا بمنزلة أخيه لأبيه وأمه.

قال: فإنكم نعم ما رأيتم، فخرج فبات في أصحابه، وقال لباهان: غداً يجيئكم رسول القوم الذي سألتم، وانصرف إلىَ المسلمين لما رجع إليهم خالد، فأسلم وحسن إسلامه.

ولما أصبح المسلمون من تلك الليلة بعث خالد بن الوليد بقبة له حمراء من أدم كان اشتراها بثلاثمائة دينار، فضربت له في عسكر الروم، ثم خرج حتى أتاها، فأقام فيها ساعة، وكان خالد رجلاً طويلاً جميلاً جليداً مهيباً لا ينظر إليه رجل إلا ملأ صدره وعرف أنه من جلداء الرجال وشجعانهم، وأشدائهم، وبعث باهان إلى خالد وهو في قبته: أن ألقني، ووصف له في طريقه عشرة صفوف عن يمينه، وعشرة صفوف عن شماله، مقنعين في الحديد، عليهم الدروع والبيض والسواعد والجواشن والسيوف، لا يرى منهم إلا الحدق، وصف من وراء تلك الصفوف خيلاً عظيمة، وإنما أراد أن يريه عدد الروم وعدتهم ليرعبه بذلك، وليكون أسرع له إلى ما يريد أن يعرض عليه، فأقبل خالد غير مكترث لما رأى من هيآتهم وجماعتهم، ولكانوا أهون عليه من الكلاب، فلما دنا من باهان رحب به، ثم قال بلسانه: هاهنا عندي، اجلس معي فإنك من ذوي أحساب العرب فيما ذكر لي، ومن شجعانهم،ونحن نحب الشجاع ذا الحسب، وقد ذكر لي أن لك عقلاً ووفاء، والعاقل ينفعك كلامه، والوفي يصدق قوله ويوثق بعهده، وأجلس فيما بينه وبين خالد ترجماناً له يفسر لخالد ما يقول، وخالد جالس إلى جنبه.

قال الحارث بن عبد الله الأزدي[1]: قال لي خالد يوم غدا إلى عسكر الروم: اخرج معي - وكنت صديقاً له قل ما أفارقه وكان يستشيرني في الأمر إذا نزل به، فكنت أشير عليه بمبلغ رأيي، فكان يقول لي: إنك ما علمت لميمون الرأي ولقل ما أشرت عليّ بمشورة إلا وجدت عاقبتها تؤدي إلى سلامة - فخرجت يومئذ معه، حتى إذا دخلنا عسكرهم وضربت قبته وبعث إليه باهان

---

(١) ساقط من تاريخ فتوح الشام للأزدي.

ليلقاه قال لي: انطلق معي، فقلت له: إن القوم إنما أرادوك ولا أراهم يدعونني أدنو إليهم معك، فقال لي: امضه، فمضيت معه، فلما دنونا من باهان وعلى رأسه ألوف، رجال بعضهم خلف بعض وحوله، لا يرى منهم إلا أعينهم، وفي أيديهم العمد، جاءنا الترجمان فقال: أيكما خالد؟ فقال خالد: أنا، فقال: أقبل أنت وليرجع هذا، فقام خالد وقال: هذا رجل من أصحابي ولست استغني عن رأيه، فرجع إلى باهان فأخبره، فقال: دعوه فليأت معه، فأقبلنا نحوه، فلم يمش إلا خطاً خمساً أو ستاً حتى جاء نحو من عشرة، فقالوا لي: ضع سيفك، ولم يقولوا لخالد شيئاً، فنظرت ما يقول لي خالد، فقال لهم: ما كان ليضع عزه من عنقه أبداً، وقد بعثتم إلينا فأتيناكم، فإن تكرمونا جلسنا إليكم وسمعنا منكم، وإن أبيتم فخلوا سبيلنا فننصرف عنكم، فرجع الترجمان إلى باهان فأخبره، فقال: دعوهما، فأقبلنا إليه، فرحب بخالد وأجلسه معه، وجلست أنا على نمارق مطروحة للناس قريباً منهما، وحيث أسمع كلامهما، فقال باهان لخالد: إنك من ذوي أحساب العرب ـ فيما ذكر لي ـ ومن شجعانهم، وقد ذكر لي أن لك عقلاً ووفاء، والعاقل ينفعك كلامه، والوفي يصدق قوله ويوثق بعهده، فلما فسر له

١٥٧ ب الترجمان ذلك قال خالد: إن نبينا ﷺ قال لنا: إن حسب المرء دينه//، ومن لم يكن له دين فلا حسب له، وقال لنا: إن أفضل الشجاعة وخيرها في العاجلة والعاقبة ما كان منها في طاعة الله، وأما ما ذكرت أني أوتيت عقلاً ووفاء، فإن أكن أوتيت ذلك فلله المن والفضل علينا، وهو المحمود عندنا، وقد قال لنا نبينا ﷺ إن الله لما خلق العقل وفرغ من خلقه، قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، ثم قال له: وعزتي ما خلقت من خلقي شيئاً هو أحب إليّ منك، بك أحمد، وبك أعبد، وبك أعرف، وبك تنال طاعتي، وبك تدخل جنتي، ثم قال خالد: والوفاء لا يكون إلا من العقل، فمن لم يكن له عقل فلا وفاء له، ومن لا وفاء له لا عقل له. فقال له باهان: أنت أعقل أهل الأرض، ما يتكلم بكلامك ولا يبصره ولا يفطن له إلا الفائق من الرجال، ثم قال لخالد: أخبرني عنك، وأنت هكذا تحتاج إلى مشورة هذا الرجل؟ فقال له خالد: وأعجب من ذلك أن في عسكرنا أكثر من ألف رجل كلهم لا يستغني عن رأيه

ولا عن مشورته، فقال باهان: ما كنا نظن ذلك عندكم، ولا نراكم به، فقال له خالد: ما كل ما تظنون ونظن يكون صواباً، فقال باهان: صدقت، ثم قال له: إن أول ما أكلمك به أني أدعوك إلى خلتي ومصافاتي، فقال له خالد: كيف لي ولك أن يتم هذا فيما بيني وبينك وقد جمعتني وإياك بلدة لا أريد أنا ولا تريد أنت أن نفترق حتى تصير البلدة لأحدنا، فقال له باهان: فلعل الله أن يصلح بيننا وبينك فلا يهراق دم ولا يقتل قتيل، قال خالد: إن شاء الله فعل، قال باهان: فإني أريد أن ألقي الحشمة فيما بيني وبينك وأكلمك كلام الأخ أخاه، إن قبتك هذه الحمراء قد أعجبتني فأنا أحب أن تهبها لي، فإني لم أر قبة من القباب أحسن منها، فخذ ما بدا لك فيها وسلني ما أحببت فهو في يدك، فقال له خالد: خذها فهي لك، ولست أريد من متاعك شيئاً، قال: والله ما ظننته سألها إلا لينظر إليها، فإذا هو قد أخذها، ثم قال لخالد: إن شئت بدأتك فتكلمت، وإن شئت أنت فتكلم، فقال له خالد: ما أبالي أي ذلك كان، أما أنا فلا أخالك إلا وقد بلغك وعلمت ما أسأل وأطلب، وما أدعو إليه، وقد جاءك بذلك أصحابك ومن لقينا منهم بأجنادين ومرج الصفر وفحل ومدائنكم وحصونكم، وأما أنت فلست أدري ما تريد أن تقول، فإن شئت فتكلم، وإن شئت بدأتك فتكلمت، فقال باهان:

الحمد لله الذي جعل نبينا أفضل الأنبياء، وملكنا أفضل الملوك، وأمتنا أفضل الأمم، فلما بلغ هذا المكان، قال خالد وقطع على باهان منطقه: والحمد لله الذي جعلنا نؤمن بنبينا ونبيكم، وبجميع الأنبياء، وجعل الأمير الذي وليناه أمورنا رجلاً كبعضنا، فلو زعم أنه ملك علينا لعزلناه عنا، ولسنا نرى أن له على رجل من المسلمين فضلاً إلا أن يكون أتقى منه عند الله، وأبر، والحمد لله الذي جعل أمتنا تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، وتقر بالذنب وتستغفر منه، وتعبد الله وحده لا تشرك به شيئاً، قل الآن ما بدا لك.

فاصفر وجه باهان وسكت قليلاً، ثم قال: الحمد لله الذي أبلانا فأحسن البلاء عندنا فأغنانا من الفقر، ونصرنا على الأمم، وأعزنا فلا نذل، ومنعنا من

الضيم فلا تباح حرمتنا ، ولسنا فيما أعزنا الله به وأعطانا من ديننا ببطرين ولا مرحين، ولا باغين على الناس، وقد كانت لنا منكم يا معشر العرب جيران كنا نحسن جوارهم، ونعظم رفدهم، ونفضل عليهم، ونفي لهم بالعهد ، وخيرناهم بلادنا ، ينزلون منها حيث شاءوا ، فينزلون آمنين، ويرحلون آمنين، وكنا نرى أن جميع العرب ممن لا يجاورنا سيشكرون [١] لنا ذلك (الذي) آتينا إلى إخوانهم، وما اصطنعنا عندهم فلم يرعنا منهم إلا وقد فاجأتمونا[٢] بالخيل والرجال، تقاتلوننا على حصوننا، وتريدون أن تغلبونا على بلادنا ، وقد طلب هذا منا قبلكم من كان أكثر منكم عدداً وأعظم مكيدة وأقوى جداً ، فلم يرجعوا عنا إلا وهم بين أسير وقتيل، وأرادت ذلك منا فارس، فقد بلغكم كيف صنع الله بهم، وأراد ذلك منا الترك فلقيناهم بأشد مما لقينا به فارس، وأرادنا غيرهم من أهل المشرق والمغرب، من ذوي المنعة والعز والجنود العظيمة، فكلهم أظفرنا الله بهم، وصنع لنا عليهم، ولم تكن أمة من الأمم بأدق عندنا منكم شأناً ولا أصغر أخطاراً ، إنما جلكم رعاء الشاء والإبل وأهل الصحراء والحجر والبؤس والشقاء ، أفأنتم تطمعون أن نتخلى لكم عن بلادنا ، بئس ما طمعتم فيه منا ، وقد ظننا أنه لم يأت بكم إلى بلادنا ونحن ننفي كل من حولنا من الأمم العظيمة الشأن الكثيرة العدد إلا جهد نزل بكم من جدوبة الأرض وقحط المطر، فعثتم في بلادنا وأفسدتم كل الفساد ، وقد ركبتم مراكبنا ، وليست كمراكبكم، ولبستم ثيابنا ، وليست كثيابكم. وطعمتم من طعامنا وليس كطعامكم، وأصبتم منا وملأتم أيديكم من الذهب الأحمر والفضة البيضاء ، والمتاع الفاخر ، ولقد لقيناكم الآن وذلك كله لنا ، وهو في أيديكم، فنحن نسلمه لكم، فاخرجوا به وانصرفوا عن بلادنا ، فإن أبت أنفسكم إلا أن تخرجوا وتشرهوا وأردتم أن نزيدكم من بيوت أموالنا ما نقوي به الضعيف منكم، ويرى الغائب أن قد رجع إلى أهله بخير فعلنا ، ونأمر للأمير منكم بعشرة آلاف دينار ونأمر لك بمثلها ، ونأمر لرؤسائكم بألف دينار ألف دينار ، ونأمر لجميع أصحابك لكل واحد منهم بمائة دينار، على

---

(١) في الأصل: سيشكر.

(٢) في الأصل: فجئتمونا.

أن تحلفوا لنا بالأيمان المغلظة أن لا تعودوا إلى بلادنا، ثم سكت.

فقال خالد: الحمد لله الذي لا إله إلا هو، فلما فسر ذلك الترجمان، رفع (باهان) يديه إلىٰ السماء، ثم أشار إليه بيده، وقال لخالد: نعم ما قلت، قال خالد: وأشهد أن محمداً رسول الله، فلما فسرها الترجمان قال باهان: الله أعلم، ما أدري لعله كما تقول، ثم قال خالد: أما بعد، فإن كل ما ذكرت به قومك من الغنى والعز ومنع الحريم والظفر على الأعداء والتمكن في البلاد نحن به عارفون، وكل ما ذكرت من إنعامكم على جيرانكم منا فقد عرفناه، وذلك لأمر كنتم تصلحون // به دنياكم، فكان زيادة في ملككم وعزا لكم ألا ترون أن ثلثيهم أو شطرهم قد دخلوا في دينكم وهم يقاتلوننا معكم، وأما ما ذكرتنا به من رعي الإبل والغنم، فما أقل ما رأيت واحداً منا يكرهه، وما لمن يكرهه منا فضل على من يفعله، وأما قولك: إنا أهل الصحراء والحجر والبؤس والشقاء، فحالنا والله كما وصفته وما ننتفي من ذلك ولا نتبرأ منه، وكنا على أسوأ وأشد مما ذكرت، وسأقص عليك قصتنا وأعرض عليك أمرنا وأدعوك إلى حظك إن قبلت، ألا إنا كنا معشر العرب أمة من هذه الأمم، أنزلنا الله وله الحمد منزلاً من الأرض ليست به أنهار جارية ولا يكون فيه من الزرع إلا القليل، وجل أرضنا المهامة والقفار، وكنا أهل حجر ومدر وشاة وبعير وعيش شديد وبلاء دائم لازم، نقطع أرحامنا، ونقتل خشية الإملاق أولادنا، ويأكل قوينا ضعيفنا، وكثيرنا قليلنا، ولا تأمن قبيلة منا قبيلة إلا أربعة أشهر من السنة، نعبد من دون الله أوثاناً وأصناماً ننحتها بأيدينا من الحجارة التي نختارها على أعيننا، وهي لا تضر ولا تنفع، ونحن عليها مكبون، فبينا نحن كذلك على شفا حفرة من النار، من مات منا مات مشركاً وسار إلى النار، ومن بقي منا بقي مشركاً كافراً بربه قاطعاً لرحمه، إذ بعث الله فينا رسولاً من صميمنا وخيارنا دعانا إلى الله وحده أن نعبده ولا نشرك به شيئاً، وأن نخلع الأنداد التي يعبدها المشركون، وقال لنا: لا تتخذوا من دون ربكم إلهاً، ولا ولياً، ولا نصيراً، ولا تجعلوا معه صاحبة ولا ولداً، ولا تعبدوا من دونه ناراً ولا حجراً ولا شمساً ولا قمراً،

١٥٨ أ

واكتفوا به ربا وإهاً من كل شيء دونه، وكونوا أولياءه، وإليه فارغبوا، وإياه فادعوا، وقال لنا: قاتلوا من اتخذ مع الله آلهة أخرى، وكل من زعم أن لله ولداً، وأنه ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة حتى يقولوا: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ويدخلوا في الإسلام، فإن فعلوا حرمت عليكم دماؤهم وأموالهم وأعراضهم إلا بحقها، وهم أخوانكم في الدين، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، فإن هم أبوا أن يدخلوا في دينكم وأقاموا على دينهم فاعرضوا عليهم الجزية أن يؤدوها عن يد وهم صاغرون، فإن فعلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم، فإن أبوا فقاتلوهم، فإنه من قتل منكم كان شهيداً حياً عند الله، مرزوقاً، وأدخله الله الجنة، ومن قتل من عدوكم قتل كافراً وصار إلى النار مخلداً فيها أبداً، ثم قال خالد: وهذا والله الذي لا إله إلا هو هو الذي أمر الله به نبيه ﷺ فعلمناه، وأمرنا به، وأمرنا أن ندعو الناس إليه، ونحن ندعوكم إلى الإسلام وإلى أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وإلى أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتقروا بما جاء به من عند الله، فإن فعلتم فأنتم إخواننا في الدين، لكم ما لنا وعليكم ما علينا، فإن أبيتم فإنا نعرض عليكم أن تعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، فإن فعلتم قبلنا منكم وكففنا عنكم، وإن أبيتم أن تفعلوا فقد والله جاءكم قوم هم أحرص على الموت منكم على الحياة، فاخرجوا بنا على اسم الله حتى نحاكمكم إلى الله، فإنما الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، ثم سكت خالد، فقال باهان: أما أن ندخل في دينكم فما أبعد من ترى من الناس أن يترك دينه ويدخل في دينكم، وإما أن نؤدي الجزية، ثم تنفس الصعداء، وثقلت عليه وعظمت عنده، فسيموت من ترى جميعاً قبل أن يؤدوا الجزية إلى أحد من الناس، وهم يأخذون الجزية ولا يعطونها، وأما قولك: فاخرجوا حتى يحكم الله بيننا، فلعمري ما جاءك هؤلاء القوم وهذه الجموع إلا ليحاكموك إلى الله، وأما قولك: إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، فصدقت والله، ما كانت هذه الأرض التي نقاتلكم عليها وتقاتلوننا إلا لأمة من الأمم كانوا قبلنا فيها، فقاتلناهم عليها فأخرجناهم منها، وقد كانت قبل ذلك

لقوم آخرين فأخرجهم منها هؤلاء الذين كنا قاتلناهم عليها، فابرزوا على اسم الله، فإنا خارجون إليكم.

قال الحارث[1]: فلما فرغ باهان من كلامه وثب خالد فقام، وقمت معه، فمر بقبته فتركها، وبعث معنا صاحب الروم رجالاً حتى أخرجونا من عسكرهم وأمنا، فرجعنا إلى أبي عبيدة، فقص عليهم خالد الخبر، وأخبرهم بأن القتال سيقع بينهم، وقال للناس: استعدوا أيها الناس استعداد قوم يرون أنهم عن ساعة مقاتلون.

وحدث أبو جهضم الأزدي عن رجل من الروم كان مع باهان في عسكرهم ذلك وأسلم بعد فحسن إسلامه، قال[2]: كتب باهان إلى قيصر كتاباً يخبره فيه بخالد وحال أصحابه وحال المسلمين، وكان قد جمع أصحابه يوم انصرف عنهم خالد، فقال: أشيروا عليّ برأيكم في أمر هؤلاء القوم فإني قد هيبتهم فما أراهم يهابون، وأطمعتهم فليس يطمعون، وأردتهم[3] على الرجوع والخروج عن بلادنا بكل وجه فليسوا براجعين، والقوم ليس يريدون إلا هلاككم واستئصالكم وسلب سلطانكم، وأكل بلادكم، وسبي أولادكم ونسائكم، وأخذ أموالكم، فإن كنتم أحراراً فقاتلوا عن سلطانكم، وامنعوا حريمكم ونساءكم وأموالكم وبلادكم وأولادكم، فقامت البطارقة رجلاً بعد رجل فكلهم يخبره أنه طيب النفس بالموت دون بلاده وسلطانه، وقالوا له: إذا شئت فانهض بنا فقال لهم: فكيف ترون، نقاتلهم فإنا أكثر من عشرة أضعافهم، نحن نحو من أربعمائة ألف، وهم نحو من ثلاثين ألفاً أو أقل أو أكثر، فقال بعضهم: أخرج إليهم في كل يوم مائة ألف يقاتلونهم وتستريح البقية، وتسرح عيالنا وأثقالنا إلى البحر، فلا يكون معنا شيء يهمنا ولا يشغلنا، ويقاتلهم كل يوم منا مائة ألف، فهم في كل يوم في قتل

---

(١) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٢٠٧.

(٢) نفسه ص ٢٠٨ وما بعدها.

(٣) في «ط» و «ح»: وأدرتهم.

وجراحة وعناء ومشقة وشدة، ونحن لا نقاتل إلا في كل أربعة أيام يوماً، فإن هم هزموا منا في كل يوم مائة ألف بقي لهم أكثر من مائتي ألف لم ينهزموا، فقال آخرون: لا، ولكنا نرى إذا هم خرجوا إلينا أن نبعث// إلى كل رجل منهم عشرة من أصحابك، فلا والله لا يجتمع عشرة على واحد إلا غلبوه، فقال باهان: هذا ما لا يكون، وكيف أقدر على عددهم حتى أبعث إلى كل رجل منهم عشرة من أصحابي، وكيف أقدر أن ينفرد الرجل منهم عن صاحبه حتى أبعث إليه عشرة من قبلي، هذا ما لا يكون. ١٥ ب

قال: فأجمعوا رأيهم جميعاً على أن يخرجوا بأجمعهم خرجة واحدة فيناجزوهم فيها ولا يرجعوا عنهم حتى يحكم الله بينهم.

وكتب باهان إلى قيصر: أما بعد، نسأل الله لك أيها الملك ولجندك وأهل مملكتك النصر ولدينك وسلطانك العز، فإنك بعثتني فيما لا يحصيه من العدد إلا الله، فقدمت على القوم، فأرسلت إليهم فهيبتهم فلم يهابوا، وأطمعتهم فلم يطمعوا، وخوفتهم فلم يخافوا، وسألتهم الصلح فلم يقبلوا، وجعلت لهم الجعل على أن ينصرفوا فلم يفعلوا، وقد ذعر منهم جند الملك ذعراً شديداً، وخشيت أن يكون الفشل قد عمهم، والرعب قد دخل قلوبهم، إلا أن منهم رجالاً قد عرفتهم ليسوا بفرارين عن عدوهم، ولا شكاك في دينهم، ولو قد لقوهم لم يفروا حتى يظهروا أو يقتلوا، وقد جمعت أهل الرأي من أصحابي، وأهل النصيحة لملكنا وديننا، فاجتمع رأيهم على النهوض إليهم جميعاً، في يوم واحد، ولا نزايلهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

قال: وكان باهان قد رأى رؤيا، فذكرها لملك الروم في كتابه هذا، فقال له: وقد أتاني آت في منامي، فقال لي: لا تقاتل هؤلاء القوم، فإنهم يهكونك ويهزمونك، فلما انتبهت عبرت أنه من الشيطان، أراد أن يحزنني، فخسأته [١]. فإن يكن الشيطان فقد خسأته، وإن لم يكن فقد بين لي الأمر. فابعث أنت أيها

---

(١) خسأ: طرد وأبعد ودحر - ابن منظور. اللسان ص ١١٥٥ - ١١٥٦.

الملك بثقلك وحرمك ومالك فألحقهم بأقصى بلادك، وانتظر وقعتنا هذه، فإن أظهرنا الله عليهم حمدت الله الذي أعز دينك ومنع سلطانك، وإن هم ظفروا علينا، فارض بقضاء الله، واعلم أن الدنيا زائلة عنك كما زالت عمن كان قبلك، فلا تأسف منها على ما فاتك ولا تغتبط منها بشيء مما في يديك، والحق بمعاقلك ودار مملكتك، وأحسن إلى رعيتك وإلى الناس يحسن الله إليك، وارحم الضعفاء والمساكين تُرحم، وتواضع لله يرفعك، فإن الله لا يحب المتكبرين، والسلام.

قال: ثم إن باهان خرج إلى المسلمين في يوم ذي ضباب ورذاذ، وصف لهم عشرين صفاً لا ترى أطرافها، ثم جعل على ميمنته ابن قنطر، ومعه جرجير في أهل أرمينية، وجعل الدرنجار في ميسرته، وكان من خيارهم ونساكهم، فأقبلوا نحو المسلمين كأنهم أعراض الجبال. وقد ملأوا الأرض، فلما نظر إليهم المسلمون وقد أقبلوا كلهم، نهضوا إلى راياتهم، وجاء خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة، وهم الأمراء الذين كان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أمرَّهم إلى أبي عبيدة بن الجراح، ومعه معاذ بن جبل لا يفارقه، فقالوا له: إن هؤلاء قد زحفوا لنا هذا اليوم المطير، وإنا لا نرى أن نخرج إليهم فيه حتى يلطوا بعسكرنا[1] ويضطرونا إلى ذلك، قال: أصبتم، ثم خرج هو ومعاذ فصفوا الناس وهيئوهم ووقفوهم على مراكزهم، وأقبلت الروم في المطر، فوقفوا ساعة وتصبروا عليه، فلما رأوا أن المطر لا يقلع انصرفوا إلى عسكرهم، ودعا الدرنجار رجلاً من العرب ممن كان على دين النصرانية فقال له: ادخل في عسكر هؤلاء القوم فانظر ما حالهم وما هديهم، وما يصنعون، وكيف سيرتهم، ثم القني بها، فخرج ذلك الرجل حتى دخل عسكر المسلمين فلم يستنكروه لأنه كان رجلاً من العرب لسانه ووجهه، فمكث في عسكرهم ليلة حتى أصبح، فوجد المسلمين يصلون الليل كله كأنهم في النهار، ثم أصبح فأقام عامة يومه، ثم خرج إليه، فقال: جئتك من عند قوم يصومون النهار، ويقومون الليل، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، رهبان بالليل، وأسد بالنهار، لو

(١) لط الشيء يلطه لطا: ألزقه ولزمه ـ المصدر السابق ص ٤٠٣٤ ـ ٤٠٣٥.

سرق ملكهم فيهم لقطعوه، ولو زنى لرجموه، لا يثأرهم الحق واتباعهم إياه على الهوى، فقال: لئن كان هؤلاء القوم هكذا لبطن الأرض خير من ظهرها لمن يريد قتالهم، فلما كان من الغد خرجوا ـ أيضاً ـ في يوم ذي ضباب، وأتى المسلمين رجال من العرب كانوا نصارى فأسلموا، فقال لهم: أبو عبيدة وخالد: ادخلوا في عسكر الروم واكتموهم إسلامكم والقونا بأخبارهم، فإن لكم في هذا أجراً، والله حاسبه لكم جهاداً، فإنكم تدفعون بذلك عن حرمة الإسلام وتدلون على عورة أهل الشرك، فانطلقوا فدخلوا عسكر الروم، ثم جاءوا بعدما مضى من الليل نصفه، فأتوا أبا عبيدة فقالوا له: إن القوم قد أوقدوا النيران، وهم يتعبون لكم[1] ويتهيأون للقائكم، وهم مصبحوكم بالغداة، فما كنتم صانعين فاصنعوه الآن، فخرج أبو عبيدة ومعاذ بن جبل وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، فعبأوا الناس وصفوهم، فلم يزالوا في ذلك حتى أصبحوا.

وعن راشد بن عبد الرحمن الأزدي، قال[2]: صلى بنا أبو عبيدة يومئذ صلاة الغداة في عسكره في الغداة التي لقينا فيها الروم باليرموك، فقرأ في أول ركعة بالفجر وليال عشر، فلما مر بقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد، الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد﴾ (٤ ـ ١٤: الفجر) قلت في نفسي: ظهرنا والله على القوم للذي أجرى الله على لسانه، وسررت بذلك سروراً شديداً، وقلت: عدونا هذا والله نظير لهذه الأمم، في الكفر والكثرة والمعاصي، قال: ثم قرأ في الركعة الثانية: «والشمس وضحاها»، فلما مر بقول الله ـ تعالى ـ: ﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ إلى آخر السورة، قلت في نفسي: هذه والله أخرى،

---

(١) يتعبون لكم: يعجلون في السير إليكم ـ المصدر السابق ص ٤٣٣.

(٢) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٢١٢ وما بعدها.

إن صدق الفأل ليصبن الله عليهم سوط عذاب، وليدمدمن الله عليهم كما دمدم على هذه القرون من قبلهم، فلما قضى أبو عبيدة // صلاته، أقبل على الناس ١٥٩ أ بوجهه، وقال:

أيها الناس أبشروا، فإني رأيت في ليلتي هذه فيما يرى النائم كأن رجالاً أتوني فحفوا لي وعليهم ثياب بيض، ثم دعوا إليّ رجالاً منكم أعرفهم، ثم قالوا لنا: أقدموا على عدوكم ولا تهابوهم، فإنكم الأعلون، وكأنا مضينا إلى عسكر عدونا، فلما رأونا قاصدين إليهم انفرجوا لنا، وجئنا حتى دخلنا عسكرهم، وولوا مدبرين.

فقال له الناس: أصلحك الله، نامت عينك، هذه بشرى من الله بشرك الله بخير.

وقال أبو مرثد الخولاني: وأنا أصلحك الله قد رأيت رؤيا، إنها لبشرى من الله، رأيت في هذه الليلة كأنا خرجنا إلى عدونا، فلما تواقعنا صب الله عليهم من السماء طيراً بيضاً عظاماً لها مخالب كمخالب الأسد، وهي تنقض من السماء انقضاض العقبان، فإذا حاذت بالرجل من المشركين ضربته ضربة يخر منها منقطعاً.

وكان الناس يقولون أبشروا معاشر المسلمين، فقد أيدكم الله عليهم بالملائكة. قال: فتباشر الناس بهذه الرؤيا وسروا بها، فقال أبو عبيدة: وهذه والله بشرى من الله، فحدثوا بهذه الرؤيا الناس، فإن مثلها من الرؤيا ما يشجع المسلم ويحسن ظنه وينشطه للقاء عدوه.

قال: وانتشرت هذه الرؤيا ورؤيا أبي عبيدة في المسلمين، واستبشروا بها.

وعن أبي جهضم أيضاً [١]: أن رجلاً من الروم حدثه في خلافة عبد الملك بن مروان أن رجلاً من عظمائهم أتى باهان في صبيحة الليلة التي خرج إلى المسلمين

(١) المصدر السابق ص ٢١٤ ـ ٢١٦.

باليرموك، فقال له: إني رأيت رؤيا أريد أن أحدثك بها، قال: هاتها، قال: رأيت كأن رجالاً نزلوا من السماء طول أحدهم أبعد من مد بصره، فنزعوا سيوفنا من أغمادها وأسنة رماحنا من أطرافها، ثم لم يدعوا منا رجلاً إلا كتفوه، ثم قالوا لنا: اهربوا وأكثركم هالك، فأخذنا نهرب، فمنا من يسقط على وجهه ومنا من يتبلد لا يستطيع أن يبرح من مكانه، ومنا من يحل كتافه ثم يسعى حتى لا نراه. فقال له باهان: أما من رأيت يسقط على وجهه، ومن رأيته يتبلد لا يطيق أن يسعى ولا يتنحى من مكانه فهم الذين يهلكون، وأما الذين رأيت يحلون كتافهم ويسعون حتى لا نراهم، فأولئك الذين ينجون، ثم قال له باهان: أما أنت فوالله لا تسلم مني أبداً، فوجهك الذي بشر بالشر وقنط من الخير، ألست الذي كنت أشد الناس عليّ في أمر الرجل الذي قتل رجلاً من أهل الذمة، فأردت أن أقتله، فكنت أنت من أشد الناس عليّ في أمره حتى عطلت حداً من حدود الله وتركته، وكان عليّ من الحق أن أقيمه، فحلت بيني وبينه في جماعة من السفهاء، وتركته كراهية أن أفرق جماعتكم أو أن يضرب بعضكم بعضاً، فأما الآن، فقد حدثت نفسي بالموت، وإنما ألقى القوم عن ساعة، فإن شئتم الآن فتفرقوا، وإن شئتم فاجتمعوا وأنا أتوب إلى الله من ترك ذلك الحد يومئذ، فإنه لم يك يسعني ولا ينبغي لي إلا قتله، ولو قتلتموني معه، ثم أمر به فضربت عنقه. قال: وطلب الرومي الذي كان قتل الذمي فهرب منه فم يقدر عليه، وقد تقدمت قصة هذا الرومي المقتول تعدياً فيما أخرجناه قبل من الحديث عن أبي بشر التنوخي، فأغنى ذلك عن إعادتها.

وعن راشد بن عبد الرحمن الأزدي[1]: أن باهان زحف يوم اليرموك إلى المسلمين في عشرين صفاً تضم نحواً من أربعمائة ألف مقاتل، وأصبح المسلمون طيبة أنفسهم لقتال المشركين، قد شرح الله صدورهم وشجع قلوبهم على لقاء عدوهم، فأخرجهم أبو عبيدة وجعل على ميمنته معاذ بن جبل، وعلى ميسرته

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٧ وما بعدها.

قباث بن أشيم، وعلى الرجالة هاشم بن عتبة، وعلى الخيل خالد بن الوليد، وخرج الناس على راياتهم وفيهم أشراف العرب وفرسانهم من رجالهم وقبائلهم، وفيهم الأزد وهم ثلث الناس، وحمير، وهم عظم الناس، وفيهم همدان وخولان ومذحج وخثعم وقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغسان وكندة وحضرموت، ومعهم جماعة من كنانة، ولكن عظم الناس أهل اليمن، ولم يحضرها يومئذ أسد ولا تميم ولا ربيعة، ولم تكن دارهم هنالك، إنما كانت دارهم عراقية، فقاتلوا أهل فارس بالعراق، فلما برز المسلمون إلى عدوهم، سار أبو عبيدة فيهم، ثم قال: يا عباد الله، انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم فإن وعد الله حق، يا معشر المسلمين، اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار، فلا تبرحوا مصافكم ولا تخطوا إليهم بخطوة ولا تبدأوهم بقتال، واشرعوا الرماح واستتروا بالدرق[1]، والزموا الصمت إلا من ذكر الله حتى آمركم إن شاء الله، وخرج معاذ يقص على الناس، ويقول: يا قراء القرآن ومستحفظي الكتاب وأنصار الهدى وأولياء الحق، إن رحمة الله لا تنال بالتواني، وجنته لا تدخل بالأماني، ولا يؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادقين المصدقين بما وعدهم الله، ألم تسمعوا لقول الله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً﴾ (٥٥ : النور) إلى رأس الآية، أنتم إن شاء الله منصورون، فأطيعوا الله ورسوله ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ (٤٦ : الأنفال)، واستحيوا من ربكم أن يراكم فراراً من عدوكم، وأنتم في قبضته ورحمته، وليس لأحد منكم ملجأ ولا منجي من دونه، ولا متعزز بغير الله، وجعل يمشي في الصفوف يحرضهم ويقص عليهم، ثم انصرف إلى موضعه.

قال سهل بن سعد[2]. ومر عمرو بن العاص يومئذ على الناس، فجعل يحضهم

---

(١) كذا في الأصل، وفي تاريخ فتوح الشام للأزدي: الورق.

(٢) نفسه ص ٢١٩ وما بعدها.

ويحرضهم ويقول: أيها الناس، غضوا أبصاركم، واجثوا على الركب، وأشرعوا الرماح، والزموا مراكزكم ومصافكم، فإذا حمل عليكم عدوكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا في وجوههم وثوب الأسد// فوالذي يرضي الصدق ويثيب عليه، ويمقت الكذب ويعاقب عليه، ويجزي بالإحسان، لقد بلغني أن المسلمين سيفتحونها كفراً كفراً وقصراً قصراً، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم، فلو قد صدقتموهم الشدة لقد ابذعروا ابذعرار أولاد الحجل.

١٥٩ ب

قال: وكان أبو سفيان بن حرب استأذن عمر بن الخطاب في جهاد الروم بالشام، فقال له: إني أحب أن تأذن لي فأخرج إلى الشام متطوعاً بمالي فأنصر المسلمين وأقاتل المشركين وأحض [1] جماعة من هناك من المسلمين، فلا آلوهم نصيحة ولا خيراً، فقال له عمر: قد أذنت لك يا أبا سفيان، تقبل الله جهادك وبارك لك في رأيك، وأعظم أجرك فيما نويت من ذلك، فتجهز أبو سفيان بأحسن الجهاز، وفي أحسن هيئة، ثم خرج وصحبته أناس من المسلمين كثير، خرجوا متطوعين، فأحسن أبو سفيان صحبتهم حتى قدموا على جماعة المسلمين، ولما خرج المسلمون إلى عدوهم باليرموك كان أبو سفيان يومئذ يسير في الناس، ويقف على أهل كل راية، وعلى كل جماعة فيحض الناس ويعظهم ويقول: إنكم يا معشر المسلمين أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الأهل، نائين عن أمير المؤمنين، وأمداد المسلمين، وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عددهم شديد عليكم حنقهم، وقد وترتموهم في أنفسهم ونسائهم وأولادهم وبلادهم وأموالهم، فلا والله لا ينجيكم منهم اليوم ولا تبلغون رضوان الله إلا بصدق اللقاء والصبر في مواطن المكروه، فتقربوا إلى خالقكم، وامتنعوا بسيوفكم، ولتكن هي الحصون التي إليها تَلْجَوْن، وبها تمتنعون.

وقاتل أبو سفيان ـ يومئذ ـ قتالاً شديداً، وأبلى بلاء حسناً.

قال: وزحف الروم إلى المسلمين وهم يزفون زفاً، ومعهم الصلبان، وأقبلوا بالأساقفة والقسيسين والرهبان والبطارقة والفرسان، ولهم دوي كدوي الرعد.

(١) في الأصل: وأحظ.

وقد تبايع عظمهم على الموت، ودخل منهم ثلاثون ألفاً في السلاسل، كل عشرة في سلسلة لئلا يفروا، فلما نظر إليهم خالد بن الوليد مقبلين، أقبل على نساء المسلمين وهن على تل مرتفع في العسكر، فقال: يا نساء المسلمين، أيما رجل أدركتنه منهزماً فاقتلنه، فأخذن العناهر[1]، وهي عمد البيوت، ثم أقبلن نحو المسلمين فقلن، لستم بعولتنا إن لم تمنعونا اليوم، وأقبل خالد إلى أبي عبيدة، فقال: إن هؤلاء قد أقبلوا في عدد وحد وجد، وإن لهم لشدة لا يردها شيء، وليست خيل المسلمين بكثيرة، ولا والله لأقامت خيلي لشدة حملتهم وخيلهم ورجالهم أبداً، وخيل خالد يومئذ أمام صفوف المسلمين، والمسلمون ثلاثة صفوف، قال خالد: فقد رأيت أن أفرق خيلي، فأكون أنا في إحدى الخيلين، ويكون قيس بن هبيرة في الخيل الأخرى، ثم تقف خيلنا من وراء الميمنة والميسرة، فإذا حملوا على الناس فإن ثبت المسلمون فالله ثبتهم وثبت أقدامهم، وإن كانت الأخرى حملت عليهم خيولنا وهي جامة[2] على ميمنتهم وميسرتهم، وقد انتهت شدة خيلهم وقوتها، وتفرقت جماعتهم ونقضوا صفوفهم، وصاروا نشراً[3]، ثم تحمل عليهم وهي بتلك الحال، فأرجو عندها أن يظفر الله بهم ويجعل دائرة السوء عليهم. وقال لأبي عبيدة: قد رأيت لك أن توقف سعيد بن زيد موقفك هذا وتقف أنت بحذائه من ورائه في جماعة حسنة، فتكون ردءاً للمسلمين، فقبل أبو عبيدة مشورته، وقال: أفعل ما أراك الله وأنا فاعل ما ذكرت، فأمر أبو عبيدة سعيد بن زيد فوقف في مكانه، وركب هو فسار في الناس فحرضهم وأوصاهم بتقوى الله والصبر، ثم انصرف فوقف من وراء الناس ردءاً لهم، وأقبلت الروم كقطع الليل حتى إذا حاذوا الميمنة نادى معاذ بن جبل الناس فقال: يا عباد الله المسلمين، إن هؤلاء قد تيسروا للشدة عليكم، ولا والله لا يردهم إلا صدق اللقاء والصبر في البأساء، ثم نزل عن فرسه وقال: من أراد

---

(١) في الأزدي: الخناجر، وهو تصحيف

(٢) جامعة: مستريحة ـ ابن منظور. للسان ص ٦٨٧.

(٣) وصاروا نشراً: وصاروا منتشرين متفرقين متطايرين ـ نفسه ص ٤٤٢٤.

أن يأخذ فرسي ويقاتل عليه فليأخذه، فوثب إليه ابنه عبد الرحمن بن معاذ، وهو غلام حين احتلم، فقال: يا أبة، إني لأرجو أن أكون فارساً أعظم غناء عن المسلمين مني راجلاً. وأنت يا أبة راجلاً أعظم غناء منك فارساً، وعظم المسلمين رجالة، وإذا رأوك صابراً محتسباً محافظاً صبروا إن شاء الله وحافظوا، فقال له معاذ: وفقني الله وإياك يا بني لما يحب ويرضى، فقاتل معاذ وابنه قتالاً شديداً ما قاتل مثله كثير من المسلمين، ثم إن الروم تحاضوا وتداعوا وقصت عليهم الأساقفة والرهبان وقد دنوا من المسلمين. فإذا سمع ذلك معاذ منهم قال: اللهم زلزل أقدامهم وأرعب قلوبهم وأنزل علينا السكينة وألزمنا كلمة التقوى وحبب إلينا اللقاء ورضنا بالقضاء.

قال: وخرج باهان صاحب الروم فجال في أصحابه وأمرهم بالصبر والقتال دون ذراريهم وأموالهم وسلطانهم وبلادهم، ثم بعث إلى صاحب الميسرة: أن احمل عليهم. وكان على الميسرة الدرنجار، وكان متنسكاً، فقال البطارقة والروم الذين معه: قد أمركم أميركم أن تحملوا، وتهيأت البطارقة ثم شدوا على الميمنة وفيها الأزد ومذحج وحمير وحضرموت وخولان، فثبتوا حين صدموا واقتتلوا قتالاً شديداً، ثم ركبهم من الروم أمثال الجبال، فأزالوا المسلمين عن الميمنة إلى ناحية القلب. وانكشفت طائفة من المسلمين إلى العسكر. وثبت عظم الناس فلم يزولوا. وقاتلوا تحت راياتهم فلم ينكشفوا، ولم تنكشف زبيد يومئذ، وهي في الميمنة، وفيهم الحجاج بن عبد يغوث، والد عمرو بن الحجاج، فنادى: يا خيفان يا خيفان. فاجتمعوا إليه، ثم شدوا على الروم وهم في نحو خمسمائة رجل شدة، فلم يتنهنهوا [1] حتى خالطوا الروم، فقاتلوهم قتالاً شديداً، وشغلوهم عن اتباع من انكشف من المسلمين، وشدت عليهم حضرموت وحمير وخولان بعدما كانوا أزالوا، ثم // رجعوا إلى مواقفهم حتى وقفوا في الصف حيث كانوا، واستقبل النساء ١٦٠

(١) السهنهة: الكف، تقول: نهنهت فلاناً، إذا جرته فتنهنه، أي كففته فكف ـ المصدر السابق ص ٤٥٦٤.

منهزمة المسلمين بالعناهر يضربن بها وجوههم، وثبتت الأزد وقاتلت قتالاً لم يقاتل مثله أحد من تلك القبائل، وقتل منهم مقتلة لم يقتل مثلها من قبيلة من القبائل، وقتل يومئذ عمرو بن الطفيل ـ ذو النور ـ وهو يقول: يا معشر الأزد، لا يؤتين المسلمون من قبلكم، وقاتـل قتالاً شديداً، قتل من أشدائهم تسعة، ثم قتل هو ـ يرحمه الله.

وقال جندب بن عمرو بن حممة ورفع رايته: يا معشر الأزد، إنه لا يبقى منكم ولا ينجو من الإثم والعار إلا من قاتل، ألا وإن المقتول شهيد، والخائب من هرب اليوم، وقاتل حتى قتل ـ رحمه الله ـ ونادى أبو هريرة: يا مبرور يا مبرور، فأطافت به الأزد، قال عبد الله بن سراقة: انتهيت إلى أبي هريرة ـ يومئذ ـ وهو يقول: تزينوا للحور العين وارغبوا في جوار ربكم، في جنات النعيم، فما أنتم في موطن من مواطن الخير أحب فيه منكم في هذا الموطن، ألا وإن للصابرين فضلهم. قال: فأطافت به الأزد، ثم اضطربوا هم والروم، فوالذي لا إله إلا هو لرأيت الروم وإنها لتدور بهم الأرض وهم في مجـال واحد كما تدور الرحاء، وما برحوا ـ يعني المسلمين ـ ولا زالوا وركبهم من الروم أمثال الجبال، فما رأيت موطناً قط أكثر قحفاً ساقطاً ومعصماً نادراً وكفا طائحة من ذلك الموطن، وقد والله أوحلناهم شراً وأوحلونا.

وكان جل القتال في الميمنة، وأن القلب ليلقون مثل ما نلقى، ولكن حمة القوم وجدهم وحردهم[1] وحنقهم علينا، وكنا في آخر الميمنة، فلقد لقينا من قتالهم ما لم يلق أحد مثله، فوالله إنا لكذلك نقاتلهم وقد دخل عسكرنا منهم نحو من عشرين ألفاً من ورائنا، فعصمنا الله من أن نزول، حمل عليهم خالد بن الوليد فقصف بعضهم على بعض، وشدخ[2] منهم في العسكر نحواً من عشرة آلاف، ودخل سائرهم بيوت المسلمين في العسكر مجرحين وغير مجرحين، ثم

---

(١) الحرد: الجد والقصد ـ المصدر السابق ص ٨٢٤.

(٢) شدخ: هشم ـ نفسه ص ٢٢١٢.

خرج خالد يكرد [1] ويقتل كل من كان قريباً منا من الروم حتى إذا حاذانا ألف خيله بعضها إلى بعض، ثم قال: يا أهل الإسلام، إنه لم يبق عند القوم من الجد والقتال إلا ما قد رأيتم، فالشدة الشدة، فوالذي نفسي بيده ليعطينكم الله الظفر الساعة عليهم، فجعل لا يسمع هذا القول من خالد أحد من المسلمين إلا شجعه عليهم، ثم إن خالداً اعترض الروم وإلى جنبه منهم أكثر من مائة ألف، فحمل عليهم، وما هو إلا في نحو من ألف فارس، فوالله ما بلغتهم الحملة حتى فض الله جمعهم.

قال: وشددنا على من يلينا من رجالتهم، فانكشفوا وأتبعناهم نقتلهم كيف شئنا، ما يمتنعون من قتل ميمنتنا لميسرتهم.

قال: ثم إن خالداً انتهى إلى الدرنجار وقد قال لأصحابه: لفوني بالثياب، فليت أني لم أقاتل هؤلاء القوم اليوم، فلفوه بالثياب، وقال: لوددت أن الله عافاني من حرب هؤلاء القوم فلم أرهم ولم يروني، ولم أنصر عليهم ولم ينصروا عليّ، وهذا يوم سوء، فما شعر حتى غشيه المسلمون فقتلوه.

وقال ابن قناطر وهو في ميمنة الروم لجرجير - صاحب أرمينية: احمل عليهم، فقال له: أنت تأمرني أن أحمل عليهم وأنا أمير مثلك؟ فقال له ابن قناطر: أنت أمير وأنا أمير فوقك، وقد أمرت بطاعتي، فاختلفا، ثم إن ابن قناطر حمل على المسلمين حملة شديدة على الميسرة وفيها كنانة وقيس ولخم وجذام وعاملة وغسان وخثعم وقضاعة، فانكشف المسلمون وزالت الميسرة عن مصافها، وثبت أهل الرايات وأهل الحفاظ، فقاتلوا قتالاً شديداً، وركبت الروم أكتاف من انهزم من المسلمين حتى دخلوا معهم العسكر، فاستقبلهم نساء المسلمين بالعناهر يضربن بها وجوههم.

وعن حنظلة بن جويه [2] قال: والله إني لفي الميسرة إذ مر بنا رجال من

---

(١) الكرد: السوق وطرد العدو والقطع - الفيروزابادي. القاموس ج١ ص ٣٣٢.
(٢) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٢٢٧.

الروم على خيل من خيل العرب لا يشبهون الروم وهم أشبه شيء بنا، فلا أنسى قول قائل منهم: يا معشر العرب، الحقوا بوادي القُرى ويثرب، وهو يقول:

في كـــل يـــوم خيلُنـــا تغيرُ   نحن لنـــا البلقـــاء والسّـــديـــرُ
هيهـات يــأبــى ذلــك الأميرُ   والملــك المتـــوّجُ المحبـــورُ
(الرجز)

قال: فحملت عليه وحمل عليّ، فاضطربنا بسيفينا فم يغنينا شيئاً ثم اعتنقنا، فخررنا جميعاً فاعتركنا ساعة، ثم إننا تحاجزنا، فنظرت إلى عنقه وقد بدا منها مثل شراك النعل، فمشيت إليه فاعتمدت ذلك الموضع بسيفي، فوالله ما أخطأته، فقطعته فصرع، فضربته حتى قتلته، وأقبلت إلى فرسي وقد كان عار، وإذا فرسي قد حبسوه عليّ، فأقبلت حتى ركبته، قال: وقاتل قباث بن أشيم -يومئذ- قتالاً شديداً، وأخذ يقول:

إنْ تفقـدوني تفقـدوا خير فـارسٍ   لدى الغمـرات والرئيس المحـاميا
وذا فَخَـــرٍ لا يملأ الهول صـــدْرَهُ   ضروباً[1] بنصْلِ السيف أرْوَعَ ماضيا
(الطويل)

وكسر في الروم يومئذ ثلاثة أرماح، وقطع سيفين، ويقول كلما قطع سيفاً أو كسر رمحاً: من يعين بسيف أو برمح في سبيل الله رجلاً قد حبس نفسه مع أولياء الله وقد عاهد الله ألا يفر ولا يبرح يقاتل المشركين حتى يظهر المسلمون أو يموت. وكان من أحسن الناس بلاء يومئذ.

ونزل أبو الأعور السلمي، فقال: يا معشر قريش، خذوا بحظكم من الصبر والأجر، فإن الصبر في الدنيا عز ومكرمة، وفي الآخرة رحمة وفضيلة، فاصبروا وصابروا.

---

(١) في الأصل: ضررب.

وعن حبيب بن مسلمة قال [1] : اضطررنا يوم اليرموك إلى سعيد بن زيد ، فلله سعيد ما سعيد يومئذ إلا مثل الأسد ، جثا والله على ركبتيه حتى إذا دنوا وثب في وجوههم مثل الليث ، فطعن برايته أول رجل من القوم فقتله ، وأخذ والله يقاتل راجلاً ، فقاتل [2] الرجل البئيس الشجاع فارساً ، قال : وكان يزيد بن أبي سفيان من أعظم الناس غناء وأحسنه بلاء هو وأبوه جميعاً ، وقد كان أبوه مر به وهو يحرض الناس ويعظهم ، فقال : يا بني ، إنك تلي من أمر المسلمين طرفاً ، ويزيد يومئذ على ربع الناس ، // وإنه ليس بهذا الوادي رجل من المسمين إلا وهو محفوق بالقتال ، فكيف بأشباهك الذين ولوا أمور المسلمين ، أولئك أحق الناس بالجهاد والصبر والنصيحة ، فاتق الله يا بني ، واكرم في أمرك ، ولا يكونن أحد من أصحابك أرغب في الآخرة ولا في الصبر في الحرب ولا أشد نكاية في المشركين ولا أجهد على عدو الإسلام ولا أحسن بلاء منك . فقال يزيد : أفعل والله يا أبة ، فقاتل في الجانب الذي كان فيه قتالاً شديداً .

١٦٠ ب

قال : وشد على عمرو بن العاص جماعة من الروم فانكشف عنه أصحابه وثبت عمرو فجالدهم طويلاً ، وقاتل قتالاً شديداً ، ثم تراجع إليه أصحابه ، قال : فسمعت أم حبيبة بنت العاص تقول : قبح الله رجلاً يفر عن حليلته ، وقبح الله رجلاً يفر عن كريمته ، وسمعت نسوة من المسلمين يقلن : قاتلوا أيها المسلمون فلستم بعولتنا إن لم تمنعونا ، وأخذن العناهر ، فكلما مر بهن منهزم من امسلمين حملن عليه حتى يضربن وجهه ويرددنه إلى جماعة المسلمين .

وقاتل شرحبيل بن حسنة في ربعه الذي كان فيه قتالاً شديداً ، وكان إلى جنبه سعيد بن زيد ، وسطاً من الناس ، وجعل ينادي : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن﴾ إلى آخر الآية (١١١ : التوبة) ، ثم

---

(١) الأزدي . تاريخ فتوح الشام ص ٢٢٨ .

(٢) في الأصل : فقال .

جعل يقول: أين الشارون أنفسهم من الله بابتغاء مرضات الله؟ أين المشاؤون إلى جوار الله غدا في داره، فاجتمع إليه ناس كثير وبقي القلب لم ينكشف، وفيه أهله الذين كانوا مع سعيد بن زيد، وكان أبو عبيدة من وراء ظهور المسلمين ردءاً لهم، فلما رأى قيس بن هبيرة أن خيل المسلمين مما يلي الميسرة قد شد عليهم الروم اعترض الروم بخيله وهي الشطر من خيل خالد، فقصف بعضهم على بعض، وحمل خالد من ميمنة المسلمين على ما يليه من الروم حتى اضطرهم إلى صفوفهم، فقصف بعضهم على بعض، وزحف إليه المسلمون جماعتهم رويداً رويداً حتى إذا دنوا منهم حملوا عليهم، فجعلت الروم ينقضون صفوفهم وينهزمون، وبعث أبو عبيدة إلى سعيد بن زيد: أن احمل عليهم، فحمل عليهم، وشد المسلمون بأجمعهم، فضرب الله وجوه الروم، ومنح المسلمين أكتافهم، يقتلونهم كيف شاءوا، لا يمتنعون من أحد من المسلمين، وانتهى خالد بن الوليد إلى الدرنجار، وكان كارهاً لقتال المسلمين، لما كان يجد من صفتهم في الكتب، وكان يقرأها، فقال خالد: إن كنت لأحب أن أراه، فضربه المسلمون حتى قتلوه، وإنه لملفف رأسه بكساء، وأتبعهم المسلمون يقتلونهم كل قتلة، وركب بعضهم بعضاً حتى انتهوا إلى مكان مشرف على أهوية تحتهم، فجعلوا يتساقطون فيها ولا يبصرون، وهو يوم ذو[1] ضباب، وهم يرتكسون فيها، لا يعلم آخرهم ما يلقى أولهم، حتى سقط فيها نحو من مائة ألف رجل، ما أحصوا إلا بالقصب.

وبعث أبو عبيدة شداد بن أوس بن ثابت فعدهم بها من الغد، فوجد من سقط أكثر من ثمانين ألفاً، فسميت تلك الأهوية الواقوصة حتى اليوم، لأنهم وقصوا[2] فيها وما فطنوا لتساقطهم حتى انكشف الضباب فأخذوا في وجه آخر، وقتل المسلمون منهم في المعركة بعدما أدبروا نحواً من خمسين ألفاً.

وأتبعهم خالد في الخيل، فلم يزل يقتلهم في كل واد وكل شعب وفي كل

---

(١) في الأصل: «ذي».

(٢) وقصوا: دقت أعناقهم.

جبل، حتى انتهى إلى دمشق، فخرج إليه أهلها، وقالوا له: نحن على عهدنا الذي كان بيننا وبينكم، فقال لهم خالد: نعم، ومضى في اتباعهم يقتلهم في القرى والأودية والجبال حتى انتهى إلى حمص، فخرج إليه أهلها، فقالوا له مثل ما قال أهل دمشق في العهد، فقال لهم: نعم.

وأقبل أبو عبيدة على قتلى المسلمين - رحمهم الله وجزاهم عن الإسلام وأهله خيراً - فدفنهم، فلما فرغ من ذلك جاءه النعمان بن محمية - ذو الأنف - الخثعمي يسأله أن يعقد له على قومه، فعقد له عليهم، وكانت خثعم قد رأست رجلاً آخر منهم من بني عمرو يدعى ابن ذي السهم، فاختصم هو وذو الأنف إلى أبي عبيدة في الرياسة قبل الوقعة، فأخرهم أبو عبيدة إلى أن يفرغوا من حربهم ويناجزوا عدوهم، ثم ينظر في أمرهم، فلما التقى الناس استشهد هنالك ابن ذي السهم الخثعمي، فعقد أبو عبيدة للنعمان ذي الأنف على خثعم.

قال: وجاء الأشتر - مالك بن الحارث النخعي - فقال لأبي عبيدة: اعقد لي على قومي، فعقد له، وكانت قصته مثل قصة الخثعمي، وذلك أنه أتى قومه وعليهم رجل منهم فخاصمهم الأشتر في الرياسة إلى أبي عبيدة، فدعا أبو عبيدة النخع، فقال: أي هذين أرضى فيكم وأعجب إليكم أن يرأس عليكم؟ فقالوا: كلاهما شريف وفينا رضي وعندنا ثقة، فقال أبو عبيدة: كيف أصنع بكما؟ ثم قال للأشتر: أين كنت حين عقدت لهذا الراية؟ قال: كنت عند أمير المدينة، ثم أقبلت إليكم، قال: فقدمت على هذا وهو رأس أصحابك؟ قال: نعم، قال: فإنه لا ينبغي لك أن تخاصم ابن عمك وقد رضيت به جماعة قومك قبل قدومك عليهم، قال الأشتر: فإنه رضي شريف وأهل ذلك هو، وأنا أهل الرياسة، فلتعقبني من رياسة قومي فأليهم كما وليهم هذا، فقال أبو عبيدة: تأخروا ذلك حتى تكون هذه الوقعة، فإن استشهدتما جميعاً فما عند الله خير لكما، وإن هلك أحدكما وبقي الآخر كان الباقي منكما الرأس على قومه، وإن تبقيا جميعاً أعقبناك منه إن شاء الله، قال الأشتر: فقد رضيت. فلما كانت الواقعة استشهد فيها رأس النخع الأول، فعقد أبو عبيدة للأشتر عند ذلك.

وفي حديث آخر أن الأشتر كان من جلداء الرجال وأشدائهم وأهل القوة والنجدة منهم، وأنه قتل يوم اليرموك، قبل أن ينهزموا أحد عشر رجلاً من بطارقتهم، وقتل منهم ثلاثة مبارزة وتوجه مع خالد في طلب الروم حين انهزموا، فلما بلغوا ثنية العقاب من أرض // دمشق وعليها جماعة من الروم عظيمة، أقبلوا ١٦١ أ يرمون المسلمين من فوقهم بالصخر، فتقدم إليهم الأشتر في رجال من المسلمين، وإذا أمام الروم رجل جسيم من عظمائهم وأشدائهم، فوثب إليه الأشتر لما دنا منه، فاستويا على صخرة مستوية، فاضطربا بسيفيهما، فضرب الأشتر كتف الرومي فأطارها، وضربه الرومي بسيفه فلم يضره شيئاً، واعتنق كل واحد منهما صاحبه، ثم دفعه الأشتر من فوق الصخرة فوقعا منها، ثم تدحرجا، والأشتر يقول وهما يتدحرجان: ﴿إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ (١٦٢ - ١٦٣ : الأنعام) فلم يزل يقول هذا وهو في ذلك ملازم العلج لا يتركه، حتى انتهيا إلى موضع مستو من الجبل، فلما استقرا فيه وثب الأشتر على الرومي فقتله، ثم صاح في الناس: أن جوزوا، فلما رأت الروم أن صاحبهم قد قتله الأشتر خلوا سبيل العقبة للناس، ثم انهزموا.

وأقبل أبو عبيدة في أثر خالد حتى انتهى إلى حمص، فأمر خالداً أن يتقدم إلى قنسرين، ولما انتهت الهزيمة إلى ملك الروم وهو بأنطاكية، قال: قد كنت أعلم أنهم سيهزمونكم، فقال له بعض جلسائه: ومن أين علمت ذلك أيها الملك، قال من حيث أنهم يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة، ويرغبون في الآخرة أشد من رغبتكم في الدنيا، ولا يزالون ظاهرين ما كانوا هكذا، وليغيرن كما غيرتم، ولينقضن كما نقضتم.

وفي حديث عن عبد الله بن قرط[1]: أن أول من جاء ملكهم بالهزيمة رجل منهم، فقال له: ماوراءك؟ قال: خير، أيها الملك. هزمهم الله وأهلكهم ـ يعني

---

(١) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٢٣٤ وما بعدها.

المسلمين ـ قال: ففرح بذلك من حوله وسروا ورفعوا أصواتهم، فقال لهم ملكهم: ويحكم، هذا كاذب، وهل ترون هيئة هذا إلا هيئةِ منهزم، سلوه ما جاء به، فلعمري ما هو ببريد، ولو لم يكن هذا منهزماً ما كان ينبغي له أن يكون إلا مع أميره مقيماً، فما كان بأسرع من أن جاء آخر، فقال له: ويحك، ما وراءك؟ فقال: هزم الله العدو وأهلكهم، قال له هرقل: فإن كان الله أهلكهم فما جاء بك؟ وفرح أصحابه وقالوا: صدقك أيها الملك، فقال لهم: ويحكم، أتخادعون أنفسكم، إن هؤلاء والله لو كانوا ظهروا أو ظفروا ما جاؤوكم على متون خيولهم يركضون، ولسبقهم البريد والبشرى، قال: فإنهم لكذلك إذ طلع عليهم رجل من العرب من تنوخ على فرس له عربية، يقال له حذيفة بن عمرو، وكانَ نصرانياً، فقال قيصر: ما أظن خبر السؤال إلا عند هذا، فلما دنا منه قال له: ما عندك؟ قال: الشر، قال: وجهك الذي بشرنا بالشر، ثم نظر إلى أصحابه، فقال: خبر سوء جاء به رجل سوء من قوم سوء، فإنهم لكذلك إذ جاءه رجل من عظماء الروم، فقال له الملك: ما وراءك؟ قال: الشر، هزمنا. قال: فما فعل أميركم باهان؟ قال: قتل، قال: فما فعل فلان وفلان، يسمي له عدداً من أمرائه وبطارقته وفرسانه، فقال: قتلوا، فقال له: لكنك والله أنت أخبث وألأم وأكفر من أن تذب عن دين أو تقاتل على دنيا، ثم قال لشرطه: أنزلوه، فأنزلوه، فجاؤوا به، فقال له: ألست كنت أشد الناس عليّ في أمر محمد نبي العرب حين جاءني كتابه ورسوله، وكنت قد أردت أن أجيبه إلى ما دعاني إليه وأدخل في دينه، فكنت أنت من أشد الناس عليّ حتى تركت ما أردت من ذلك؟ فهلا قاتلت الآن قوم محمد وأصحابه دون سلطاني، وعلى قدر ما كنت لقيت منك إذ منعتني من الدخول في دينه؟ اضربوا عنقه، فقدموه فضربوا عنقه، ثم نادى في أصحابه بالرحيل راجعاً إلى القسطنطينية، فلما خرج من الشام وأشرف على أرض الروم استقبل الشام، فقال: السلام عليك يا سورية، سلام مودع لا يرى أنه يرجع إليك أبداً، ثم قال: ويحك أرضاً، ما أنفعك لعدوك، لكثرة ما فيك من العشب والخصب والخير.

وعن عمرو بن عبد الرحمن[1]: أن هرقل حين خرج من أنطاكية، أقبل حتى نزل الرها، ثم منها كان خروجه إلى القسطنطينية، وأقبل خالد في طلب الروم حتى دخل أرض قنسرين، فلما انتهى إلى حلب تحصن منه أهلها، وجاء أبو عبيدة حتى نزل عليهم، فطلبوا الصلح والأمان، فقبل منهم أبو عبيدة فصالحهم، وكتب لهم أماناً.

وعن الحسن بن عبد الله[2]: أن الأشتر قال لأبي عبيدة: ابعث معي خيلاً أتبع آثار القوم، فإن عندي جزاء وغناء، فقال له أبو عبيدة: والله إنك لخليق بكل خير، فبعثه في ثلاثمائة فارس، وقال له: لا تتباعد في الطلب، وكن مني قريباً، فكان يغير على مسيرة اليوم منه واليومين، ونحو ذلك.

ثم إن أبا عبيدة دعا ميسرة بن مسروق فسرحه في ألفي فارس، فمضى في آثار الروم حتى قطع الدروب، وبلغ ذلك الأشتر، فمضى حتى لحقه، فإذا ميسرة مواقف جمعاً من الروم أكثر من ثلاثين ألفاً، وكان ميسرة قد أشفق على من معه، وخاف على نفسه وعلى أصحابه، فإنهم لكذلك إذ طلع عليه الأشتر في ثلاثمائة فارس من النخع، فلما رآهم أصحاب ميسرة كبروا وكبر الأشتر وأصحابه، وحمل عليهم من مكانه ذلك، وحمل ميسرة فهزموهم، وركبوا رءوسهم، وأتبعتهم خيل المسلمين يقتلونهم، حتى انتهوا إلى موضع مرتفع من الأرض، فعلوا فوقه، وأقبل عظيم من عظمائهم معه رجالة كثيرة من رجالتهم، فجعلوا يرمون خيل المسلمين من مكانهم المشرف، فإن خيل المسلمين لمواقفتهم إذ نزل رجل من الروم ـ أحمر عظيم جسيم ـ فتعرض للمسلمين ليخرج إليه أحدهم، قال: فوالله ما خرج إليه رجل منهم، فقال لهم الأشتر: أما منكم من أحد يخرج لهذا العلج؟ فلم يتكلم أحد، قال: فنزل الأشتر، ثم خرج إليه. فمشى كل واحد منهما إلى صاحبه وعلى الأشتر الدرع والمغفر، وعلى الرومي مثل ذلك، فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه شد الأشتر عليه فاضطربا بسيفيهما، فوقع

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣٧.

(٢) نفسه ص ٣٣٧ وما بعدها.

سيف الرومي على هامة الأشتر ،فقطع المغفر وأسرع السيف في رأسه، حتى كاد
١٦١ ب ينشب في العظم، ووقعت ضربة // الأشتر على عاتق الرومي، فلم تقطع شيئاً من
الرومي، إلا أنه ضربه ضربة شديدة أوهنت الرومي وأثقلت عاتقه، ثم تحاجزا،
فلما رأى الأشتر أن سيفه لم يصنع شيئاً، انصرف فمشى على هيئته حتى أتى
الصف، وقد سال الدم عليّ لحيته ووجهه، فقال: أخزى الله هذا سيفاً، وجاءه
أصحابه، فقال: علي بشيء من حناء، فأتوه به من ساعته، فوضعه على جرحه، ثم
عصبه بالخرق، ثم حرك لحيته وضرب أضراسه بعضها ببعض، ثم قال: ما أشد
لحيتي ورأسي وأضراسي، وقال لابن عم له: امسك سيفي هذا وأعطني سيفك،
فقال: دع لي سيفي ـ رحمك الله ـ فإني لا أدري لعلي أحتاج إليه، فقال: أعطنيه
ولك أم النعمان ـ يعني ابنته ـ فأعطاه إياه، فذهب ليعود إلى الرومي، فقال له
قومه، ننشدك الله ألا تتعرض لهذا العلج، فقال: والله لأخرجن إليه فليقتلني أو
لأقتلنه، فتركوه، فخرج إليه، فلما دنا منه شد عليه وهو شديد الحنق، فاضطربا
بسيفيهما، فضربه الأشتر على عاتقه، فقطع ما عليه حتى خالط السيف رئته،
ووقعت ضربة الرومي على عاتق الأشتر، فقطعت الدرع ثم انتهت ولم تضره
شيئاً، ووقع الرومي ميتاً، وكبر المسلمون، ثم حملوا على صف رجالة الروم،
فجعلوا يتنقضون ويرمون المسلمين وهم من فوق، فما زالوا كذلك حتى أمسوا
وحال بينهم الليل، وباتوا ليلتهم يتحارسون، فلما أصبحوا أصبحت الأرض من
الروم بلاقع، فارتحل الأشتر منصرفاً بأصحابه، ومضى ميسرة في أثر القوم حتى
بلغ مرج القبائل بناحية أنطاكية، والمصيصة، ثم انصرف راجعاً، وكان أبو
عبيدة حين بلغه أنهم قد أدربوا أشفق عليهم وجزع وندم على إرساله إياهم،
قال: فإنه لجالس في أصحابه مستبطئاً لقدومهم متأسفاً على تسريحهم، إذ أتى
فبشر بقدوم الأشتر، وجاء فحدثه بما كان من أمرهم ولقائهم ذلك الجيش،
وهزيمتهم إياه، وما صنع الله لهم، ولم يذكر مبارزة الرومي وقتله إياه حتى أخبره
غيره، وسأله عن ميسرة وأصحابه، فأخبره بالوجه الذي توجه فيه، وأخبره أنه
لم يمنعه من التوجه معه إلا الشفقة على أصحابه، وألا يصابوا بعدما ظفروا، فقال:

قد أحسنت، وما أحب الآن أنك معهم، ولوددت أنهم كانوا معكم.

قال: فدعا ناساً من أهل حلب، فقال: اطلبوا إليّ إنساناً دليلاً عالماً بالطريق أجعل له جعلاً على أن يتبع آثار هذه الخيل التي بعثتها في طلب الروم حتى يلحقها، ثم يأمرها بالانصراف إلى ساعة يلقاها، فجاؤوه بثلاثة رجال، فقالوا: هؤلاء علماء بالطريق جراء عليها أدلاء بها، وهم يخرجون في آثار خيلك حتى يأتوها بأمرك، فكتب أبو عبيدة إلى ميسرة:

أما بعد، فإذا أتاك رسولي هذا فأقبل إليّ حين تنظر في كتابي، ولا تعرجن على شيء، فإن سلامة رجل واحد من المسلمين أحب إليّ من جميع أموال المشركين، والسلام عليك.

فأخذوا كتابه، ثم خرجوا به، فاستقبلوا ميسرة حين هبط من الدروب راجعاً، وقد عافاه الله وأصحابه وغنمهم وسلمهم، فدفعوا إليه كتاب أبي عبيدة، فلما قرأه قال: جزاه الله من والٍ على المسلمين خيراً، ما أشفقه وأنصحه، ثم أقبل الرسل فبشروا أبا عبيدة بسلامتهم وانصرافهم، فحمد الله على ذلك، وأقام حتى قدم عليه ميسرة، وكتب أماناً على الناس من أهل قنسرين، ثم أمر مناديه فنادى بالرحيل إلى إيلياء، وقدم خالداً على مقدمته بين يديه، وبعث علي حمص حين انتهى إليها حبيب بن سلمة، وأرض قنسرين إذ ذاك مجموعة إلى صاحب حمص، وإنما فتحت قنسرين بعد ذلك في خلافة يزيد بن معاوية، ثم خرج من حمص ومر بدمشق، فولاها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، ثم خرج حتى مر بالأردن، فنزلها، فعسكر بها، وبعث الرسل إلى أهل إيلياء، وقال: اخرجوا إليّ أكتب لكم أماناً على أنفسكم وأموالكم، ونفي لكم كما وفينا لغيركم، فتثاقلوا وأبوا، فكتب إليهم:

بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي عبيدة بن الجراح إلى بطارقة أهل إيلياء وسكانها، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله العظيم ورسله، أما بعد، فإنا ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده

ورسوله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، فإذا شهدتم بذلك حرمت علينا دماؤكم وأموالكم وكنتم إخواننا في ديننا، وإن أبيتم فأقروا لنا بإعطاء الجزية وأنتم صاغرون، فإن أبيتم سرت إليكم بقوم، هم أشد للموت حباً منكم لشرب الخمر وأكل لحم الخنزير، ثم لا أرجع عنكم إن شاء الله حتى أقتل مقاتلتكم وأسبي ذراريكم.

قال: وكتب إلى عمر بن الخطاب حين أظهره الله على أهل اليرموك وخرج يطلبهم:

بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك، أما بعد، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، والحمد لله الذي أهلك المشركين، ونصر المسلمين، وقديماً تولى الله نصرهم، وأظهر فلجهم، وأعز دعوتهم، فتبارك الله رب العالمين.

أخبر أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ أنا لقينا الروم في جموع لم تلق العرب جموعاً ـ قط ـ مثلها، فأتوا وهم يرون أن لا غالب لهم من الناس، فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً، ما قوتل المسلمون مثله في موطن قط، ورزق الله المؤمنين الصبر، وأنزل عليهم لنصر، فقتلوهم في كل قرية وكل شعب وواد وسهل وجبل، وغنم المسلمون عسكرهم، وما كان فيه من أموالهم ومتاعهم، ثم إني أتبعتهم بالمسلمين حتى بلغنا أقصى بلادهم. وقد بعثت إلى أهل الشام عمالاً، وبعثت إلى أهل إيلياء أدعوهم إلى الإسلام، فإن قبلوا وإلا فليؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فإن أبوا سرت إليهم حتى أنزل بهم، ثم لا أزايلهم حتى يفتح الله على المسلمين إن شاء الله، والسلام عليك.

١٦٢ أ فكتب // إليه عمر ـ رضي الله عنه:

من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى أبي عبيدة بن الجراح. سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فقد أتاني كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من إهلاك الله المشركين ونصره المؤمنين، وما صنع لأوليائه وأهل

طاعته، فالحمد لله على صنيعه إلينا، ونستتم من الله ذلك بشكره، ثم اعلموا أنكم لم تظهروا على عدوكم بعدد ولا عدة ولا حول ولا قوة، ولكنه بعون الله ونصره ومنه تعالى وفضله، فلله المن والطول والفضل العظيم، فتبارك الله أحسن الخالقين، والحمد لله رب العالمين.

فهذه الأحاديث التي أوردها أصحاب فتوح الشام في كتبهم عن وقعة اليرموك، وقد أوردها غيرهم على صفة تخالف أكثر ما تقدم مساقاً وتاريخاً، حسب ما يظهر لمن يقف على جميعها، واختلاف الأخبار من جهة النقل أمر مألوف، وإعادة أمثال هذه الآثار التي هي كيف ما وقعت من آيات الإسلام شيء غير مملول. ونحن نذكر من ذلك ما يحسن في هذا المجموع ذكره، ويليق بالمقصود إيراده إن شاء الله تعالى.

فمن ذلك أن ابن إسحاق ذكر أن التقاء المسلمين مع الروم باليرموك كان في رجب سنة خمس عشرة، وأن الذي لقيهم من الروم هو الصقلار ـ خصي لهرقل ـ بعثه في مائة ألف مقاتل أكثرهم من الروم، وسائرهم من أهل أرمينية، ومن المستعربة من غسان وقضاعة، والمسلمون مع أبي عبيدة أربعة وعشرون ألفاً، فاقتتل الناس اقتتالاً شديداً حتى دخل عسكر المسلمين، وقاتل نساء من قريش بالسيوف حين دخل العسكر حتى سابقن الرجال، وقد كان انضم إلى المسلمين ناس من لخم وجذام، فلما رأوا جد القتال فروا وخذلوا المسلمين، فقال قائل من المسلمين حين رأى ذلك منهم:

القــوم لَخْمٌ وجــذامٌ في الهَرَبْ ... ونحن والرومُ بمَرْجٍ نضطــرِبْ

وإن يعودوا بعدها لا نصطحِــبْ

(الرجز)

ثم إن الله أنزل نصره، فهزمت الروم وجموع هرقل التي جمع، فأصيب منهم سبعون ألفاً، وقتل الله الصقلار وباهان، وكان هرقل قدمه مع الصقلار حين لحق به.

وفيما حكاه الطبري[1] بسنده عن سيف عن شيوخه قالوا: أوعب القواد بالناس نحو الشام، وعكرمة ردءٌ لـهم، وبلغ الروم ذلك فكتبوا إلى هرقل، فخرج حتى نزل بحمص، فأعد لهم الجنود وعبأ العسكر، وأراد أن يشغل بعضهم ببعض لكثرة جنده وفضول رجله، فأرسل أخاه تذارق إلى عمرو بن العاص في تسعين ألفاً، وبعث جرجة بن توذرا نحو يزيد بن أبي سفيان فعسكر بإزائه، وبعث الدراقص، فاستقبل شرحبيل بن حسنة، وبعث القيقار بن نسطوس في ستين ألفاً نحو أبي عبيدة، فهابهم المسلمون، وجميع فرق المسلمين أحد وعشرون ألفاً، سوى ستة آلاف مع عكرمة، ففزعوا جميعاً بالكتب والرسل إلى عمر بن الخطاب، يستدعون[2] رأيه، فراسلهم أن الرأي الاجتماع، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة، وإذا نحن تفرقنا لم يكن الرجل منا في عدد يقرن به لأحد ممن استقبله، فاتعدوا اليرموك ليجتمعوا فيه، وقد كتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عمر، فطلع عليهم كتابه بمثل ما كاتبهم به عمر سواء، بأن اجتمعوا والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين، فإنكم أعوان الله، والله ناصر من نصره وخاذل من كفره، ولن يؤتي مثلكم من قلة، وإنما يؤتي العشرة آلاف والزيادة عليها، إذا أتوا من قبل الذنوب، فاحترسوا من الذنوب، واجتمعوا باليرموك متساندين، وليتصل كل رجل منكم بأصحابه.

وبلغ ذلك هرقل، فكتب إلى بطارقته، أن اجتمعوا لهم وانزلوا بالروم منزلاً واسع العطن، واسع المطرد، ضيق المهرب، وعلى الناس التذارق، وعلى المقدمة جرجة، وعلى مجنبتيه باهان والدراقص، وعلى الحرب القيقار، وأبشروا فإن باهان في الأثر مدد لكم، ففعلوا، فنزلوا الواقوصة، وهي على ضفة اليرموك، وصار الوادي خندقاً لهم، وهو لهب[3] لا يدرك، وإنما أراد باهان أن يستبقي الروم ويأنسوا بالمسلمين، وترجع إليهم أفئدتهم، وانتقل المسلمون من معسكرهم

---

(١) الطبري - التاريخ ج٣ ص ٣٩٢ - ٣٩٣.

(٢) في الأصل: وبستدعون. (٣) في الأصل: ممداً لكم.

(٣) اللهب بالكسر: الفرجة بين الجبلين - ابن منظور. اللسان ٤٠٨٣.

الذي اجتمعوا به، فنزلوا عليهم بحذائهم على طريقهم، وليس للروم طريق إلا عليهم. فقال عمرو: أيها الناس، ألا أبشروا، حصرت والله الروم، وقل ما جاء محصور بخير، فأقاموا بإزائهم، وعلى طريقهم ومخرجهم، لا يقدرون من الروم على شيء، ولا يخلصون إليهم اللهب، وهو الواقوصة من ورائهم، والخندق من أمامهم، ولا يخرجون خرجة إلا أذيل المسلمون منهم، وقد استمدوا أبا بكر ـ رحمه الله ـ وأعلموه الشأن في صفر ـ يريد من سنة ثلاث عشرة.

وفي حديث آخر[1] لسيف عن أشياخه: أنهم لما استمدوه، قال أبو بكر: خالد لها، وبعث إليه وهو بالعراق فعزم عليه واستحثه في السير، فنفذ خالد لذلك، وطلع عليهم، ففرح به المسلمون، وطلع باهان على الروم فتيمنوا به، ووافق قدوم أحدهما قدوم الآخر، فولى خالد قتاله، وقاتل الأمراء من بإزائهم، فهزم خالد باهان، وتتابع الروم على الهزيمة، فاقتحموا خندقهم. وقال راجز من المسلمين في ذلك:

دعَوْا هَرْقِلاً ودعَوْنا الرحمنْ   واللهُ قد أخْزَى جنودَ باهانْ

بخالد اللج أبي سليمان[2]

(الرجز)

وحرد[3] المسلمون وحرد المشركون وهم أربعون ومائتا ألف، منهم ثمانون ألف مقيد، ومنهم أربعون ألفاً مسلسلون للموت، وأربعون ألفاً مربوطون بالعمائم، وثمانون ألف فارس، والمسلمون سبعة وعشرون ألفاً ممن كان مقيماً إلى أن قدم عليهم خلد في تسعة آلاف، فصاروا ستة وثلاثين ألفاً، وكان قتالهم على تساند كل جند وأميره، لا يجمعهم أحد، حتى قدم عليهم خالد بن الوليد من العراق.

---

(١) الصري. التاريخ ج٣ ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤

(٢) ورد هذا الشطر هكذا مختل الوزن.

(٣) حرد: جد وقصد إلى الأمر ـ ابن منظور. اللسان ص ٨٢٤.

١٦٢ ب وكان عسكر أبي عبيدة//باليرموك مجاوراً لعسكر عمرو بن العاص، وعسكر شرحبيل بن حسنة مجاوراً لعسكر يزيد بن أبي سفيان، فكان أبو عبيدة ربما صلى مع عمرو، وشرحبيل مع يزيد، وأما عمرو ويزيد فكانا لا يصليان مع أبي عبيدة وشرحبيل، وقدم خالد بن الوليد وهم على حالهم هذه، فمسكر على حدة، فصلى بأهل العراق.

ووافق خالد بن الوليد المسلمين وهم متضايقون بمدد الروم، وعليهم باهان، ووافق الروم وفيهم نشاط بمددهم، فالتقوا فهزمهم الله حتى ألجأهم وأمدادهم إلى الخندق والواقوصة أحد حدوده، فلزموا خندقهم عامة شهر، يحضضهم القسيسون والشمامسة والرهبان، وينعون لهم النصرانية، حتى استنصروا [1]. فخرجوا للقتال الذي لم يكن بعده قتال، فلما أحس المسلمون خروجهم، وأرادوا الخروج متساندين، سار فيهم خالد بن الوليد، فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه العجز [2] ولا البغي. أخلصوا جهادكم، وأريدوا بعملكم الله، فإن هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبئة وأنتم على تساند [3] وانتشار، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي، وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه يوافق رأي واليكم. قالوا: فما الرأي؟ قال: إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر. ولو علم بالذي كان ويكون. لقد جمعكم. إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما غشيهم، وأنفع للمشركين من أمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم، فالله الله، قد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان، لا ينقصه منه أن دان لأحد من أمراء الجنود، ولا يزيده عليه أن دانوا له، وأن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله، تهيأوا فإن هؤلاء

---

(١) في الطبري: استبصروا.

(٢) في الطبري: الفخر.

(٣) خرج القوم متساندين: أي على رايات شتى متعاونين كأن كل واحد منهم يسند على الآخر ويستعين به. المصدر السابق ص ٢١١٤ ـ ٢١١٥.

قـوم قد تهيأوا، وهذا يوم له ما بعده، فإن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها، فهلموا فلنتعاور الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد، حتى يتأمر كلكم، ودعوني أليكم[1] اليوم.

فأمروه، وهم يرون أنها كخرجاتهم، وأن الأمر أطول مما ساروا إليه، فخرجت الروم في تعبئة لم ير الراؤون مثلها قط، وخرج خالد في تعبئة لم تعبها العرب قبل ذلك، خرج في نحو ستة وثلاثين كردوساً، وقال: إن عدوكم قد كثر وطغى وليس من التعبئة تعبئة أكثر في رأي العين من الكراديس[2]، فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة، وجعل الميمنة كراديس، وعليها عمرو بن العاص، وفيها شرحبيل بن حسنة، وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان، وكان خالد على كردوس، والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وعياض بن غنم وهاشم بن عتبة وزياد بن حنظلة وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وعبد الرحمن بن خالد ـ وهو يومئذ ابن ثمان عشرة سنة ـ وحبيب بن مسلمة، وآخرون[3] غيرهم من جلة الصحابة وأشراف الناس وفرسان العرب، كل واحد منهم على كردوس كردوس.

وفي حديث آخر[4] أنه شهد اليرموك ألف رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم نحو من مائة رجل من أهل بدر، وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس، فيقول: الله الله، إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار المشركين، اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك.

---

(١) في الأصول: الكم.

(٢) الكردوس: القطعة العظيمة من الجبل، وكردس القائد جماعته: جعلها كتيبة منها.

(٣) تسميتهم في الطبري. التاريخ ج٣ ص ٣٩٦.

(٤) نفسه ج٣ ص ٣٩٧.

وعن عبد الرحمن بن غنم ـ وكان شهدها ـ قال: كان أبو سفيان وأشياخ المسلمين محامية لا يجولون ولا يقاتلون، يفيء إليهم الناس، فإذا كانت على الروم قال، وقالوا: هلك بنو الأصفر، اللهم اجعله وجههم، وإذا كانت على المسلمين قال وقالوا: يا بني الإخوان، أين أين اللهم اردد لهم الكرة. فإذا كروا قالوا: إيه يا بني الإخوان، وإذا حلوا قالوا: اللهم أعنهم وانصرهم.

وفي غير حديث عبد الرحمن[1]: أن رجلاً قال يومئذ لخالد: ما أكثر الروم وأقل المسلمين فقال خالد: ما أقل الروم وأكثر المسلمين، إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر[2] بريء من تَوَجِّيه[3]، وإنهم أضعفوا في العدد ـ وكان فرسه قد حفى في مسيره ـ وجعل خالد يوم اليرموك على الطلائع قباث بن أشيم، وكان القارىء يومذاك المقداد.

قالوا: ومن السنة التي سن رسول الله ﷺ بعد بدر أن تقرأ سورة الجهاد عند اللقاء، وهي سورة الأنفال، ولم يزل الناس بعد على ذلك.

ولما فرغ خالد من تعبئتهم وزحف إليه المشركون، أمر عكرمة والقعقاع وكانا على مجنبتي القلب، فأنشبا القتال، فنشب، والتحم الناس، وتطارد الفرسان، فإنهم لعلى ذلك إذ قدم البريد من المدينة، وهو محمية بن زنيم، فأخذته الخيول وسألوه الخبر، فلم يخبرهم إلا بسلامه، وأخبرهم عن أمداد تأتيهم، وإنما جاء بموت أبي بكر وتأمير أبي عبيدة، فأبلغوا خالداً، فأسر إليه الخبر، وأخبره بما قال للجند، فقال له: أحسنت، فقف، وأخذ الكتاب فجعله في كنانته، وخاف إن هو أظهر ذلك أن ينتشر أمر الجند، فوقف الرسول مع خالد، وخرج جرجة أحد أمراء الروم ـ يومئذ ـ حتى إذا كان بين الصفين نادى: ليخرج إلي خالد، فخرج إليه خالد وأقام أبا عبيدة مكانه، فواقفه بين الصفين حتى اختلفت أعناق

---

(١) المصدر السابق ج٣ ص ٣٩٨.

(٢) الأشقر: الأحمر في مغرة حمرة يحمر منها السبيب، ويطلق على عدة أفراس لأصحابها.

(٣) وجي الفرس وتوجى: أصيب بالوجاء، وهو أن يشتكي باطن حافره.

دابتيهما، وقد أمن أحدهما صاحبه، فقال له جرجة: يا خالد، اصدقني ولا تكذبني، فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعَني فإن الكريم لا يخادع، بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسله على أحد إلا هزمته؟ قال: لا، قال: فبم سميت سيف الله؟ قال: إن الله بعث فينا نبيه ﷺ فدعانا، فنفرنا منه ونأينا عنه جميعاً، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه وبعضنا باعده وكذبه، فكنت فيمن كذبه وباعده، وقاتله، ثم أخذ الله - تعالى - بقلوبنا ونواصينا فهدانا به وتابعناه، فقال: أنت سيف من سيوف الله // سله الله على المشركين، ودعا ليّ ١٦٣ أ بالنصر، فسميت سيف الله بذلك، فأنا من أشد الناس على المشركين، قال: صدقتني، ثم أعاد عليه جرجة: يا خالد، أخبرني إلام تدعون؟[1] قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله، قال: فمن لم يجبكم؟ قال: اجزية، ونمنعهم قال: فإن لم يعطها؟ قال: نؤذنه بحرب، ثم نقاتله، قال: فما منزلة لذي يدخل في دينكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا، وأولنا وآخرنا، ثم أعاد عليه جرجة: هل لمن دخل فيكم اليوم - يا خالد - مثل ما لكم من الأجر والذخر؟ قال: نعم، وأفضل. قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟ قال: إنا دخلنا في هذا الأمر وتابعنا نبينا ﷺ وهو حي بين أظهرنا، تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالغيب ويرينا الآيات، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ويتابع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا. قال جرجة: صدقتني بالله ولم تخادعني ولم تألني قال: بالله لقد صدقتك وما لي إليك ولا إلى أحد منكم حاجة، وإن الله لولي ما سألت عنه، قال: صدقتني، وقلب الترس، ومال مع خالد، وقال: علمني الإسلام، فمال به خالد إلى فسطاطه، فشن عليه قربة ثم صلى به ركعتين، وحملت الروم مع انقلابه إلى خالد وهم يرون أنها حيلة، فأزالوا المسلمين عن مواقفهم، فركب خالد ومعه جرجة،

---

(١) في لطبري: تدعوني.

والروم خلال المسلمين، فتنادى المسلمون، فثابوا، وتزاحفت الروم إلى مواقفهم، فزحف بهم خالد حتى تصافحوا بالسيوف، فضرب فيهم خالد وجرجة من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب، ثم أصيب جرجة، ولم يصل صلاة[1] يسجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما، وصلى مع الناس: الأولى والعصر إيماء، وتضعضع الروم، ونهد خالد بالقلب، حتى كان بين خيلهم ورجلهم، وكان مقاتلهم واسع المطرد، ضيق المهرب، فلما وجدت خيلهم مذهباً ذهبت وتركوا رحلهم في مصافهم، وخرجت خيلهم تشتد بهم في الصحراء وأخر الناس الصلاة حتى صلوا بعد الفتح.

ولما رأى المسلمون خيل الروم توجهت للهرب، أفرجوا لها ولم يحرجوها، فذهبت فتفرقت في البلاد، وأقبل خالد والمسلمون على الرحل فقضوهم، فكأنما هدم بهم حائط، فاقتحموا في خندقهم، فاقتحموه عليهم، فعمدوا إلى الواقوصة، فهوى فيها المقترنون وغيرهم، ومن صبر من المقترنين هوى به من جشأت[2] نفسه، فهوى الواحد بالعشرة لا يطيقونه، كلما هوى اثنان كان البقية أضعف، حتى تهافت في الواقوصة عشرون ومائة ألف: من المقترنين ثمانون ألفاً، ومن المطلقين أربعون ألفاً، سوى من قتل في المعركة من الخيل والرجل، وتجلل القيقار وأشراف من أشراف الروم برانسهم، ثم جلسوا وقالوا: لا نحب أن نرى يوم السوء إذ لم نستطع أن نرى يوم السرور، وإذ لم نستطع أن نمنع النصرانية، فأصيبوا في تزملهم.

ولما دخل خالد الخندق، نزله وأحاطت به خيله، وقاتل الناس حتى أصبحوا، قال بعضهم: وأصبح خالد من تلك الليلة وهو في رواق تذارق.

وقال[3] عكرمة بن أبي جهل ـ يومئذ: قاتلت رسول الله ﷺ في كل

---

(١) في لأصل: صلوة.

(٢) في الطبري: خشعت.

(٣) الطبري. التاريخ ج٣ ص ٤٠١.

موطن، وأفر منكم اليوم، ثم نادى: من يبايع على الموت؟ فبايعه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعاً جراحاً وماتوا، إلا من برأ، منهم ضرار بن الأزور، وأتى خالد بعدما أصبحوا بعكرمة جريحاً، فوضع رأسه على فخذه، وبعمرو بن عكرمة، فوضع رأسه على ساقيه، وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر الماء في حلوقهما، ويقول: كلا، زعم ابن حنتمة[1] أنا لا نستشهد.

وأصيبت يومئذ عين أبي سفيان بن حرب، وكان الأشتر قد شهد اليرموك ولم يشهد القادسية، فخرج ـ يومئذ ـ رجل من الروم، فقال: من يبارز، فخرج إليه الأشتر، فاختلفا ضربتين، فقال للرومي: خذها وأنا الغلام النخعي، فقال الرومي: أكثر الله في قومي مثلك، أما والله لولا أنك من قومي لذدت عن الروم، فأما الآن فلا أعينهم.

وفي حديث عبد الرحمن بن غنم، وذكر قتال المسلمين تلك الليلة، قال: حتى إذا فتح الله على المسلمين من آخر الليل، وقتلوهم حتى الصباح، أصبحوا فاقتسموا الغنائم، ودفنوا قتلى المسلمين، وبلغوا ثلاثة آلاف، وصلى كل أمير على قتلى أصحابه، ودفع خالد بن الوليد العهد إلى أبي عبيدة بعدما فرغ من القسم، ودفن الشهداء، وتراجع الطلب، فولى أبو عبيدة ـ رحمه الله النفل من الأخماس. فنفل وأكثر. وكتب بالفتح.

قالوا[2]: وكان في الثلاثة آلاف الذين أصيبوا: عكرمة وابنه عمرو، وسلمة ابن هشام، وعمرو بن سعيد، وأثبت[3] خالد بن سعيد، فلا يدري أين مات بعد ـ وقد تقدم ذكر موت خالد في غير هذه الوقعة[4]، وهذا مما يقع بين

---

(١) المقصود بذلك عمر، وأمه، حنتمة بنت ذي الرمحين هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم المخزومية.

(٢) الطبري. التاريخ ج٣ ص ٤٠٢.

(٣) أثبت. جرح جرحاً غائراً.

(٤) راجع ما مر آنفاً من هذا الكتاب

الناقلين من الاختلاف الذي تقدم التنبيه عليه، فالله تعالى أعلم.

وعن عمرو بن ميمون وغيره، ذكروا: أن هرقل كان حج بيت المقدس، قال: فبينا هو يقيم به أتاه الخبر بقرب الجنود منه، فجمع الروم وقال: أرى من الرأي أن لا تقاتلوا هؤلاء القوم وأن تصالحوهم، فوالله لئن تعطوهم نصف ما أخرجت الشام وتأخذوا نصفاً وتقر لكم جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام ويشاركوكم في جبال الروم، فنخر أخوه وختنه، وتصدع عنه من كان حوله، فلما رآهم يعصونه ويردون عليه بعث أخاه، وأمر الأمراء، ووجه إلى كل حيز جنداً، فلما اجتمع المسلمون أمرهم ـ يعني الروم ـ بمنزل جامع حصين، فنزلوا الواقوصة، وخرج هو فنزل حمص، فلما بلغه أن خالداً قد طلع على سوي وانتسف أهله وأموالهم وعمد إلى بصرى وافتتحها، قال لجلسائه: ألم أقل لكم لا تقاتلوهم، فإنه لا يقوم لهم أحد، فقالوا: قاتل عن دينك واقض الذي // ١٦٣ ب عليك ولا تجبن الناس، قال: وأي شيء أطلب إلا توقير دينكم.

ولما نزلت جنود المسلمين اليرموك، بعثوا إلى الروم: إنا نريد كلام أميركم وملاقاته، فدعونا نأته ونكلمه، فأبلغوه، فأذن لهم. فأتاه أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان كالرسل[١]، والحارث بن هشام، وضرار بن الأزور، وأبو جندل بن سهيل، ومع أخي هرقل يومئذ ثلاثون سرادقاً كلها من ديباج، فلما انتهوا إليها أبوا أن يدخلوا عليه فيها، وقالوا: لا نستحل الحرير، فابرز لنا، فبرز إلى فرش ممهدة، وبلغ ذلك هرقل، فقال: ألم أقل لكم، هذا أول الذل، أما الشام فلا شام، ويل للروم من الولد المشؤوم، ولم يتأت بينهم وبين المسلمين صلح، فرجع أبو عبيدة وأصحابه، واتعدوا، فكان القتال حتى جاء الفتح[٢].

---

(١) في الطبري: مالرسول.

(٢) النص منقول عن الطبري. التاريخ ج٣ ص ٤٠٣.

قصة صلح إيلياء وقدوم عمر ـ رضي الله عنه ـ الشام

وكان أبو عبيدة ـ رحمه الله ـ بعد انقضاء اليرموك ـ على ما وقع في كتب فتوح الشام من ذلك [1] ـ قد بعث الرسل إلى أهل إيلياء يطلبهم بالخروج إليه ليكتب لهم أماناً على أنفسهم وأموالهم، فتثاقلوا عليه، فكتب إليهم يعرض عليهم الإسلام أو الجزية، أو ينزل بهم حتى يحكم الله له عليهم، وقد أوردنا هذا الكتاب بنصه قبل [2]، فلما أبوا أن يأتوه وأن يصالحوه، أقبل إليهم حتى نزل بهم، فحاصرهم حصاراً شديداً، وضيق عليهم من كل جانب، فخرجوا إليه ذات يوم، فقاتلوهم ساعة، ثم شد عليهم المسلمون فانهزموا ودخلوا حصنهم، وكان الذي ولي قتالهم خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان، كل واحد منهما في جانب، فبلغ ذلك سعيد بن زيد وهو على دمشق، فكتب إلى أبي عبيدة:

أما بعد، فإني لعمري ما كنت لأوثرك وأصحابك بالجهاد في سبيل الله على نفسي، وعلى ما يقربني من مرضاة ربي، فإذا أتاك كتابي هذا فابعث إلى عملك من هو أرغب فيه مني، فليعمل لك عليه ما بدا لك، فإني قادم عليك وشيكاً إن شاء الله، والسلام عليك.

فلما وصل كتابه إلى أبي عبيدة، قال: أشهد ليفعلنها، فقال ليزيد بن أبي سفيان: اكفني دمشق، فسار إليها يزيد فوليها.

---

(١) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٢٤٢ ـ ٢٥٠.

(٢) راجع النص في هذا الكتاب.

وكان في المسلمين رجل من بني نمير يقال له مخيمس[1] بن حابس بن معاوية، وكان شجاعاً، وكان الناس يذكرون منه صلاحاً، فقده أصحابه أياماً، فكانوا يطلبونه ويسألون عنه فلا يخبرون عنه بشيء، فلما يئسوا منه ظنوا أن قد هلك، وأنه اغتيل، فبينا هم جلوس ذات يوم إذ طلع عليهم مقبلاً في يده ورقتان لم ينظر الناس إلى مثلها ـ قط ـ أنضر[2]، ولا أعرض عرضاً، ولا أطول طولاً، ولا أحسن منظراً، ولا أطيب رائحة، ففرح به أصحابه فرحاً شديداً، وقالوا له: أين كنت؟ قال: وقعت في جب فمضيت فيه حتى انتهيت إلى جنة معروشة، فيها من كل شيء، ولم تر عيني مثل ما فيها قط في مكان، ولم أظن أن الله خلق مثلها، فلبثت فيها هذه الأيام التي فقدتموني ـ في نعيم ليس مثله نعيم، وفي منظر ليس مثله منظر، وفي رائحة لم يجد أحد من الناس ـ قط ـ أطيب منها، فبينا أنا كذلك، أتاني آت فأخذ بيدي فأخرجني منها إليكم، وقد كنت أخذت هاتين الورقتين من شجرة كنت تحتها جالساً، فبقيتا في يدي، فأخذ الناس يشمونها فيجدون لها ريحاً لم يجدوا لشيء قط أطيب منها، فأهل الشام يزعمون أنه أدخل الجنة وأن تينك الورقتين من ورقها، ويقولون: إن الخلفاء رفعتها في الخزانة.

ولما رأى أهل إيلياء أن أبا عبيدة غير مقلع عنهم، وظنوا أن لا طاقة لهم بحربه، قالوا: نحن نصالحك، قال: فإني أقبل منكم الصلح، قالوا: فأرسل إلى خليفتكم عمر، فيكون هو الذي يعطينا العهد، ويكتب لنا الأمان، فقبل ذلك أبو عبيدة، وهم بالكتاب ـ وكان لا يقطع أمراً دون رأي معاذ، وكان معاذ لا يكاد يفارقه، لرغبته في الجهاد ـ فأرسل إليه أبو عبيدة، وكان بعثه إلى الأردن، فلما قدم عليه أخبره، فقال له معاذ: تكتب إلى أمير المؤمنين فتسأله القدوم عليك، فلعله أن يستقدم[3]، ثم يأبى هؤلاء الصلح فيكون سيره عناء

(١) في الأصل: مخسي، ولتصويب من الأزدي.

(٢) في الأصل: أنظر.

(٣) في الأصل: أن سيقدم

وفضلاً، فلا تكتب إليه حتى تستحلفهم بأيمانهم المغلظة: لئن أنت سألته القدوم فقدم عليهم فأعطاهم الأمان وكتب لهم الصلح ليقبلن ذلك وليصالحن عليه، فأخذ عليهم أبو عبيدة الأيمان المغلظة لئن عمر قدم فأعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وكتب لهم على ذلك كتاباً ليقبلن وليؤدن الجزية وليدخلن فيما دخل فيه أهل الشام، فلما فعلوا ذلك كتب إليه أبو عبيدة:

بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين، من أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإنا أقمنا على إيلياء، وظنوا أن لهم في المطاولة فرجاً ورجاء، فلم يزدهم الله بها إلا ضيقاً ونقصاً وهزلاً وأزلاً، فلما رأوا ذلك سألونا أن نعطيهم ما كانوا قبل منه ممتنعين، وله كارهين، وسألونا الصلح على أن يقدم عليهم أمير المؤمنين، فيكون هو المؤمن لهم والكاتب لهم كتاباً، وإنا خشينا أن يقدم أمير المؤمنين ثم يغدر القوم ويرجعوا، فيكون مسيرك - أصلحك الله - عناء وفضلاً، فأخذنا عليهم المواثيق المغلظة بأيمانهم، لئن أنت قدمت عليهم فآمنتهم على أنفسهم وأموالهم ليقبلن ذلك وليؤدن الجزية، وليدخلن فيما دخل فيه أهل الذمة، ففعلوا، فإن رأيت يا أمير المؤمنين أن تقدم علينا ففعل، فإن في مسيرك أجراً وصلاحاً وعافية للمسلمين، آتاك الله رشدك، ويسر أمرك، والسلام عليك.

فلما أتى عمر - رحمه الله - كتاب أبي عبيدة، جمع رءوس المسلمين، فقرأه عليهم واستشارهم فقال له عثمان: إن الله قد أذلهم وحصرهم وضيق عليهم، وأراهم ما صنع بجموعهم وملوكهم، وما قتل من صناديدهم، وفتح على المسلمين من بلادهم، فهم في كل يوم يزدادون هزلاً وأزلاً وذلاً ونقصاً وضيقاً ورغماً، فإن أنت أقمت ولم تسر إليهم علموا أنك بأمرهم مستخف، ولشأنهم محتقر، فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى ينزلوا على الحكم، ويعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وإلا حاصرهم المسلمون وضيقوا عليهم حتى يعطوا بأيديهم.

فقال عمر: // ماذا ترون؟ هل عند أحد منكم غير هذا الرأي؟ ١٦٤ أ

فقال علي بن أبي طالب: نعم، يا أمير المؤمنين، عندي غير هذا.

فقال: ما هو؟

قال: إنهم يا أمير المؤمنين قد سألوك المنزلة التي لهم فيها الذل والصغار، وهي على المسلمين فتح ولهم عز، وهم يعطونكها الآن عاجلاً في عافية، ليس بينك وبين ذلك إلا أن تقدم عليهم، ولك يا أمير المؤمنين في القدوم عليهم الأجر في كل ظمأ وكل مخمصة وفي قطع كل واد وفي كل فج وشعب وفي كل نفقة تنفقها حتى تقدم عليهم، فإن قدمت عليهم كان في قدومك عليهم الأمن والعافية والصلح، والفتح، ولست آمن لو أنهم يئسوا من قبولك الصلح ومن قدومك عليهم أن يتمسكوا بحصنهم، ولعلهم أن يأتيهم من عدونا مدد لهم فيدخلوا معهم في حصنهم، فيدخل على المسلمين من حربهم وجهادهم بلاء ومشقة، ويطول بهم الحصار، ويقيم المسلمون عليهم، فيصيب المسلمين من الجهد والجوع نحو ما يصيبهم، ولعل المسلمين يدنون من حصنهم فيرمونهم بالنشاب ويقذفونهم بالحجارة، فإن قتل رجل من المسلمين تمنيتم أنكم فديتموه بمسيركم إلى منقطع الترب، ولكان المسلم بذلك من إخوانه أهلاً.

فقال عمر: قد أحسن عثمان في مكيدة العدو، وقد أحسن علي النظر لأهل الاسلام. ثم قال: سيروا على اسم الله، فإني معسكر وسائر.

ثم خرج ومعه أشراف الناس وبيوتات العرب والمهاجرون والأنصار، وأخرج معه العباس بن عبد المطلب.

وعن أبي سعيد المقبري[1] أن عمر ـ رحمه الله ـ كان في مسيره ذلك يجلس لأصحابه إذا صلى الغداة، فيقبل عليهم بوجهه، ثم يقول: الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام والإيمان، وأكرمنا بمحمد ﷺ فهدانا به من الضلالة، وجمعنا من الفرقة، وألف بين قلوبنا، ونصرنا به على الأعداء، ومكن لنا في البلاد، وجعلنا به إخواناً متحابين، فاحمدوا الله على هذه النعم وسلوه المزيد فيها، والشكر عليها، وتمام ما أصبحتم تتقلبون فيه منها، فإن الله ـ عز وجل ـ يريد الرغبة

(١) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

إليه، ويتم نعمته على الشاكرين.

قال: فكان عمر - رضي الله عنه - لا يدع هذا القول كل غداة، في مبتدئه ومرجعه.

وعن أبي سعيد الخدري[1] أن عمر - رحمه الله - مضى في وجهه ذلك حتى، انتهى إلى الجابية، فقام في الناس فقال:

الحمد لله الحميد ، المستحمد الدفاع المجيد، الغفور الودود، الذي من أراد أن يهديه من عباده اهتدى، ﴿من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا﴾ (١٧ : الكهف).

قال: وإذا رجل من القسيسين من النصارى عندهم، وعليه جبة صوف، فلما قال عمر - رضي الله عنه -: «من يهد الله فهو المهتد» قال النصراني: وأنا أشهد، فقال عمر: «ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا»، فنفض النصراني جبته عن صدره، ثم قال: معاذ الله، لا يضل الله أحداً يريد الهدى، فقال عمر: ماذ يقول عدو الله، هذا النصراني؟ فأخبروه، فرفع عمر صوته، وعاد في خطبته بمثل مقالته الأولى، ففعل النصراني كفعله الأول، فغضب عمر - رضي الله عنه - وقال: والله لئن أعادها لأضربن عنقه، ففهمها العلج فسكت، إذ عاد عمر في خطبته وقال: من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ثم قال:

أما بعد، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن خيار أمتي الذين يلونكم، ثم الذين تلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يشهد الرجل على الشهادة ولم يستشهد عليها، وحتى يحلف على اليمين ولم يسألها، فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، ولا يبالي بشذوذ من شذ، وذكر بقية الحديث[2].

قال: ثم خرج عمر - رحمه الله - من الجابية إلى إيلياء، فخرج إليه المسلمون

---

(١) المصدر السابق ص ١٥١ وما بعدها.

(٢) تتمة الحديث في الأزدي (ص ٢٥٢): «.. ألا لا يخلون رجل منكم بامرأة إلا أن يكون لها محرماً، فإن ثالثهما الشيطان».

يستقبلونه، وخرج أبو عبيدة بالناس أجمعين، وأقبل هو على جمل له، وعليه رحله، وعليه صفة[1] من جلد كبش حولي، فانتهى إلى مخاضة، فأقبلوا يبتدرونه، فقال للمسلمين: مكانكم، ثم نزل عن بعيره، فأخذ بزمامه وهو من ليف، ثم دخل الماء بين يدي جمله، حتى جاز الماء إلى أصحاب أبي عبيدة، فإذا معهم برذون يجنبونه، فقال له: يا أمير المؤمنين، إركب هذا البرذون، فإنه أجمل بك وأهون عليك في ركوبك، ولا نحب أن يراك أهل الذمة في مثل هذه الهيئة التي[2] نراك فيها، واستقبلوه بثياب بيض، فنزل عمر عن جمله وركب البرذون، وترك الثياب، فلما هملج[3] به البرذون، نزل عنه، وقال: خذوا هذا عني، فإنه شيطان، وأخاف أن يغير على قلبي، فقالوا: يا أمير المؤمنين، لو لبست هذه الثياب البيض، وركبت هذا البرذون لكان أجمل في المروءة وأحسن في الذكر وخيراً في الجهاد. فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: ويحكم، لا تعتزوا بغير ما أعزكم الله به فتذلوا، ثم مضى ومضى المسلمون معه حتى أتى إيلياء، فنزل بها، فأتاه رجال من المسلمين فيهم أبو الأعور السلمي، وقد لبسوا لباس الروم، وتشبهوا بهم في هيئتهم، فقال عمر: احثوا في وجوههم التراب، حتى يرجعوا إلى هيئتنا وسنتنا ولباسنا، وكانوا قد أظهروا شيئاً من الديباج، فأمر بهم فحرق عليهم.

وفي غير هذا الحديث مما ذكره سيف[4]: أن خالد بن الوليد لقي عمر عند مقدمة الجابية في الخيل، عليهم الديباج والحرير، فنزل، وأخذ الحجارة فرماهم بها، وقال: سرعان ما لفتم عن رأيكم، إياي تستقبلون في هذا الزي، وإنما شبعتم منذ سنتين، سرعان ما نزت بكم البطنة، وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنها يلامقة، وإن علينا السلاح، قال: فنعم إذاً.

---

(١) الصفة: ما يلبس تحت الدرع.

(٢) في الأصول: الذي.

(٣) هملج: حسن سيره في سرعة وبخترة ـ ابن منظور. اللسان ص ٤٧٠٢.

(٤) الطبري. التاريخ ج٣ ص ٦٠٧.

وفي حديث أبي سعيد الخدري[1] فقال يزيد بن أبي سفيان: يا أمير المؤمنين، إن الثياب والدواب عندنا كثيرة، والعيشَ عندنا رفيع، والسعر رخيص، وحال المسلمين كما تحب، فلو أنك لبست من هذه الثياب البيض وركبت من هذه الدواب الْفُرْهِ، وأطعمت المسلمين من هذا الطعام الكثير، كان أبعد في الصوت، وأزين لك في هذا الأمر، وأعظم لك في الأعاجم. فقال له: يا يزيد لا والله لا أدع الهيئة التي فارقت عليها صاحبي، ولا أتزين للناس بما أخاف أن يشينني عند ربي، ولا أريد أن يعظم أمري عند الناس ويصغر عند الله.

فلم يزل عمر ـ رحمه الله ـ على الأمر الأول الذي كان عليه في حياة رسول الله // ـ ﷺ ـ وحياة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ حتى خرج من الدنيا. ١٦٤ ب

قال: فلما نزل عمر بإيلياء واطمأن الناس، بعث أبو عبيدة إلى أهل إيلياء، أن انزلوا إلى أمير المؤمنين، واستوثقوا لأنفسكم، فنزل إليه ابن الجعيد في ناس من عظمائهم، فكتب لهم عمر كتاب الأمان والصلح، فلما قبضوا كتابهم وأمنوا، دخل الناس بعضهم في بعض، ولم يبق أمير من أمراء الأجناد إلا استزار عمر، فيصنع له ويسأله أن يزوره في رحله، فيفعل ذلك عمر، إكراماً لهم، غير أبي عبيدة، فإنه لم يستزره، فقال له عمر: إنه لم يبق أمير من أمراء الأجناد إلا استزارني غيرك، فقال: أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، إني أخاف إن استزرتك أن تعصر عينيك، فأتاه عمر في بيته، فإذا ليس في بيته إلا لبد فرسه، وإذا هو فراشه وسرجه وإذا هو وسادته، وإذا كسر يابسة في كوة بيته، فجاء بها، فوضعها على الأرض بين يديه، وأتى بملح جريش، وكوز خزف[2] فيه ماء. فلما نظر عمر إلى ذلك بكى، ثم التزمه وقال: أنت أخي، وما من أحد من أصحابي إلا وقد نال من الدنيا ونالت منه، غيرك. فقال له أبو عبيدة: ألم أخبرك أنك ستعصر في بيتي عينيك.

---

(١) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٢٥٣ وما بعدها.

(٢) في الأزدي: وكوز أخراف

قال: ثم إن عمر قام في الناس، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على النبي ﷺ ثم قال: يا أهل الإسلام، إن الله قد صدقكم الوعد، ونصركم على الأعداء، وأورثكم البلاد. ومكن لكم في الأرض، فلا يكن جزاء ربكم إلا الشكر، وإياكم والعمل بالمعاصي، فإن العمل بالمعاصي كفر للنعم، وقل ما كفر قوم بما أنعم الله عليهم، ثم لم يفزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم وسلط عليهم عدوهم.

ثم نزل، وحضرت الصلاة، فقال عمر ـ رضي الله عنه: يا بلال، ألا تؤذن لنا ـ رحمك الله ـ فقال بلال: يا أمير المؤمنين، أما والله ما أردت أن أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ ولكن سأطيعك اليوم إذ أمرتني في هذه الصلاة وحدها. فلما أذن بلال وسمعت الصحابة صوته، ذكروا نبيهم ﷺ فبكوا بكاء شديداً، ولم يكن يومئذ أحد أطول بكاء من أبي عبيدة ومعاذ بن جبل، حتى قال لهما عمر: حسبكما ـ رحمكما الله ـ فلما قضى عمر صلاته، قام إليه بلال فقال: يا أمير المؤمنين، إن أمراء أجنادك بالشام والله ما يأكلون إلا لحوم الطير، والخبز النقي، وما يجد ذلك عامة المسلمين. فقال لهم عمر: ما يقول بلال؟ فقال يزيد ابن أبي سفيان: يا أمير المؤمنين، إن سعر بلادنا رخيص، وإنا نصيب هذا الذي ذكر بلال هاهنا بمثل ما كنا نقوت به عيالنا بالحجاز، فقال عمر: والله لا أبرح العرصة أبداً حتى تضمنوا ليّ أرزاق المسلمين في كل شهر، ثم قال: انظروا، كم يكفي الرجل ويسعه في كل يوم، فقالوا: كذا وكذا، فقال: كم يكون ذلك في الشهر، قالوا: جريبين من قمح مع ما يصلحه من الزيت والخل عند رأس كل هلال، فضمنوا له ذلك، ثم قال: يا معشر المسلمين، هذا لكم سوى أعطياتكم، فإن وفا لكم أمراؤكم بهذا الذي فرضته لكم وأعطوكموه في كل شهر، فذلك ما أحب، وإن هم لم يفعلوا، فأعلموني حتى أعزلهم عنكم، وأولي أمركم غيرهم، فلم يزل ذلك جارياً دهراً حتى قطع بعد ذلك.

وعن شهر بن حوشب[1]: أن إسلام كعب الحبر ـ وهو من اليمن من حمير ـ

---

(١) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٢٥٩ ـ ٢٦٢.

كان في قدوم عمر الشام، وأن كعباً أخبره بأمره، وكيف كان ذلك.

قال: وكان أبوه من مؤمني أهل التوراة برسول الله ﷺ وكان من عظمائهم وخيارهم.

قال كعب: وكان من أعلم الناس بما أنزل الله على موسى من التوراة، وبكتب الأنبياء، ولم يكن يدخر عني شيئاً مما كان يعلم، فلما حضرته الوفاة دعاني فقال: يا بني قد علمت أني لم أكن أدخر عنك شيئاً مما كنت أعلم، إلا أني حبست عنك ورقتين فيهما ذكر نبي يبعث، وقد أظل زمانه، فكرهت أن أخبرك بذلك، فلا آمن عليك بعد وفاتي أن يخرج بعض هؤلاء الكذابين فتتبعه، وقد قطعتهما من كتابك وجعلتهما في هذه الكوة التي ترى، وطينت عليهما، فلا تتعرضن لهما ولا تنظر فيهما زمانك هذا، وأقرهما في موضعهما حتى يخرج ذلك النبي، فإذا خرج فاتبعه، وانظر فيهما، فإن الله يزيدك بذلك خيراً.

فلما مات والدي لم يكن شيء أحب إليّ من أن ينقضي المأتم حتى أنظر في الورقتين، فلما انقضى المأتم فتحت الكوة، ثم استخرجت الورقتين، فإذا فيهما: محمد رسول الله، خاتم النبيين، لا نبي بعده، مولده بمكة، ومهاجره بطيبة. ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب[1] في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يجزي بالسيئة الحسنة، ويعفو ويغفر ويصفح، أمته الحمادون، الذين يحمدون الله على كل شرف وعلى كل حال، وتذلل ألسنتهم بالتكبير، وينصر الله نبيهم على كل من ناوأه، يغسلون فروجهم بالماء، ويأتزرون على أوساطهم، وأناجيلهم في صدورهم، ويأكلون قربانهم في بطونهم، ويؤجرون عليها، وتراحمهم بينهم تراحم بني الأم والأب، وهم أول من يدخل الجنة يوم القيامة من الأمم، وهم السابقون المقربون المشفعون المشفع لهم، فلما قرأت هذا قلت في نفسي: والله ما علمني أبي شيئاً هو خير لي من هذا، فمكثت بذلك ما شاء الله، حتى بعث النبي

---

(١) في الأصل ولانسحاب.

ﷺ وبيني وبينه بلاد بعيدة، منقطعة، لا أقدر على إتيانه، وبلغني أنه خرج في مكة، وهو يظهر مرة ويستخفي مرة، فقلت: هو هذا، وتخوفت ما كان والدي حذرني وخوفني من الكذابين، وجعلت أحب أتبين وأتثبت، فلم أزل بذلك حتى بلغني أنه قد أتى المدينة، فقلت في نفسي: إني لأرجو أن يكون إياه، وجعلت ألتمس السبيل إليه، فلم يقدر لي حتى بلغني أنه قد توفي ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ فقلت في نفسي: لعله لم يكن الذي كنت أظن، ثم بلغني أن خليفته قام مقامه، ثم لم ألبث إلا قليلاً حتى جاءتنا جنوده، فقلت في نفسي: لا أدخل في هذا الدين حتى أعلم أهم الذين كنت أرجو وأنتظر وأنظر كيف سيرتهم وأعمالهم وإلى ما تكون عاقبتهم، فلم أزل أدفع ذلك وأؤخره لأتبين وأتثبت حتى قدم علينا عمر ابن الخطاب، فلما رأيت صلاة المسلمين وصيامهم // وبرهم ووفاءهم بالعهد، وما صنع الله لهم على الأعداء، علمت أنهم هم الذين كنت أنتظر، فحدثت نفسي بالدخول في الإسلام، فوالله إني ذات ليلة فوق سطح لي، إذا رجل من المسلمين يتلو كتاب الله تعالى، حتى أتى على هذه الآية: ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نـزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت، وكان أمر الله مفعولا﴾ (٤٧ : النساء). ١٦٥ أ

قال: فلما سمعت هذه الآية خشيت والله ألا أصبح حتى يحول وجهي في قفاي، فما كان شيء أحب إليّ من الصباح، فغدوت على عمر، فأسلمت حين أصبحت.

وقال كعب لعمر عند انصرافه عن الشام: يا أمير المؤمنين، إنه مكتوب في كتاب الله: إن هذه البلاد التي كان فيها بنو إسرائيل، وكانوا أهلها، مفتوحة على رجل من الصالحين، رحيم بالمؤمنين، شديد على الكافرين، سره مثل علانيته، وعلانيته مثل سره، وقوله لا يخالف فعله، والقريب والبعيد عنده في الحق سواء، وأتباعه رهبان بالليل وأسد بالنهار، متراحمون متواصلون متباذلون.

فقال له عمر: ثكلتك امك، أحق ما تقول؟ قال: أي والذي أنزل لتوراة على موسى. والذي يسمع ما نقول، إنه لحق.

فقال عمر ـ رضي الله عنه: فاحمد لله الذي أعزنا وشرفنا وأكرمنا فرحمنا

بمحمد ﷺ ـ وبرحمته التي وسعت كل شيء.

ومن حديث زيد بن أسلم عن أبيه ـ وهو عندنا بالإسناد: أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ خرج زمان الجاهلية مع أناس من قريش في تجارة إلى الشام، قال: فإني لفي سوق من أسواقها، إذا ببطريق قد قبض على عنقي، فذهبت أنازعه، فقيل لي: لا تفعل، فإنه لا نصف لك منه، فأدخلني كنيسة، فإذا تراب عظيم ملقى، فجاءني بزنبيل ومجرفة، فقال: انقل ما هاهنا، فجعلت أنظر كيف أصنع، فلما كان في الهاجرة وافاني وعليه ثوب أرى سائر جسده منه، فقال: أثنك على ما أرى ما نقلت شيئاً، ثم جمع يديه فضرب بهما دماغي، فقلت: وا ثكل أمك يا عمر، أبلغت ما أرى، ثم وثبت إلى المجرفة، فضربت بها هامته، فنثرت دماغه، ثم واريته في التراب، وخرجت على وجهي، لا أدري أين أسير، فسرت بقية يومي وليلتي ومن الغد إلى الهاجرة، فانتهيت إلى دير، فاستظللت بفنائه، فخرج إليّ منه رجل، فقال لي: يا عبد الله، ما يقعدك هنا؟ فقلت: أضللت أصحابي، فقال لي: ما أنت على طريق، وإنك لتنظر بعيني خائف، فادخل وأصب من الطعام، واسترح، فدخلت فأتاني بطعام وشراب، وألطفني، ثم صعد فيّ النظر وصوبه، فقال: قد علم أهل الكتاب أو الكتب أنه ما على الأرض أعلم بالكتاب أو الكتب مني، وإني لأرى صفتك، الصفة التي تخرجنا من هذا الدير، وتغلبنا عليه، فقلت له: يا هذا، لقد ذهبت في غير مذهب. فقال لي: ما اسمك؟ فقلت: عمر بن الخطاب، قال: أنت والله صاحبنا، فاكتب لي على ديري هذا وما فيه، فقلت: يا هذا، إنك قد صنعت إليّ صنيعة فلا تكدرها، فقال: إنما هو كتاب في رق، فإن كنت صاحبنا فذاك، وإلا لم يضرك شيء، فكتبت له على ديره وما فيه، فأتاني بثياب ودراهم، فدفعها إليّ، ثم أوكف أتانا، فقال: أتراها؟ قلت: نعم، قال: سر عليها، فإنك لا تمر بقوم إلا سقوها وعلفوها وأضافوك، فإذا بلغت مأمنك فاضرب وجهها مدبرة، فإنهم يفعلون بها كذلك حتى ترجع إليّ، قال: فركبتها، فكان كما قال، حتى لحقت أصحابي وهم متوجهون إلى الحجاز، فضربتها مدبرة

وانطلقت معهم، فلما وافى عمر الشام في خلافته، جاءه ذلك الراهب بالكتاب، وهو صاحب دير العدس، فلما رآه عرفه، ثم قال: قد جاء ما لا مذهب لعمر عنه، ثم أقبل على أصحابه فحدثهم بحديثه، فلما فرغ منه، أقبل على الراهب، فقال: هل عندكم من نفع للمسلمين؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فوفى له عمر - رضي الله عنه.

وعن سيف[1] يرفعه إلى سالم بن عبد الله،قال: لما دخل عمر الشام تلقاه رجل من يهود دمشق، فقال: السلام عليك يا فاروق، أنت صاحب إيلياء، والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء.

وعند سيف في أمر إيلياء أحاديث ربما خالفت بعض ما تقدم، ونحن نورد منها ما يطيل الإمتاع مضموماً إلى ذلك ما ذكره من أمر قيسارية وغيره.

فمن ذلك[2]: أن عمر -رحمه الله- كتب إلى يزيد بن أبي سفيان بعد مصالحة أهل الأردن، واجتماع عسكر الروم بأجنادين وبيسان وغزة: أن يسرح معاوية إلى قيسارية.

وكتب عمر إلى معاوية:

أما بعد، فإني قد وليتك قيسارية، فسر إليها واستنصر الله عليهم، وأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا، نعم المولى ونعم النصير.

فسار معاوية في جنده حتى نزل على أهل قيسارية، فهزمهم وحصرهم، ثم إنهم جعلوا يزاحفونه فلا يزاحفونه في مرة إلا هزمهم وردهم إلى حصنهم، ثم زاحفوه آخر ذلك وخرجوا من صياصيهم، فاقتتلوا في حفيظة واستماتة، فبلغت قتلاهم في المعركة ثمانين ألفاً، وكملها في هزيمتهم مائة ألف، وبعث بالفتح مع

---

(١) الطبري. التاريخ ح٣ ص ٦٠٨.
(٢) نفسه ج٣ ص ٦٠٤.

رجلين من بني الضبيب، ثم خاف منهما الضعف، فبعث آخرين بعدهما، فلحقاهما، فطوياهما وهما نائمان، وانتهى بريد معاوية إلى عمر بالخبر ليلاً، فجمع الناس وأباتهم على الفرح، وجعل معاوية قبل الفتح وبعده يجلس الأسرى عنده ويقول: ما صنعوا بأسرانا صنعنا بأسراهم مثله، فمنع بذلك من اعبث بأسرى المسلمين، حتى افتتح قيسارية.

وكان عمر لما أمر معاوية بالتوجه إلى قيسارية، أمر عمرو بن العاص[1] بصدم الأرطبون وكان على جمع الروم بأجنادين، وأمر علقمة بن مجزز بصدم القيقار، وكان على الروم بغزة، فلما توجه معاوية إلي قيسارية صدم عمرو [بن العاص] إلى الأرطبون ومن بإزائه، وخرج معه شرحبيل بن حسنة على مقدمته، وولى مجنبتيه ابنه عبد الله بن عمرو وجنادة بن تميم - من بني مالك بن كنانة - واستخلف أبا الأعور على الأردن، وخرج حتى نزل على الروم بأجنادين، وهم في حصونهم وخنادقهم، وعليهم الأرطبون، وكان أدهى الروم، وأبعدها غوراً وأنكاها فعلاً، وكان وضع // بالرملة جنداً عظيماً، وبإيلياء جنداً عظيماً، وكتب عمرو بالخبر إلى عمر، فلما جاءه كتابه قال: قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظروا عم تنفرج. وأقام عمرو على أجنادين، لا يقدر من الأرطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل، فولى ذلك بنفسه، وتوجه فدخل عليه، كأنه رسول، فأبلغه ما يريد، وسمع كلامه حتى عرف ما أراد، وتأمل حصونه، فقال أرطبون في نفسه: والله إن هذا لعمرو، أو إنه للذي يأخذ عمرو برأيه، وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله، ثم دعا حرسياً فساره، فقال: اخرج فقم بمكان كذا فإذا مر بك فاقتله، وفطن له عمرو، فقال له: قد سمعت مني وسمعت منك، وقد وقع ما قلت مني موقعاً، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لتكانفه[2] ويشهدنا أموره، فأرجع فآتيك بهم الآن، فإن

١٦٥ ب

---

(١) المصدر السابق ج٣ ص ٦٠٤ - ٦٠٦.

(٢) أي لنعاونه.

رأوا مثل الذي أرى فقد رآه أهل العسكر ورآه الأمير، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم، وكنت على رأس أمرك. قال: نعم، ودعا فلاناً فساره، وقال: اذهب إلى فلان - يعني ذلك الحرسي - فرده إليّ، فرجع إليه الرجل، وقال لعمرو: انطلق فجيء بأصحابك، فخرج عمرو ورأى أن لا يعود لمثلها، وعلم الرومي أنه خدعه[1] فقال: هذا أدهى الخلق، وبلغت عمر فقال: غلبه عمرو.

ثم ناهده عمرو وقد عرف مأخذه، فالتقوا بأجنادين، فاقتتلوا قتالاً شديداً كقتال اليرموك، حتى كثرت القتلى بينهم، ثم انهزم أرطبون في الناس، فأوى إلى إيلياء، ونزل عمرو أجنادين وانطلق علقمة بن مجزر فحصر القيقار بغزة، وجعل يراسله فلم يشفه أحد مما يريد، فأتاه كأنه رسول علقمة. فأمر القيقار رجلاً أن يقعد له بالطريق، فإذا مر قتله، ففطن علقمة، فقال: إن معي نفراً شركائي في الرأي. فأنطلق فآتيك بهم، فبعث إلى ذلك الرجل أن لا يعرض لعلقمة، فخرج من عنده ولم يعد، كما فعل عمرو بالأرطبون.

ولما أتى أرطبون إيلياء، أفرج له المسلمون حتى دخلها، ثم أزالهم إلى أجنادين، وكتب إلى عمرو: بأنك صديقي ونظيري، أنت في قومك مثلي في قومي، والله لا تفتتح من فلسطين شيئاً بعد أجنادين، فارجع فلا تغرَّ فتلقى ما لقي الذين قبلك من الهزيمة، فدعا عمرو رجلاً يتكلم بالرومية، فأرسله إلى أرطبون، وأمره أن يتنكر ويقرب ويستمع ما يقول، حتى يخبره به إذا رجع، وكتب إلى أرطبون:

جاءني كتابك، وأنت نظيري ومثلي في قومك، لو أخطأتك خصلة تجاهت فضيلتي، وقد علمت أني صاحب فتح هذه البلاد، وأستعدي عليك فلاناً وفلاناً وفلاناً - لوزرائه - فأقرئهم كتابي، ولينظروا فيما بيني وبينك.

فخرج الرسول على ما أمره به حتى أتى أرطبون، فدفع إليه الكتاب، بمشهد من أولئك النفر، فاقترأه، فضحكوا وتعجبوا، وأقبلوا على أرطبون، فقالوا: من

(١) قارن بين ذلك وبين ماسوف يأتي شبيهاً من فعله في فتح مصر.

أين علمت أنه ليس بصاحبها؟ قال: صاحبها رجل اسمه عمر، ثلاثة أحرف، فرجع الرسول إلى عمرو فعرف أنه عمر. وكتب إلى عمر يستمده، ويقول: إني أعالج حرباً كئوداً، وبلاداً ادخرت لك، فرأيك. فلما جاء عمر الكتاب، علم أن عمراً لم يقل إلا بعلم، فنادى في الناس، ثم خرج بهم حتى نزل الجابية.

وعن عدي بن سهل قال[1]: لما استمد أهل الشام عمر على أهل فلسطين، استخلف علياً، وخرج ممداً لهم، فقال علي: أين تخرج بنفسك؟ إنك تريد عدواً كلباً، فقال: إني أبادر بجهاد العدو موت العباس، إنكم لو فقدتم العباس لانتقض لكم الشر انتقاض الحبل.

قالوا: وجميع ما خرج عمر إلى الشام أربع مرات، أما الأولى فعلى فرس، وأما الثانية فعلى بعير، وأما الثالثة فقصر به عنها استعار الطاعون، وأما الرابعة فدخلها على حمار، فاستخلف عليها وخرج، وفتحت إيلياء وأرضها كلها في ربيع الآخر سنة ست عشرة على يدي عمر بن الخطاب ما خلا أجنادين، على يدي عمرو، وقيسارية على يدي معاوية.

وعن سالم بن عبد الله[1]: أن أهل إيلياء أشجوا عمر وأشجاهم، ولم يقدر عليها ولا على الرملة، قال، فبينا عمر معسكراً بالجابية، فزع الناس إلى السلاح، فقال: ما شأنكم؟ فقالوا: ألا ترى الخيل والسيوف؟ فنظر، فإذا كردوس يلمعون بالسيوف، فقال عمر: مستأمنة فلا تراعوا وأمنوهم، وإذا هم أهل إيلياء، فصالحوه على الجزية، وفتحوا له إيلياء، واكتتبوا منه عليها، وعلى حيزها، والرملة وحيزها فصارت فلسطين نصفين، نصفاً[2] مع أهل إيلياء ونصفاً[2] مع أهل الرملة، وفلسطين تعدل الشام كله، وهي عشر كور من غير هذا الحديث المتقدم.

وهو مما ذكره سيف[3] ـ أيضاً ـ أن عمر ـ رضي الله عنه ـ فرق فلسطين على

(١) الطبري. التاريخ ج٣ ص ٦٠٨.

(٢) في الأصل نصف.

(٣) الطبري. التاريخ ج٣ ص ٦١٠.

رجلين، فجعل علقمة بن حكيم على نصفها وأنزله الرملة. وعلقمة بن مجزز على نصفها وأنزله إيلياء، ونزل كل واحد منهما في عمله في الجنود التي كانت معه، وكان سالم بن عبد الله في الجنود التي كانت مع عمرو، وضم عمراً وشرحبيل إليه بالجابية، فلما انتهيا إليها وافقا عمر - رضي الله عنه - راكباً، فقبلا ركبته، وضم عمر كل واحد منهما واحتضنه.

وعن غير سالم[1]: أن عمر - رضي الله عنه - لما بعث بأمان أهل إيلياء، وأسكنها الجند شخص إلى بيت المقدس من الجابية فرأى فرسه يتوجى[2] فنزل عنه وأتي ببرذون فركبه فهزه، فنزل فضرب وجهه بردائه، ثم قال: قبح الله من علمك هذا، ثم دعا بفرسه بعدما أجمه أياماً يوقحه[3]، فركب، ثم سار حتى انتهى إلى بيت المقدس، وفي رواية أنه قال للبرذون: لا علم الله من علمك هذا من الخيلاء، ولم يركب برذوناً قبله ولا بعده.

وعن أبي مريم - مولى سلامة - قال[4]: شهدت فتح إيلياء مع عمر - رضي الله عنه - فسار من الجابية فاصلاً حتى يقدم إيلياء، ثم مضى حتى يدخل المسجد، ثم مضى نحو محراب داود، ونحن معه، فدخله، ثم قرأ سجدة داود فسجد وسجدنا معه.

وقال يزيد بن حنظلة يذكر بعض ما تقدم[5]:

تذكرت حرب الروم لما تطاولت ... وإذْ نحن في عام كثير نوازله
وإذ نحن في أرض الحجاز وبيننا ... مسيرة شهر بينهن بلابله
وإذْ أرطبون الروم يحمي بلاده ... يحاوله قرم هناك يساجله

---

(١) المصدر لسابق.

(٢) وجى الفرس وتوجى: إذا وجد وجعاً في حافره.

(٣) يوقحه: يتركه أياماً حتى يصلب حافره.

(٤) الطبري. التاريخ ج٣ ص ٦١٠.

(٥) نفسه ج٣ ص ٦١٢.

// فلما رأى الفاروق أزمان فتحها سما بجنود الله كيما يصاوله
فلما أحسوه وخافوا صياله أتوه وقالوا: أنت ممن نواصله
وألقت إليه الشأم أفلاذ[1] بطنها وعيشاً خصيباً ما تعد مآكله
أباح لنا ما بين شرق ومغرب مواريث أعقاب بنتها قرامله
وكم مثقل لم يضطلع باحتماله تحمل عبئاً حين شالت شوائله
(الطويل)

وقال أيضاً:

وقد عضلت بالشأم أرض بأهلها تريد من الأقوام ما كان ألحدا[2]
سما عمر لما أتته رسائل كأصيد يحمي صرمة الحي أغيدا
فلما أتاه ما أتاه أجابهم بجيش ترى منه السنابك سجدا
وأقبلت الشام العريضة بالذي أراد أبو حفص وأزكى وأزيدا
فقسط فيما بينهم كل جزية وكل رفاد كان أهنى وأحمدا
(الطويل)

قال صاحب فتوح الشام[3] ثم إن عمر ـ رضي الله عنه ـ خرج من الشام مقبلاً إلى المدينة، فلما دنا منها استقبله الناس يهنئونه بالنصر والفتح، فجاء حتى دخل مسجد رسول الله ﷺ فصلى ركعتين عند المنبر، ثم صعد المنبر، واجتمع الناس إليه، فقام، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي محمد ﷺ وقال:

يا أيها الناس، إن الله قد اصطنع عند هذه الأمة أن يحمدوه ويشكروه، وقد أعز دعوتها وجمع كلمتها، وأظهر فلجها، ونصرها على الأعداء، وشرفها ومكن لها في الأرض، وأورثها بلاد المشركين وديارهم وأموالهم، فأحدثوا لله عز وجل

---

(١) في الأصل: أكباد بطنها، والمثبت من الطبري.

(٢) يرد هذا البيت بعد الذي يليه مباشرة في الطبري، وفي بعض النسخ، والشطر الثاني منه لدى الطبري: «تريد من الأقوام من كان أنجدا».

(٣) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

شكراً يزدكم، واحمدوه على نعمه عليكم يدمها لكم، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين.

ثم نزل.

قال: فمكث المسلمون بالشام عليها أبو عبيدة بن الجراح، ومكث فيها بعد خروج عمر منها ثلاث سنين، ثم توفي ـ رحمه الله ـ في طاعون عمواس، وكان طاعوناً عم أهل الشام، ومات فيه بشر كثير، وكانت وفاة أبي عبيدة بالأردن، وبها قبره، ولما طعن ـ رحمه الله ـ دعا المسلمين، فدخلوا عليه، فقال لهم: إني موصيكم بوصية، فإن قبلتموها لم تزالوا بخير ما بقيتم، وبعدما تهلكون: أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا، وتصدقوا، وحجوا واعتمروا، وتواصلوا وتحابوا، واصدقوا أمراءكم، ولا تغشوهم، ولا تلهكم الدنيا، فإن امْرَأً لو عمر ألف حول ما كان له بد من أن يصير إلى مثل مصرعي هذا الذي ترون، إن الله قد كتب الموت على بني آدم، فهم ميتون، فأكيسهم أطوعهم لربه، وأعملهم ليوم معاده.

ثم قال لمعاذ بن جبل: يا معاذ، صل بالناس، فصلى معاذ بهم، ومات أبو عبيدة ـ رحمة الله عليه ومغفرته ورضوانه ـ فقام معاذ في الناس فقال[1]:

يا أيها الناس، توبوا إلى الله توبة نصوحاً، فإن عبداً إن يلق الله تائباً من ذنبه كان حقاً على الله أن يغفر له ذنوبه، ومن كان عليه دين فليقضه، فإن العبد مرتهن بدينه، ومن أصبح منكم مصارماً مسلماً فليلقه فيصالحه إذا لقيه، وليصافحه، فإنه لا ينبغي لمسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاثة أيام، والذنب في ذلك عظيم عند الله، وإنكم أيها المسلمون قد فجعتم برجل، والله ما أزعم أني رأيت منكم عبداً من عباد الله ـ قط ـ أقل غمراً، ولا أبرأ صدراً، ولا أبعد من الغائلة، ولا أنصح للعامة، ولا أشد عليهم تحنناً وشفقة منه، فترحموا عليه، ثم احضروا الصلاة عليه، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، والله لا يلي

---

(١) في «ط»: فقال معاذ.

عليكم مثله أبداً.

فاجتمع الناس، وأخرج أبو عبيدة، فتقدم معاذ فصلى عليه، حتى إذا أتى به قبره، دخل قبره معاذ وعمرو بن العاص والضحاك بن قيس، فلما سفوا عليه التراب، قال معاذ: رحمك الله أبا عبيدة، فوالله لأثنين عليه بما علمت، والله لا أقولها باطلاً، وأخاف أن يلحقني من الله مقت، كنت والله ما علمت من الذاكرين الله كثيراً، ومن الذين يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، ومن الذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً، ومن الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً، وكنت والله ما علمت من المخبتين المتواضعين، ومن الذين يرحمون اليتيم والمسكين، ويبغضون الجفاة المتكبرين.

ولم يكن أحد من الناس أشد جزعاً على فقد أبي عبيدة من معاذ، ولا أطول حزناً عليه من معاذ.

قال: ثم صلى معاذ بالناس أياماً، واشتد الطاعون، وكثر الموت في الناس، فلما رأى ذلك عمرو بن العاص قال:

يا أيها الناس، إن هذا الطاعون هو الرجز الذي عذب الله به بني إسرائيل مع الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وأمر الناس بالفرار منه.

فأخبر معاذ بقول عمرو، فقال: ما أراد إلى أن يقول ما لا علم له به، ثم جاء معاذ حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على النبي ﷺ ثم ذكر الوباء، فقال: ليس كما قال عمرو، ولكنه رحمة ربكم، ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، اللهم أعط معاذاً وآل معاذ منه النصيب الأوفر، ثم صلى ورجع إلى منزله، فإذا هو بابنه عبد الرحمن قد طعن، فلما رآه قال: يا أبت، الحق من ربك فلا تكونن من الممترين، قال: يا بني، ستجدني إن شاء الله من الصابرين، فلم يلبث إلا قليلاً حتى مات ـ يرحمه الله ـ وصلى عليه معاذ، ودفنه، فلما رجع معاذ إلى منزله طعن، فاشتد به وجعه، وجعل أصحابه يختلفون إليه،

فإذا أتوه أقبل عليهم فقال لهم: اعملوا وأنتم في مهلة وحياة وفي بقية من آجالكم، من قبل أن تمنوا العمل فلا تجدوا إليه سبيلاً، وأنفقوا مما عندكم من قبل أن تهلكوا وتدعوا ذلك ميراثاً لمن بعدكم، واعلموا أنه ليس لكم من أموالكم إلا ما أكلتم وشربتم ولبستم وأنفقتم فأعطيتم فأمضيتم، وما سوى ذلك فللوارثين، فلما اشتد به وجعه جعل يقول: رب اخنقني خنقك[1]، فأشهد أنك تعلم أني أحبك.

قال: وأتاه رجل في مرضه، فقال له: يا معاذ، علمني شيئاً ينفعني الله به قبل أن أفارقك، فلا أراك ولا تراني، ولا أجد منك خلفاً، ثم لعلّي أحتاج إلى سؤال الناس عما ينفعني بعدك فلا أجد فيهم مثلك، فقال له معاذ: كلا، إن صلحاء المسلمين والحمد لله كثير، ولن يضيع الله أهل // هذا الدين، ثم قال له: (١٦٦ ب) خذ عني ما آمرك به، كن من الصائمين بالنهار، ومن المصلين في جوف الليل، ومن المستغفرين بالأسحار، ومن الذاكرين الله كثيراً على كل حال، ولا تشرب الخمر، ولا تزني، ولا تعق والديك، ولا تأكل مال اليتيم ولا تفر من الزحف، ولا تأكل الربا، ولا تدع الصلاة المكتوبة، ولا تضيع الزكاة المفروضة، وصل رحمك، وكن بالمؤمنين رحيماً، ولا تظلم مسلماً، وحج واعتمر، وجاهد، ثم أنا لك زعيم بالجنة.

ولما حضر معاذاً الموت قال لجاريته: ويحك، انظري، هل أصبحنا؟ فنظرت، فقالت: لا، ثم تركها ساعة، ثم قال لها: انظري، فنظرت فقلت: نعم، فقال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، ثم قال: مرحباً بالموت، مرحباً بزائر جاء على فاقة لا أفلح من ندم، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكنني كنت أحب ابقاء لمكابدة الليل الطويل، وطول الساعات في النهار، ولظمأ الهواجر، في الحر الشديد، ولمزاحمة العلماء بالركب في حلق الذكر.

---

(١) المقصود: أمتني.

فلما اقترب أمره جاء عبد الله بن الدِيلمي ،فقال له : يرحمك الله يا معاذ ، لعلنا لا نلتقي نحن ولا أنت أبداً ، فقال معاذ : أجلسوني ، فأجلسوه ، وجلس رجل خلف ظهره، ووضع معاذ ظهره في صدر الرجل، ثم قال: بئس ساعة الكذب هذه، حدّثني رسول الله ﷺ حديثاً، فكنت أكتمكموه مخافة أن تتكلوا، فأما الآن فإني لا أكتمكموه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه لا يموت عبد من عباد الله وهو يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، ويؤمن بالرسل وما جاءت به أنه حق، ويؤمن بالجنة والنار ، إلا أدخله الله الجنة وحرمه على النار .

ثم مات معاذ من ساعته ـ يرحمه الله ـ واستخلف عمرو بن العاص، فصلى عليه عمرو ، ودخل قبره ، فوضعه في لحده ، ودخل معه رجال من المسلمين، فلما خرج عمرو من قبره، قال: رحمك الله يا معاذ ، فقد كنت ما علمناك من نصحاء المسلمين ومن خيارهم ، وكنت مؤدباً للجاهل ، شديداً على الفاجر ، رحيماً بالمؤمنين، وأيم الله لا يستخلف من بعدك مثلك ، عمرو بن العاص (١) .

وكان مهلكه ومهلك أبي عبيدة ـ رحمهما الله ـ سنة ثمان عشرة ، وقد كان معاذ لما هلك أبو عبيدة كتب إلى عمر ينعاه:

أما بعد ، فاحتسب امْرأً كان لله أميناً ، وكان الله في نفسه عظيماً ، وكان علينا وعليك يا أمير المؤمنين عزيزاً ، أبا عبيدة بن الجراح، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وعند الله نحتسبه، وبالله نثق له ، كتبت إليك وقد فشا الموت، وهذا الوباء في الناس، ولن يخطىء أحد أجله ، ومن لم يمت فسيموت ، جعل الله ما عنده خيراً لنا من الدنيا وإن أبقانا أو هلكنا فجزاك الله عن جماعة المسلمين وعن خاصتنا وعامتنا رحمته ومغفرته ورضوانه وجنته ، والسلام عليك ورحمة الله .

---

(١) كذا في الأصل.

قال: فو الله ما هو إلا أن أتى عمر الكتاب فقرأه [حتى] بكى بكاء شديداً، ونعى أبا عبيدة إلى جلسائه، فما رأيت جماعة المسلمين جزعوا على رجل منهم جزعهم على أبي عبيدة، ثم ما مضى لذلك إلا أيام حتى جاء كتاب عمرو بن العاص ينعي فيه معاذ بن جبل ـ يرحمه الله ـ فلما أتت عمر وفاة هذا على أثر أبي عبيدة جزع عليه جزعاً شديداً، وبكى عمر والمسلمون، وحزنوا عليه حزناً عظيماً، وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ رحم الله معاذاً، والله لقد رفع الله بهلاكه من هذه الأمة علماً جماً، ولرب مشورة له صالحة قد قبلناها منه، ورأيناها أدت إلى خير وبركة، ورب علم أفادناه، وخير دلنا عليه، جزاه الله جزاء الصالحين.

وفرق عمر عند ذلك كور الشام، فبعث عبد الله بن قرط الثمالي على حمص، وعزل عنها حبيب بن مسلمة، واستعمل على دمشق أبا الدرداء الأنصاري، واستعمل يزيد بن أبي سفيان على الجنود التي كانت بالشام، ثم وجد عمر على عبد الله بن قرط بعد أن عمل له على حمص سنة فعزله عنها، وبعث حين عزله عبادة بن الصامت أميراً عليها، وقد كان بدرياً عقبياً نقيباً، ثم رضي بعد ذلك عن عبد الله بن قرط، فرده على حمص.

ولما قدم عبادة بن الصمت على أهل حمص، قام في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ ثم قال:

أما بعد، ألا إن الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر، ألا وإن الآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك قادر، ألا وإنكم معروضون على أعمالكم، ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ (٧: الزلزلة)، ألا وإن للدنيا بنين، وإن للآخرة بنين، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن كل أم يتبعها بنوها يوم القيامة.

ثم قال لشداد بن أوس: قم يا شداد، فعظ الناس، وكان شداد مفوهاً قد أعطي لساناً وحكمة وفضلاً وبياناً، فقام شداد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد، أيها الناس، راجعوا كتاب الله وإن تركه كثير من الناس، فإنكم لم

تروا من الخير إلا أسبابه، ولا من الشر إلا أسبابه، وإن الله جمع الخير كله بحذافيره، فجعله في الجنة، وجمع الشر كله بحذافيره، فجعله في النار، ألا وإن الجنة حفت بالكره والصبر، ألا وإن النار حفت بالهوى والشهوة، ألا فمن كشف حجاب الكره والصبر أشفى على الجنة، ومن أشفى على الجنة كن من أهلها، ألا ومن كشف حجاب الهوى والشهوة أشفى على النار، ومن أشفى على النار كان من أهلها، ألا فاعملوا بالحق تنزلوا منازل أهل الحق، يوم لا يقضى إلا بالحق.

وقام أبو الدرداء في أهل دمشق خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه ﷺ ثم قال:

أما بعد، يا أهل دمشق، فاسمعوا مقالة أخ لكم ناصح، ما بالكم تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، وقد كان من قبلكم جمعوا كثيراً، وبنوا مشيداً، وأملوا بعيداً، وماتوا قريباً، فأصبحت أموالهم بوراً، // ومساكنهم قبوراً، وآمالهم غروراً، ألا وإن عاداً وثمود وقد كانوا ملأوا ما بين بصري وعدن أموالاً وأولاداً ونعماً، فمن يشتري مني ما تركوا بدرهمين. ١٦٧ أ

ذكر ما وعدنا به قبل من سياقة فتح قيسارية حيث ذكرها أصحاب فتوح الشام خلافاً لما أوردناه قبل ذلك عن سيف بن عمر، مما لا يوافق هذا مساقاً ولا زماناً، حسب ما يُوقف عليه في الموضعين إن شاء الله تعالى

ذكروا [1] أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كتب إلى يزيد بن أبي سفيان بعد مهلك أبي عبيدة ومعاذ بن جبل ـ رحمهما الله:

أما بعد، فقد وليتك أجناد الشام كله، وكتبت إليهم أن يسمعوا لك ويطيعوا، وأن لا يخالفوا لك أمراً، فاخرج، فعسكر بالمسلمين، ثم سر بهم إلى قيسارية، فانزل عليها، ثم لا تفارقها حتى يفتحها الله عليك، فإنه لا ينفعني افتتاح ما افتتحتم من أرض الشام مع مقام أهل قيسارية فيها، وهم عدو لكم، إلى جانبكم، وإنه لا يزال قيصر طامعاً في الشام ما بقي فيها أحد من أهل طاعته ممتنعاً، ولو قد افتتحتموها قطع الله رجاءه من جميع الشام، والله فاعل ذلك وصانع به للمسلمين، إن شاء الله تعالى.

فخرج يزيد، فعسكر بالمسلمين، وجاءه كتاب من عمر بنسخة واحدة إلى أمراء الأجناد:

أما بعد، فقد وليت يزيد بن أبي سفيان أجناد الشام كله، وأمرته أن يسير إلى قيسارية، فلا تعصوا له أمراً، ولا تخالفوا له رأياً، والسلام.

---

(١) الأزدي. تاريخ فتوح الشام ص ٢٧٦ ـ ٢٨٣.

وكتب يزيد إلى أمراء الأجناد نسخة واحدة:

أما بعد، فإني قد ضربت على الناس بعثاً، أريد أن أسير بهم إلى قيسارية، فاخرجوا من كل ثلاثة رجلاً، وعجلوا إشخاصهم إليَّ إن شاء الله، والسلام.

فلم يمكث إلا قليلاً حتى توافت عنده عساكر الأجناد كلها، فلما اجتمعوا عنده قام يزيد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد، فإن كتاب أمير المؤمنين عمر ـ المبارك الفاروق ـ أتاني يحثني على المسير إلى قيسارية، وأن أدعوهم إلى الإسلام، أو يدخلوا فيما دخل فيه أهل الكور من أهل الشام، فيؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فإن أبوا نزلت عليهم، فلم أزايلهم حتى أقتل مقاتلتهم، وأسبي ذراريهم، فسيروا ـ رحمكم الله ـ إليهم، فإني أرجو أن يجمع الله لكم الغنيمة في الدنيا والأجر في الآخرة.

ثم قال للناس: ارتحلوا، ووجه إلى حبيب بن مسلمة أن سر في المقدمة، فقد جعلتك عليها، ثم امض حتى تنزل بأهل قيسارية، فإني أسرع شيء في أثرك لحاقاً بك.

فمضى حبيب في جماعة عظيمة من المسلمين إلى قيسارية، وبها جموع من بطارقة الروم وفرسانهم وأشدائهم، وكل من كان كره الدخول في دين الإسلام من النصارى، ومن كان كره الجزية، ومن بقي من أهل تلك المواطن التي كانوا يقاتلون المسلمين من الروم، فكانت بها جموع كثيرة، وحد وجد شديد، فلما أقبل حبيب في المقدمة ودنا من الحصن، خرج إليه من قيسارية فرسان ورجال، فنضحوهم بالنشاب. وحملت خيلهم على المسلمين، فانحاز حبيب وخيله، حتى انتهى إلى يزيد، فنزل يزيد وجعل على ميمنته عبادة بن الصامت، وعلى الميسرة الضحاك بن قيس، ورد حبيباً على الخيل، ومشى يزيد في الرجال، فحمل عليهم، فاقتتلوا طويلاً قتالاً شديداً، ثم بعث إلى الضحاك: أن احمل على ميمنتهم، فحمل عليهم، فهزمهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وبعث إلى عبادة بن الصامت، أن احمل على ميسرتهم، فحمل عليهم، فثبتوا له، فقاتلهم طويلاً،

وقتل منهم مقتلة عظيمة، ثم تحاجزوا، وانصرف عبادة إلى موقفه. فحرض أصحابه ووعظهم، ثم قال: يا أهل الإسلام، إني كنت أحدث النقباء سناً، وأبعدهم أجلاً، وقد قضى الله أن أبقاني حتى قاتلت هذا العدوّ معكم، وإني أسأل الله أن يريني وإياكم أحسن ثواب المجاهدين، والله الذي نفسي بيده ما حملت قط في عصابة من المؤمنين على جماعة من المشركين إلا خلوا لنا العرصة، وأعطانا الله عليهم الظفر غيركم، فما بالكم حملتم على هؤلاء فلم تزيلوهم[1].

وإن عمر لما بلغه شدة قتال أهل اليرموك لكم قال: سبحان الله، أو قد واقفوهم، ما أظن المسلمين إلا قد غلوا، ولو لم يغلوا ما واقفوهم، ولظفروا بغير مئونة. والله إني خائف عليكم خصلتين: أن تكونوا قد غللتم، أو لم تناصحوا الله في حملتكم عليهم، فشدوا عليهم يرحمكم الله معي إذا شددت، فلا والله لا أرجع إلى موقفي هذا إن شاء الله ولا أزايلهم حتى يهزمهم الله أو أموت دونهم، ثم حمل عليهم، وحملت معه الميمنة على ميسرة الروم، فصبروا لهم حتى تطاعنوا بالرماح، واضطربوا بالسيوف، واختلفت أعناق الخيل، فلما رأى ذلك عبادة ترجل. ثم نادى عمير بن سعد الأنصاري في المسلمين: يا أهل الإسلام إن عبادة بن الصامت سيد المسلمين، وصاحب راية رسول الله ﷺ قد نزل وترجل، فالكرة الكرة إلى رحمة الله والجنة، واتقوا عواقب الفرار، فإنها تقود إلى النار.

وأقبل المسلمون إلى عبادة وهو يجالدهم، وقد كانوا أحاطوا به، فحمل عليهم، فقصف بعضهم على بعض، فأزالوهم عن موقفهم، ثم شدوا عليهم، وحمل حبيب بن مسلمة على من يليه منهم، ثم حمل يزيد بن أبي سفيان بجماعة المسلمين عليهم، فانهزموا انهزاماً شديداً، ووضع المسلمون سلاحهم وسيوفهم حيث أحبوا منهم، وأتبعوهم يقتلونهم كيف شاءوا، حتى حجزوهم في حصنهم، وقد قتلوا من رؤسائهم وبطارقتهم وفرسانهم مقتلة عظيمة، ثم أقاموا عليهم فحصروهم وقطعوا عنهم المادة، وضيقوا عليهم، وحاصروهم أشد الحصار، فلما

---

(١) في «ط»: فما بالكم حملتم على هؤلاء عمر، فلم نزيلوهم.

طال عليهم البلاء تلاوموا، وقال بعضهم لبعض: اخرجوا بنا إليهم نقاتلهم حتى نظفر بهم أو نموت كراماً، فاستعدوا في مدينتهم، وخرجوا على تعبئتهم، والمسلمون غارُّون لا يشعرون ولا يعلمون أنهم يخرجون إليهم، وقد كانوا أذلوهم وأجحروهم وضيقوا عليهم حتى جهدوا، وظنوا أنهم أوهن أمراً، وأضعف من أن يخرجوا عليهم //، فما راع المسلمين إلا وأهل قيسارية يضاربونهم ١٦٧ ب بالسيوف بأجمعهم إلى جانب عسكرهم، فجال المسلمون جولة منكرة، ثم إن يزيد خرج مسرعاً يمشي اليهم، حتى إذا دنا منهم جالدهم طويلاً، وتتامت إليه خيل المسلمين ورجالتهم، وخرج المسلمون على راياتهم وصفوفهم، فلما كثروا عنده أمر الخيل فحملت عليهم، ونهض بالرجال في وجوههم، ثم حمل هو عليهم فانهزموا انهزاماً قبيحاً شديداً، وقتلهم المسلمون قتلاً ذريعاً، وركب بعضهم بعضاً، فبعض دخل المدينة، وبعض ذهبوا على وجوههم فلم يدخلوها، وقتل الله منهم في المعركة نحواً من خمسة آلاف، فلما رأى يزيد ما أنزل الله بهم من الخزي والقتل، وما صيرهم إليه من الذل، قال لمعاوية: أقم عليها حتى يفتحها الله، وانصرف يزيد عنها.

فلم يلبث معاوية عليها إلا يسيراً حتى فتحها الله على يديه، وذلك سنة تسع عشرة، وكانت هي وجلولاء في سنة واحدة، وفرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً، لأنه لم يبق بالشام في أقصاها وأدناها عدو حينئذ، وقد نفى الله المشركين عنها، وصار الشام كله في أيدي المسلمين.

وكتب يزيد إلى عمر:

أما بعد، فإن رأي أمير المؤمنين لأهل الشام كان رأياً أرشده الله وأرشد به من أخذ به، وبارك له ولأهل طاعته فيه، وإني أخبر أمير المؤمنين أنا التقينا نحن وأهل قيسارية غير مرة، وكل ذلك يجعل الله جدهم الأسفل، وكدهم الأخسر، ويجعل لنا عليهم الظفر، فلما رأوا أن الله قد أذهب ريحهم، وأذلهم وأنزل عليهم الصغار والهوان، وقتل صناديدهم وفرسانهم وملوكهم لزموا حصنهم، وانحجزوا

في مدينتهم، فأطلنا حصارهم، وقطعنا موادهم، وميرتهم، وضيقنا أشد التضييق عليهم، فلما جهدوا هزلاً وأزلاً، فتحها الله علينا، والحمد لله رب العالمين.

فكتب إليه عمر - رحمه الله:

أما بعد، فقد أتاني كتابك، وسمعت ما ذكرت فيه من الفتح على المسلمين، والحمد لله رب العالمين، فاشكروا الله يزدكم ويتم نعمته عليكم، وإن الله قد كفاكم مؤنة عدوكم، وبسط لكم في الرزق، ومكن لكم في البلاد، ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، إن الإنسان لظلوم كفار﴾، والسلام عليك.

فلما أتى يزيد هذا الكتاب، قرأه على المسلمين، فحمدوا الله على ما أنعم عليهم، واصطنع عندهم، وأقبل يزيد حتى نزل دمشق، فلم يلبث إلا سنة حتى هلك - رضي الله عنه - وذلك في سنة تسع عشرة، والشام كله مستقيم أمره، ليس به عدو للمسلمين.

وكان يزيد - رحمه الله - شريفاً فاضلاً حليماً عاقلاً رقيقاً، حسن السيرة، محبباً في المسلمين. ولما ثقل - رحمه الله - وأشرف على الموت استخلف أخاه معاوية على الشام، وكتب إلى عمر - رضي الله عنه:

أما بعد، فإني كتبت إليك كتابي هذا وإني أظن أني في أول يوم من الآخرة، وآخر يوم من الدنيا، فجزاك الله عنا، وعن جميع المسلمين خيراً، وجعل جناته لنا ولك مآباً ومصيراً، فابعث إلى عملك بالشام من أحببت، فأما أنا فقد استخلفت عليهم معاوية بن أبي سفيان.

فلما أتى عمر كتابه مع خبر موته، جزع عليه جزعاً شديداً، وكتب إلى معاوية بولايته على الشام، ويقال: إنه لما ورد البريد بموت يزيد على عمر كان أبوه أبو سفيان عنده، فقال له عمر لما قرأ الكتاب بموت يزيد: أحسن الله عزاءك في يزيد، ورحمه، فقال له أبو سفيان: من وليت مكانه يا أمير المؤمنين؟

قال: أخاه معاوية، قال: وصلتك رحم يا أمير المؤمنين.

فأقام معاوية على الشام أربع سنين، بقية خلافة عمر، ثم أقره عليها عثمان اثنتي عشرة سنة، مدة خلافته، ثم كان منه بعد وفاة عثمان - رضي الله عنه - ما هو معلوم.

انتهى القسم الأول من
مغازي الثلاثة الخلفاء
ويليه ـ إن شاء الله ـ
القسم الثاني
وأوله: ذكر فتح مصر

فهرست المحتوى

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

